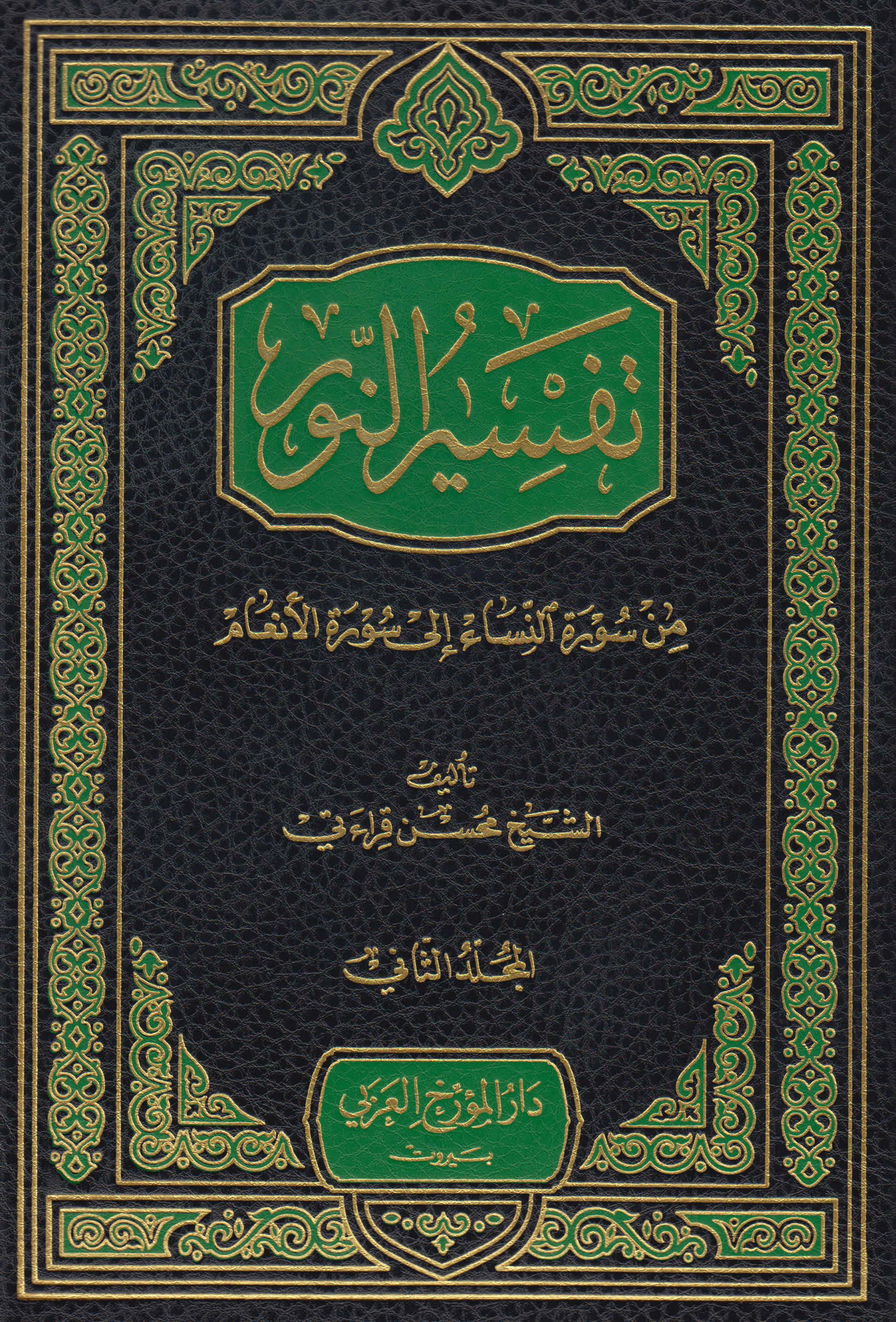

تفسير النور
من سورة النساء إلى سورة الأنعام
تأليف
الشيخ محسن قراءتي
المجلد الثاني
دار المؤرخ العربي
بيروت


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

تفسیر النور



تفسير النور

من سورة النساء إلى سورة الأنعام

تأليف

الشيخ محسن قراءتي

ترجمة

حسين صافي

مراجعة الترجمة

محمد حسن زراقط

المجلد الثاني

دار المؤرخ العربي

بيروت - لبنان

الطّبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

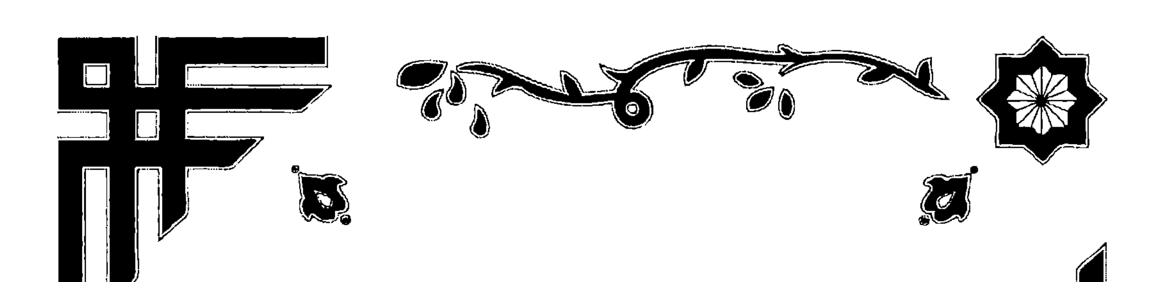


طبع هذا الكتاب بالتعاون مع
المركز الثقافي للدروس القرآنية





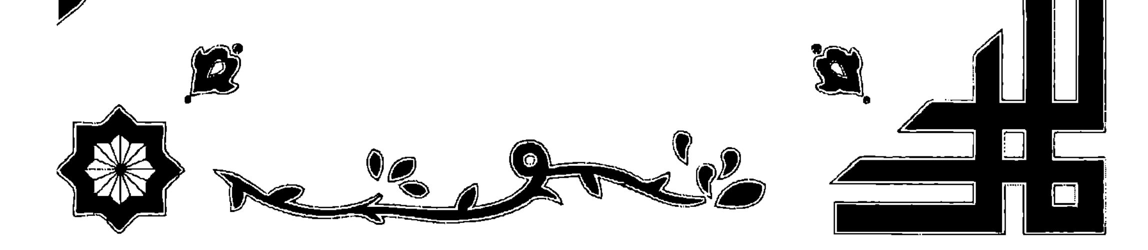
بيروت - حارة حريك - قرب جامع الحسنين - فوق صيدلية دياب - ط ٢
تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - ص.ب: ١٢٤/٢٤
البريد الإلكتروني al_mouarekh@hotmail.com
www.al-mouarekh.com



سُورَةُ النِّسَاءِ

السورة: ٤ الجزء: ٤ ـ ٦

عدد الآيات: ١٧٦



ملامح سورة النساء

عدد آيات هذه السورة المباركة ١٧٦ آية، وهي مدنيّة، ومضامين آياتها تشمل: الدعوة إلى الإيمان والعدالة، ذكر الأمم السالفة والاعتبار بأحوالها ومصائرها، قطع العلاقات الوديّة بأعداء الله، رعاية الأيتام وإكرامهم، شرح القوانين المتعلّقة بالزواج والإرث والتوارث، وجوب طاعة الأوامر والأحكام الإلٰهيّة، أهميّة الهجرة والجهاد في سبيل الله، وغيرها.

سمّيت بسورة النساء لاحتوائها (من أوّلها حتى الآية ٣٥ منها) أبحاثاً كثيرة في أحكام المرأة والأسرة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾

إشارات:

- يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**صلوا أرحامكم ولو بالتسليم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ... وَالْأَرْحَامَ...﴾**»[1].

التعاليم:

١ ـ تستفتح سورة النساء خطابها بدعوة الناس إلى التزام التقوى، وكأنّها تريد التأكيد على أنّ بنيان الأسرة يقوم على التقوى، وأن مسؤولية التزام التقوى تقع على الجميع، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا﴾.

٢ ـ الله تعالى خلق الإنسان وتكفّل بتربيته، وعلى الإنسان أن يخشى ربّه وحده ويطيعه، ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾.

٣ ـ بنو البشر من جنس واحد فلا تمييز بينهم على أساس العرق، أو اللغة، أو البلاد أو غير ذلك، ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

٤ ـ تجمع المرأة والرجل وحدة الخلقة، فلا فضل لجنس أحدهما على الآخر، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

٥ ـ كلّ البشر عبر التاريخ يرجعون إلى أبٍ واحد وأمٍّ واحدة، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا﴾.

روايات زواج ولد آدم على نوعين، يقول النوع الذي يتّفق مع كلام القرآن الكريم: إنّ أبناء آدم تزوّجوا بعضهم من بعض الآخر[2].

٦ ـ الإعادة والتكرار أحد الأصول التربوية، ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ... وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

---

(١) الكافي، ج٢، ص ١٥٠.

(٢) تفسير الميزان.

٧ ـ من لوازم التقوى حماية حقوق الأسرة وذوي القربى، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**رحم رسول الله ﷺ أولى بالإمارة، والملك، والإيمان**»(١).

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢﴾

التعاليم:

١ ـ أعطوا اليتامى أموالهم عند بلوغهم الرشد وإن كانوا لا علم لهم بها أو نسوها، ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾.

٢ ـ الإسلام يرعى الطبقات المحرومة والمستضعفة، ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ﴾.

٣ ـ حقّ الملكية مكفولة لليتامى القاصرين، ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾.

٤ ـ الامتناع عن دفع مال اليتيم، أو تبديله، أو إنقاصه، فيه إثم كبير، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾.

٥ ـ الآثام على نوعين الكبائر والصغائر، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾.

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣﴾

إشارات:

- وجه ارتباط الجزاء بالشرط أنّ الرجل في الجاهلية كان يكفل اليتيمة لكونه ولياً لها ثم يتزوجها فلا يقسط لها في مهرها: أي لا يعدل فيه، ولا يعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج، وكان يطلّقها متى شاء ولأدنى سبب، فنهاهم الله عن ذلك، بأنّهم إذا ظنّوا في أنفسهم الإجحاف والميل عن مبادئ العدالة والإنصاف في معاملة اليتيمة، فليختاروا أزواجاً من غيرهنّ. ثم إن الآية الكريمة

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٢٥٧.

السابقة تناولت موضوع مراعاة شروط العدل في حفظ أموال اليتامى، والآن تأمر هذه الآية الرجل أن يلحظ جوانب العدل في زواجه باليتيمة.

❑ في الحكمة من تشريع حكم تعدّد الزوجات وإباحته، نشير إلى النقاط التالية:

أ ـ يشكل الرجال القسم الأكبر من ضحايا الحروب والمعارك، وبذلك يخلّفون وراءهم الأرامل والثيّبات.

ب ـ قلّما يبدي الشباب حماساً أو استعداداً للزواج من الثيّبات.

ج ـ ليست كلّ الأرامل أو اللائي لا أزواج لهنّ على درجة كبيرة من التقوى والسيطرة على غرائزهنّ الطبيعية.

د ـ تعاني المرأة شهرياً وفي فترة محدّدة موانع طبيعية تمنعها من القيام بوظائفها الزوجية.

والنتيجة هي، أنّه من أجل حفظ حقوق الأرملة يمكن للرجل أن يتزوّج بزوجة ثانية وطبقاً لشروط معيّنة، وبذلك ترتفع مشكلة الطرفين.

❑ سؤال: تطرح الآية الكريمة مسألة إقامة العدل بين الزوجات على نحوٍ يشوبه بعض الغموض والإبهام ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾، في حين نجد في الآية ١٢٩ من السورة نفسها أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا﴾، فكيف لنا أن نجمع بين منطوق الآيتين؟

للجواب على ذلك نقول: إنّ العدالة التي أمر الله تعالى بها هي التي تخصّ الشؤون المادّية من الحياة الزوجية كالمأكل والملبس والمسكن والنفقة والمضاجعة، فإن خشي الإنسان ألّا يقيم هذه العدالة فأولى له أن يبحث عن حلّ آخر يرتّب وضعه في إطاره، بينما المراد في الآية ١٢٩ من نفس السورة هو العدالة في العواطف، والأحاسيس، والمشاعر الإنسانية، وهو أمر ليس للإنسان سلطان عليه لكي يعدل فيه فيقسّم مودّته بين زوجاته بالتساوي. (لقد استلهمنا هذا الجواب من رواية منقولة عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام في المعنى نفسه)[١].

(١). وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٣٤٥.

التعاليم:

١ ـ راعى الإسلام حقوق المحرومين، لا سيّما اليتامى، وبالأخصّ اليتيمات، في ما يتعلّق بمسائل العفّة والحياة الزوجية ومنع استغلالهنّ، ﴿...فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

٢ ـ لا يلزم اليقين بل يكفي الظنّ بعدم القسط؛ ليُردع الرجل عن الزواج باليتيمة، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾.

٣ ـ لا بأس من أن تكون اليتيمة زوجة، إذا لم يخش المرء من عدم القسط والإجحاف بحقوقها، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ... فَٱنكِحُوا۟﴾.

٤ ـ المودّة القلبية شرط أساس في اختيار الزوجة، ﴿طَابَ لَكُم﴾.

٥ ـ أباحت الشريعة الإسلاميّة تعدّد الزوجات للرجل بشروط، ﴿فَٱنكِحُوا۟... مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ... فَوَٰحِدَةً﴾.

٦ ـ التعدّد محدود بأربعة زوجات ومشروط بمراعاة العدالة[1] ﴿فَٱنكِحُوا۟... وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ... فَوَٰحِدَةً﴾.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾

إشارات:

□ يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته في معنى «**نِحلَة**»: عطية على سبيل التبرع، وهو أخص من الهبة؛ إذ كل هبة نحلة، وليست كل نحلة هبة، واشتقاقه فيما أرى أنه من النحل نظراً منه إلى فعله، فكأن نحلته: أعطيته عطية النحل. كما فسّر بعض الـ«نحلة» بـ «الدين» بمعنى أنّ المهر دين قطعي في ذمّة الرجل.

□ وقد ورد في الحديث الدعوة إلى أن يصرف الإنسان أفضل أمواله، في:

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٣٩؛ الكافي، ج ٥، ص ٣٦٣.

المهر، والحج، والكفن؛ ومن صرف خير ماله في المهر، رزقه الله صالح الذرّية والولد[١].

□ كان الرجل إذا تزوّج امرأة ترك أمر صداقها، جرياً على عادة الجاهلية وبعض الملل، إلى أبيها أو أوليائها، فأبطل الإسلام هذه العادة إذ جاء نهي الله تعالى في القرآن الكريم ليعيّن أن المستحقّ للمهر هو المرأة فقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾، ولم يقل: «وآتوا صدقات النساء» لوليّها أيّاً كان، وبذلك حدّد المستحقّ للمهر ولم يترك الأمر على عواهنه.

التعاليم:

١ ـ المهر حقّ للزوجة وهو إلزامي، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ...﴾.

٢ ـ ليس المهر ثمن الزوجة؛ بل عنوان صدق محبّة الزوج لزوجته وعربون وفائه لها، ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾.

٣ ـ المهر ملك خالص للزوجة، ولا يملك أولياؤها (أبوها أو أرحامها) حقّ التصرّف به، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾.

٤ ـ المهر عطيّة الزوج إلى زوجته، وليس ثمناً لها، ﴿نِحْلَةً﴾.

٥ ـ للزوجة كامل الحرّية في أن تأخذ مهرها أو تهبه، ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾.

٦ ـ المال الطيّب الهنيء هو الذي يهبه صاحبه عن طيب نفسٍ ورضاً تامّين، ﴿فَإِن طِبْنَ... هَنِيٓـًٔا﴾.

٧ ـ لا يكفي الرضا الظاهري، بل لا بدّ من رضا القلب. فلا اعتبار للهبة التي تحصل في أجواء الإكراه، والمجاملة، والحياء، ﴿فَإِن طِبْنَ... نَفْسًا﴾.

٨ ـ المهر والهبة من أسباب الملكية، ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ... فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ﴾.

٩ ـ لا يحسن أن تنساق الزوجة وراء عواطفها فتهب كلّ مهرها، ﴿شَىْءٍ مِّنْهُ﴾.

---

(١) تفسير أطيب البيان، ذيل الآية.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾

إشارات:

- ورد في الروايات أنّ السفيه هو الفاسق وشارب الخمر[1]. إذاً، لا ينبغي أن نسلّط مثل هؤلاء الأفراد على الأموال العامة؛ وذلك لأنّ قوام المجتمع بالمال، وإناطة أيّ منصب أو مسؤولية مالية بهؤلاء تعدّ خيانة بحقّ المجتمع.
- قيل لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: رجل يكون له مال فيضيّعه فيذهب ماله قال: **احتفظ بمالك فإنّه قوام دينك ثمّ قرأ:** ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[2].
- ويقول الإمام الباقر عليه السلام في معنى ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾: **«من لا تثق به»**[3].

التعاليم:

١ ـ لا يحقّ للسفيه التصرّف في أمواله، ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ﴾.

٢ ـ يجب أن لا نضع المال الذي هو قوام المجتمع تحت تصرّف السفهاء، ﴿أَمْوَٰلَكُمُ ... ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ ... قِيَٰمًا﴾.

٣ ـ إدارة السفيه حتى لأمواله تعود بالضرر الاقتصادي على المجتمع أيضاً؛ لذا فالمجتمع له حقّ في الأموال الخاصة كذلك. لم تقل الآية الكريمة «أموالهم» بل ﴿...أَمْوَٰلَكُمُ﴾.

٤ ـ ينبغي أن نفكر في المصالح الاقتصاديّة للمجتمع وبالنضج الفكري لأفراده، بدلاً من أن نقحم لحظات العاطفة والإشفاق العابرة في المعاملات، ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾.

٥ ـ المال والثروة قوام المعائش والحياة، ووسيلة النظام، ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾.

---

(١) الكافي، ج ٥، ص ٢٩٩.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٧، ص١٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ١٦، ص ٣٦٩.

٦ ـ ينبغي عدم تجميد الثروات، بل لا بدّ من تشغيل أموال اليتامى والسفهاء في ميادين الإنتاج والاستثمار، ليواصلوا تدبير شؤون حياتهم وكسب معاشهم من أرباح رؤوس أموالهم، لا من أصولها، تقول الآية الكريمة: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ بدلاً من «منها».

٧ ـ لا ينبغي أن ننسى مراعاة الجوانب النفسية والروحية في شخصيّة الإنسان المحروم وترميم نفسيّته، ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

٨ ـ منع الأفراد من التصرّف بأموالهم سيولّد عندهم ردود أفعال، والحلّ هو في المعاملة الطيبة والسلوك الحسن، ﴿قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ۝٦﴾

إشارات:

- روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سُئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ قال: «**إيناس الرّشد حفظ المال**»[1].
- وقال عليه السلام أيضاً في المراد من قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ «**المعروف هو القوت وإنّما عنى الوصي أو القيّم في أموالهم وما يصلحهم**»[2].

التعاليم:

نظام إيتاء اليتامى أموالهم

١ ـ يجب اختبار اليتامى عند الحلم ومعرفة مقدرتهم على خوض غمار الحياة الاقتصاديّة وتعليمهم إدارة شؤونهم المالية وفنون التعامل ومهارات البيع والشراء، لإعدادهم وترشيدهم عقلياً، ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ...﴾.

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٢٢٣. (٢) الكافي، ج ٥، ص١٣٠.

٢ ـ لليتيم حقّ التصرّف بأمواله؛ ولكن تحت إشراف ورقابة وليّه، فالعمل بكلمة ﴿وَٱبۡتَلُواْ﴾ يقتضي أن يكون تصرّفه بأمواله تحت إشراف وليّه ليتمّ بذلك اختباره وتمحيصه.

٣ ـ مضافاً إلى الرشد الجنسي لا بدّ لليتيم من أن يجتاز اختبار البلوغ الاقتصادي والاجتماعي ليحظى بحقّ التصرّف بأمواله، ﴿إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾.

٤ ـ لا يكفي الظنّ والحدس حتى ندفع إلى اليتيم أمواله، بل يجب أن نتيقّن من رشده وبلوغه أيضاً، ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾.

٥ ـ الملكيّة لا تعني دوماً جواز التصرّف، فاليتيم مالك ولكن مع وقف التنفيذ إلى أن يصبح راشداً، ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾.

٦ ـ الميسور يقدّم خدماته الاجتماعيّة ليس طمعاً في المقابل، ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾.

٧ ـ أجرة القيام بأموال اليتيم ومنفعته تكون بمقدار ما هو متعارف عليه، ﴿فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾.

٨ ـ حافظوا على أموال اليتيم، وكذلك صونوا كرامتكم بإشهاد الناس دفعاً لأيّ تنازع أو اتّهامات في المستقبل، ﴿فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

٩ ـ إشهاد الناس هو لحفظ العزّة والكرامة في الدنيا، أمّا شهادة الله فهي لعزّة ورفعة الوليّ في الآخرة، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾.

١٠ ـ الإشهاد هو لحسم النزاعات في المجتمع؛ ولكن الشاهد الحسيب في يوم القيامة هو الله تعالى، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ۝٧﴾

التعاليم:

١ ـ للمرأة، كما الرجل، حقّ في الإرث، والدين هو الحافظ لحقوقها، ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ... وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ﴾.

٢ ـ الإرث أحد عوامل الملكيّة، ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾.

٣ ـ الأقربون أولى بالإرث، ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾.

٤ ـ التوزيع العادل للإرث هو المهمّ وليس مقداره، ﴿مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ﴾.

٥ ـ أسهم الإرث غير قابلة للتبديل، ﴿نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا﴾.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٨﴾

إشارات:

يتّضح من الكلمات ﴿أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ و﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾ أنّ المراد بذوي القربى هم الأرحام الفقراء المحجوبون عن الإرث لوجود من هم أقرب منهم إلى الميّت، وما يؤكد هذا المعنى هو أنّ الآية الكريمة استوصت بهم خيراً.

التعاليم:

١ ـ لا تغفلوا عن نظرات المحرومين وحضورهم ورغباتهم الطبيعية، ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ﴾.

٢ ـ لا تقسّموا الإرث خفية، لإفساح المجال للآخرين بالحضور، ﴿حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

٣ ـ بالإضافة إلى الورثة الذين لهم سهام محدّدة، لا تنسوا دعوة الفقراء والمحرومين، واليتامى، لحضور تقسيم الإرث، ﴿نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا... فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾.

٤ ـ امنعوا شعور الحسد والبغضاء وشدّدوا على العلاقات الأسرية بتقديم الهدايا والعطايا المشفوعة بالكلمة الطيبة، ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ﴾.

٥ ـ ينبغي للهدايا المادّية أن تكون مقرونة بمشاعر الحبّ والعواطف الصادقة، ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

إشارات:

- جاء في الروايات أنّ الله تعالى توعد على أكل مال اليتيم عقوبتين: عقوبة في الدنيا، وعقوبة في الآخرة، أمّا عقوبة الدنيا فيسلّط الله على آكل مال اليتيم من يظلمه أو عقبه، وهو ما تطرحه هذه الآية الكريمة، أمّا في الآخرة فينتظر آكل مال اليتيم عذاب النار كما سيرد في الآية اللّاحقة[1].
- ويُحتمل أن يكون المراد من الآية هو النهي عن الإسراف في الإنفاق والجنف في الوصية، بمعنى: أنّ من له أولاد صغار وضعاف ينبغي ألّا يوقف أمواله، أو ينفقها كلّها فيجعل أولاده من بعد موته في عيلة وفقر[2]. وربّما كان الخطاب موجّهاً إلى من يخلف من بعده أبناءً متخلّفين لئلا يغفل عن تأمين مستقبلهم بالتدبير السليم[3].
- إذن لا بد من أن نعلم أنّه في بلوغ الخير أو الشرّ علاقة تربط بين الأجيال المتعاقبة، فآثار أعمالنا لا تقتصر على أعمارنا؛ لأنّ ما يجنيه الأب من شرور ينتقل أثرها إلى أبنائه، والعكس صحيح أيضاً، فآثار أعمال الأبناء يصل مردودها، خيراً كان أم شرّاً، إلى الآباء. ولا شك في أنّ قصّة موسى والخضر عليهما السلام في سورة الكهف وبناء الخضر الجدار الذي كان يخفي كنز اليتيمين خير دليل على ذلك، ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[4].

التعاليم:

١ ـ يجب أن ننزل أنفسنا منزلة الآخرين حتى نتفهّم آلامهم ومعاناتهم بشكل أكبر. علينا أن نعامل يتامى الآخرين كما نحبّ أن يعامل الناس يتامانا، ﴿تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) تفسير مجمع البيان.
(٣) التفسير الكبير، الفخر الرازي.
(٤) سورة الكهف: الآية ٨٢.

٢ ـ من حفر حفرة لأخيه وقع فيها. إنّ ظلم الإنسان اليوم أيتامَ الآخرين سوف يتحوّل بمرور الوقت إلى سنّة في المجتمع تسري على أولادهم وأيتامهم أيضاً، ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا...﴾.

٣ ـ يجب تضمين الأساليب الدعوية القضايا العاطفية والفطرية، ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾.

٤ ـ لا لخيانة اليتامى في أموالهم ولا لاستعمال العنف الكلامي معهم، ﴿فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا...﴾.

٥ ـ يحتاج اليتيم، بالإضافة إلى جانب المأكل والملبس، إلى الحنان والعاطفة، والإرشاد، ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا
إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

- اعتبر العلّامة الطباطبائي (قدّس سرّه) هذه الآية دليلاً على تجسّم أعمال الإنسان في يوم القيامة؛ وذلك لأنّ القرآن الكريم يقول إنّ مال اليتيم يصير ناراً في جوف من استباحها[1].

التعاليم:

١ ـ إنّ أموال اليتيم التي يأكلها الإنسان في هذه الدنيا ستتجسّم ناراً تحرق جوفه في يوم القيامة، ﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ... يَأْكُلُونَ... نَارًا﴾.

٢ ـ لا ضير من الحضور في منزل اليتيم والأكل من ماله ما لم يسبّب ذلك ضرراً وعدواناً عليه، ﴿يَأْكُلُونَ... ظُلْمًا﴾.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص ٢٠٣.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾﴾

إشارات:

- صحيح أنّ الرجل يرث ضعف ما ترثه المرأة، لكنّنا إذا تأمّلنا في الأمر قليلاً سنجد أنّ المرأة ترث، في الحقيقة، ضعف ما يرثه الرجل. لنفرض أنّ مقدار الثروة هو ٣٠ سهماً، فستكون حصّة المرأة ١٠ أسهم، وحصّة الرجل ٢٠ سهماً، وحيث إنّ المرأة قد أعفيت من أي التزامات أو تعهّدات، فيكون بإمكانها أن تدّخر ما تحصل عليه عن طريق الإرث، وتشارك الرجل أسهمه العشرين وذلك لما فرض الله على الرجال من نفقة النساء، وبذلك تؤمّن احتياجاتها من خلال مشاركة الرجل حصّته من الإرث، وتحتفظ بإرثها كاملاً غير منقوص. على ذلك تحتفظ المرأة بنصف الإرث لنفسها، مضافاً إلى تأمين نفقتها من قبل الرجل بشكل كامل.
- سئل الإمام الجواد عليه السلام ما بال المرأة المسكينة الضعيفة تاخذ سهما واحداً ويأخذ الرجل سهمين؟ فقال عليه السلام: «**إنّ المرأة ليس عليها جهاد ولا نفقة ولا عليها معقلة، إنّما ذلك على الرجال**»[1].
- على أنّ أحكام الإرث قد وردت في التوراة أيضاً[2]، كما نقل عن السيّد

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) **«وتكلّم إسرائيل قائلاً: أيّما رجل مات وليس له ابن تنقلون ملكه إلى ابنته، وإن لم تكن له إبنة، تعطوا ملكه لإخوته، وإن لم يكن له أخوة تعطوا ملكه لإخوة أبيه، وإن لم يكن لأبيه أخوة، تعطوا ملكه لنسيبه الأقرب إليه من عشيرته فيرثه فصارت لبني إسرائيل فريضة قضاءً كما أمر الربّ موسى يدور لدى بني إسرائيل».** سِفر الأعداد، الباب ٢٧، الإصحاح ٨ ـ ١١.

المسيح قوله: «إنّي لم أبعث لأغيّر من أحكام التوراة شيئاً».

- كانت العرب في الجاهلية لا تورّث النساء والأطفال، حتى جاء الإسلام فجعل لكلّ منهما سهماً محدّداً من الإرث يتناسب واحتياجاته.
- فإعطاء الأبناء سهماً من الإرث هو بمثابة حافز للآباء على النشاط والفعالية، ولولا توريث الأبناء لما جهد المورّثون في تحصيل الرزق والكسب والتجارة. والشاهد في المقام ما حصل في فرنسا عندما ألغت الحكومة قانون الإرث، فشهدت البلاد تراجعاً حادّاً غير مسبوق في النشاطات الاقتصاديّة.
- ربّما تكون الحكمة وراء تشريع سهم لأبناء المتوفّى يفوق سهم والديه، هي أنّ والديه قد دخلا خريف العمر، ولا حاجة بهما لمال ابنهما المتوفّى أو أنّهما أقل حاجة من الأبناء. وقد جعل الله تعالى سهم الأم من الإرث هو الثلث في حال لم يكن للمتوفّى أخ، وإلّا فيكون سهمها السدس، والباقي يذهب إلى الأب، ولعلّ السبب في ذلك هو أنّ نفقات أخوة المتوفّى تكون، عادة، بعهدة الأب لا الأم.
- يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«إنّ الدين قبل الوصية ثم الوصية على أثر الدين ثم الميراث ولا وصية لوارث[1]. وإذا أوصى الرجل بوصيّة فلا يحلّ للوصيّ أن يغيّر وصيّته يُمضيها على ما أوصى إلّا أن يوصي بغير ما أمر الله فيعصي في الوصيّة ويظلم، فالموصى إليه جائز له أن يردّه إلى الحقّ مثل رجل يكون له ورثة فيجعل المال كلّه لبعض ورثته ويحرم بعضاً فالوصيّ جائز له أن يردّه إلى الحقّ»**[2].
- روى أحد أصحاب الإمام عليه السلام قائلاً: تزوجت بالمدينة فقال أبو عبد الله عليه السلام: **كيف رأيت؟** فقلت: ما رأى رجل من خيرٍ في امرأة إلّا وقد رأيته فيها، ولكن خانتني فقال: **وما هو؟** قلت: ولدت جارية! فقال: **لعلك كرهتها إنّ الله جلّ**

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) بحار الأنوار، ج١٠٠، ص٢٠١؛ تفسير القمّي.

ثناؤه يقول: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾(١).

التعاليم:

١ ـ الإسلام دين الفطرة. فوجود الأبناء هو امتداد طبيعي لوجود الآباء يرثون عنهم خصائصهم ومواصفاتهم الجسمية والخلقية، كما يرثون أموالهم، ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾.

٢ ـ الوصيّة حقّ طبيعي للإنسان، وهي مقدّمة على حقوق ورثته، ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾.

٣ ـ حقوق الناس مقدّمة على حقوق الورثة وذوي القربى، ﴿مِنۢ بَعۡدِ... دَيۡنٍۗ﴾.

٤ ـ اختلاف أسهم الوارثين ينطوي على حِكم لا نعلمها. فهي مبنيّة على أساس المصالح الواقعية للبشر، وإن كان الإنسان نفسه يجهلها، ﴿لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾.

٥ ـ العلم والحكمة شرطان مهمّان في التشريع. فأحكام الإرث تقوم على العلم والحكمة الإلٰهيّة، ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ... عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

﴿۞وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾

إشارات:

□ تناولت الآية السابقة موضوع إرث الأبناء والوالدين، أمّا هذه الآية فتشرح إرث

(١) تفسير نور الثقلين.

الزوجة والزوج والأخ والأخت للأم. بطبيعة الحال، تطبيق أحكام الإرث يستلزم الرجوع إلى الروايات، وذلك لتفرّعات الموضوع الكثيرة والتي لم يأت القرآن الكريم على ذكرها.

❑ ورد لفظ «الكلالة» في موضعين من القرآن، أحدهما في هذه الآية، والثاني في آخر آية من سورة النساء. والكلالة مصدر، وتعني في اللغة الإحاطة، من تكلله النسب وأحاط به أبناؤه وعشيرته، ومنه «الإكليل» وهو التاج والعصابة التي تحيط بالرأس. ولفظ «كل» هو لضمّ أجزاء الشيء وذلك ضربان؛ أحدهما: الضام لذات الشيء وأحواله المختصة به، ويفيد معنى التمام، والثاني، الضام للذوات.

لفظة «كلالة» تحمل معنيين في موضوع الإرث هما:

١ ـ إخوة المتوفى وأخواته لأمّه، وهذا المعنى هو المستفاد في هذه الآية.

٢ ـ إخوة وأخوات المتوفّى لأبيه أو لأبويه، وهذا هو مراد الآية الأخرى.

❑ عرفنا أنّ الدين مقدّم على الوصيّة، ولكن بما أنّ تنفيذ الوصيّة عملياً أشقّ، فقد فرض الله تعالى في الآية العمل بالوصيّة ومن ثمّ تسديد ما على المتوفّى من ديون[1].

❑ جاء في الحديث النبوي الشريف: **«الثلث والثلث كثير إنك إن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس، والإضرار في الوصية من الكبائر، ولا يلزم العمل بها»**[2].

❑ وبالنسبة إلى الرجل الذي يترك زوجات عدّة، فيقسّم ثُمن الإرث أو ربعه عليهنّ بالتساوي.

❑ وجدير بالإشارة هنا أنّ الديون تشمل ديون الله على المتوفّى من قبيل الحجّ، والخمس، والزكاة والكفارة، فضلاً عن ديون الناس[3].

---

(١) تفسير الصافي.

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير.

(٣) المصدر نفسه.

التعاليم:

١ ـ يكفي في بيان أهمية تسديد ديون الناس أنّها ذكرت أربع مرّات في هذه الآية فقط، ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ... أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾؛ وقد ورد في الأحاديث الشريفة: «**يغفر الله للشهيد يوم القيامة كلّ ذنب إلّا الدين**»[1].

٢ ـ أن يكون للمرء ابن ـ وإن من زوجة أخرى ـ يقلّل سهم كلّ من الزوجين إلى النصف وذلك ليصيب أبناء المتوفّى نصيباً من الإرث، سواء أكانت بنتاً أم ولداً، ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ﴾.

٣ ـ يجب مراعاة أحوال الورثة عند الوصيّة وعدم الإضرار بهم، ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾.

٤ ـ الإسلام لا يجيز الإضرار لا في الحياة ولا بعد الموت، ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾.

٥ ـ تقسيم القرآن للإرث تقسيم علمي، والله حليم في غضبه لا يعجله شيء، ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾.

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٣﴾

التعاليم:

١ ـ أحكام الإرث من الحدود الإلٰهيّة، فلا ينبغي تجاوزها، ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ طاعة رسول الله بمثابة طاعة الله، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٣ ـ السعادة والفوز رهن بالحركة في الطريق الإلٰهيّ، لا بالحصول على إرث أكبر، ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ﴾.

(١) ميزان الحكمة، الحديث ٩٧٧٦.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الذي يتخلّف عن تنفيذ الوصيّة، ويمتنع عن تسديد ديون المتوفّى، ويتنكر لحقوق الورثة في الإرث أو لبعضها، أو يسعى إلى الاستيلاء على الأموال، سوف يبوء بغضب من الله ويخلد في العذاب، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ... وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾.

٢ ـ طاعة الله ورسوله أو معصيتهما هي معيار السعادة والشقاء، ولا شيء آخر غيرها، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ... وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٣ ـ معصية رسول الله معصية لله تعالى، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٤ ـ المعصية المستمرة سبب الخلود في النار، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ... يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾؛ «يعص» فعل مضارع يفيد الاستمرارية.

٥ ـ مثل المعتدين على حقوق الآخرين كمثل الكفار في عذاب النار خالدين فيها، ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾.

٦ ـ غضب الله يشمل عذاب الجسد والروح معاً، ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**جعل السبيل الجلد، والرجم، والإمساك في البيوت**»[1].

---

(١) تفسير البرهان، ج١، ص ٣٥٣.

- «الفاحشة» في الآية الشريفة تشير في بعض معناها إلى السحاق بين النساء وقد ورد في تفسير مجمع البيان حديث نبوي شريف يؤيّد هذا المعنى[١].
- كما نقرأ في رواية أخرى أنّ موضوع الحبس المؤبّد للزانية كان معروفاً أيضاً في العهد الجاهلي، وقد أمضى الإسلام هذا الحكم في بداية البعثة، ولكن بعد أن ضرب الإسلام بجرانه تغيّر من الحبس المؤبّد إلى تنفيذ حدّ الزنا[٢].

التعاليم:

١ ـ وضع الإسلام شروطاً ثقيلة لإثبات ارتكاب الزنا وهي أن يشهد أربعة من الرجال على هذا الفعل الشنيع وذلك من أجل المحافظة على شرف الآخرين وصيانة عرضهم، وفي المقابل، إذا لم يكتمل نصاب الشهود كأن شهد ثلاثة فقط، فإنّهم يُجلدون جميعاً، في حين نجد أنّه يكفي لإثبات وقوع جريمة القتل أن يشهد شاهدان، ﴿أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾.

٢ ـ شروط الشاهد على ارتكاب الزنا أن يكون ذكراً ومسلماً، ليكون إثبات وقوع الفاحشة دقيقاً، ﴿أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾.

٣ ـ الشهادة على ارتكاب الزنا غير واجبة، ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾.

٤ ـ في القضاء بين الناس لا يكفي علم القاضي وحده، بل يجب أن يستعين بالشهود، ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾.

٥ ـ حدّ الزانية الحبس في الدار، لا في السجون العامة للدولة حيث تشكل مراكز لتعليم شتى أصناف الانحراف والجريمة .﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾.

٦ ـ الهدف من حبس المرأة في بيتها هو الحيلولة دون نشر الفساد بين أفراد المجتمع، وحرمانها من الزواج ومن أيّ مجال للّذة، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾.

٧ ـ حبس المجرم ضروري من أجل المحافظة على سلامة المجتمع وطهارته، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾.

٨ ـ الحبس المؤبّد هو جزاء المحصنة التي ترتكب جريمة الزنا، ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ

(١) تفسير راهنما «التفسير المرشد».
(٢) وسائل الشيعة، ج ٢٨، ص٦١.

﴿ٱلْمَوْتُ﴾؛ طبعاً، لا ننسَ أنّ هذا الحكم كان مؤقتاً، إذ تغيّر إلى الجلد والرجم في ما بعد، ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- ذكرت المصادر تفاسير عدّة لهذه الآية، إلّا أنّنا أوردنا التفسير الذي ذكره «تفسير الأمثل». ويوجد، بالطبع، تفسير آخر خطر في أذهاننا نذكره فيما يلي:

إذا همّ رجلان بارتكاب الفاحشة (اللواط)، وهيّأ مقدّمات هذا العمل على نحوٍ يوحي بحتميّة ارتكابه، فيجب عليكم، عملاً بفريضة النهي عن المنكر، إيذاؤهما، وتعزيرهما، وتهديدهما، فإذا ارتدعا، وعادا عن فعلتهما، وتابا عمّا بدر منهما، فاعفوا عنهما لأنّ الله توّاب رحيم.

وعلى هذا، فإنّ كلمة ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ تعني رجلان وليس رجلاً وامرأة على سبيل التغليب كما قد يتبادر إلى الذهن، وكلمة ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ تعني التعنيف، والتضييق، والمعاقبة، لا تنفيذ الحدّ بحقّهما. أمّا التوبة والإصلاح فهي العودة الحقيقيّة والتوبة النصوحة عن الفاحشة، لا أن يتوبا قبيل صدور حكم القاضي. و﴿يَأْتِيَـٰنِهَا﴾ أن يهمّا بارتكاب الفاحشة ويهيّئا لذلك، وقد درجت العادة في العرف أن ينسب ارتكاب الفعل إلى من عزم عليه، كأن يوجّه المرء دعوة ضيافة إلى عدد من الأشخاص، ويقوم بإعداد مستلزمات الدعوة فيقال إنّ لديه ضيوفاً، (والله العالم).

- الحقيقة هي أنّ توبة الزاني والإغضاء عن تنفيذ الحدّ بحقّه تكون ما دام الأمر لم يصل إلى المحكمة، وإقامة الشهود، وصدور الحكم، وإلّا فإنّ التوبة بعد صدور الحكم لا يسقط الحدّ.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

- تشير الآية الكريمة إلى بعضٍ من شروط التوبة منها:

أ - أن يكون ارتكاب المعصية عن غفلة وجهل بالعواقب السيئة التي تتبعها، لا عن كفر وجحود وعناد.

ب - قيل في معنى ﴿مِن قَرِيبٍ﴾: هو أنّ على مرتكب المعصية أن يتوب قبل أن تحيط به معصيته فتصبح ملكة وعادة، أو قبل ظهور بوادر سخط الله تعالى وعذابه.

- وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية أنّه قال: «**يعني كل ذنب عمله العبد وإن كان به عالماً فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربه**»[1].

التعاليم:

١ - من حقوق العباد على الله تعالى قبول التوبة الحقيقيّة الصادقة، ﴿ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٢ - العلم الذي لا يصمد أمام طغيان الأهواء والغرائز إنّما هو جهل مطبق، ﴿يَعْمَلُونَ... بِجَهَٰلَةٍ﴾.

٣ - التوبة ميسّرة ما لم تتراكم المعاصي. الآية الكريمة تقول: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي ارتكاب معصية واحدة، فيما نقرأ في الآية اللّاحقة: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، والمراد بها تراكم السيئات وازدحامها فتجعل من التوبة أمراً مشكلاً.

٤ - يشجّع الله العاصين على التوبة العاجلة والفورية، ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

٥ - الإسراع إلى التوبة، مفتاح قبولها، ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

(١) تفسير البرهان، ج١، ص٣٥٤.

٦ ـ ينبغي للتوبة أن تكون حقيقيّة خالصة، لأنّ الله يعلم بالنيّات إذا تظاهرنا بالتوبة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾.

٧ ـ قبول توبة العاصين غير المعاندين ينطوي على الحكمة، ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ التوبة الخالصة هي التي تكون بملء إرادة العبد وحريته، لا في حال الاضطرار عندما تلوح ملامح الخطر، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾.

٢ ـ التمادي في ارتكاب المعاصي يسلب الإنسان توفيق التوبة. تشير كلمة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ إلى الاستمرارية، و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلى تعدّد المعاصي والإصرار على ارتكابها.

٣ ـ ينبغي عدم التسويف في التوبة؛ لأنّ الآجال تأتي على حين غرّة، والتوبة حين الاحتضار غير مقبولة، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ...﴾.

٤ ـ عندما تلوح بوادر الخطر والموت، تتجلّى الفطرة الإلٰهيّة عند الإنسان، ﴿إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾.

٥ ـ الموت على الكفر وسوء العاقبة يحبط جميع الأعمال الصالحة بما فيها التوبة، ﴿يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

- بخلاف ما كان معهوداً في سنن عرب الجاهلية الذين كانوا إذا هلك الرجل ورثوا نساءه، نزلت الآية الكريمة لتنهى عن ذلك وتقصر الإرث على الأموال،

ولتؤكد أنّ للزوجة الحقّ في اختيار الزوج المناسب إذا مات عنها زوجها، وهي، بالتالي، ليست إرثاً لأحد.

التعاليم:

١ ـ الإسلام خير مدافع عن حقوق المرأة، ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾.

٢ ـ استعادة المهور بالقسر والإكراه حرام، ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾.

٣ ـ لا يحقّ للزوج أن يعضل زوجته إلّا إذا نشزت وبدر منها ما يخدش عفّتها وشرفها، ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ... إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

٤ ـ ينبغي معاملة الزوجة بالحسنى، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٥ ـ الزوج قطب الرحى في الحياة الأسرية، ويجب عليه أن يتجلّد بالمعاملة الطيبة للتغلّب على الصعاب، (الآية توجّه خطابها إلى الزوج) ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ... وَعَاشِرُوهُنَّ﴾.

٦ ـ لعلّ في مكاره الحياة كثير من الخير المستتر، ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

٧ ـ الاستعانة بالحلم والصبر لحلّ مشاكل الأسرة أفضل لسعادة الأبناء من الانفصال والطلاق، ﴿فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

٨ ـ لم يكن الخير والشرّ دوماً وفقاً لما نشتهي، ربّما جعل الله لنا الخير العميم في ما نكره، فلا يحيط علم الإنسان بكلّ ما ينفعه، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟... فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

□ ورد في مفردات الراغب «**القنطار**» جمع القنطرة، والقنطرة من المال: ما فيه عبور الحياة تشبيهاً بالقنطرة.

❑ كان الرجل في العصر الجاهلي إذا أراد تطليق زوجته والزواج بأخرى، يتّهم الزوجة الأولى بشتى التهم للضغط عليها من أجل أن تهب مهرها، حينذاك يطلّقها، فيعمد بذاك المهر إلى الزواج بزوجة ثانية فيمهرها به، فنزلت هذه الآية لتستقبح هذه السنّة الجاهلية المشينة.

التعاليم:

١ ـ الزواج المجدّد مباح في الإسلام، ﴿اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾.

٢ ـ عقدة الطلاق بيد الزوج، ﴿أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾.

٣ ـ لا إشكال في رفع المهور، على الرغم ممّا ورد في الروايات من الحثّ على تقليلها، ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾.

٤ ـ لا حدود لملكيّة الإنسان في إطار الشرائع السماوية، ﴿قِنطَارًا﴾.

٥ ـ الإسلام يدافع عن حقوق المرأة، وقد حرّم الزواج الثاني الذي يكون على حساب حقوق الزوجة الأولى، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾.

٦ ـ للزوجة حقّ التملّك؛ لذا يجب إعطاؤها مهرها كاملاً غير منقوص، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾.

٧ ـ لا يمكن نزع ملكيّة من تملّك بالحقّ، ولو كان قنطاراً، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا...﴾.

٨ ـ من أقبح الظلم أخذ أموال الناس بغير حقّ وتبرير ذلك، واتّهامهم وإهدار كرامتهم، ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا﴾.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ
إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ عند النهي عن المنكر يجب توظيف المشاعر الإنسانية. كيف تنازعون أزواجكم مهورهنّ دون وجه حقّ وقد عشتم زمناً طويلاً في وئام وصفاء تربطكم علاقات حميمة، ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

٢ ـ حين تعكر المشاكل صفو حياتكم، استعيدوا ذكرى اللحظات الجميلة السابقة، ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾.
٣ ـ لا بدّ من مراعاة أصول الأدب عند الخوض في المسائل الزوجية، ﴿أَفْضَىٰ﴾.
٤ ـ الصداق حقّ الزوجة في مقابل الدخول والاستمتاع، ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾.
٥ ـ عقد الزواج ميثاق غليظ ومحكم، ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.
٦ ـ إذن، استرداد الصداق هو نقض للميثاق، ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ... وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

❑ كان من تقاليد الجاهلية أن يتزوّج الرجل زوجة أبيه بعد موته، وقد حدث هذا بعد الإسلام أيضاً عندما مات أبو قبيس بن الأسلت، وكان من صالحي الأنصار، فخطب ابنه امرأته، فقالت: **إنما أعدك ولداً وأنت من صالحي قومك، ولكن آتي رسول الله ﷺ فأستأمره فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: إنّ أبا قيس توفي، فقال: «خيراً» ثم قالت: إن ابنه قيساً خطبني، وهو من صالحي قومه، وإنما كنت أعده ولداً فما ترى؟ فقال لها «ارجعي إلى بيتك»، فنزلت** ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

التعاليم:

١ ـ الإسلام دين الفطرة. ينفر المرء، بطبيعة الحال، من الزواج بأمّه أو زوجة أبيه؛ ولذلك حرّم الإسلام هذه الأمور، ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾
٢ ـ زوجة الأب بمثابة أمّ ثانية، وعليها أن تغمر أبناء الزوج بحنان الأمومة بدلاً من زرع الضغائن والخلافات، ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾.
٣ ـ يجب على الأبناء إذا ما أرادوا الزواج أن يصونوا حرمة الأب، ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾.

٤ ـ يجب أن ينظر الأبناء إلى زوجة أبيهم كأمّ لهم، ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾.

٥ ـ الإسلام يعفو عمّا سلف من المعاصي، فمن اقترن بزوجة أبيه قبل هذا الحكم فلا شيء عليه، ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وقد ورد أنّ: «**الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ**»[1].

٦ ـ عند القول، يجب أن نقدّم الدليل المجمل أو المفصّل، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

٧ ـ الاقتران بزوجة الأب نهج سيّئ يفتح الباب أمام زواج المحارم، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

- يشير الله تعالى في هذه الآية إلى محارم الرجل من النساء اللّاتي يحرم نكاحهنّ. وتحصل هذه الحرمة من طرق ثلاث هي:
  ١ ـ الولادة (الرابطة النسبية).
  ٢ ـ الزواج (الرابطة السببية).
  ٣ ـ الرضاع (رابطة الرضاعة).
- على أنّ تحريم الزواج بالمحارم كان معروفاً في الأديان السابقة كذلك[2].

---

(١) مسند أحمد ج ٤، ١٩٩؛ كنز العمّال، ج ١١، ص ٧٥١، الحديث ٣٣٦٦٤؛ عوالي اللآلي، ج ٢، ص ٥٤؛ وجاء في بعض المصادر ما يشبهه، مثل: «الاسلام يهدم ما كان قبله».

(٢) التوراة، سِفر اللاويين، الباب ١٨، الإصحاح ٦ ـ ٢٣.

□ ويعتبر الزواج بغير المحارم عاملاً مهمّاً في توسيع دائرة العلاقات الأسرية.

□ وبالنسبة للجمع بين الأختين في الزواج، فإنّ ذلك يولّد في العادة مشاعر الضغينة والحسد ويجرّ إلى التنافس الشخصي والجنسي، وربّما انتهى الأمر إلى العداوة والبغضاء، لذلك، قد يكون مردّ النهي إلى هذه الأسباب، ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ...﴾.

التعاليم:

١ ـ التحريم والتحليل (الأطعمة، الأشربة، المعاملات، العقود، الزيجات...) بيد الله وحده، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

٢ ـ لبن الأم، كما الولادة، يعتبر من أسباب الحرمة. فلنتوخّ الدقّة والحذر في اختيار المرضعة، ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾.

٣ ـ لتكن نظرة الزوج إلى ربائبه (بنت الزوجة من زوجها السابق والتي تتربّى في حجره) كنظرته إلى ابنته التي من صلبه، وليكن بمثابة المربّي لها، ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم﴾.

٤ ـ ليس للقانون أثر رجعي، ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. (لا تثريب على من جمع بين أختين قبل هذا التشريع، ولكن بعد أن أدركه عليه بعد ذلك أن يحتفظ بإحداهما ويسرّح الأخرى).

﴿۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

□ «الإحصان» في اللغة من الحِصن والتحصّن وهو التمنّع، ومنه الحصان بكسر الحاء للفرس؛ لأنه يمنع صاحبه من الهلاك. وقد استخدم القرآن الكريم أصل هذه الكلمة في معانٍ هي:

١ ـ أطلقت على النساء العفيفات نقيات الجيب، إذ يقول الله سبحانه عن مريم العذراء عليها السلام: ﴿ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾[١].

٢ ـ المرأة ذات الزوج: لأنّها بزواجها من رجل تكون قد أحصنت شرفها وصانت عفافها. وهو المعنى المراد هنا في ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

٣ ـ الحرائر في مقابل الإماء والأسيرات، ذلك لأنّ الأسر هو بمثابة تمزّق لأستار العفّة والحياء لدى المرأة، وقد كان عدم الحياء شائعاً بين الإماء في ذلك العصر. وهذا هو المعنى المقصود من ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ في الآية اللّاحقة.

- ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾ من **«السفاح»** أي الزنا وأصله من «السفح».

- لقد اعتبر الإسلام الأسر بالنسبة إلى النساء الكافرات بمثابة الطلاق من أزواجهنّ، وكذا الحال مع اعتناق الزوجة للإسلام إذ تنقطع علاقتها بزوجها إن هو بقي على كفره.

إنّ الدين الإسلامي يحرّم على المسلم أن يتزوّج بالمرأة المحصنة مهما كان دينها وعرقها، بيد أنّه يعتبر الأسر بمثابة طلاق للمحصنة الكافرة عن زوجها، ولذلك سمح بالزواج منها ولكن بعد انقضاء عدّتها، وأن تضع حملها إن كانت حاملاً من زوجها السابق، وفي هذه الفترة يحرم ملامستها. ومن المتيقن به أنّ هذا الحكم بجعلها زوجة أو أمة في ديار المسلمين، أفضل لها من أن تعاد إلى دار الكفر، (وهو ما يتنافى مع الأسس الإسلامية)، أو أن تبقى هكذا بدون زوج من المسلمين (وهي بلا شك عمليّة ظالمة).

- تحمل كلمة **«المتعة»** مفهوماً شرعياً لا لغوياً كما هو الحال مع ألفاظ الحج، الصلاة، الربا، الغنيمة. من هنا، فإنّ المراد، بكل تأكيد، من هذه الكلمة كما يقول العلّامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان»: هو زواج «المتعة»[٢].

---

(١) سورة التحريم: الآية ١٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص ٢٧١.

إنّ دفع المهر أو الصداق في المتعة والوارد في الآية ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يتعلّق بالاستمتاع ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم﴾.

في حين أنّنا نعلم أنّ دفع الصداق أو المهر يكون واجباً على الزوج في حال كان النكاح دائماً ولا يشترط فيه الاستمتاع بالزوجة، وبمجرّد العقد للزواج الدائم على الزوجة وقبل الدخول بها يتوجّب على الزوج دفع نصف المهر.

❑ بحسب الروايات المنقولة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام[1]، ومعظم تفاسير أهل السنة فإنّ عبارة ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ تتحدّث عن الزواج المؤقت الذي حرّمه الخليفة الثاني، علماً أنّه ليس لأحد أن يحرّم ما أنزل الله تعالى من أحكام. ولولا ذلك التحريم لما زنا إلّا شقي، كما ورد في الروايات[2]. إنّ الزواج المؤقّت هو برنامج سليم ومحكم، وقد شاع الزنا في أرجاء العالم بسبب افتقاده هذا البرنامج. ولا ريب في أنّ الزواج المؤقت ضرورة تمليها الظروف الاجتماعية، وإنّنا نقرأ في مصادر أهل السنّة أنّ هذا الزواج قد شُرّع بسبب البعد عن الزوجة وظروف الحرب والمعارك، وهي الظروف نفسها الموجودة في العصر الراهن. إذن، زواج المتعة هو برنامج متكامل لحل هذه المعضلة الاجتماعية، والتصدّي لظاهرة الفساد، وهو يعتبر حقيقة شرعيّة حتى قيام الساعة. وحجّة بعضٍ هي أنّ القرآن الكريم ذكر العدّة، والإرث، وحفظ الفروج، وهذا كلّه يتعلّق بالزواج، في حين أنّ المتعة لا تعدُّ زواجاً أساساً. والجواب على ذلك هو:

أوّلاً، يطلق لفظ الزواج على المتعة أيضاً، ثانياً، على المرأة المتمتّع بها أن تلتزم بالعدّة، ولا استثناء في ذلك سوى في الإرث، أي لا يتوارث الزوجان في الزواج المؤقّت.

---

(١) الكافي، ج ٥، ص ٤٤٨؛ وسائل الشيعة، ج٢١، ص ٥.

(٢) التفسير الكبير، الفخر الرازي، ذيل الآية.

بضعة أسئلة:

١ ـ أليس الزواج المؤقّت قناعاً على وجه الرذيلة والزنا؟

الجواب: كلّا، وذلك لأنّه:

أ ـ المرأة المتمتّع بها تكون خاصّة برجل واحد فقط.

ب ـ يجب أن تعتدّ لمدّة ٤٥ يوماً على الأقل.

ج ـ لا فرق بين أولاد المتعة وبين أولاد الزوجة الدائمة.

٢ ـ ألا يُخشى أن يسيء الرجال من طلاب الهوى استخدام هذا القانون؟

الجواب: من الممكن إساءة استخدام أيّ قانون مفيد وضروري، ألا يُصنع من الكروم نبيذاً؟ أفلا يستغلّ بعض الأشخاص رحلة الحجّ لأغراض أخرى غير مقاصدها التي شرّعت من أجلها، فهل علينا منع أداء فريضة الحج؟

٣ ـ وماذا عن حقوق أولاد المتعة؟

الجواب: لا فرق أبداً بينهم وبين أولاد الزوجة الدائمة في الحقوق والإرث وما شابه.

التعاليم:

١ ـ ينبغي على الرجل أن لا يبحث بين المحصنات عن زوجة له، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾.

٢ ـ لا يجوز لأسيرات الحروب مع الكفّار أن يبقين بلا أولياء. فإمّا إعادتهنّ إلى دار الكفر أو بقاؤهنّ في ذمّة علاقة شرعيّة مع المسلمين كزوجات أو كإماء، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

٣ ـ حرمة الزواج بالمحارم والمحصنات من النساء والجمع بين الأختين من الأحكام الإلٰهيّة الثابتة والقطعية التي لا تتغيّر، ﴿حُرِّمَتْ... كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

٤ ـ يحرم تخصيص الأموال لمصارف الفحشاء والرذيلة، ﴿تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم... غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾.

٥ ـ الزواج المؤقّت حقيقة شرعية، ويجب أن يدفع المتمتّع الصداق إلى المتمتّع بها، ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم... فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

٦ ـ يشترط في الصداق موافقة الطرفين، ﴿فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ﴾.

٧ ـ بعد انتهاء أمد الزواج المؤقّت يمكن تمديده أو زيادة الصداق، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾.

٨ ـ الزواج المؤقت وأحكام ومقرّرات الزواج نابعة عن علم الله وحكمته، ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

٩ ـ العلم والحكمة شرطان لازمان للتشريع، ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ... عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

الجزء (٥)

﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

- قلنا في الآية السابقة إنّ المراد بـ ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الحرائر في مقابل، ﴿فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ﴾ وهنّ الإماء، وقد ورد هذا التعبير الأخير «**فتيات**» في موضع آخر من القرآن الكريم إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾[1].

- ﴿أَخۡدَانٖۚ﴾ جمع «**خِدن**» وهو الرفيق أو الخليل في السرّ، وتستعمل عادةً للذين يقيمون علاقات غير مشروعة، وقد ورد في مفردات الراغب الأصفهاني: الخدن: أي المصاحب، وأكثر ذلك يستعمل في من يصاحب بشهوة. وقد جاءت هذه الكلمة في مقابلِ ﴿مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ والتي تعني الزنا جهاراً وبصورة علنية.

---

(١) سورة النور: الآية ٣٣.

□ ﴿ٱلطَّوۡلِ﴾ بمعنى المُكنة والسعة في المال، و﴿ٱلۡعَنَتَ﴾ المشقّة والضيق والحرج.

□ على أنّ المقصود من الفتيات أو الإماء في الآية الكريمة هو إماء الغير؛ لأنّ مالك الأمة له الحقّ في مقاربتها دون عقد زواج، وزواج الرجل من إماء الغير يجب أن يكون بإذن وليّها.

□ هذا، وقد وردت كراهة في الزواج من الإماء، ولكن مع ذلك، برز من بين هؤلاء نساء عظيمات حظين بقدر كبير من الكمال والخلق، ما دفع بعض أولياء الله إلى اتّخاذهن زوجات، فأنجبن أبناءً عظاماً.

التعاليم:

١ ـ طريق الزواج في الإسلام غير مسدود، ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾.

٢ ـ على المشرّع أن يأخذ في الحسبان الاحتياجات الطبيعية لأفراد المجتمع، وكذلك الضغوط الاقتصاديّة التي تواجههم، ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ...﴾.

٣ ـ الزواج بالأمة خير من عار المعصية، ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾.

٤ ـ يمكن الاستغناء عن شرط الحرية، ولكن لا يمكن التخلّي عن الإيمان، ﴿فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ﴾.

٥ ـ الإيمان هو الشرط الأساس لكل زواج، ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، ﴿فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ﴾.

٦ ـ يكفي في الزواج الإيمان الظاهري، فنحن غير مأمورين بالسرائر، ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ﴾.

٧ ـ ليس في الزواج من الأمة أيّ تحقير، ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾.

٨ ـ يشترط في زواج الأمة إذن سيّدها تماماً كما بالنسبة إلى إذن والد البنت، ﴿بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾.

٩ ـ على الأسياد أن يعتبروا إماءهم مثل أهليهم، ﴿أَهۡلِهِنَّ﴾.

١٠ ـ يجب على الرجل أن يمهر الأمة مهراً مناسباً كما يفعل مع الحرّة،

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

١١ ـ يجب إعطاء الصداق للأمة نفسها، إذ لا بدّ من مراعاة الحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة للإماء والعبيد، ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

١٢ ـ مقدار الصداق يجب أن يتناسب مع الأعراف ومكانة المرأة وشأنها، ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

١٣ ـ استمرارية الزواج ودوامه رهن بتوفّر العفّة واجتناب الفواحش والعلاقات غير المشروعة، ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾.

١٤ ـ عقوبة الزنا بالنسبة للأمة تتنزّل إلى النصف بسبب عبوديّتها وحرمانها، ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾.

١٥ ـ توفير أسباب الزواج السهل والمريح في المجتمع، يسدّ الباب بوجه المفاسد والموبقات الجنسية، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ﴾.

١٦ ـ الصحّة النفسية من أهداف الإسلام، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ﴾.

١٧ ـ أحياناً يكون الصبر والتحمّل خيراً من بعض الزيجات، ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٢٦﴾

التعاليم:

١ ـ تتلخّص سنّة الله في الهداية، والبيان، والبلاغ، ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ﴾.

٢ ـ يجب التمسّك بالسنن الحميدة للماضين، ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

٣ ـ أحكام الإسلام تشريعاته في الزواج تحاكي أحكام سائر الشرائع السماوية الماضية، ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

٤ ـ يشمل الله تعالى عباده بألطافه، ﴿وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ﴾.

٥ ـ حالات التحريم والإباحة في الزواج تتمّ على أساس العلم والحكمة

والمصلحة، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

□ للوهلة الأولى، قد تبدو الحرّيات الجنسيّة أمراً يؤمن اللّذة والنشوة، ولكن إذا ما تأمّلنا الآثار والعواقب السيئّة المترتّبة عليها على الصعيدين الفردي والاجتماعي سنتبيّن بأنّها ليست إلا سقوطاً في هاوية الانحراف والرذيلة. إنّ من نتائج التحلّل وانفلات الحريّات ما نراه بأمّ أعيننا من انهيار الجسم، وانشغال الفكر، وضياع الأموال والثروات، وانعدام الراحة والاستقرار، وذهاب كلّ رغبة في تشكيل الأسرة، واستيلاد الأبناء غير الشرعيين في المجتمع، وتزايد الأمراض التناسلية والنفسية. وبكلمة واحدة، إنّ الحريّات الجنسيّة هي طوق كبير يلتفّ حول عنق البشرية.

التعاليم:

١ ـ تشريع القيود والحدود التي تنظّم الزواج يمثّل سرّ الألطاف الإلٰهيّة التي تغمر الإنسان والمجتمع الإنساني، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

٢ ـ لا تسيروا في المسالك الوعرة لطلاب الشهوة ولا تتبعوا خطاهم، هم الأعداء فاحذروهم، ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ...﴾.

٣ ـ يريد عبيد الأهواء وطلاب الانحلال والتفسّخ أن يغرقوكم في بحر الشهوات، وأن تتبعوا خطاهم، ﴿أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

٤ ـ الأخلاق الجنسيّة الإسلاميّة متوازنة ومعتدلة، وهي بعيدة عن الإفراط والتفريط؛ لكنّ طلاب الشهوات يريدون أن تنهجوا سبيل الإفراط، ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

٥ ـ لنتوخّ الدقّة والحذر في سلوك الطريق، لقد ذكرت الآية الكريمة كلمة ﴿يُرِيدُ﴾

مرّتين؛ عبّرت في الأولى عن إرادة الله العليم الحكيم، وفي الثانية بيّنت إرادة طلاب الشهوات الحاقدين. فلنتبيّن أيّ الإرادتين نختار، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ... وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

□ تكشف الآيات الثلاث الأخيرة تباعاً عن جوانب من الألطاف الإلٰهيّة في موضوع الزواج. فالله يبيّن لكم الأحكام ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، ويدلّكم ويهديكم إلى الطريق القويم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾، ويشملكم بلطفه وعنايته ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ﴾، ويسهل عليكم ولا يشقّ ﴿يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾، وما ذلك إلّا لأنّ الإنسان خلق ضعيفاً بوجه طوفان الغرائز والشهوات، وقدرته على التحمّل، والجلد، وضبط النفس، قليلة.

التعاليم:

١ ـ الشريعة الإسلاميّة هي الشريعة السمحة السهلة، ولا انسدادات فيها، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾.

٢ ـ جاءت التكاليف الدينيّة على قدر وسع الإنسان وطاقته، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾.

٣ ـ وضع الشروط الثقيلة في الزواج خلاف إرادة الله، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ﴾.

٤ ـ التمسّك بأحكام الزواج يهيّئ أجواء وظروف تسهيله، ويبعد عن المجتمع المشاق والآفات، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾.

٥ ـ قدرة الإنسان على مقاومة الغريزة الجنسيّة ضعيفة، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

٦ ـ هناك توافق وانسجام بين تكوين الإنسان وخلقه، وبين تشريع الأحكام الإلٰهيّة، ﴿يُخَفِّفَ... ضَعِيفًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾

إشارات:

- لعلّ السرّ وراء تتالي ورود الحكمين في الآية الكريمة، حكم النهي عن أكل المال بالباطل ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ﴾، وحكم النهي عن القتل ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ﴾، هو أنّ المنظومة الاقتصاديّة في المجتمع إذا لم تكن قائمة على أسس سليمة، فإنّها ستؤلّب المحرومين ضدّ الجشعين من مكتنزي الثروات، وستؤدي إلى نشوب النزاعات وتصاعد حالات القتل والانتحار في المجتمع.

- عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه تلا هذه الآية الكريمة ثمّ قال: «**من كان عليه دين فينوي قضاءه كان معه من الله عزّ وجلّ حافظان يعينانه على أداء أمانته، فإن قصرت نيّته عن الأداء قصرت عنه المعونة بقدر ما قصر من نيّته**»[١]. وقد قال الإمام الباقر عليه السلام في (الباطل) في ذيل الآية: «**إنه الربا والقمار والبخس والظلم عن السدى**»[٢].

- وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: **سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن الجبائر تكون على الكسر كيف يتوضأ صاحبها وكيف يغتسل إذا أجنب؟ قال: يجزيه المسح بالماء عليها في الجنابة والوضوء، قلت: فإن كان في برد يخاف على نفسه إذا أفرغ الماء على جسده، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾**[٣].

- ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «**كان الرجل يحمل على المشركين وحده، حتى يَقتل أو يُقتل، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾**»[٤].

---

(١) الكافي، ج ٥، ص ٩٥.
(٢) تفسير نور الثقلين.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) تفسير البرهان.

▫ على أنّ قتل القادة المعصومين هو أيضاً من أمثلة الانتحار واهتلاك المجتمع، فالإمام الصادق عليه السلام في تفسيره عبارة ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ يقول: «**أهل بيت نبيّكم** عليهم السلام»[1].

التعاليم:

١ ـ الملكيّة محترمة، ولا يجوز التصرّف في أموال الآخرين إلّا عن طريق المعاملات القائمة على رضا الطرفين، ﴿لَا تَأْكُلُوٓا... إِلَّآ... تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ﴾.

٢ ـ للمجتمع روح واحد ومصير مشترك. فلنحترم أموال الآخرين كأنّها أموالنا، ﴿أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾.

٣ ـ أيّ تصرّف لا يقوم على «الحقّ» فهو غير جائز، ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ . . . بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

٤ ـ المعاملات والصفقات يجب أن تتمّ بموافقة ورضى الطرفين، وليس بالقسر والإكراه، ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ﴾.

٥ ـ النفس محترمة، والانتحار وقتل الآخرين حرام، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾.

٦ ـ أحكام الإسلام وتعاليمه قبس من رحمة الله تعالى، ﴿كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

إشارات:

▫ قد يكون الفرق بين «العدوان» و«الظلم» هو أنّ الأول يعني الاعتداء على الآخرين، فيما يشمل الثاني ظلم النفس أيضاً.

▫ مادة «صَلَوَ» تعني الدخول في الرحمة، و«صَلَى» الورود في النار، لذا، فإنّ ﴿نُصْلِيهِ﴾ تعني ندخله نار جهنّم.

---

(١) تفسير فرات الكوفي.

□ وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «**من قتل نفسه متعمّداً فهو في نار جهنّم خالداً فيها ثمّ تلا الآية الكريمة**»[١].

التعاليم:

١ ـ إذا لم تكن أفعال الإنسان بدافع الظلم والعدوان فليأمن غضب الله، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا...﴾.

٢ ـ للنية دور أساس في العقاب والثواب، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

□ يستفاد من هذه الآية أنّ المعاصي على قسمين: الصغائر والكبائر. وقد ورد هذا اللفظ في الآية ٤٩ من سورة الكهف التي تفيد أنّ المجرمين حين تعرض عليهم صحيفة أعمالهم يقولون: ما بال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾.

□ سئل الإمام الكاظم عليه السلام عن وعد الآية إن كان غفران الصغائر لمن اجتنب ما أوعد الله عليه النار من الكبائر، فماذا عن الشفاعة؟ فقال عليه السلام: **الشفاعة لأهل الكبائر من الأمّة**[٢].

□ والمعصية الكبيرة، طبقاً لما ورد في الروايات، هي التي أوجب الله تعالى عليها النار[٣]. ولعلّ في وعيد الآية السابقة بالنار لمن قتل أو انتحر أو اعتدى على أموال الناس إشارة إلى هذا المعنى، وهو أنّ المعاصي الكبائر التي أوعد الله عليها النار هي الاعتداء على أموال الناس وأنفسهم.

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٦٤.

(٢) توحيد الصدوق، ص ٤٠٧.

(٣) الكافي، ج٢، ص٢٧٦.

❑ وبحسب الروايات، فإنّ المعاصي الكبيرة متعدّدة ومتنوّعة، والسبب وراء ذلك هو أنّ الكبائر أيضاً على درجات ومراتب، إذ يطلق على بعضها «**أكبر الكبائر**»[1].

التعاليم:

١ ـ الصفح، عن صغائر الذين لهم أصول فكرية وعمليّة صحيحة، أولى وأليق به تعالى، ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ... نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾.

٢ ـ أجر من ينتهي عن كبائر المعاصي أن يكفّر الله تعالى عنه الصغائر، ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ... نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾.

٣ ـ لن ندخل الجنّة ما لم نتطهّر من الكبائر والصغائر، ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٣٢﴾

إشارات:

❑ في الآيات السابقة نُهي عن أكل المال الحرام، وهنا، تسبر هذه الآية جذور أكل الحرام وتعزوه إلى الجشع، والآمال العريضة، والتنافس على حطام الدنيا.

❑ العدل غير المساواة، فالعدل له مكانته وقيمته أينما كان، بينما المساواة تكون ذات قيمة أحياناً، وظلماً في أحيانٍ أخرى. على سبيل المثال، إذا وصف الطبيب دواءً مشابهاً لكلّ مرضاه، أو أعطى المعلّم نفس الدرجة والتقييم لجميع الطلاب، فإنّ ذلك يعتبر مساواة، ولكن، بكل تأكيد، ليس عدلاً، إذ إنّ العدل أن تعطي كلّاً بحسب استحقاقه وكفاءته، حتى وإن بدا لك ذلك تفاوتاً، فلا جرم أنّ التفاوت والتباين على أساس الجدارة والاستحقاق حقّ، فيما التمييز أمر باطل. فالتمييز هو مفاضلة أحدهم على الآخر دون وجه حقّ، واتباعاً لهوى في نفس الإنسان، في حين أنّ التفاوت هو المفاضلة على أساس المعايير

---

(١) الكافي، ج٢، ص ٢٧٨.

والأصول. لذا، ينبغي أن تكون العدالة مطمحنا، لا المساواة بين كلّ الأشياء وجميع الأشخاص. فنحن نلحظ أنّ أعضاء الجسم وأجزاء الآلة تتفاوت من حيث الجنس، والشكل، والعمل؛ لكنّه بلا شك، تفاوت ينطوي على حكمة. فإذا كان الله قد ارتأى أن يخلق الخلائق في صور وأشكال مختلفة فذلك لحكمة ارتآها سبحانه وتعالى. وخلاصة القول، لا بدّ أن نرضى بقسم الله وتقديره ممّا لا يدخل في دائرة إرادتنا أو استطاعتنا مثل الجنسيّة، والجمال، والقابلية، والبيان، والذكاء، والعمر وغير ذلك. إنّنا ما دمنا نؤمن بحكمة الله وعدله، فينبغي ألّا نتعجّل بإصدار الأحكام الجاهلة من منطلق سوء الظنّ أو التوقّعات غير الواقعية إذا ما عجزنا عن فهم الحكمة الإلٰهيّة وراء ظاهرة ما، أو أن نكنّ الحسد والبغضاء لمن أنعم الله عليهم، ذلك أنّ مسؤولية العبد تتعاظم وتكبر مع زيادة النعم، وعليه مع نزول كلّ نعمة أن يستعد لمصيبة فراقها. إنّها الحقيقة التي ينطق بها لسان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة.

- يجب علينا في الحالات الاختيارية أن نشمّر عن سواعد الجدّ والاجتهاد ونطرد عنّا شعور التراخي والضعف لبلوغ حالة المنافسة الشريفة من أجل امتلاك عناصر القوة، والكثرة، والاستقلال، وألّا نسمح للآخرين باستغلالنا أو استعمارنا، أمّا في الحالات الخارجة عن إرادتنا، فعلينا أن نجعل من التمايزات والاختلافات دليل رشد، واختبار، وحركة، وتعاون، وتضامن، بين أفراد المجتمع، فلو كان الناس على قدر متساوٍ من الإمكانات، والقابليات، والمواهب، لما وجد الإنسان مندوحة للارتقاء بخصال السخاء والشجاعة. فمعدن الإنسان يُصقل في منعرجات الحياة ومضائقها، وينصهر مع الآخرين بمقتضى احتياجاته ومتطلباته الحياتية.

- سُئل الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام عن تفسير هذه الآية فقال: **«لا يتمنّى الرجل امرأة الرجل ولا ابنته ولكن يتمنّى مثلهما»**[1].

- عن إسماعيل بن كثير رفع الحديث إلى النبي الكريم صلى الله عليه وآله قال: لمّا نزلت هذه

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص٢٤١.

الآية ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، قال فقال أصحاب النبي: ما هذا الفضل أيّكم يسأل رسول الله ﷺ عن ذلك؟ قال: فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: أنا أسأله عنه، فسأله عن ذلك الفضل ما هو؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إنّ الله خلق خلقه وقسم لهم أرزاقهم من حلها، وعرض لهم بالحرام، فمن انتهك حراماً نقص له من الحلال بقدر ما انتهك من الحرام وحوسب به»**[1].

التعاليم:

١ ـ لنرضَ بقسم الله وتقديره، ولا يدفعنّنا الحسد إلى تمنّي مواهب الآخرين، ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾.

٢ ـ في الإسلام، لا انفكاك بين القضايا الاقتصاديّة والأخلاقية، ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟... بِٱلْبَٰطِلِ... وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾.

٣ ـ التمييزات الاستعمارية الزائفة والظالمة شيء، والمواهب الإلٰهيّة شيء آخر، ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

٤ ـ الفوارق بين الرجل والمرأة في الخلقة والطبيعة البيولوجية هي من أمثلة المواهب الإلٰهيّة في الخلق، ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ... لِّلرِّجَالِ... وَلِلنِّسَآءِ﴾.

٥ ـ يملك كل من الرجل والمرأة ما أبدعته يداه سواء بسواء، ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ... وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾.

٦ ـ لنجدّ ونجتهد بدلاً من تمنّي ما في أيدي الآخرين، ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟...﴾.

٧ ـ للإنسان نصيب ممّا اكتسب، ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؛ أمّا الباقي فهو من حصّة الفقراء والدولة الإسلامية.

٨ ـ العمل والدعاء جنباً إلى جنب، ﴿ٱكْتَسَبُوا۟... وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٩ ـ بدلاً من تمنّي مواهب الآخرين، لنسأل الله تعالى من فضله ولطفه، ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟... وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

---

(١) تفسير العيّاشي، ج١، ص ٢١٥.

١٠ ـ لنضع الخصال في مساراتها الصحيحة، والأمنية خصلة طبيعية في الإنسان، فلنضعها في مسار تمنّي نعم الله لا سلب نعم الآخرين، ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا... وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

١١ ـ ما يهب الله لعباده أو يسلبهم إيّاه فهو عن علم وحكمة، ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾؛ (الإيمان بعلم الله هو الذي يردع الإنسان عن الدخول في دوائر الطمع والأماني غير المشروعة).

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ الْوَٰلِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

إشارات:

□ **«الموالي»** جمع **«مولى»** وتحمل معانيَ عدّة، لكنّ الآية الكريمة قصدت من الكلمة الورثة.

□ وعبارة ﴿عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ إشارة إلى عقد **«ضمان الجريرة»** (هكذا يعرف في المصادر الفقهية)، الذي كان يعقد بين شخصين وكان منتشراً عند العرب قبل الإسلام وأقرّه الأخير بعد إدخال بعض التعديلات عليه، إذ كان الرجل في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول له: دمي دمك، وهدمي هدمك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك. (وهو أشبه بما يعرف الآن ببوليصة التأمين)، فإن وقع لأحدهما ضرر أو مكروه، دفع حليفه عنه ذلك الضرر بدفع الديّة أو ما شاكل. ولمّا جاء الإسلام أقرّ هذا النوع من الأحلاف، ولكن اشترط أن لا يكون هناك رحم يحول بينهما فيصبح الإرث من نصيبه.

□ سُئل الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ الْوَٰلِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فقال: **«إنّما عنى بذلك الأئمة عليهم السلام، عقد الله عز وجل إيمانكم»**[1].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٢، ص ٢٤١.

التعاليم:

١ ـ تحديد أسهم الإرث يكون بأمر الله تعالى، ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾.

٢ ـ الأقربون أولى بالإرث، ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾.

٣ ـ يحقّ للإنسان في شروط معيّنة أن يخوّل ملكيّته بموجب حلف أو عقد إلى شخصٍ آخر، ﴿عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

٤ ـ التزامات الإنسان وتعهّداته التي أبرمها في حياته محترمة ونافذة بعد مماته، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾

٥ ـ الوفاء بالعهد واجب، ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾.

٦ ـ يجب على المدين أن يذهب إلى الدائن لتسديد ما بذمّته، ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾.

٧ ـ الإيمان بوجود الله سرّ التقوى وإنذار لمن يضرب بعهوده والتزاماته عرض الحائط، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

□ ﴿الْقَوَّامِ﴾ بمعنى القائم على إصلاح الغير وتدبير شؤونه.

□ «النشوز» من «نشز» ما ارتفع من الأرض، والمرأة الناشز هي المترفعة على زوجها، التاركة أمرَه، المعرضة عنه.

□ إنّ وظيفة القوامة والرئاسة تقتضي التعهّد بتأمين النفقات وتدبير المعيشة، ومن هذا الجانب، فإنّ الرجال ليسوا فقط أجدر من النساء في القيام بشؤون الأسرة، بل بالشؤون الاجتماعيّة، والقضاء، والحرب أيضاً، ﴿بِمَا فَضَّلَ

ٱللَّهُ﴾... ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟﴾، لذا لم يقل سبحانه وتعالى «قوامون على أزواجهم»، لأنّ مسألة الزوجية خاصّة بالحياة الزوجية، والله لم يقصر هذه القوامة على البيت.

- نعم، قد يوجد هناك بعض النسوة ممّن يتفوّقن على أزواجهنّ في النواحي الجسمية أو المالية، ولكن ذلك استثناء لا يعتدّ به؛ وتشريع القوانين يجري الأخذ بحسب الحالات العامة الشائعة لا النادرة الخاصة.

- وردت لعبارة ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ معانٍ عدّة هي:

أ ـ الزوجة التي تقوم بحفظ ما أمر الله بحفظه.

ب ـ الزوجة التي تحفظ حقوق زوجها كما حفظ الله حقوقها بما فرض لها على زوجها من واجبات.

ج ـ الزوجة حافظة بتوفيق الله وحفظه.

- حينما تسدّ الطرق بوجه الحلول السلمية، يبرز خياران أمام الإنسان، إمّا أن يتخلّى عن مسؤوليته، وإما أن يلجأ إلى العنف في حال لم تنفع الموعظة والنصح والهجر. يقول علماء النفس إنّ بعض الأفراد يصاب بما يعرف بالمازوشية، وهي حالة من الشذوذ الجنسي يرتبط فيها الإشباع بتسليط العذاب والألم على النفس جسدياً ومعنوياً[(١)]. على أنّ الإسلام أوصى بأن يكون الضرب خفيفاً غير مبرّح، وألّا يبلغ مرحلة السواد أو الجرح والكسر، هذا فضلاً عن أنّ الرجل المذنب أيضاً يتعرّض أحياناً للعقوبة الجسمية من قبل القاضي.

- عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**اضربوهن إذا عصينكم في المعروف، ضرباً غير مبرح**»[(٢)].

---

(١) معجم مصطلحات علم النفس، عبد المجيد سالمي، نور الدين خالد، شريف بدوي، دار الكتاب المصري ـ دار الكتاب اللبناني، مادة المازوشية.

(٢) تفسير الطبري، ج٥، ص٦٨؛ الدرّ المنثور، ج٢، ص٥٢٢.

◻ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**نشوز المرأة في الفراش هو إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه، وقوله عزّ وجلّ ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾، والضرب بالسواك وشبهه ضرباً رفيقاً**»[1].

التعاليم:

١ ـ في أيّ جماعة، حتى المؤلّفة من شخصين لا بدّ من أن يتولّى أحدهما القيادة ويكون الثاني معاوناً له. الرجل هو مدير البيت والقائم بشؤونه، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

٢ ـ يحتاج الإنسان لكي يدير شؤون حياته إلى تحكيم العقل والتدبير على العواطف والمشاعر، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

٣ ـ يتناغم النظام التشريعي الإسلامي مع نظام الخلق والتكوين، فإناطة مسؤولية القوامة والرئاسة بالرجل هي بسبب امتلاكه بنيةً جسمية وروحية خاصّة، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

٤ ـ المواهب الطبيعية هي من فضل الله ولطفه، ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾.

٥ ـ نفقات المعيشة هي مسؤولية الرجل، ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾.

٦ ـ لا بدّ للمشرّع من أن يلحظ الفوارق البيولوجية بين الرجل والمرأة عند سَنّ القوانين، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ... بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ عنوان لياقة المرأة وصلاحها، هو طاعتها وتواضعها لبعلها، ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾.

٨ ـ المرأة اللائقة هي الحافظة لنفسها إذا ما غاب عنها زوجها، ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾.

٩ ـ للزوج على زوجته حقّ الطاعة وحفظ حقوقه شرط تأمين نفقتها، ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ... فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ﴾.

١٠ ـ الوقاية خير من العلاج. على الزوج أن يتدارك أمر زوجته قبل أن تنشز، ﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾.

---

(١) من لايحضره الفقيه، ج٣، ص٥٢١.

١١ ـ لا حقّ للزوج في إيذاء زوجته المطيعة، ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

١٢ ـ اللّجوء إلى المراحل الثلاث الموعظة، والهجر في المضاجع، والضرب، هو لأجل أن تعود الزوجة إلى الطاعة. أمّا إذا لبست الزوجة ثوب الطاعة من طريق آخر فلا حقّ للزوج عندئذٍ في تأديبها، عبارة ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ دليل على أنّ الهدف هو طاعة الزوجة وإن حصل من طريق آخر.

١٣ ـ تواضع الزوجة ليس ضعفاً بل قيمة ورفعة، ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾.

١٤ ـ عنوان الزوجة الصالحة هو أن تحفظ السرّ، وتحفظ على زوجها ماله وفرجها حتى يرجع، ﴿فَالصَّالِحَاتُ... حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾.

١٥ ـ التصدّي للمنكر يجب أن يكون بالتدريج خطوة فخطوة ومرحلة فأخرى، فيبدأ الرجل بالموعظة، ثمّ الهجر في المضاجع، وأخيراً الضرب، ﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ...﴾.

١٦ ـ ما دامت الموعظة تنفع، فلا يجوز اللّجوء إلى الهجر والعنف، وما دام الهجر المؤقت ينفع فلا يجوز الضرب، ﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ... وَاضْرِبُوهُنَّ﴾.

١٧ ـ المعاملة القاسية والضرب إنّما هي امتثال للواجب، لا بدافع الانتقام، والحقد، واختراع الأسباب، ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ﴾.

١٨ ـ يجب أن لا يغترّ الزوج بقوامته، لأنّ الله فوق كلّ شيء، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

١٩ ـ إذا تأمّلنا قدرة الله وعلوّه، كان ذلك مفتاحاً للتقوى واجتناب ظلم الزوجة، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

□ تتناول مسألة حلّ الخلافات بين الزوج وزوجته والحيلولة دون تفاقم الأمر إلى

حدود الطّلاق، وتقترح لأجل ذلك تشكيل محكمة عائلية لإصلاح ذات البين على النحو التالي:

١ ـ انتداب حَكَم من أسرة الرجل وآخر من أسرة الزوجة، لأنّ رابطة القرابة تجعلهما أكثر حرصاً وشعوراً بالمسؤولية من الغرباء، وبالتالي تحدوهما رغبة صادقة لإصلاح ذات البين.

٢ ـ محكمة الصلح العائلية هذه لا تحتاج إلى نفقات.

٣ ـ تكون مهمّة المحكمة العائلية النظر في الاختلافات المطروحة على وجه السرعة ودون انتظار طويل أو مواجهة مشكلات العمل الإداري والروتين كما يحصل في المحاكم العامة.

٤ ـ لا تذيع هذه المحكمة أسرار الزوجين على الغرباء وبالتالي تُحلّ المشاكل في إطار عائلي.

٥ ـ ولمّا كان الحكمين من أقرباء الزوجين، فإنّهما بالنتيجة موضع ثقة الطرفين.

- وبغية حلّ المشكلات العالقة، فإنّه يجوز للزوجين اختيار الحكم.

- وروي أنّ نافع بن الأزرق جاء إلى محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه فجلس بين يديه يسأله عن مسائل في الحلال والحرام، فقال له أبوجعفر عليه السلام في عرض كلامه: «**قل لهذه المارقة مما استحللتم فراق أمير المؤمنين عليه السلام وقد سفكتم دماءكم بين يديه في طاعته والقربة إلى الله تعالى بنصرته؟ فسيقولون لك: إنّه حكم في دين الله، فقل لهم: حكم الله تعالى في شريعة نبيه بين رجلين من خلقه، فقال جل اسمه: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾**»[1].

- كما سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن الآية الكريمة ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ...﴾ فقال: «**قال ليس للحكمين أن يفرقا حتى يستأمرا**»[2].

---

(١) تفسير نور الثقلين؛ الطبرسي، الاحتجاج، ج٢، ص٥٨.

(٢) الكافي، ج٦، ص١٤٦.

التعاليم:

١ ـ الوقاية خير من العلاج، فالخشية من التفريق والطلاق تكفي للمبادرة لانتداب الحكمين، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾.

٢ ـ الأفضل عدم التدخّل في الحياة الخاصة للناس ما لم نخش وقوع الشقاق، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾.

٣ ـ الطلاق جدير بإثارة المخاوف والهواجس، ﴿خِفْتُمْ شِقَاقَ﴾.

٤ ـ الزوجان روح واحدة في جسدين. كلمة «**شقاق**» تستخدم في موضع يتمّ فيه تشطير الشيء إلى نصفين.

٥ ـ يجب الإسراع في إصلاح ذاتَ بَيْنِ الزوجين، الفاء في عبارة «فابعثوا» تدل على الإسراع في الأمر.

٦ ـ المجتمع يضطلع بمسؤولية تجاه حلّ الخلافات العائلية، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ... فَابْعَثُوا﴾.

٧ ـ الأقارب يتحمّلون مسؤولية مضاعفة لحلّ الخلافات العائلية، ﴿مِّنْ أَهْلِهِۦ... مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

٨ ـ للزوج والزوجة حقّ متساوٍ في اختيار الحكم، ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

٩ ـ يجب على المجتمع أن يضع ثقته في بعض الأفراد وينتدبهم للتحكيم، ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا﴾.

١٠ ـ مشاكل الناس تحلّ بجهودهم هم، ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾.

١١ ـ يجب عدم اليأس من إصلاح ذات البين، وأن نبذل سعينا لتحقيق ذلك، ﴿فَابْعَثُوا﴾.

١٢ ـ لنسعَ ألّا نبالغ في قلقنا، حَكَمٌ واحد من كل طرف يكفي، ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

١٣ ـ يهتمّ الإسلام بقضايا الشورى والتحكيم، ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ... أَهْلِهَا﴾.

١٤ ـ الأفضل حلّ الخلافات عائلياً لا عند القاضي والمحاكم، ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾.

١٥ ـ عندما يتعلّق الأمر بالحقوق، ينبغي حضور الطرفين، ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

١٦ ـ على الزوجين القبول بكلّ ما يصدر عن الحكمين. (مقتضى انتداب الحَكم القبول بحكمه)

١٧ ـ يجب توافر عناصر الوعي، والحفاظ على السرّ، وإصلاح ذات البين، في الحكام، ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾.

١٨ ـ توافر النوايا الحسنة ومقاصد الإصلاح يفتح الباب أمام التوفيق والسداد الإلٰهيّ، ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾.

١٩ ـ الله هو المتكفّل بالقلوب، ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾.

٢٠ ـ لا ينبغي أن يغترَّ الإنسان بعقله وتدبيره، بل عليه أن يعزو التوفيق إلى الله تعالى، ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ﴾.

٢١ ـ برنامج القرآن لإصلاح الأسرة نابع من العلم والحكمة الإلٰهيّة، ﴿عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

٢٢ ـ فلتصدق النوايا؛ لأنّ الله تعالى عليم بها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

□ تطرح الآية الكريمة سلسلة من الحقوق بدءاً بالحقوق الإلٰهيّة، ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، وانتهاءً بحقوق العبيد والإماء، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على شموليّة الإسلام وجامعيّته.

□ ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾، يعني الجار الذي بينك وبينه قرابة والجار البعيد، أو الذي يشترك معك في العقيدة والمخالف. هذا وقد جاء في الروايات أنّ حدّ الجوار أربعون داراً من كلّ جانب من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله[١]، وهذا يعني أنّه في المناطق الصغيرة يكون الجميع جيراناً.

□ ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾، وهو الرفيق والصديق، وكلّ من رافق الإنسان حيناً سواء أكان صديقاً دائماً أم مؤقّتاً، كرفيق السفر مثلاً، أو الذي يقصد الإنسان رجاء نفعه.

□ «ابنُ السبيل»، هو الذي ينقطع في السفر وربّما كان متمكناً في بلده لكنّا لا نعرفه ولا نعرف أصله ونسبه، كل ما نعلم هو أنّ السبل قد انقطعت به في السفر وأنّه بحاجة إلى المساعدة والعون المالي.

□ «المختال»، من مادة «خيال» والمقصود عندما يرى الشخص نفسه بسبب بعض المتخيّلات عظيماً وكبيراً، وسمّي الخيل «خيلاً» لأنّ مشيته تشبه مشية المتكبّر[٢].

□ توصي الآية الكريمة بالإحسان إلى الوالدين ويشمل ذلك محبّتهما، وخدمتهما، وتقديم العون المالي والعلمي والعاطفي لهما، والتشاور معهما.

□ والحقيقة أنّ الإحسان إلى الوالدين لا يشترط بأن يكونا صالحين، بل الطاعة المطلقة ما لم يأمرا بما يخالف رضا الله تعالى.

□ وعن أبي بصير عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أحد الوالدين وعلي الآخر، فقلت: أين موضع ذلك في كتاب الله؟ قال: اقرأ:** ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾»[٣].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٢، ص١٣١.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٣، ص١٣١.

(٣) تفسير العيّاشي، ج١، ص٢٤١.

التعاليم:

١ ـ عبادة الله وحدها لا تكفي، بل يجب معها اجتناب الشرك والرياء، ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ...﴾.

٢ ـ ذكرت الآية الكريمة الإحسان إلى الوالدين إلى جانب عبادة الله وتوحيده، ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ ... وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؟

٣ ـ العابد الحقيقي لله هو من يجد نفسه مسؤولاً عن ذوي القربى والمحرومين والجيران، ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ... وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

٤ ـ للجار البعيد أيضاً حقوق على الإنسان، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾.

٥ ـ عند الإحسان إلى الآخرين يجب مراعاة الأولوية، فالوالدان أوّلاً ثمّ ذوو القربى فاليتامى.

٦ ـ عدم الاهتمام بالوالدين، والأرحام، واليتامى، والمحرومين، في المجتمع مؤشّر كِبَر وفخر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

٧ ـ يجب أن يقترن الإحسان بالتواضع. يوصي الله تعالى بالإحسان في بداية الآية الكريمة، ويختمها بالنهي عن التكبّر، ﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

□ البخل نوعان، بخل بالمال وعدم إنفاقه على الآخرين وبخل بالعلم، والمقام، والقدرة، والإمكانيات.

التعاليم:

١ ـ الأمراض النفسية للإنسان لها القابلية على الانتشار، فالبخيل يرغب في أن يحذو الآخرون حذوه، ﴿يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾.

٢ ـ البخيل محروم من محبّة الله، ﴿لَا يُحِبُّ... مُخْتَالًا... ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾.

٣ ـ البخل من علامات الكبر والفخر، ﴿مُخْتَالًا فَخُورًا... ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾.

٤ ـ إظهار النعم الإلٰهيّة نمط من الشكر، وإخفاؤها هو نوع من عدم الشكر والجحود، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٥ ـ البخيل يتظاهر بالفقر ليتهرب من الإحسان، ﴿يَبْخَلُونَ... وَيَكْتُمُونَ﴾.

٦ ـ النعم هي من فضل الله وليست ثمرة جهودنا وتدبيرنا، ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٧ ـ لو علم الإنسان بحق أنّ النعم من عند الله، ما بخل بها، ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٨ ـ يكون البخل، أحياناً، باباً إلى الكفر، ﴿يَبْخَلُونَ... لِلْكَٰفِرِينَ﴾، وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿...وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ...﴾[1].

٩ ـ جزاء الغرور والكبر في الدنيا، الخزي والمهانة في الآخرة، ﴿مُخْتَالًا فَخُورًا... مُّهِينًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

◻ أحياناً، يلقي الشيطان وساوسه من بعيد في نفس الإنسان، وأحياناً يصاحب الإنسان فيكون له قريناً. والمؤمن من هو يتجنّب وساوسه وإغواءه، ولكن ما يستفاد من الآية ٣٦ من سورة الزخرف ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ هو أنّ من يعرض عن ذكر الله فإنّ الله سيهيّئ له شيطاناً لا يفارقه، ويكون له كظلّه.

(١) سورة فصّلت: الآيتان ٦ ـ ٧.

التعاليم:

١ ـ البخل وترك الإنفاق، والإنفاق رئاء الناس كلاهما مذموم. فالآية السابقة تذمّ البخل، وهذه الآية تستقبح الرياء في الإنفاق ﴿يَبۡخَلُونَ... يُنفِقُونَ... رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾.

٢ ـ سبب الرياء هو غياب الإيمان الحقيقي بالله ويوم القيامة، ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾.

٣ ـ الغاية من الإنفاق ليس إشباع الجوعى فحسب؛ إذ يمكن تحقيق ذلك عبر مراءاة الناس أيضاً، بل الغاية هي الارتقاء بروحية المنفق، ﴿يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾.

٤ ـ لا يحبّ الله المرائين، ﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا... وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾.

٥ ـ عندما يخلو القلب من الله يتحوّل مقرًّا دائماً للشيطان، ﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ... يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا﴾.

﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ٣٩﴾

التعاليم:

١ ـ الرثاء لحال المنحرفين أحد طرق الإنذار والتبليغ، ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ...﴾.

٢ ـ من مقتضيات الإيمان بالله الإنفاق على المحرومين، ﴿ءَامَنُواْ... وَأَنفَقُواْ﴾.

٣ ـ لا يقتصر الإنفاق على المال، بل إنّه يستحبّ الإنفاق من كلّ ما أنعم الله به علينا، (العلم، المكانة، السمعة...)، ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾.

٤ ـ إذا علم الإنسان أنّ النعم والرزق من الله تعالى، فإنّ ذلك سيقوّي في نفسه روح السخاء، ﴿رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾.

٥ ـ فليعلم البخيل أو المرائي أنّه في عين الله العليم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾

إشارات:

☐ في العادة ينبت الظلم في أرض الجهل أو الخوف، أو الفاقة، أو الجشع، أو غير ذلك، إلّا أنّ الله الغنيّ العليم منزّه عن كلّ ذلك، لذا، فحاشا له أن يُنسب إلى الظلم. ناهيك عن أنّه ﷻ قد أمر بالعدل والإحسان، فكيف يستقيم ذلك مع الظلم؟ لقد ضاعف الثواب لعباده إلى عشرة أضعاف (من عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف)، وهذا هو الإحسان واللطف الإلٰهيّ.

التعاليم:

١ ـ الله تعالى عادل لا يظلم، وعقوبته لعبده إنّما هي جزاء لما اقترفته يداه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ﴾.

٢ ـ العقوبات الإلٰهيّة على قدر المعاصي؛ لكنّه سبحانه عند الثواب يجزل العطاء لعباده أضعافاً مضاعفة، ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾.

٣ ـ يضاعف الله تعالى الحسنات، ويزيد ذلك بأجرٍ عظيم من لدنه، ﴿مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾

إشارات:

☐ لقد ورد نظير مضمون هذه الآية في مواضع أخرى من القرآن الكريم، وهي تدلّل على مسألة الشهود، وأنّ رسول الله ﷺ سيكون شاهداً على أمّته في يوم القيامة[١]. وجاء في الروايات: أنّ النبي ﷺ قال لابن مسعود: «**إقرأ القرآن**

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣؛ سورة النحل: الآية ٨٩؛ سورة الحج، الآية الأخيرة.

علي»، قال: فقلت يا رسول الله أنت الذي علمتنيه فقال: **«أحب أن أسمعه من غيري»**، قال ابن مسعود: فافتتحت سورة النساء، فلما انتهيت إلى هذه الآية بكى الرسول ﷺ، قال ابن مسعود فأمسكت عن القراءة[١].

❑ من المعلوم أنّ الله تعالى في غنى عن الإتيان بشهود في يوم القيامة، إلَّا أنّ تربية الإنسان ونفسيّته تستأنس بالشهود، إذ كلّما كان حضورهم أكبر ترك ذلك أثراً بليغاً في تربيته وتقواه. فمثلاً، من يتحدّث في التلفزيون وعلى الهواء أمام الملايين من المشاهدين يكون أكثر تقيّداً بالأصول، لأنّ حدوث أيّة غلطة أو عطسة مثلاً، سوف تسبّب له إحراجاً أكبر.

❑ الشهود في يوم القيامة كثر، بحسب ما تؤكد ذلك آيات القرآن الكريم، ومن جملة هؤلاء الشهود:

١ ـ الله سبحانه وتعالى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢].

٢ ـ الأنبياء، ﴿جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾[٣].

٣ ـ الأئمة المعصومين، ﴿جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾[٤].

٤ ـ الملائكة، ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[٥].

٥ ـ الأرض، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[٦].

٦ ـ الزمان، ففي رواية عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام نقرأ: **«ما من يوم يمرّ على بني آدم إلَّا قال له ذلك اليوم: أنا يومٌ جديد وأنا عليك لشهيد، فافعل فيّ خيراً، واعمل فيّ خيراً أشهد لك به يوم القيامة، فإنّك لن تراني بعد هذا أبداً»**[٧].

---

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي؛ تفسير المراغي.
(٢) سورة الحج: الآية ١٧.
(٣) سورة النساء: الآية ٤١.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٣.
(٥) سورة ق: الآية ٢١.
(٦) سورة الزلزلة: الآية ٤.
(٧) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص١١٢.

٧ ـ أعضاء جسم الإنسان، ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾[(١)].

والقيامة، حيث يقوم فيها الشهود للشهادة، ﴿...وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[(٢)].

□ جرت سنّة الله على أن يكون كلّ نبي شاهداً على أمّته. بعد انتقال النبي الأعظم ﷺ إلى الرفيق الأعلى، كان لزاماً أن يوجد شخص أقرب في صفاته إلى النبي يكون شاهداً على الناس. قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في قول الله ﷻ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال: «**نزلت في أمّة محمد ﷺ خاصّة، في كل قرن منهم إمام منّا شاهدٌ عليهم ومحمّد ﷺ شاهدٌ علينا**»[(٣)].

□ كما يُنقَل عن الإمام علي عليه السلام بعد تلاوته هذه الآية الكريمة: «**هو ـ محمّد ـ شهيد على الشهداء والشهداء هم الرّسل**»[(٤)].

التعاليم:

١ ـ الأنبياء أسوة الناس في الدنيا، والشهود عليهم في الآخرة، ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾.

٢ ـ شرط الشهادة العلم، وعليه فإن الأنبياء مطّلعون على أعمالنا، ﴿بِشَهِيدٍ﴾.

٣ ـ النبي ﷺأشرف الأنبياء؛ لأنّ الأنبياء شهداء على أعمال أممهم، والنبي الكريم شاهد على أعمال الأنبياء، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

□ العاصون من الكفّار يتنكرون، قبل قيام الشهود، لما ارتكبوا من معاصٍ

(١) سورة النور: الآية ٢٤.

(٢) سورة غافر: الآية ٥١.

(٣) نور الثقلين، ج١، ص٣٩٩.

(٤) تفسير البرهان؛ تفسير العيّاشي.

وفساد، لذا يفتّشون عن سبل الفرار والخلاص، فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1]. ولكن حين يعرض الشهود الحقائق على الملأ، فلا يبقى مجال لكتمانها والتستّر عليها.

□ تعرض آيات القرآن أماني العاصين وحسراتهم في يوم القيامة على هذا النحو:

﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[2] ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[3] ﴿...لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[4] ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[5].

التعاليم:

١ ـ التمرّد على أوامر الرسول الكريم ﷺ هو بمثابة الكفر بالله، ﴿كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

٢ ـ يوم القيامة، يوم الحسرات والأماني الضائعات، ﴿يَوَدُّ ... لَوْ تُسَوَّىٰ﴾.

٣ ـ في يوم القيامة سيكشف الستار عن كلّ قول وفعل ولن تخفى خافية، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

□ نزل حكم تحريم شرب الخمر في صدر الإسلام على مراحل، ففي البداية، اعتُبر الخمر شراباً مذموماً، ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٣.
(٢) سورة النبأ: الآية ٤٠.
(٣) سورة مريم: الآية ٢٣.
(٤) سورة الفرقان: الآية ٢٨.
(٥) سورة الفجر: الآية ٢٤.

حَسَنًاۗ﴾[١]، ثمّ نزلت هذه الآية التي نحن بصددها[٢] والتي تنهى عن إقامة الصلاة في حالة السُّكر، بعد ذلك بيّنت آية أخرى بأنّ مضارّ الخمر أكثر من منافعه، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ﴾[٣]، وأخيراً نزل حكم تحريم شرب الخمر باعتباره نجساً ومن عمل الشيطان، ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ... مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٤].

- هذا، وقد نهت الروايات المؤمن عن القيام إلى الصلاة متكاسلاً، أو متناعساً، أو متثاقلاً[٥].

- كما أشارت بعض الآيات إلى أنّ القيام إلى الصلاة في حالة الكسل وعدم الوعي الكامل هو من خصال النفاق[٦].

- **«الغائط»** هو الوادي أو المنخفض من الأرض، ذلك لأنّ الإنسان في تلك العصور كان يلتمس مكاناً منخفضاً لقضاء حاجته ليكون في ستر عن أعين الناظرين، لذا فالغائط كناية عن قضاء الحاجة.

- يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«(الصعيد) الأرض المرتفعة التي ينحدر منها الماء»**[٧].

- وسُئل عليه السلام أيضاً عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فقال: **«هو الجماع ولكنّ الله ستير يحبّ السّتر فلم يُسمّ كما تسمّون»**[٨].

التعاليم:

١ ـ منزلة الصلاة من الرفعة بحيث لا يجوز لشارب الخمر أن يقربها، ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾.

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٧.
(٢) تفسير العيّاشي.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٩.
(٤) سورة المائدة: الآية ٩٠.
(٥) الكافي، ج٣، ص٣٧١.
(٦) سورة النساء: الآية ١٤٢؛ سورة التوبة: الآية ٥٤.
(٧) بحار الأنوار، ج٧٦، ص٣٤٧.
(٨) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص١٣٣.

٢ ـ ليست الصلاة مجرّد التفوّه بالأذكار وأداء حركات الركوع والسجود، بل لا بدّ من الخشوع واستنفار المشاعر والحواس، ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ﴾.

٣ ـ لا قيمة تُذكر لعبادة من دون وعي أو خشوع، وإن أدّت إلى سقوط التكليف، ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾.

٤ ـ لا يجوز للمسلم دخول المسجد وهو جُنُب، ﴿وَلَا جُنُبًا...﴾.

٥ ـ لا بدّ للغسل من أن يشمل جميع أعضاء الجسم، فالآية الكريمة لم تذكر عضواً محدّداً، ﴿تَغۡتَسِلُواْۚ﴾.

٦ ـ احتمال حدوث الخطر أو الضرر يرفع التكليف عن الإنسان أو يخفّفه، ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ... فَتَيَمَّمُواْ﴾.

٧ ـ يجب التزام أصول الأدب في التعبير والكلام،(فعبارة ﴿جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ كناية عن الجماع)[1].

٨ ـ يوجد تخفيف في أحكام الله لا تعطيل. فإذا لم يحضر الماء وجب التيمّم، ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ﴾.

٩ ـ الطهارة هي شرط العلاقة بالله عن طريق الصلاة؛ والطهارة يتمّ من خلال الوضوء والتيمّم، ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ﴾.

١٠ ـ تخفيف الأحكام مظهر من مظاهر الرحمة والمغفرة الإلٰهيّة، ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ... عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ العلم بالكتاب لا يكفي لتحقق الهداية، ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾.

---

(١) تهذيب الأحكام، ج١، ص٢٢.

٢ ـ إحاطة علماء أهل الكتاب بالتعاليم الإلٰهيّة ناقصة، وهذا النقص يؤدّي إلى الانحراف، ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾.

٣ ـ العلماء المنحرفون يستغلّون علمهم ومقامهم كشَرَك لحرف الآخرين وإضلالهم، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

التعاليم:

١ ـ إنّنا قد نخطئ في تشخيص أعدائنا، لكنّ الله أعلم بأعدائنا الحقيقيين، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾.

٢ ـ في ظلّ الوعود الإلٰهيّة المبنيّة على ولاية المؤمنين ونصرتهم، لا ينبغي أن نخشى المؤامرات والعداوات، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾.

٣ ـ يجب استتباع الولاية بالقدرة والنصرة، ﴿وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

- تعبير ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ هو كمن يقول على سبيل الاستهزاء والسخرية: سمعنا قولك وعصينا أمرك، أو كما يقال: «منك القول ومنا عدم الطاعة».
- كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ ﴿رَٰعِنَا﴾[1] أي تفقّدنا وأمهلنا وكانوا صادقين في قولهم، أمّا اليهود فاستغلّوا الكلمة لتحريفها عن معناها إلى معنى

(١) إذا اشتُقّت «راعنا» من مادة «الرعي» تكون بمعنى فعل الطلب من المراعاة والمراقبة، وبمعنى أمهلنا، أمّا إذا اشتُقّت من «الرعونة» أي «راعنّا» بتشديد النون فتعني «اخدعنا واجعلنا حمقى» يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء والسبّ.

قبيح قصداً للاستهزاء بالنبي والإساءة إليه. فكانوا يلجأون إلى تشديد النون «راعنّا» والتي تعني أنّ النبي الكريم ﷺ كان ـ والعياذ بالله ـ يمارس خداع الناس واستغلال سذاجتهم. فاليهود بليّهم ألسنتهم وتحريف الكلمات وتغييرها، إنّما يريدون احتقار المسلمين والاستهزاء بالنبي الأكرم.

التعاليم:

١ ـ يجب أن لا يتحمّل الآخرون وزر بعض العاصين، ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ...﴾.

٢ ـ تحريف معاني بعض الكلمات والعادات، من المعاصي الأساس الممهّدة لغيرها من المعاصي والتي تتسبّب في إضعاف الدين، ﴿لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾.

٣ ـ الإساءة إلى المقدّسات وانتهاك الحرمات هو سلاح الكفّار على الدوام، ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾.

٤ ـ التصديق بدعوة الأنبياء، مدعاة للصلاح والثبات، ﴿خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ﴾.

٥ ـ مصير الإنسان هو جني عمله وخياره الشخصي، ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

- لعلّ المقصود بـ ﴿أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهَآ﴾هو حرف الفؤاد والفطرة السليمة، والعقل، والذهن، عن التماس طريق السعادة، فإنّك ترى الإنسان، بسبب اللجاج والعناد إزاء آيات الله، يتقدّم خطوة ويتأخّر خطوتين، أو قد يكون المقصود أنّ الله تعالى يمسخ وجوههم الإنسانية على غير خلقها ويمحو صورهم، أو يجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى، أو يمسخ صورهم في يوم القيامة.
- أصحاب السبت، هم جماعة من اليهود عصوا أمر ربّهم القاضي بتحريم صيد

السمك في أيّام السبت، فلجأوا إلى حيلة ماكرة وهي حبس الأسماك في يوم السبت، ثمّ اصطيادها في يوم الأحد، وقد باؤوا بغضب الله من وسخطه، فمسخهم قردة[١].

التعاليم:

١ ـ يدعو الإسلام أتباع الأديان الأخرى إلى الإيمان بدين الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟﴾.

٢ ـ الخطاب الإلٰهيّ موجّه بصورة خاصّة إلى النخب العلمية والواعية في المجتمع إذ يتحمّلون مسؤولية أكبر، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟﴾.

٣ ـ حبّذا لو ينطوي أسلوب الدعوة والتبليغ على احترام العقائد والمشتركات الحقّة للآخرين، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾.

٤ ـ رسالات جميع الأنبياء منسجمة في خطوطها العامة، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾.

٥ ـ يجب رفع عصا الوعيد بوجه الأشخاص المعاندين، ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ﴾

٦ ـ لكي يكون التهديد مؤثّراً، من الأفضل التنبيه إلى أمثلة موضوعيّة وعملية، ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾.

٧ ـ السخط على المعاندين اللجوجين سنّة إلٰهيّة، ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾.

٨ ـ أمر الله تعالى نافذ وواقع لا محالة، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

- لقد ذكر القرآن الكريم موضوع الشرك مئات المرات، وحمل بشدّة على أيّ توجّه لغير الله تحت أيّ عنوان أو ذريعة كانت (عبادة الأوثان، الرياء،

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٣.

الاتجاهات غير الإلٰهيّة، المادّية، وغيرها). وبالنسبة إلى هذه الآية الكريمة، فقد تكرّرت بالمضمون نفسه والألفاظ نفسها في الآية ١١٦ من السورة نفسها، ولا شك أنّ في التكرار هداية.

- لمّا كان الشرك خروجاً عن دائرة الحقّ، والانقطاع عن الله، والالتحاق بالآخرين، فإنّ هذا الذنب لا يُغفر بدون الرجوع والتوبة، فإذا تحوّل المشرك عن شركه وكانت توبته حقيقيّة، فحينئذ حقّ على الله تعالى أن يغفر له ويتوب عليه. يقول ﷻ في الآية ٥٤ من سورة الزمر: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

- ما دام لا أحد يعرف من سيشمله الله تعالى برحمته وحكمته، فلا مجال للغرور والجرأة على ارتكاب المعصية.

- طرق العفو والمغفرة الإلٰهيّة عديدة هي: ١ ـ التوبة، ٢ ـ القيام بالأعمال الصالحة، ٣ ـ اجتناب الكبائر، ٤ ـ الشفاعة، ٥ ـ العفو الإلٰهيّ الذي يشمل الأشخاص اللائقين له.

- عن سليمان بن خالد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ **الكبائر فما سواها، قال، قلتُ: دخلت الكبائر في الاستثناء، قال: نعم**[1].

التعاليم:

١ ـ الشرك أقبح المعاصي، وحجاب دون المغفرة والصفح الإلٰهيّ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾.

٢ ـ غفران المعاصي رهن بإرادة الله الحكيمة، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

٣ ـ الشرك زعم بلا برهان، وفرية كبرى، ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) الكافي، ج٢، ص ٢٨٤.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

□ يحمل القرآن الكريم في هذه الآية على صفة ذميمة وهي أن يمتدح الإنسان ذاته، ويزكيها، ويدّعي الفضل والامتياز والتفوّق لها. وفي موضع آخر يقول ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[1]. يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في حديثه إلى «همام» يذكر فيه صفات المتّقين: «**لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ**»[2].

التعاليم:

١ ـ امتداح الذات النابع من الغرور والشعور بالتفوّق مذموم، ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

٢ ـ التزكية القيّمة هي المستندة إلى الأحكام الإلٰهيّة لا الإرشادات البشرية، ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾.

٣ ـ العقوبة الإلٰهيّة مردّها قبائح الإنسان، فالله لا يظلم أحداً، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

□ إنّ الشعور بالتفوّق والاستعلاء لدى اليهود ـ إذ يعتبرون أنفسهم العنصر البشريّ الأرقى وأنّهم أبناء الله وأحباؤه ـ هو نوع من الكذب وافتراء عظيم على الله،

(١) سورة النجم: الآية ٣٢.

(٢) نهج البلاغة، خطبة المتقين.

ذلك أنّه ﷻ لم يتّخذ أحداً ولداً له، فجميع عباده سواسية عنده، ولا فضل إلّا بالإيمان والتقوى.

□ يشمل الافتراء، مضافاً إلى الكذب، الاتّهام، والأذى، والظلم، وانتهاك الكرامة، والافتراء على الله مبطل للصوم.

□ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ﵇ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَ جَلَّ - جَعَلَ لِلشَّرِّ أَقْفَالًا، وَجَعَلَ مَفَاتِيحَ تِلْكَ الْأَقْفَالِ الشَّرَابَ، وَالْكَذِبُ شَرٌّ مِنَ الشَّرَابِ**»[1]. ومعلوم أن الافتراء أعظم من الكذب.

التعاليم:

١ - النبي مكلّف بالكشف عن أعمال أهل الكتاب وعقائدهم وتقييمها، ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ...﴾.

٢ - تزكية النفس بغير حقّ، وادّعاء الاصطفاء من الله والقرب إليه، افتراء على الله وحاجب دون الاعتلاء. «الإثم» في اللغة يطلق على الأفعال المبطئة للثواب والصلاح، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول هذه الآية: إنّه بعد معركة أحد توجّه أحد أقطاب اليهود وهو «كعب بن الأشرف» مع سبعين شخصاً من اليهود إلى مكة للتحالف مع مشركي مكة ضدّ رسول الله ﷺ والمسلمين ونقض ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من الحلف. فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود في دور قريش فقال أهل مكة: إنّكم أهل كتاب ومحمّد صاحب كتاب، فلا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين

---

(١) الكافي، طبعة دار الحديث، ج٤، ص ٤١.

الصنمين (وأشاروا إليها) وآمن بهما، ففعل. ثمّ اقترح كعب بن الأشرف على أهل مكة قائلاً: يا أهل مكة ليجيء منكم ثلاثون ومنّا ثلاثون فنلصق أكبادنا بالكعبة، فنعاهد ربّ هذا البيت لنجهدنّ على قتال محمّد، ففعلوا ذلك. فلمّا فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنّك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميّون لا نعلم، فأيّنا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحقّ، نحن أم محمّد؟ قال كعب: اعرضوا عليّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء (وهي الناقة العظيمة السنام)، ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونعمّر بيت ربّنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمّد فارق دين آبائه، وقاطع الرحم، وفارق الحرم، وديننا القديم، ودين محمّد الحديث. فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً ممّا عليه محمّد. فأنزل الله تعالى هذه الآيات إجابة لهم وردّاً عليهم(١).

- يقال لكل ما عبد من دون الله: جبتاً، وسمّي الساحر والكاهن جبتاً(٢). وهذه المرة الوحيدة التي وردت فيها الكلمة في القرآن الكريم. أمّا لفظة **«الطاغوت»** فهي صيغة مبالغة من مادّة **«الطغيان»** والتي تعني التعدّي وتجاوز الحدّ، والطاغوت عبارة عن كل معتد، وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع، ولهذا سمّي الساحر، والكاهن، والمارد من الجن، والصارف عن طريق الخير، طاغوتاً. وقد وردت في ثمانية مواضع في الكتاب. وربّما كان المقصود بالجبت والطاغوت الصنمين اللذين سجد لهما اليهود، أو أنّ الجبت هو اسم الصنم، والطاغوت عبدة الأصنام والمدافعون عن هذه العبادة.

التعاليم:

١ ـ العلم الناقص بالدين يفضي إلى الانحراف، ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

---

(١) تفسير نمونه، ج٣، ص ٤١٧.

(٢) **«الجبت»** ليس من محض العربية؛ وقيل: إنّ أصلها كان **«جبس»** والجبس هو الفسل، أي الرذل والنذل الذي لا مروة له، ولا خير فيه وقيل: التاء بدلاً من السين تنبيهاً على مبالغته في الفسولة. (بالاقتباس من مفردات القرآن الكريم للراغب الأصفهاني).

٢ ـ الأعداء مستعدّون للتخلّي حتى عن معتقداتهم في سبيل محاربة الإسلام. (سجود اليهود للصنم كان إرضاءً للمشركين وعداءً للمسلمين، ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾.

٣ ـ روح اللجاج والعناد تسلب المرء القدرة على الحكم السليم، ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ... هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ كلّ اتحاد ضدّ الحقّ ملعون، ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ الحلف المشؤوم للأعداء ضدّ الحقّ لن يحقّق أهدافه أبداً، ولن يفيد في شيء في مقابل الإرادة الإلٰهيّة، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

٣ ـ من ينبذه الله محكوم عليه بالخسران والهزيمة أبداً، ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾

إشارات:

❑ «النقير» ما في شق ظهر نواة التمر، ومنه تنبت النخلة وهي مشتقة من «نقر» وهو الدقّ في شيء بحيث يوجد فيه ثقباً واشتقّ منه المنقار، وقيل: النقير وقبة صغيرة جداً في ظهر النواة ويضرب به المثل في الشيء الطفيف[1]، أو ما يلتقطه الطائر بمنقاره، والمقصود به المبالغة في الحقارة.

❑ سئل الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: «﴿نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ فكان جوابه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾، **يقولون لأئمة الضلالة والدعاة إلى النار:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ﴾ **من آل محمد** ﴿سَبِيلًا أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ذيل الآية.

وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ **قال: يعني الإمامة والخلافة ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ نحن الناس الذين عنى الله والنقير النقطة التي في وسط النواة»**[١]. والمعنى، أنّ أناساً إذا ما قيّض لهم أن يحكموا، فلن يمكنوا أهل بيت النبي ﷺ مقدار النقطة التي في وسط النواة.

- ورد في تفسير مجمع البيان أنّ اليهود اشتهروا بخصلة الاستئثار لدرجة أنّهم لو مُكنوا في الأرض فلن يعطوا الآخرين شيئاً، وهو ما يتّفق مع روح البخل وضيق الأفق التي يتّصف بها هؤلاء القوم.

التعاليم:

١ ـ لا تهمّكم الآراء المغرضة للآخرين في دينكم، ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾.

٢ ـ الحكومة السرمدية لله وحده، أمّا الأفراد والجماعات فلهم أن يقضوا وطرهم من الحكومة لأيام قليلة، ﴿نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾.

٣ ـ انتبهوا إلى أعدائكم، لأنّهم إذا استلموا زمام الأمور، فسيتجاهلونكم تماماً، ﴿لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ...﴾.

٤ ـ من استلم مقاليد السلطة عليه أن يهتمّ بمعائش الناس ورفاهيتهم، ﴿نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ... لَّا يُؤْتُونَ﴾.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

إشارات:

- أشارت الآية السابقة إلى بخل اليهود، وهنا تتناول الآية صفة أخرى لهؤلاء القوم وهي الحسد، ولا غرو أنّ الحسد أبغض من البخل. ففي البخل، يمتنع البخيل عن بذل ماله، أمّا الحسود، فهو ينزعج لبذل غيره ماله.

لقد كان اليهود في الماضي موضع لطف الله وكرمه إذ أغدق عليهم

---

(١) الكافي، ج١، ص ٢٠٥.

المواهب والنعم، فلماذا يستشيطون غضباً ويحسدون الآخرين إذا ما أناط الله بهم القدرة والنعمة؟ ولكن لماذا ينعم آل إبراهيم بالمقام الإلٰهيّ والملك إلى الأبد، ويُحرم آل محمد وبنو هاشم؟

وقد ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام قولهم في المحسودين في هذه الآية: «**نحن المحسودون**»[١].

□ يقول أحد الأصحاب، سألت الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: «﴿**فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ **فقال: النبوّة، قلتُ: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قال: الفهم والقضاء، قلتُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ فقال: الطاعة**»[٢].

ويقول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾: «**الملك العظيم أن جعل فيهم أئمة من أطاعهم أطاع الله ومن عصاهم عصى الله فهو الملك العظيم**»[٣].

كما نُقل عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «**نحن آل إبراهيم**»[٤].

التعاليم:

١ ـ الحسود يقف ضدّ إرادة الله تعالى، ﴿يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ فضل الله مصدر جميع النعم والمواهب، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، بدلاً من تمنّي زوال نعمة الآخرين، ادعوا الله أن يرزقكم من فضله.

٣ ـ توافق أهواء أهل الكتاب والمشركين، والحكم بأنّ شرك المشركين أفضل من توحيد المسلمين منشؤه الحسد. قرأنا في الآيات السابقة أنّ اليهود قالوا للمشركين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ﴾، وفي هذه الآية نقرأ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ﴾.

٤ ـ إنّه سبحانه وتعالى مصدر جميع الألطاف، (تكرّر ذكر كلمة ﴿ءَاتَيْنَا﴾ ثلاث مرات).

٥ ـ يجب أن يناط الحكم الإلٰهيّ بمن كانت له منزلة علمية وروحية قبل الحكم، وكان يحظى بالحكمة. لاحظ أنّ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ جاء قبل «**الحكمة**» و«**الملك**

---

(١) الكافي، ج١، ص١٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) بحار الأنوار، ج٢٨، ص٢٧٥.

العظيم». (نعم، إنّ النعم المعنوية لها الأولوية على النعم الماديّة)، ﴿ءَاتَيْنَا... ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

إشارات:

❑ تبديل الجلود الناضجة في كلّ لحظة بجلود جديدة هو جزاء ما أبدوا من لجاج وعناد. ورد في تفسير الصافي: «إنّ أبي العوجاء، أحد المنكرين للدين في عصر الأئمة، سأل الإمام جعفر الصادق عليه السلام بعد تلاوة هذه الآية: «وما ذنب الغير»؟ يعني ما ذنب الجلود الجديدة، فردّ الإمام عليه السلام على السؤال قائلاً: «**هي هي وهي غيرها**»؛ يعني أنّ الجلود الجديدة هي الجلود السابقة نفسها في حين أنّها غيرها. فقال ابن أبي العوجاء الذي كان يعلم أنّ في هذه العبارة القصيرة سرّاً: مثّل لي في ذلك شيئاً من أمر الدنيا. فقال الإمام عليه السلام: «**أرأيت لو أنّ رجلاً أخذ لبنة فكسرها، ثمّ ردّها في ملبنها، فهي هي، وهي غيرها**»[1].

التعاليم:

١ ـ عذاب الكافرين خالد ودائم، ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا﴾.

٢ ـ الجلود الجديدة إمعانٌ في العذاب وزيادةٌ في الإيذاء، (لأنّه عند الصلي تكون الجلود أكثر مناطق الجسم شعوراً بالألم والعذاب، وإذا وصلت النار إلى العظام، سيخفّ الألم حينئذ)، ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا﴾.

٣ ـ المعاد هو معاد جسماني، ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا﴾.

٤ ـ لا يعتاد الكافر أبداً على العذاب بسبب استمراريّته، ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

٥ ـ خلود العذاب بالنسبة إلى الكفّار من شؤون الحكمة الإلٰهيّة، وما من قوّة قادرة على وقف غضب الله في نار جهنّم، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

---

(١) الطبرسي، الاحتجاج، ج٢، ص ٣٥٤.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

إشارات:

□ الأسلوب التربوي يقتضي اتّباع مبدأي الخوف والرجاء معاً. الآية السابقة استخدمت أسلوب الخوف، وهنا تتناول الآية أسلوب الرجاء.

□ «**الظليل**»، الكثيف والدائم الممتدّ الذي لا يزول، واشتقاق الصفة من لفظ الموصوف للمبالغة.

□ سُئل الإمام الصادق عليه السلام ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ فقال: «**من الأدناس التي تكون في نساء الدنيا من حيض وحدث**»[1].

التعاليم:

١ ـ الإيمان والعمل الصالح شرطان يجب توافرهما للدخول إلى الجنّة، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ﴾.

٢ ـ لطف الله سبق غضبه. (وردت كلمة «سوف» في الآية السابقة وهي في العربيّة تستخدم للمستقبل البعيد، فيما تستخدم «السين» للمستقبل القريب).

٣ ـ طهارة نساء الجنّة جسمية وروحية، (﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ تطلق على التي تطهّر جسمها وروحها من كلّ دنس).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

إشارات:

□ الأمانة والعدل واجتناب التمييز من العلائم المهمّة للإيمان. كما إنّ خيانة الأمانة علامة على النفاق. وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لا**

(١) من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٥٠.

تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإنّ ذلك شيءٌ اعتاده، فلو تركه استوحش، لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته»[١].

❑ وقد ذكرت روايات عدّة أنّ مراد الآية الكريمة من الأمانة **هم الأئمة من آل محمد ﷺ أن يؤدي الإمام الأمانة إلى من بعده ولا يخصّ بها غيره ولا يزويها عنه**[٢]. وهذا هو المصداق الأبرز للعمل بهذه الآية.

نعم، إنّ مفتاح السعادة في المجتمع هو أن يمسك بزمام الأمور أشخاص مؤهّلون جديرون بتحمّل المسؤولية، وأن يسوسوا الناس بالعدل، لأنّ التاريخ قد أثبت أنّ منشأ القلاقل الاجتماعيّة هو أن يتبوّأ المنحرفون وغير الأكفاء المناصب والمسؤوليات، وكذلك الأحكام الظالمة والجائرة. يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: **«من تقدّم على قوم من المسلمين وهو يرى فيهم من هو أفضل، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»**[٣].

❑ يمكن القول إنّ: خيانة الأمانات تشمل كتمان العلم، والصنعة، والحقائق، والاستيلاء على أموال الناس بغير الحقّ، وطاعة حكام الجور، واختيار الزوجة غير الصالحة، أو اختيار المعلم غير الكفء للأبناء وغير ذلك.

❑ وقيل في معنى هذه الآية نقلاً عن الإمام الباقر عليه السلام: **«أحدها أنّها في كلّ من اؤتمن أمانة من الأمانات، أمانات الله تعالى أوامره ونواهيه»**[٤].

❑ كما سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ فقال: **«أمر الله الإمام الأول أن يدفع إلى الإمام الذي بعده كلّ شيء عنده»**[٥].

❑ ولا بدّ من القول إنّ الأمانة على ثلاثة أوجه:

أ ـ بين العبد وربّه، (وهي التكاليف والواجبات التي فرضها الله تعالى على عباده)[٦].

---

(١) الكافي، ج٢، ص ١٠٥.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٤٩٦.
(٣) الغدير، ج ٨، ص٢٩١.
(٤) تفسير نور الثقلين.
(٥) الكافي، ج١، ص٢٧٧.
(٦) تفسير مجمع البيان.

ب ـ بين الإنسان وأخيه الإنسان، (أن يستأمنه الآخرون على أموالهم وأسرارهم).

ج ـ بين الإنسان ونفسه، (من قبيل أن يُستودَع الإنسان العلم والعمر والسلطة، وهي جميعها أمانات).

التعاليم:

١ ـ إناطة المسؤوليات بأهلها، والقضاء العادل، من أمثلة العمل الصالح، وإحدى علائم الإيمان، (في ضوء مفهوم الآية السابقة).

٢ ـ لكلّ أمانة صاحب، ولكلٍّ أهليّة واستعداد لأداء عمل معيّن أو تبوّؤ منصب ما، ﴿أَهْلِهَا﴾.

٣ ـ لا يشترط الإيمان في أداء الأمانة أو إقامة العدل. فعلى المرء أن يكون أميناً وعادلاً مع جميع الناس، ﴿أَهْلِهَا... ٱلنَّاسِ﴾.

٤ ـ على القاضي والحاكم أن يحكما بالعدل، ﴿تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٥ ـ لا بدّ من وجود حكومة، فمن مستلزمات إناطة المسؤوليات إلى من يستحقّها والقضاء العادل هي إقامة الحكومة الإلٰهيّة، ﴿تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ... تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٦ ـ الموعظة الحسنة تعني، مضافاً إلى إسداء النصح الأخلاقية، الاهتمام بالقضايا الاجتماعيّة والقضائية، ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾.

٧ ـ حتى لو لم يكتشف الناس خيانة الأمانة أو عدم مراعاة العدالة في القضاء، فإنّ الله من فوقهم سميع بصير، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

□ تعرّفنا في الآية السابقة على مسؤوليات الحاكم، وضرورة توافره على صفتي

العدالة والأمانة، لتنقلنا هذه الآية إلى مسؤوليات الناس تجاه الله والنبي الأكرم ﷺ. من البديهي، أنّه مع وجود ثلاث مرجعيات هي «الله»، و«النبي»، و«أولي الأمر»، لن تضلّ الأمّة ولن تدخل في متاهة. والحقيقة أنّ طاعة هذه المرجعيات لا تصطدم بالتوحيد القرآني؛ لأنّ طاعة النبي وأولي الأمر هي قبس من طاعة الله، وتقع في طولها وليس في عرضها، وأنّ الله تعالى هو الذي فرض طاعة تينك المرجعيّتين لذلك فإنّ طاعة النبي وأولي الأمر ناشئة من أمر الله.

- جاء في تفسير «الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل» نقلاً عن ابن عباس أنّ النبي الأكرم ﷺ حين عزم على غزوة تبوك، استخلف الإمام علياً عليه السلام فقال ﷺ: **«أنت مني بمنزلة هارون من موسى»**، فنزلت هذه الآية.

- حثّت الآية السابقة على ردّ الأمانات إلى أهلها، فيما تقول هذه الآية: ردّ الأمانة إلى أهلها يكون في ظلّ طاعة الله ورسوله وأولي الأمر.

- يشير تكرّر أمر ﴿أَطِيعُوا۟﴾ في الآية إلى مسألة تعدّد الأوامر، فالنبي الكريم ﷺ كان يقوم أحياناً بتفسير الأحكام الإلٰهيّة وتبيينها، وأحياناً أخرى كان هو نفسه يصدر أحكاماً وقرارات، وهذا يعني أنّه ﷺ كان يجمع بين مقامي الرسالة والحكومة في آنٍ معاً. يخاطب القرآن الكريم في أحد المواضع الرسول الكريم بالقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. وفي موضع آخر يقول: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[2].

- كما إنّ القرآن الكريم يأمر النبي ﷺ بعدم طاعة المفسدين، والمسرفين، والضالين، والجاهلين، والجبّارين، بقوله «لا تطع» و«لا تتبع». وعليه، فإنّ المعنيّين بالحكم القرآني «أطيعوا» يجب ألّا يكونوا ممّن نهى الله تعالى عن طاعتهم، وأن لا تتعارض طاعتهم مع طاعة الله ورسوله.

- تذكر الآية الكريمة وجوب طاعة أولي الأمر، ولكن لم تحكم بمراجعتهم في

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٢) سورة النساء: الآية ١٠٥.

حال نشوب خلاف أو نزاع، بل أوضحت أنّ المرجع الوحيد لفضّ النزاعات هو الله تعالى ورسوله. وفي هذا دليل على أنّه لو برز أيّ خلاف حول من هم أولو الأمر ومصاديقهم، فإنّ الرجوع في هذه الحالة يكون إلى الله ورسوله، إذ ذكرت الأحاديث النبوية الشريفة أنّ أهل بيت النبوة عليهم السلام هم مصاديق أولي الأمر[١].

□ عن الحسين بن أبي العلاء قال: ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام قولنا في الأوصياء إنّ طاعتهم مفترضة، فقال: **نعم هم الذين قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، وهم الذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**[٢].

□ يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في (الخطبة ١٢٥ في نهج البلاغة): **«فقد قال الله تعالى لقوم أحبّ إرشادهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، فالردّ إلى الله: الأخذ بمحكم كتابه والردّ إلى الرسول: الأخذ بسنّته الجامعة غير المفرّقة».**

□ ويقول الإمام علي عليه السلام: **«الحاكم بغير ما حكم به أهل بيت النبوة طاغوت»**[٣].

التعاليم:

١ ـ على الأمة الانقياد للنظام الإسلامي والدفاع عن القادة الإلٰهيّين قولاً وفعلاً، **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾**.

٢ ـ الإسلام دين امتزجت عقائده بسياسته. طاعة الرسول وأولي الأمر مسألة سياسية، امتزجت بعقيدة الإيمان بالله ويوم القيامة، **﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾**.

٣ ـ يجب الالتزام بالسلسلة التراتبية عند الطاعة، **﴿اللَّهَ﴾**، **﴿الرَّسُولَ﴾**، **﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾**.

---

(١) الشيخ الصدوق، كمال الدين، ص٢٢٢.

(٢) الكافي، ج١، ص ١٨٧.

(٣) دعائم الاسلام، ج٢، ص٥٣٠.

٤ ـ لا بدّ لأولي الأمر أن يكونوا معصومين كما النبي الكريم، لتكون طاعتهم واجبة دون نقاش كما هي طاعته ﷺ، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾.

٥ ـ تجب الطاعة للحاكم حينما يكون مؤمناً وينتمي إلى أمّة مؤمنة، ﴿أَطِيعُوا... مِنكُمْ﴾.

٦ ـ علامة الإيمان الحقيقي هي الرجوع إلى الله والرسول عند الاختلاف وتفاقم النزاع، فالطاعة في الظروف العادية لا تنطوي على أهميّة، ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾.

٧ ـ إحدى مسؤوليات الدولة الإسلاميّة خلق ظروف الوحدة وفضّ المنازعات، ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾.

٨ ـ الدين الكامل يحمل حلولاً لكلّ الاختلافات والمنازعات، ﴿فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

٩ ـ القبول بأوامر الحكومات غير الإلٰهيّة والطاغوت حرام، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

١٠ ـ لو اعتمدت جميع الفرق القرآن الكريم والسنّة المطهرة مرجعية لها، لما استعصى خلاف أو نزاع، ولسادت أجواء الوحدة والتضامن، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

١١ ـ أولئك الذين يعارضون أحكام الله، ورسوله، والقادة الإلٰهيّين، عليهم أن يراجعوا إيمانهم، ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾.

١٢ ـ البرنامج العقائدي للإسلام يشكل القاعدة التي ينبني عليها برنامجه العملي، ﴿أَطِيعُوا... إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾، بعبارة أوضح، إنّ الإيمان بالله وبيوم القيامة يشكل الضمان لتنفيذ أحكام الإسلام، وأساس اجتناب معصية الله ورسوله.

١٣ ـ التبصّر ورعاية المصالح طويلة الأمد، هو معيار القيمة والفضل، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾

إشارات:

- أوضحت الآية السابقة أنّ الله ورسوله هما المرجع والحكم في فضّ النزاعات، أمّا هذه الآية فتحمل بشدّة على أولئك الذين يتحاكمون إلى الطاغوت لفضّ النزاع والاختلاف.
- نشب خلاف وخصومة بين رجل من المسلمين المنافقين وأحد اليهود، فصار الأمر إلى التحكيم، فاختار اليهودي النبي الأكرم ﷺ حكماً بينهما وذلك لما عرف عنه من عدل وحياد، وعلمه أنّه لا يجور في الحكم ولا يأخذ الرشوة، فقال: أحاكم إلى محمد، ولكن المنافق قال: لا بل بيني وبينك كعب بن الأشرف (لأنّه يأخذ الرشوة وهو من أقطاب اليهود)، وبذلك رفض التحاكم إلى رسول الإسلام ﷺ، فنزلت الآية الكريمة لتوبّخ أمثال هذا الرجل المنافق، وتشجب بشدّة موقفهم المشين.
- وفي رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**الطاغوت كلّ من يُتحاكم إليه ممّن يحكم بغير الحقّ**»[1].

التعاليم:

١ ـ الإيمان هو ما كان مشفوعاً بالتبرّي من الطاغوت، وإلّا فإنّه لا يعدو كونه خيالاً، ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟... يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

٢ ـ تشترك الأديان في الأهداف والجوهر، ولا بدّ من الإيمان بتعاليم جميع الأنبياء، ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٣ ـ مهادنة الطواغيت حرام، ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾.

٤ ـ علينا أوّلاً أن نرسم طريق الحقّ، ثمّ بعد ذلك نحمل على طريق الباطل، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ... يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

٥ ـ مجرّد فكرة التحاكم إلى الطاغوت والاهتمام لها، مسألة موضع نقد وإدانة، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

٦ ـ نجاح غواية الشيطان تتيسّر في إطار انقياد الناس للطاغوت، ﴿يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ... وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾.

٧ ـ المنافق، والطاغوت، والشيطان، على خط متوازٍ واحد في مواجهة الأنبياء، ﴿ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ... يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ... وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

٨ ـ تكفير الطاغوت وحرمة التحاكم إليه، تعليم تقرّ به جميع الأديان السماوية، ﴿أَلَمْ تَرَ... أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ... يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

٩ ـ التحاكم إلى الأجانب والغرباء للفصل في النزاعات الداخليّة من إلقاءات الشيطان ومن الأفعال المحرمة، ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ...﴾.

١٠ ـ إرادة الشيطان تمسك بزمام المنافقين، والطواغيت كمائن الشيطان وحبائله، ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾.

١١ ـ عاقبة التحاكم إلى الطاغوت واللّجوء إليه هي السقوط في هاوية مرعبة، ﴿ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١)﴾

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من دعوة المنافقين، وإن كانوا لا يسلّمون بشرعة الله وتعاليم النبي الكريم، ﴿قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ﴾.

٢ ـ في التسليم لدعوة الأنبياء رشد ورفعة، (﴿تَعَالَوْاْ﴾ (هي دعوة إلى الصعود والارتقاء).

٣ ـ الكتاب والسنّة متوافقان، وإلّا فإنّه ليس من الحكمة إرجاع الناس إلى مصدرين متناقضين، ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾.

٤ ـ الرجوع إلى الطاغوت والتحاكم إلى الغرباء والأجانب، من خصال وطبائع المنافقين الذين يعارضون قائدهم الإلٰهيّ، ويعرضون عن طريق الحقّ، (كلمة ﴿يَصُدُّونَ﴾ تنطوي على الطبع والاستمرار).

٥ ـ المنافق يعرض عن الحقّ ويصدّ الآخرين عنه، ﴿يَصُدُّونَ﴾.

٦ ـ معارضة المنافقين قائدهم الإلٰهيّ، هي التي تفضح كفرهم، ﴿عَنكَ﴾.

٧ ـ لا يشعر المنافقون بالحسد تجاه الإيمان القلبي للناس بالله، بل إنّ ما يقضّ مضاجعهم هو اجتماع الناس حول القائد الإلٰهيّ، ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا (٦٢)﴾

إشارات:

□ الذرائع التي تحجّج بها المنافقون لتبرير تحاكمهم إلى الطواغيت وحكام الجور هي أنّ الهدف من ذلك هو المصالحة، ولو أنّهم راحوا إلى عند النبي الأكرم ﷺ للتحكيم، وحكم لصالح أحدهما، فإنّ الطرف الآخر، يقيناً، سيبدي عدم ارتياحه تجاه النبي الأكرم وسيحتجّ، ويرفع صوته في حضرة النبي، وهذا ما لا يتناسب مع مكانة النبي وشأنه العظيم. من هنا، فإنّهم ومن أجل ألا يحدث ما يسيء إلى هيبة النبي ومكانته ومحبوبيّته، ذهبوا بالنزاع إلى جهة أخرى للتحاكم.

التعاليم:

١ ـ المخاطر الناجمة عن تصرّفات الإنسان سببها الإنسان نفسه، ﴿مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

٢ ـ المسلمون المتلوّنون والمنافقون، يعرفون القادة الإلٰهيّين عندما يجدّ الجدّ ويبرز الخطر، ﴿جَآءُوكَ﴾.

٣ ـ في التحاكم إلى الطاغوت مصائب وعواقب وخيمة، ﴿أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ يضطرّ الإنسان معها إلى العودة إلى حظيرة الأنبياء، ﴿جَآءُوكَ﴾.

٤ ـ اعتاد المنافقون على تبرير موبقاتهم، ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا﴾.

٥ ـ يتّخذ المنافق من قسمه بالله غطاء لتحقيق مآربه، ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾.

٦ ـ أحياناً، تكون العناوين المقدّسة واجهة للأشرار، ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ۝٦٣﴾

التعاليم:

١ ـ محاولات المنافقين هواء في شبك، لأنّ الله عليم بنواياهم المبيّتة، وسيفضحهم في الوقت المناسب، ﴿يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾.

٢ ـ لم يكن المنافقون صادقين في اعتذارهم، وإلّا لما صدر بحقّهم أمر الإعراض عنهم، ﴿يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾.

٣ ـ سياسة القائد تجاه المنافقين يجب أن تجمع بين الإعراض والموعظة، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾.

٤ ـ عند الموعظة، يجب مصارحة المنافقين بعواقب أفعالهم وما سيؤول إليه مصيرهم، ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ۝٦٤﴾

إشارات:

❏ ملامح المجتمع السليم والقيادة الحكيمة هي أنّ يتحلّى أفراده بالإيمان، وقائدهم إلهي، وأن يخلص الناس في طاعتهم له ويتمسّكون بها، ويكون

المنحرفون نادمين ومستغفرين، وأن يكون قائدهم ذا صدر رحب مفعم بالعطف والرأفة.

- كما إنّ دعاء النبي الكريم في حقّ المؤمنين مستجاب ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فإنّ دعاء الصالحين والملائكة في حقّهم أيضاً ذو أثر. فالقرآن الكريم يذكر في إحدى الآيات هذه المسألة وهي استغفار الملائكة للناس ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]، وفي موضع آخر يستغفرون للمؤمنين، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[2].

التعاليم:

١ ـ طاعة الناس للأنبياء، هي الهدف من بعثة الأنبياء والمرسلين، ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾.

٢ ـ الطاعة لله وحده. حتى طاعة الأنبياء يجب أن تكون بإذن الله ﷻ، وإلّا فإنّها تصبح شِركاً، ﴿لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ التوبة عن الإعراض عن القائد، هي في العودة إليه ﴿...لِيُطَاعَ... جَآءُوكَ﴾.

٤ ـ الإعراض عن الأنبياء والرجوع إلى الطاغوت ظلم للنفس ولمنزلتها الإنسانية، ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾؛ (في ضوء ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة).

٥ ـ يجب أن يوثق جميع الناس ارتباطهم مع رسول الله ﷺ. بما في ذلك المؤمن والفاسق، المؤمن لينعم بالبركة والفيض والفاسق لينال الشفاعة، ﴿جَآءُوكَ﴾.

٦ ـ باب التوبة مفتوح للعاصين وحتى المنافقين؛ (نظراً إلى الآيات السابقة التي تتحدّث عن المنافقين)، ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٧ ـ زيارة القادة الإلٰهيّين، وطلب العون، والمدد منهم، والتوسّل بهم، كلّها تحظى بمباركة القرآن الكريم وتأييده، ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٥.
(٢) سورة غافر: الآية ٧.

٨ ـ لا يغفر النبي الذنب بل إنّه وسيلة العفو الإلٰهيّ، ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾.

٩ ـ من ينوي التوبة، عليه أوّلاً إبداء الأسف والندم والرجوع إلى الحقّ تعالى، ومن ثمّ يستمدّ العون من الرسول الأمين ﷺ من أجل تمتين علاقته بالله تعالى، ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾.

١٠ ـ لا ينبغي للعاصي أن ييأس من رحمة الله ما دام الاستغفار، والتوبة، وزيارة أولياء الله، بمثابة وسائل لإعادة بناء روحه من جديد، ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ﴾.

١١ ـ عند زيارة الرسول الكريم ﷺ، والاعتراف بالخطأ، والاستغفار، يشعر المرء بأنّ أعباء الذنوب قد أزيحت عن صدره، ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا﴾.

١٢ ـ إذا عفوتم عن المسيء فاشفعوا ذلك بالمحبة والعطف عليه، ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

١٣ ـ المعصية حجاب يحول بين الإنسان وبين الرحمة الإلٰهيّة، وما إن ينزاح هذا الحجاب، تنزل الرحمة الإلٰهيّة على العبد، ﴿ٱسْتَغْفِرْ... لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ﴾.

١٤ ـ الاعتراف بالمعاصي والإقرار بالذنوب في حضرة أولياء الله تعالى، يمهّد لاستنزال شآبيب العفو الإلٰهيّ، ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ. . . لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

إشارات:

□ قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال الطبرسي رحمه الله قيل نزلت في الزبير ورجل من الأنصار خاصمه إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرة كانا يسقيان بها النخل كلاهما فقال النبي ﷺ للزبير اسق ثم أرسل إلى جارك؛ فغضب الأنصاري وقال يا رسول الله لأن كان ابن عمتك؟! فتلوّن وجه رسول الله ﷺ،

ثم قال للزبير: اسق ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقك ثم أرسل الماء إلى جارك وكان رسول الله ﷺ أشار على الزبير برأي فيه السعة له ولخصمه فلما أحفظ رسول الله ﷺ استوعب للزبير حقّه من صريح الحكم. ويقال إنّ الرجل كان حاطب بن أبي بلتعة[١].

❑ وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**لو أنّ قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وحجّوا البيت، وصاموا شهر رمضان، ثمّ قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه رسول الله ﷺ ألّا صنع خلاف الذي صنع أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين**»؛ ثمّ تلا هذه الآية ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢].

التعاليم:

١ ـ علامات الإيمان الحقيقي ثلاثة أشياء:

أ ـ التحاكم إلى النبي لا إلى الطواغيت، ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾

ب ـ ألّا ينتابهم شك ولا يشعروا بحرج في نفوسهم إزاء أحكام النبي الأكرم ﷺ، ﴿لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾.

ج ـ التسليم لأمر النبي تسليماً مطلقاً، والقبول بها عن طيب خاطر ورحابة صدر، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

٢ ـ يهتمّ الإسلام، بالأبعاد الروحية والتسليم القلبي مضافاً إلى التسليم الظاهري، ﴿لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾.

٣ ـ القضاء من شؤون الرسالة والولاية، ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾.

٤ ـ وجوب التسليم لأحكام النبي الأكرم ﷺ وأقضيته دليل على عصمته، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٢، ص١٩.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج١، ص٣٩٠.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

تشير الآية الكريمة إلى التكاليف الشاقّة التي فُرضت على الأمم السالفة (على سبيل المثال بنو إسرائيل الذين أمرهم الله تعالى بقتل بعضهم لبعضهم الآخر جزاءً على ما ارتكبوه من عبادة العجل، ذلك أنّ ارتكاب ذنبٍ عظيمٍ مثل عبادة الأوثان أو عبادة العجل تلزمه كفّارة عظيمة مثل قتل بعضهم بعضهم الآخر أو النفي خارج وطنهم وديارهم).

التعاليم:

١ ـ ينبغي للمؤمنين أن يختبروا أنفسهم، كيف سيتصرّفون إذا ما واجهوا تكليفاً شاقّاً، ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾.

٢ ـ قليلون هم الذين يصبرون على أداء الواجب ويثبتون على العهد، ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

٣ ـ لقد وعظهم الله خيراً حينما أمرهم بالكفر بالطاغوت، والتحاكم إلى النبي، والتسليم لقضائه وحكمه، ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

٤ ـ الخير والسعادة رهين العمل، ﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا﴾.

٥ ـ الأحكام الإلٰهيّة (الأوامر والنواهي) هي مواعظ إلٰهيّة، ﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾.

٦ ـ كلُّ خطوة نخطوها في سبيل الله، تثبّت أقدامنا وتزيد في إيماننا، ﴿فَعَلُوا... وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

٧ ـ العمل يترك بصماته في النفس والروح وفي العمل بالأحكام تثبيت للإيمان، ﴿فَعَلُوا... وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

٨ ـ التكاليف الإلٰهيّة فيها خير الإنسان وصلاحه وإن بدت شاقة وغير مرغوبة، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا... لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ نيل الخير، وثبات القدم، والأجر العظيم، والهداية إلى الصراط المستقيم، كلّ ذلك رهين العمل بالمواعظ ومثابرة الإنسان وجهوده، ﴿فَعَلُوا... خَيْرًا تَثْبِيتًا... أَجْرًا ... مُّسْتَقِيمًا﴾.

٢ ـ حثّ الخطى في طريق الخير سيفضي إلى خير أسمى وأعمّ، ﴿فَعَلُوا... وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا... أَجْرًا عَظِيمًا... صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

- في سورة الفاتحة المباركة، وردت عبارة ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بعد ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وتكرّر استخدام العبارتين هنا أيضاً، إذ ذكر الصراط المستقيم بعد عبارة ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾. وكأنّما مراد الآية هو أنّ الصراط المستقيم يقتصر على الطوائف الأربع المذكورة في الآية وهي: الأنبياء، والصدّيقون، والشهداء، والصالحون، وأنّ ما سواهم في متاهة وضلال مبين.
- ورد في الروايات أنّ خير نموذج للصدّيقين هم الأئمة المعصومون عليهم السلام والصدّيقة الطاهرة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام[1]. أمّا الشهداء فيقصد بهم الذين يقتلون في سبيل الله في ميادين الجهاد، أو الذين يشهدون على الأعمال في يوم القيامة.
- من البديهي أن نذكر أنّ صحبة الأنبياء في الدنيا غير متيسّرة لجميع الأتباع الحقيقيين، لذلك فإنّ مراد الآية هو الصحبة في الدار الآخرة.

التعاليم:

١ ـ السير في طريق الأنبياء والشهداء والحظوة بالأصحاب الأخيار، لا تتيسّر إلّا

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص ٥١٤.

بطاعة أوامر الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ...﴾.

٢ ـ الأنبياء، والشهداء، والصدّيقون، والصالحون، هم خير الأصحاب. ومن هذه الشاكلة أيضاً يجب أن نختار الأصحاب في هذه الدنيا، ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾.

٣ ـ طاعة الرسول هي ظلّ طاعة الله وتقع في طولها، إذن، فهي لا تتنافى مع التوحيد، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

٤ ـ ثواب طاعة النبي الكريم هو رفقة جميع الأنبياء، لأنّهم من نور واحد ويصبون إلى هدف مشترك، وثواب طاعة أحدهم رفقة جميعهم، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ... مَعَ... ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

٥ ـ علم الله هو الباعث الأكبر على القيام بالتكاليف والواجبات، ﴿بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾.

٦ ـ مقام النبوة أرفع من مقام الصدّيقين، والشهداء، والصالحين. (يدلّ على ذلك تقدّم طائفة الأنبياء على سائر الطوائف في الآية الكريمة)، ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ...﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾﴾

إشارات:

- لمّا ذكر الله تعالى في الآية السابقة وجوب طاعة الله، والقائد المعصوم، ودولة النبي الأكرم ﷺ، فهو يأمر في هذه الآية أهل الطاعة باليقظة والتأهّب والاستعداد القتالي للأمة الإسلاميّة والقيادة الحقّة.
- **«الحذر»**، يعني اليقظة، والتأهّب، والترقّب، لخطر محتمل، وأحياناً الوسيلة التي يستعان بها لدفع الخطر. أمّا كلمة ﴿ثُبَاتٍ﴾ جمع «ثبة» فمشتقة من مادة «ثبي» وهي العصبة المتفرّقة (إشارة إلى السرايا القتالية التي تتحرّش بالعدو فتسلبه الأمن وتشيع في صفوف أفراده الاضطراب والفزع).
- على المسلمين أن يتحلّوا باليقظة والحذر، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد

للدفاع عن حدود بلادهم، لذا فإنّ العمل بهذه الآية فيه عزّة ومنعة المسلمين، والغفلة عن مضمونها يؤدي بهم إلى السقوط والهزيمة.

التعاليم:

١ ـ يجب على المسلمين أن يحافظوا على يقظتهم وجهوزيّتهم في كلّ ظرف، وأن يرصدوا خطط العدوّ، وعديده، وعدّته، وأنواع الأسلحة التي يمتلكها، والحالة المعنوية التي يتمتّع بها أفراده، وشبكة ارتباطاته بالداخل والخارج، وأن يضعوا الخطط ويرفعوا درجة الاستعداد بما يتناسب مع هذه العوامل المذكورة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذۡرَكُمۡ﴾.

٢ ـ الجهوزيّة القتالية تستمدّ قيمتها من الإيمان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذۡرَكُمۡ﴾.

٣ ـ يجب تعبئة المسلمين واستنفارهم، ﴿ٱنفِرُوا۟ جَمِيعٗا﴾.

٤ ـ يجب أن لا يتوانى المسلمون عن استخدام مختلف التكتيكات من أجل التصدّي للعدو، ﴿ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعٗا﴾.

٥ ـ تحديد أساليب الاستنفار، والتعبئة، والنضال، تقع على عاتق المسلمين أنفسهم، ﴿ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعٗا﴾.

﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ
قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢﴾

إشارات:

□ بعد أن طرحت الآية السابقة مسألة خطر أعداء الخارج، تفضح هذه الآية الخطر الذي يأتي من أعداء الداخل، والطابور الخامس، والمنافقين.

□ **«يبطئن»** من «بطؤ»: أي البطء، وهو تأخّر الانبعاث في السير، وقال أهل اللغة في معنى البطء: يكثر هو التثبط في نفسه، والمقصد من ذلك أن منكم من يتأخر ويؤخر غيره.

التعاليم:

١ ـ ميادين القتال محك للكشف عن معادن الرجال ضعفاء الإيمان والمنافقين، ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾.

٢ ـ يفضح الله ﷻ، أفكار وأقوال المنافقين، ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾.

٣ ـ أحياناً يتلوّن المنافقون بلون المؤمنين حتى تخالهم منهم، ﴿مِنكُمْ﴾.

٤ ـ ليس كلّ صحابة رسول الله ﷺ عدولاً وسائرين على نهجه، ﴿مِنكُمْ... لَيُبَطِّئَنَّ﴾.

٥ ـ يعمل المنافقون على إضعاف الروح المعنوية للمسلمين «ليبطّئنّ»، لذلك، يجب تشخيصهم لعدم إرسالهم إلى جبهات القتال.

٦ ـ يرى المنافقون في عدم المشاركة في القتال، والفرار من الجبهات، والنجاة من الموت، فوزاً وسعادة لهم، ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾.

٧ ـ لا تحسب كلّ رفاهية مصانة، أو أنّها دليل لطف الله ونعمته، ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾.

٨ ـ تحمّل الصعاب إلى جانب المؤمنين نعمة، لا التمتّع بحياة الرفاهية والدّعة بعيداً عنهم، ﴿أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ... لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

إشارات:

- عندما يصيب الإنسان نعمة وفضلاً، يُذكر اسم الله، ﴿فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، ولكن عندما تصيبه مصيبة، لا يُذْكَر اسم الله، كما في الآية السابقة، ﴿أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، وكأنّ الآية تريد التأكيد على أنّه لا يصيبنا من الله سوى الخير، والفضل، والرحمة.

التعاليم:

١ ـ تحقيق النصر والحصول على الغنائم في الحرب هو من فضل الله، ﴿أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ يضحّي المنافقون بعواطفهم من أجل تحقيق مصالح دنيوية، ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾.

٣ ـ أماني المنافق تفتقد إلى الصدق، ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ... يَٰلَيْتَنِى﴾.

٤ ـ المنافق كلّ يوم هو في شأن، فحين ينزل الخَطْبُ يقول: قدّر الله ولطف أن لم نكن معهم ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ﴾، وحين الفتح وتقسيم الغنائم يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾.

٥ ـ من خصال المنافق أنّه لا يشارك المؤمنين أحزانهم؛ ولكنه يعتبر نفسه شريكاً في أفراحهم ومغانمهم، ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ... يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾.

٦ ـ الفوز العظيم في نظر المنافق أن ينال حظّاً في الدنيا، ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الحرب في الإسلام هي في سبيل الله وليس من أجل فتح البلدان، أو الاستعمار، أو الانتقام، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ الجهاد توفيق لا يُعطاه أيٌّ كان، ﴿فَلْيُقَٰتِلْ... ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، لا يملك طلاب الدنيا الجدارة والشجاعة اللازمتين للمشاركة في جبهات القتال.

٣ ـ الجهاد الأكبر وقطع علائق النفس بالدنيا مدخل إلى الجهاد الأصغر ومحاربة الأعداء، ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ...﴾.

٤ ـ المجاهد في سبيل الله لا يعرف الهزيمة أبداً، (يقول ﷻ: ﴿فَيُقْتَلْ﴾ بدلاً من «يُغْلَب».

٥ ـ في جبهات الحقّ، إمّا الشهادة وإما النصر، لا فرار ولا هزيمة، ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾.

٦ ـ «الفوز العظيم» في نظر المنافق هو الغنائم فقط (الآية السابقة)، لكنّ الأجر العظيم من منظار القرآن الكريم هو النصر أو الشهادة، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٧ ـ البشارة بـ «**الأجر العظيم**» تشجيع على الذهاب إلى جبهات القتال.

٨ ـ الحياة الآخرة أفضل من الحياة الدنيا، ومبادلة الدنيا بالآخرة أمر عظيم، ﴿يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ... أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٩ ـ أجر المجاهد الشهيد والمقاتل المنتصر واحد، ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ... أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

إشارات:

- الآية تتحدّث عن المسلمين الذين تجرّعوا الويلات وصنوف التعذيب على يد المكيين، وتوبّخ أولئك الذين تركوا الجهاد في سبيل الحريّة.
- وعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا... نَصِيرًا﴾ فقال: «**نحن أولئك**». وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ في الآية المذكورة فقال: «**هم أهل الولاية**، قلت: أيّ ولاية تعني، قال: **ليست ولاية ولكنّها في المناكحة والمواريث والمخالطة وهم ليسوا بالمؤمنين ولا الكفّار ومنهم المرجون لأمر الله**»[1].

---

(١) تفسير العيّاشي، ج١، ص٢٥٧.

التعاليم:

١ ـ يجب أن يتعاطف المسلمون بعضهم مع بعضهم الآخر من منطلق الغيرة والانتماء العقائدي، وأن يستجيبوا لصرخات الاستغاثة والنجدة، ﴿وَمَا لَكُمْ...﴾.

٢ ـ من أهداف الجهاد في الإسلام، النضال من أجل نجاة المستضعفين من نير المستبدّين الظالمين، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾

٣ ـ الإسلام لا يعترف بالحدود، فحيثما وُجد المستضعفون وجب الجهاد، ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾.

٤ ـ لا بدّ لجيش الإسلام من أن يمتلك أسباب القوّة والمنعة بحيث يكون منقذاً لجميع المحرومين في العالم، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾.

٥ ـ في الدعوة إلى الجهاد يجب أن نلجأ إلى أسلوب استثارة عواطف الناس ومشاعرهم، ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ... الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا...﴾.

٦ ـ الولاية على المسلمين يجب أن تكون من لدن الله ﷻ، ﴿مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾

إشارات:

□ صحيح أنّ المكر الشيطاني للكفّار كبير، ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾[1] وأنّ مكر الكفّار يكاد يقتلع الجبال، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[2]، لكنّ هذا المكر ضعيف وتافه أمام مكر الله سبحانه وتعالى.

التعاليم:

١ ـ من مستلزمات الإيمان، الجهاد ضدّ الكفّار، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ﴾.

---

(١) سورة نوح: الآية ٢٢. (٢) سورة إبراهيم: الآية ٤٦.

٢ ـ الجهاد الإسلامي هو في سبيل الله ومن أجل حماية دين الله، وليس لفتح البلدان أو الانتقام، ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ يمكن تمييز المجتمع الإلٰهيّ عن المجتمع غير الإلٰهيّ من خلال طبيعة أهدافهم، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾.

٤ ـ النزاع والاختلاف سنّة الحياة، ولكن في سبيل من ولأيّ هدف، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ الاتحاد بين أضلاع مثلث الكفر، والطاغوت، والشيطان، اتحاد محكم، ﴿كَفَرُوا۟... ٱلطَّـٰغُوتِ... ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾.

٦ ـ قارن بين نموذجي النضال والهدف، وتبيّن أهميّة ما تقوم به لتسعى حينئذ إلى القتال، ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾.

٧ ـ لا تخشوا مخطّطات الأعداء، فهي ضعيفة وواهية، ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

٨ ـ عاقبة الطاغوت وطريق الشيطان الفشل، ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

إشارات:

□ ذكرت بعض التفاسير أنّ المسلمين كانوا يعانون ظروفاً صعبة، وهم يومئذٍ بمكة في فترة ما قبل الهجرة، وكانوا يسارعون إلى قتال المشركين فأتى نفرٌ منهم إلى النبي الأكرم ﷺ يطلبون منه الإذن بقتال المشركين قائلين: يا نبي الله، كنّا في عزّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة؟ ذرنا نقاتل المشركين، فقال: «**إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم**». ومضت الأيّام والشهور على هذا الطلب حتى هاجر المسلمون إلى المدينة وتوفّرت الظروف المناسبة لقتال المشركين، وأمر

الله المسلمين بالجهاد، تثبّط بعض من أولئك النفر الذين كانوا يستعجلون النبي على الجهاد وقتال الأعداء في مكة، وأخذوا يهوّلون من أمر المشركين ويخشون بأسهم، ويظهرون الكسل والتهاون في تنفيذ الأمر الإلٰهيّ، ولم يبدوا أيّ رغبة في الجهاد، فنزلت هذه الآية الكريمة وهي تحثّ المسلمين على القتال وتوبّخ المتهاونين والمتقاعسين عن ذلك[1].

- «**الخَشية**»: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه[2].

- وعن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ قال: **يعني كفّوا ألسنتكم.** (كانوا يتبجّحون بمزاعم وادّعاءات فارغة فنزلت الآية الكريمة تأمرهم بالكفّ عن إلقاء الشعارات الفارغة)[3].

- وروي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: **والله للّذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمّة ممّا طلعت عليه الشمس...**، وتلا هذه الآية[4].

نعم، فالإمام المعصوم، أحياناً يأمر بالصلح مثل الإمام الحسن عليه السلام، وأحياناً أخرى يرى وجوب الجهاد والشهادة كما فعل الإمام الحسين عليه السلام.

- ذكرت روايات عدّة أنّ المراد بالعبارة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ هو تأخير الجهاد حتى ظهور الإمام المهدي عليه السلام[5]، وهذا ما دعا بعض المسلمين إلى القول: إنّه لا جهاد حتى ظهور الإمام الحجّة عليه السلام.

التعاليم:

١ ـ أن نتأمّل التاريخ، أمرٌ بنّاء، ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾.

٢ ـ في خضمّ كلّ تحوّل أو ثورة، ينبغي تحمّل الصعاب والتحلّي بسعة الصدر، ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾.

---

(١) تفسير نمونه، ج٤، ص ١٤.

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، مادة «خشي».

(٣) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج٢، ص١١٤.

(٤) الكافي، ج ٨، ص ٣٣٠.

(٥) تفسير العيّاشي، ج١، ص ٢٥٧.

٣ ـ لا بدّ من كبح العواطف المتسرّعة، والكف عن ترديد الشعارات الفارغة، ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾.

٤ ـ أحكام الله تعالى تنظر إلى المصالح الحقيقيّة لا إلى مطالبات الناس، ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ (في ضوء سبب نزول الآية).

٥ ـ لم يُخلق السيف لكلّ زمان ومكان، ففي الظروف الحرجة وعدم الجاهزية، ينبغي عدم تقديم الذرائع للعدوّ القويّ المتأهّب، ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾.

٦ ـ لا تتقدّموا رسول الله وأحكام الله، وتحرّزوا من استدخال الآراء الشخصيّة والمزاجية في المسائل الدينية ﴿... كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾.

٧ ـ بإقامة الصلاة وذكر الله تعالى يحصل الاستقرار النفسي، وبأداء الزكاة يتمّ ردم الهوّة الاقتصاديّة، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٨ ـ القضايا العبادية في الإسلام لا فكاك لها عن قضاياه الاقتصاديّة، ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٩ ـ للصلاة والزكاة موقع خاصّ بين جميع العبادات، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١٠ ـ الصلاة مقدّمة على الزكاة، (فأينما ذكر الاثنان، تقدّم اسم الصلاة على الزكاة).

١١ ـ حكم الصلاة والزكاة شُرّع قبل حكم الجهاد، ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾.

١٢ ـ تهذيب النفس مقدّم على إصلاح المجتمع، فمن لم يكن من أهل الصلاة والزكاة، لن يكون من أهل الإخلاص والإيثار، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١٣ ـ من يغضب بسرعة، يهدأ بسرعة، نعم كلّ فورة تهدأ، ولكن هيهات أن ينخدع اللبيب ويكون ساذجاً، ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ . . . فَلَمَّا كُتِبَ . . . لِمَ كَتَبۡتَ﴾.

١٤ ـ ليس الهام أن يكون المرء ثورياً بل أن يبقى ثورياً. أحياناً تكون المسافة بين القول والعمل شاسعة، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ... إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ﴾.

١٥ ـ حكم الجهاد، وسيلة لاختبار الناس، ﴿كُتِبَ... الْقِتَالُ... فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ﴾.

١٦ ـ الاعتراض على حكم الجهاد مردّه إلى الخشية والخوف، ﴿يَخْشَوْنَ... لِمَ كَتَبْتَ﴾.

١٧ ـ العلائق الدنيوية هي العامل الرئيس وراء الانصراف عن الجهاد وساحات القتال، ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ﴾.

١٨ ـ لا تعترضوا على أحكام الله ولا على توقيت نزولها، بل عليكم في قبال الأوامر الإلٰهيّة أن تضعوا حسابات الزمان والمكان جانباً، ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

١٩ ـ الاعتراض على أوامر الله دليل عدم التقوى، ﴿لِمَ كَتَبْتَ... خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾.

٢٠ ـ إذا مددت نظرك لأبعد من حدود هذه الدنيا المادّية الضيّقة، فلن يغريك متاعها القليل، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾.

٢١ ـ وحدهم أهل التقوى هم المفلحون في الآخرة، ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)﴾

إشارات:

❑ تجمع هذه الآية الكريمة بين الأمر بالجهاد وعدم الخشية من الموت في جبهات القتال، وبين الردّ على أوهام المنافقين وشكوكهم، وتحثّهم على الفهم الصحيح للأمور بدلاً من التطيّر وإلقاء تبعات الهزائم والمصائب على رسول الله ﷺ.

التعاليم:

١ ـ الموت حقيقة حتميّة ومصير واقع لا محالة، فلم إذاً، الفرار من القتال؟! ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾.

٢ ـ من أساليب المنافقين وألاعيبهم، تشويه سمعة القائد، ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾.

٣ ـ من العار أن نلقي بتبعات أفعالنا المشينة على الآخرين هرباً من المسؤولية وتبريراً لما اقترفته أيدينا، ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾.

٤ ـ النصر والهزيمة، الموت والحياة، الأفراح والأتراح، كلّها تدور حول مدار التقدير الإلٰهيّ الحكيم للأمور، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

٥ ـ الله تعالى مصدر الوقائع السارّة والأليمة، لا ما يدّعيه أصحاب العقيدة الثنوية من أنّ مصدر الشرور والأفراح هما **أهريمن ويزدان**، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

٦ ـ من طبائع المنافق اللجاج، والعناد، وعدم استيعاب الحقّ، ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

٧ ـ أن نعتبر الله تعالى محور كلّ شيء (التوحيد الأفعالي)، فإنّ ذلك يحتاج إلى تدبّر دقيق وعميق، ﴿يَفْقَهُونَ﴾.

٨ ـ من لم يفقه توحيد الله ومحوريّته، لن يفقه أيّاً من المعارف والحقائق، ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

إشارات:

□ طبقاً للرؤية الكونية الإلٰهيّة، فإنّ جميع الأشياء هي مخلوقات الله تعالى، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، وأنّه سبحانه أتقن خلقها وأحسن ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[2]؛ لذا فإنّ ما يتعلّق بالله هو خلق المخلوقات في أحسن صورة، أمّا

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٢.
(٢) سورة السجده: الآية ٧.

المصائب والمكاره التي تصيبنا، فهي أوّلاً: فقدان ذلك الحسن والكمال، وهي ليست من خلق الله، وثانياً: إنّ ما يتسبّب في حرماننا من المواهب والخيرات الإلٰهيّة هو أفعال الفرد والمجتمع.

- وكما يقول أحد العلماء، فإنّ الأرض تدور حول الشمس وحول نفسها، ويكون الجزء المواجه للشمس منيراً، أمّا الجزء الآخر فهو مظلم لأنّه يقع في الجهة المعاكسة للشمس، فالشمس تشعّ دائماً بالنور وليس فيها ظلمة، لذا، يمكن أن نقول للأرض: إنّ الجزء المنير فيها هو بسبب ضياء الشمس، أمّا الجزء المظلم فهو من الأرض نفسها. كذلك الحال مع هذه الآية الكريمة التي تخاطب الإنسان بالقول إنّ كلّ حسنة هي من عند الله، أمّا السيّئة فهي من عندك.
- والحقيقة أنّ ما ورد من مديح في القرآن في حقّ النبي الأكرم ﷺ يجعلنا نستبعد أن يكون المقصود بعبارة ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ شخص النبي الأكرم، بل نفس الإنسان بصورة عامة، والله العالم.
- قرأنا في الآية السابقة أنّ الخير والشر كلّه ينسب إلى الله، بينما تحصر هذه الآية الخير وحده بالله، وتنسب الشرّ إلى الإنسان. وتفسير ذلك هو أنّ الشرور تنسب إلى الإنسان باعتبار أنّها صادرة منه، ولمّا كان الإنسان وإرادته تحت سيطرة الله تعالى، فمن هذا الباب تأتي نسبتها إلى الله تعالى. تماماً كما هو الحال مع الموظّف في دائرة حكومية، فإذا صدرت منه مخالفة، فهي تنسب إليه ومن زاوية أخرى تنسب إلى الدولة باعتباره موظّفاً لديها.
- ونُسب إلى الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام قوله: **«قال الله تبارك وتعالى، يا ابن آدم بمشيّتي كنت أنت الذي تشاء وتقول، وبقوّتي أدّيت إلي فريضتي، وبنعمتي قويت على معصيتي»**[1]. إذاً، فالإنسان يريد ويشاء بإذن الله ومشيئته.

التعاليم:

١ ـ بحسب الرؤية الإلٰهيّة، فإنّ كلّ حسن وجميل من الله سبحانه وتعالى، ﴿مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾.

(١) تفسير العيّاشي، ج١، ص ٢٥٨.

٢ ـ في أجواء الحرب النفسية وإضعاف الروح المعنوية يجب أن نسعى إلى تعزيز هذه الروح، فعندما ينسب المنافقون السيّئات والشرور إلى النبي (والعياذ بالله) تردّ هذه الآية على تخرّصاتهم بالقول: ﴿مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

٣ ـ رسالة النبي الكريم ﷺ رسالة عالمية ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ﴾.

٤ ـ الأنبياء هم واسطة خير للناس كافة، ﴿لِلنَّاسِ﴾.

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ أقوال الرسول الكريم وأفعاله حجّة وواجبة الطاعة تماماً كالقرآن الكريم، ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ...﴾.

٢ ـ الانقياد لأوامر الرسول الحكومية واجب. (المقصود بإطاعة الرسول، إطاعة أوامره الحكومية ﷺ، وإلّا، فإنّ إطاعة الأحكام الإلٰهيّة التي تبلّغ عن طريق الرسول هي طاعة لله تعالى وليس للرسول)، ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ...﴾.

٣ ـ الأنبياء معصومون، ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

٤ ـ أوامر النبي الكريم هي قبس من أوامر الله تعالى وتقع في موازاتها، ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

٥ ـ الإنسان مخيّر وصاحب إرادة، وليس مُسيّراً، ﴿مَّن يُطِعِ. . . وَمَن تَوَلَّىٰ﴾.

٦ ـ رسالة الأنبياء تتلّخص في الدعوة إلى الدين لا فرضه، ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا تركنوا إلى كلّ إعلان بالالتزام أو بالإيمان، ذلك أنّ المنافقين يظهرون الطاعة بكلامهم المعسول، ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾.

٢ ـ للمنافقين اجتماعاتهم، وندواتهم السرّية الليلية، وتشكيلاتهم الحزبية، ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾.

٣ ـ يعمد الأعداء إلى استغلال الثغرات والنقاط المظلمة، فلا تأمنوا دسائسهم ومؤامراتهم، ﴿بَيَّتَ﴾.

٤ ـ عند التوبيخ، لا يعمّم القرآن حكمه على الجميع، ﴿طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾.

٥ ـ سوف يحاسب الله تعالى المنافقين على مكائدهم ومؤامراتهم، ﴿يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾.

٦ ـ يجب أن نتوكل على الله ونستمدّ منه العون في التصدّي إلى مؤامرات المنافقين السرّية، لا جرم أنّ التوكل هو سرّ النجاح، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ الله تبارك وتعالى هو حامي المسلمين ورسوله الأكرم ﷺ وناصرهم، وقد كشف لهم دسائس المنافقين، وهو الذي يظهرهم عليهم بمددٍ من عنده، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

إشارات:

❑ من الافتراءات التي وجّهت إلى الرسول الأكرم ﷺ، أنّ أناساً آخرين علّموه هذا القرآن، ﴿يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[1]؛ لذلك نزلت هذه الآية لتردّ هذه الافتراءات والتخرّصات.

❑ جرت العادة ـ طبقاً لقانون التكامل الإنسانيّ ـ أن يطرأ تغيير على طبيعة كلام البشر وكتاباتهم لا سيّما على المدى الطويل، إن في جهة التكامل والارتقاء أو التناقض والاختلاف. لكنّا حينما نجد القرآن الكريم وعلى مدى ٢٣ سنة من نزوله على قلب رجل أمّي لا يقرأ ولا يكتب وفي مختلف الظروف، الحرب، والصلح، والغربة، والاستقرار، والقوة، والوهن، وعبر منعرجات الحياة

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

صعوداً وهبوطاً، خالياً من أيّ تناقض ولم يطرأ عليه أدنى تغيير، فسنوقن جازمين بأنّه كلام الله المنزل، وليس من تعليم البشر.

□ إنّ أمر التدبّر في القرآن الكريم صادر لجميع البشر على مرّ الأعصار والأمصار، ويشير ذلك إلى أنّ كل عالم في كلّ عصر سيتدبّر في بعد خاص من أبعاده. يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام حول غور المفاهيم القرآنية وسعتها: «**بَحرٌ لا يُدرك قَعره**»[1].

التعاليم:

١ ـ يوبّخ الله تعالى البشر على عدم تدبّرهم في القرآن، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾.

٢ ـ التدبّر في القرآن هو الدواء الشافي لداء النفاق، ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ... أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾.

٣ ـ طريق التمسّك بالإسلام والقرآن هو التفكر والتدبّر لا التقليد، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾.

٤ ـ القرآن الكريم يدعو الجميع إلى التدبّر، إذ إنّ معارفه وعلومه قابلة للفهم والاستيعاب من قبل الإنسان، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

٥ ـ الاعتقاد بوجود اختلاف أو تناقض في القرآن هو نتيجة للنظرة السطحية وعدم التدبّر والتعمّق في كلماته، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾.

٦ ـ القرآن الكريم دليل حقّية الرسالة المحمّدية، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ...﴾.

٧ ـ التناسق وعدم وجود اختلاف في الآيات دليل على أنّ مصدر القرآن وجود لا يطرأ عليه أيّ تغيير، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

٨ ـ كل ما ينزل من عند الله هو حقّ وثابت ولا يشوبه التناقض أو التشتّت أو الاختلاف، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا...﴾.

٩ ـ يسود التناقض والتضادّ القوانين الوضعيّة دائماً، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا﴾.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.

١٠ ـ الاختلاف، والتغيير، والتكامل، من خصوصيّات النظريات والآراء البشرية، ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا﴾.

١١ ـ أفضل سبيل لإثبات بطلان عقيدة ما، كشف التناقضات التي تنطوي عليها وتعريتها، ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

❑ تشير الآية الكريمة إلى تصرّف مشين وهو إفشاء الأخبار السرّية والسعي بها بين المسلمين بقصد الإضرار بهم وإضعاف معنويّاتهم. وعادة ما يتمّ هذا الأمر أي إذاعة الأخبار السرّية من منطلق السذاجة، أو بدافع الانتقام والإساءة، أو أن يكون الساعي بالخبر عميلاً أو ألعوبة، وربّما حرّكته دوافع الطمع المادّي وأحياناً الشهرة والرغبة في إظهار المعرفة. إنّ تناول الإسلام هذه المسألة يدلّ على جامعيّته وشموليّته، وتحمل هذه الآية الكريمة على مسألة إفشاء الأسرار العسكرية، ونقل أخبار النصر أو الهزيمة قبل عرضها على القادة وأولي الأمر، لأنّ ذلك يدفع المسلمين إلى حالة من الشعور بالنشوة الكاذبة إزاء انتصارات وهميّة أو يؤدّي إلى بثّ الرعب والفزع غير المبرّر في صفوف المسلمين. ولولا تحذيرات الله تبارك وتعالى وعناياته المتواصلة لانخرط معظم المسلمين في هذا المسار الشيطاني (إذاعة الأسرار).

❑ وعن الإمام الصادق عليه السلام: **«مَنْ أَذَاعَ عَلَيْنَا شَيْئاً مِنْ أَمْرِنَا فَهُوَ كَمَنْ قَتَلَنَا عَمْداً وَلَمْ يَقْتُلْنَا خَطَأً»**[1]. وورد أيضاً في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«المذيع علينا سرّنا كالشاهر بسيفه علينا»**[2].

---

(١) الكافي، طبعة المكتبة الإسلامية، ، ج٢، ص٣٧١.

(٢) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٩٧.

□ وعن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ قال: **هم الأئمة المعصومون**[1].

التعاليم:

١ ـ صون الأسرار وحفظ الأخبار الأمنية مسؤولية جميع المسلمين، وإذاعتها والسعي بها حرام، ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ... أَذَاعُوا بِهِ﴾.

٢ ـ بثّ الشائعات من جملة أسلحة المنافقين، ﴿أَذَاعُوا﴾؛ (بالنظر إلى مفهوم الآيات السابقة).

٣ ـ يجب إيصال أخبار الجبهات والأسرار العسكرية إلى جهة معيّنة مسؤولة، ولها، بعد تحليلها ومعالجتها، أن تنشر ما ترى فيه المصلحة، ﴿رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ﴾.

٤ ـ على عامة الناس الرجوع إلى أهل الاستنباط، ﴿رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ...﴾.

٥ ـ لا بدّ من أن يكون أولو الأمر من بين المؤمنين، ﴿أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾.

٦ ـ ينبغي للمسلمين أن تكون لهم الحكومة، والتشكيلات، والقيادة، الخاصة بهم. أولو الأمر هم المسؤولون في الدولة والحكومة والسلطة، ﴿وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾.

٧ ـ لا شك في أنّ ضبط ومعالجة الأخبار الأمنيّة والأسرار الاجتماعية، واستحداث الأجهزة المخابراتية من أجل جمع وتحليل الأخبار المصيريّة المهمّة ونشر ما تقتضيه المصلحة على الناس كلّ ذلك من صلاحيات القيادة، ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾.

٨ ـ ثمّة علاقة وثيقة بين الولاية والفقه، لذا ينبغي أن يكون أولو الأمر من أهل الاستنباط، ﴿أُولِي الْأَمْرِ... يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾.

٩ ـ لا يقتصر الاستنباط على مجال الأحكام الفقهية، ﴿أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ... يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾.

---

(١) المصدر نفسه، ج٢٧، ص٢٠٠.

١٠ ـ وأد المؤامرات والفتن يكون عن طريق إطلاع الجهات الصالحة المختصّة على الأخبار وتحليلها، وهي تجسيد للفضل والرحمة والإلٰهيّة، ﴿رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ. . . فَضْلُ ٱللَّهِ﴾.

١١ ـ تعيين رسول الله ﷺ وأولي الأمر كمرجعيّة للناس هو من أعظم أمثلة الفضل والرحمة الإلٰهيّة، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ...﴾.

١٢ ـ المركزيّة السليمة تحول دون الانزلاق والانحراف، وعدم وجود قائد سيوقع المجتمع في شَرَك الشيطان، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ. . . لَٱتَّبَعْتُمُ﴾.

١٣ ـ إفشاء الأسرار العسكرية من دون الرجوع إلى القادة الإلٰهيّين، هو انقياد لوساوس الشيطان، ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾.

١٤ ـ ينخدع معظم الناس بالإشاعات، ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

إشارات:

□ ورد في سبب نزول الآية أنّه بعد النصر الذي أحرزه المشركون في معركة أحد، توعّد أبو سفيان بغرور وكبرياء، وهو في طريق العودة، المسلمين بالمواجهة مرّة أخرى في موسم «بدر الصغرى» (أي وقت إقامة السوق التجارية في شهر ذي القعدة الحرام في منطقة بدر). ولمّا حان موعد المواجهة دعا النبي الكريم ﷺ المسلمين للاستعداد للجهاد والتوجّه إلى المنطقة المذكورة، إلّا أنّ نفراً من المسلمين ـ الذين كانوا حتى ذلك الحين ما زالوا يعانون من مرارة الهزيمة في واقعة أحد ـ تقاعسوا ولم يبدوا استعداداً للاستجابة لدعوة النبي الكريم ﷺ، فنزلت الآية الكريمة، فجدّد النبي الدعوة إلى المسلمين بالتحرّك فما تبعه غير سبعين رجلاً منهم الذين حضروا الموقعة، ولكنّ أبا سفيان الذي كان قد تملّكه الرعب من مواجهة المسلمين جبن ولم يحضر إلى المكان الموعود وعاد الرسول الأكرم مع أصحابه سالماً إلى المدينة.

□ «**النكول**»، من «نكل»، يقال: نكل عن الشيء: ضعف وعجز بدافع الجبن، ونكلته: قيّدته، والنكل، قيد الدابّة وحديدة اللجام، لكونهما مانعين، و«التنكيل» أداء عمل يردع مشاهده عن الذنب وهو العقاب الذي ينزل بالظالمين فيردعهم ويردع من يتّعظ بمصيرهم.

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن الله كلّف رسول الله ﷺ ما لم يكلف به أحداً من خلقه. كلّفه أن يخرج على الناس كلهم وحده بنفسه وإن لم يجد فئة تقاتل معه**»... ثم تلا هذه الآية[1]. وفي عصرنا قال الإمام الخميني (ره): ليعلم العالم كله لو بقي الخميني وحده لأصرّ على مواجهة الكفر ومحاربة الشرك.

□ يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**... وما ألقى سرية منذ نزلت عليه ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾، إلّا ولي بنفسه**»[2].

التعاليم:

١ ـ يجب على القائد أن يتقدّم الآخرين، ﴿فَقَٰتِلۡ﴾.

٢ ـ إذا نكص المسلمون عن الاستجابة لاستغاثة المستضعفين، فعلى القائد أن يبادر إلى ذلك ولو كان وحده، ﴿إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾.

٣ ـ لا بدّ للقائد أن يتّصف بالحزم والصلابة بحيث لا تؤثّر فيه نصرة أتباعه له أو تخاذلهم عن الجهاد، ﴿إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾.

٤ ـ كلّ شخص مسؤول عن عمله، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾.

٥ ـ يجب الاتّكال على الله لا على الناس، ﴿إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾.

٦ ـ واجب الأنبياء هو الحثّ والدعوة لا الإكراه، ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾.

٧ ـ الحرب والجهاد بحاجة إلى إعلام قوي، ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾.

٨ ـ التكليف المناط بنا هو القتال والجهاد، أمّا هزيمة الأعداء فبيد الله، ﴿فَقَٰتِلۡ... عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ﴾.

---

(١) تفسير الصافي.

(٢) تفسير البرهان، ج١، ص٣٩٨؛ تفسير العياشي، ج١، ص٢٦١.

٩ ـ قدرة الله تعالى فوق كلّ قدرة، وهي تبعث الأمل في نفوس المؤمنين وتبثّ الرعب في قلوب المتخلّفين، ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾

إشارات:

- «**مُقيت**»، مشتقّة من «**القوت**»: وهو ما يمسك الرمق، وجمعه: أقوات، وتعني هنا الشخص الذي يعطي الآخرين قوتهم وغذاءهم، وبذلك يكون حافظاً لحياتهم، ولهذا تأتي كلمة «مقيت» بمعنى الحافظ الذي يمتلك القدرة على الحفظ.

- ذكرت الآية السابقة أنّ كلّ شخص مسؤول عن عمله، فيما توضّح هذه الآية الدعوة والوساطة في العمل الصالح، ودورهما في ما يصيب الإنسان من ثواب أو عقاب.

- الموعظة، وإصلاح ذات البين ،والتدريس، والحثّ على المشاركة في الجبهة، والتعاون على العمل الصالح، كلّها أمثلة على «**الشفاعة الحسنة**»، كما ورد في الحديث الشريف أنّ الدعاء بحقّ الآخرين، والأمر بالمعروف، والإرشاد، أو حتى الإشارة إلى الخير، هو من أمثلة «الشفاعة الحسنة»[1].

الغيبة، والنميمة، ووضع العصي في العجلات، وإلقاء التّهم، وإشعال الفتن، والتخويف من أهوال الجبهة، والوساوس والمؤامرات، كلّها أمثلة على الشفاعة السيئة.

---

(١) تفسير الصافي، نصّ الحديث الشريف: «من أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو دلّ على خير أو أشار به، فهو شريك، ومن أمر بسوء أو دلّ عليه أو أشار به فهو شريك».

التعاليم:

١ ـ الفردية والانعزالية في الإسلام ممنوعة، ﴿يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾.

٢ ـ الدعوة إلى الخير أو الشر، تجعل صاحبها شريكاً في الثواب أو العقاب، ﴿نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.

٣ ـ القيود والمحدوديات لا تسمح بالتدخّل المباشر في أيّ عمل، ولكن يمكن أن يحظى المرء بنصيب من خلال الشفاعة الحسنة، ﴿نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.

٤ ـ يجب أن ندفع للوسيط نصيبه، فأولئك الذين يتوسّطون في الأمور الخيرية أو التجارة، لا بدّ أن يحظَوا بنصيبهم، ﴿يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.

٥ ـ عند التوسّط والشفاعة يجب أن نستحضر الله في ضمائرنا وقلوبنا، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

إشارات:

□ المراد بـ «**التحيّة**»، السلام وغيره من البرّ[1]، والتي تتضمّن إهداء الدعاء لدوام حياة الآخرين وسلامتهم وسرورهم، كما هو الحال عندما أهدت جارية إلى الإمام الحسن عليه السلام باقة ورد، فأعتقها لوجه الله، وعندما سُئل عن ذلك استشهد بهذه الآية الكريمة.

لقد حثّ الإسلام كثيراً على إفشاء السلام بين الناس، سواء أكنّا نعرفهم أم لا نعرفهم، لدرجة أنّه اعتبر البخيل هو من يبخل بإلقاء التحية والسلام. وقد جاء في الروايات أنّ النبي الكريم كان يسلّم على كل من يصادفه، حتى على الأطفال.

---

(١) تفسير القمي، ج١، ص ١٤٥.

□ لم يقصر النظام التربوي الإسلامي على الصغار فقط أن يلقوا التحيّة والسلام على الكبار، بل إنّ الله ورسوله والمؤمنين قد سلّموا على المؤمنين.

سلام الله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

سلام النبي: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾[2].

سلام الملائكة: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ لنسعَ إلى توطيد علاقاتنا الأخوية والعاطفية، ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ﴾.

٢ ـ لا يَحْسُن ردّ إحسان الناس، بل علينا أن نتقبّله ونقابله بأحسن منه، ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾.

٣ ـ يجب الردّ بالمثل على العواطف الجيّاشة والهدايا بأسرع وقت، الفاء في ﴿فَحَيُّواْ﴾ استئنافية تدلّ على الإسراع.

٤ ـ التحية الأحسن هي المستحبّة في الإسلام، ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾.

٥ ـ للردّ على الأعمال الصالحة للآخرين، لنبدأ أوّلاً بالردّ الأفضل، وإذا لم يتح لنا ذلك، نردّ بالمثل، ﴿بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾.

٦ ـ لا تنزعجوا من عدم الردّ على التحيّة؛ لأنّه إذا لم يردّ الناس، فثوابها لن يضيع عند الله، ولا تهملوا عواطف الناس، فيحاسبكم الله على ذلك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾

التعاليم:

١ ـ المبدأ والمعاد كلاهما بيد الله الواحد، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾.

---

(١) سورة الصافّات: الآية ٧٩.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٣٢.

٢ ـ يوم القيامة هو يوم الجمع للحساب، لذا، يجب أن نسعى لكسب رضا الله تعالى، وألّا نعبد إلّا إيّاه، ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

٣ ـ مع كلّ هذه الدلائل على المعاد (مثل عدالة الله، حكمته، علائم البعث والنشور في الطبيعة، والحياة بعد سبات الشتاء، النوم واليقظة، تجدّد خلايا الجسم، وغير ذلك) لا يبقى أيّ مجال للشك في وقوع يوم القيامة، ﴿لَا رَيْبَ﴾.

٤ ـ حيثما كانت الغفلة أكبر، كان ذلك أدعى أن يكون المربّي أكثر حزماً في تحذيراته. (علائم التأكيد في الآية: اللام، نون التوكيد، جملة ﴿لَا رَيْبَ﴾ و﴿أَصْدَقُ... حَدِيثًا﴾، كلّها بسبب غفلة الإنسان عن يوم القيامة).

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)﴾

إشارات:

- الإركاس: قلب الشيء على رأسه، وردّ أوّله إلى آخره، والمراد بـ ﴿أَرْكَسَهُم﴾ في الآية هو الانقلاب الفكري للمنافقين.
- قرأنا في آية سابقة، موضوع الوساطة والشفاعة في كلّ عمل خيراً كان أم شرّاً، وهنا، توضّح الآية مثالاً لشفاعة المنافقين.
- نُقل أنّ نفراً من أهل مكة من الذين كانوا قد أظهروا الإسلام امتنعوا عن ترك مجاورة المنافقين ومداهنتهم، وأحجموا لذلك عن الهجرة إلى المدينة؛ وكان هؤلاء في الحقيقة يساندون ويظاهرون عبدة الأوثان المشركين، إلّا أنّهم اضطرّوا في النهاية إلى الخروج من مكة (وساروا مع المسلمين حتى وصلوا إلى مشارف المدينة، ولعلّهم فعلوا ذلك لدرء الفضيحة عن أنفسهم أو بهدف التجسّس على المسلمين المهاجرين)، لكنّ المسلمين انتبهوا إلى حقيقة هؤلاء، غير أنّهم انقسموا إلى فئتين، فئة منهم رأت ضرورة طرد أولئك النفر من المنافقين الذين كانوا في الحقيقة يدافعون عن المشركين وأعداء الإسلام،

والفئة الثانية من المسلمين الذين كانوا لسذاجتهم يرون ظاهر الأمور دون باطنها، فعارضوا طرد المنافقين واعترضوا بزعمهم أنّه لا يمكن محاربة أو طرد من يشهد لله بالوحدانيّة ولمحمد ﷺ بالنبوّة، وقالوا: إنّه لا يمكن استباحة دماء هؤلاء لمجرّد عدم هجرتهم مع المسلمين: فنزلت هذه الآية الكريمة وهي تلوم الفئة الأخيرة على خطئها، وترشدها إلى طريق الحقّ والصواب.

□ يجب علينا أن نفسّر عبارات القرآن مجتمعة لا مجتزأة، ففي هذه الآية نجد عبارة ﴿أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وكذلك ﴿يُضْلِلِ اللَّهُ﴾، مضافاً إلى عبارة ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾. والمعنى هو أنّ إضلال الله تعالى لنا هو بسبب ما اقترفته أيدينا.

التعاليم:

١ ـ في حضور قائد كالنبي الكريم، لا مجال لاختلاف الآراء، ﴿فَمَا لَكُمْ...﴾.

٢ ـ التصدّي للمنافقين يقتضي الحزم والاتحاد، ﴿فَمَا لَكُمْ... فِئَتَيْنِ﴾.

٣ ـ سقوط الإنسان نتيجة طبيعية لما اقترفته يداه، ﴿أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾.

٤ ـ لا يحسن أن نكون أحرص من الآخر على نفسه، فإذا كان يهيّئ لأسباب سقوطه بنفسه، فلم الحرص والتباكي إذن؟ ﴿بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ﴾.

٥ ـ غضب الله آتٍ لا محالة حينما يطفح كأس المعاصي، كلّ العوامل والأسباب هباء أمام قدرة الله تعالى، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

٦ ـ من يُطرد من نظام العدل الإلٰهيّ بسبب موبقاته، فليس بوسع أحد، حتى أنت أيّها النبي، أن ينجيه، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾

إشارات:

□ التعامل مع أهل النفاق له مراحل ودرجات، فهذه الأحكام الشديدة والعنيفة الواردة في الآية خاصّة بأولئك المنافقين الذين يتواطؤون مع المشركين في نسج المؤامرات والدسائس ضدّ المسلمين.

التعاليم:

١ ـ الله تعالى يكشف عن الأمانيّ والأسرار الدفينة للمنافقين، ﴿وَدُّواْ...﴾.

٢ ـ يستهدف المنافقون والأعداء إيمانكم، لتصبحوا كفّاراً، ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

٣ ـ يجب تنقية المجتمع الإسلامي من المنافقين، وقطع جميع روابط الصداقة والمحبة معهم، ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

٤ ـ الهجرة من دار الكفر والشرك والدسائس أمرٌ واجب، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾.

٥ ـ علامة الإيمان الحقيقي الهجرة في سبيل الله تعالى، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ باب التوبة مفتوح دوماً، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾.

٧ ـ يجب قتل المنافقين والمتآمرين وقمعهم، وهذا يستلزم أن يكون المجتمع الإسلامي مقتدراً وقوياً، ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾.

٨ ـ لا يعترف الإسلام بحدود في عملية ملاحقة المفسدين، ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

٩ ـ ينبغي ألّا نعوّل على الإمكانيات المادّيّة والقوات العسكرية للمنافقين، بل ينبغي غضّ الطرف عن كلّ ذلك، ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

١٠ ـ الإسلام يرفض إقامة العلاقات مع المنافقين ومن أيّ نوع كانت عاطفية، أو سياسيّة، أو عسكرية، أو اقتصاديّة، أو ثقافية، ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يجب احترام العهود والمواثيق العسكرية حتى مع الكفّار، ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

٢ ـ أثناء الحروب، لا تتعرّضوا للذين يعلنون حيادهم، ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾.

٣ ـ يجب أن يملك المسلمون من أسباب القوّة والمنعة ما يردع الكفّار حتّى عن التفكير في شنّ الحرب عليهم، ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾.

٤ ـ إذا وضعنا قدرة الله نصب أعيننا فلن نصاب بالغرور، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾.

٥ ـ لا تحسبوا أنّ قدرتكم وقوّتكم هي التي ردعت الأعداء عن قتالكم، بل إنّها إرادة الله ومشيئته، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٦ ـ لم يشرّع الإسلام الجهاد من أجل التسلّط ونشر العقيدة بالإكراه، بل لدفع الشرّ وإزالة العقبات؛ لذا ما دام هؤلاء قد كفّوا أيديهم عنكم، فعليكم أن تكفّوا أيديكم عنهم ولا تتعرّضوا لهم، لأنّكم إن لم تفعلوا فلربّما مكنهم الله وسلّطهم عليكم، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾.

٧ ـ يجب احترام المقاصد السلمية والرغبة في وقف إطلاق النار. فالسلام هو الأصل في الإسلام، أمّا اللّجوء إلى خيار الحرب فهو في حالات الاضطرار فقط، ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ... فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

٨ ـ لا يكفي دعوة الأعداء إلى السلام، بل يجب، زيادة في الاحتياط والاطمئنان، وقف الحرب وتطبيق السلام، ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾.

٩ ـ الله سبحانه يحدّد معايير وضوابط الحرب والسلام، ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

إشارات:

□ ذكروا في أسباب نزول الآية الكريمة أنّ أناساً من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ، فيُسلمون رياءً، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان،

يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، ودرءاً لخطر المسلمين وخطر قريش عن أنفسهم، فضلاً عن المحافظة على مصالحهم لدى الطرفين، وبالطبع، كان هؤلاء أكثر ميلاً إلى الكفر منهم إلى الإيمان، فنزلت هذه الآية وأمرت المسلمين بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصالحوا[١].

التعاليم:

١ ـ الله سبحانه وتعالى يُطلع المسلمين على نوايا العدو ومقاصده المستقبلية، ﴿سَتَجِدُونَ﴾.

٢ ـ لا بدّ للمسلمين من أن يتعرّفوا إلى أعدائهم بمختلف أصنافهم، حتى يتعاملوا مع كلّ صنف بما يناسبه، ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ...﴾.

٣ ـ لا تأمنوا لمقال أيّ كان وحديثه، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾.

٤ ـ هدف المنافقين تحقيق حياة الرفاهية الآمنة، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾.

٥ ـ البيئات والظروف المناسبة تعمل على بروز الخصال الباطنية للأفراد، ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾.

٦ ـ اتجاه بوصلة المنافق نحو قبلة الكفر، وحينما يجد الظروف ملائمة، ينغمس فيه، ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾.

٧ ـ المعاملة العنيفة والقاسية مع المنافقين الذين يتحرّكون للإطاحة بالنظام الإسلامي، ﴿لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ . . . وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ﴾.

٨ ـ الكشف عن الوجه الكالح للمنافقين يستلزم الوعي والتحقيق والمعلومات الدقيقة، ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ مشتقّة من المصدر «ثقافة» الذي يعني الحصول على شيء باستخدام الدقّة، والمهارة، والعلم، بينما الفعل «وجد» يعني الحصول على الشيء بصورة مطلقة.

٩ ـ يجب أن يحيط سلطان المسلمين بالكافرين من كلّ جهة، ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

---

(١) تفسير نمونه، ج٤، ص ٥٧.

١٠ ـ الدولة الإسلاميّة لها الولاية والصلاحيات الواسعة في قمع المنافقين المتآمرين، لتنقية المجتمع من دنسهم، ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)﴾

إشارات:

□ قيل: إنّ مشركاً من أهل مكة هو «الحارث بن زيد» كان يعذّب أحد المسلمين ـ ولفترة طويلة ـ بالتعاون مع أبي جهل، وكان اسم هذا المسلم هو «عيّاش بن أبي ربيعة» ولم يكن تعذيبه بسبب جرم اقترفه، بل لمجرّد أنّه آمن بالإسلام، وبعد هجرة المسلمين إلى المدينة هاجر «عيّاش» إليها، فصادف يوماً «الحارث بن زيد» في إحدى طرقات المدينة فقتله ظنّاً منه أنّه ما زال عدوّاً للمسلمين، ولم يكن على علم أنّ الحارث كان قد تاب وأسلم، فعلم النبي الكريم ﷺ بهذا الحادث، فنزلت الآية الشريفة لتبيين حكم مثل هذا القتل الناجم عن الخطأ[1].

□ والحقيقة أنّ الآثار الإيجابية المترتّبة على دفع الديّة هي:

أ ـ تعتبر الديّة بلسماً لجروح أهل القتيل.

ب ـ وتحول دون تفشّي الشعور بعدم المبالاة بين الناس، ولئلا يقال إنّ قتل الخطأ ليس له ديّة.

ج ـ وهي، احترام لحياة أعضاء المجتمع وصون للسلم الأهلي.

د ـ التعويض عن الخسارة المادّية التي قد تلحق بأهل القتيل جرّاء فقدهم إيّاه.

---

(١) تفسير نمونه، ج٤، ص ٦١.

❑ لا تدفع الديّة لأهل القتيل إذا كانوا من أعداء المسلمين، للحيلولة دون تقوية أركان أعداء الإسلام. علاوة على أنّ الإسلام قد قطع ارتباط القتيل المؤمن بأسرته الكافرة، فلا يبقى هنا مجال لأيّ تعويض.

❑ يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ﴾: **«أمّا تحرير رقبة مؤمنة ففي ما بينه وبين الله، وأمّا الديّة المسلّمة إلى أولياء المقتول»**[1].

❑ الدية الكاملة هي بمقدار معدّل الدخل للفرد العادي، ومقدارها ألف مثقال من الذهب، أو مائة بعير أو مائتا بقرة[2].

❑ لم تحدّد الآية الكريمة مقدار الديّة الواجب دفعها إلى أهل القتيل، وذلك لكي يلجأ المسلمون إلى المفسّرين الحقيقيين للقرآن وسنّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أعني أهل البيت عليهم السلام، وينهلوا من علومهم.

❑ في البداية، إنّ مقدار الدية المعيّنة لأهل القتيل المسلم هو أن يحرّر القاتل عبداً مسلماً، ثمّ يدفع الديّة عن دم القتيل إلى أهله، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ﴾، ولكن إذا كان أهله من الكفّار، فالحديث في الآية هو أوّلاً عن دفع الديّة ثمّ تحرير رقبة ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ... وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، ولعلّ تفسير ذلك هو أنّ الأهل الكفّار ربّما كان اهتمامهم بالأمور المادّية أكبر، أو أنّ دفع الديّة يكون له تأثير على استمرار العهد والميثاق.

التعاليم:

١ ـ قتل البريء في الإسلام حرام، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ﴾.

٢ ـ لا يجتمع القتل مع الإيمان، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ﴾.

٣ ـ المؤمن معرَّض للخطأ، وعليه أن يحذر، ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا﴾.

٤ ـ حرمة النفس المسلمة هي إلى درجة بحيث لا يمكن التسامح حتى في حال إزهاقها خطأً، ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ﴾.

---

(١) نور الثقلين، ج١، ص٥٣٠. (٢) تفسير الميزان.

٥ ـ الخطأ هو أحد معايير رفع التكليف أو تخفيف العقوبة، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

٦ ـ التعويض عن فقدان المؤمن يتمّ بتحرير إنسان مؤمن، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

٧ ـ الحرّية هي نوع من الحياة، فحينما تُسلب حياة شخص، يجب التعويض عنها بتحرير شخص آخر[1]، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

٨ ـ تحرير العبيد أمرٌ مقرّرٌ في ثنايا التشريعات الإسلاميّة، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

٩ ـ دفع الديّة غير مشروط بطلب أولياء الدم (أهل القتيل)، بل هو فرض ينبغي على القاتل أداؤه، ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾.

١٠ ـ لا تُدفع الديّة لأيٍّ كان، بل لأسرة القتيل، حتى يصل الحقّ إلى صاحبه، ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾.

١١ ـ الديّة هي من حقّ أسرة القتيل، ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾.

١٢ ـ تعيين ديّة المجرم، هو سرّ وجود الجريمة في الحكومة الإسلاميّة، ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾.

١٣ ـ يجب أن لا نتخلّى عن العواطف والرأفة حتى ونحن في ذروة الانفعال، فالعفو عن المجرم صدقة مستحبّة، ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾.

١٤ ـ للعهد والميثاق حرمة كبيرة لدرجة أنّ الكافر أحياناً يوضع في مصاف المؤمن، فالآية تصرّح بوجوب دفع الديّة إلى الكافر الذي يربطنا به عهد، ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ... وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

١٥ ـ يجب توظيف طبيعة الجرائم لتكون، من ناحية، في صالح المجتمع المؤمن ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ ومن ناحية ثانية، أن لا تؤدّي إلى تدعيم المجتمع الكافر. لذلك، فإنّه لا يجوز دفع الديّة إلى العدوّ الحربي، ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

١٦ ـ شرط الإيمان الموضوع لتحرير الرقبة، هو تشجيع للعبيد للدخول في الإسلام، ﴿رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

---

(١) تفسير الميزان.

١٧ ـ تشريعات الإسلام منفتحة ولا تعتريها مسدّات، فالأحكام الإسلاميّة يمكن تخفيفها لا تعطيلها، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾.

١٨ ـ الغرامة في الإسلام على قدر القوة الجسدية والمالية للأشخاص، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾.

١٩ ـ الصوم المتواصل هو وسيلة لتنقية الروح وتهذيب النفس، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

٢٠ ـ يرتكز الإسلام على الجانب الإيماني للأشخاص، فتحرير العبد ودفع الديّة مسألتان واضحتان للعيان، أمّا الصوم، فهو مسألة غير مرئية؛ لأنّها مرتبطة بضميره الدينيّ والأخلاقي، وهو الذي يحاسبه، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

٢١ ـ نفس المؤمن لها حرمة كبيرة، والكفّارة هي وسيلة إلٰهيّة للرأفة والرفق، ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾.

٢٢ ـ القتل الخطأ أيضاً يبعد القاتل عن ألطاف الله، ولا يعيده إليها إلّا دفع الديّة وتحرير رقبة، ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾.

٢٣ ـ التشريعات الإلٰهيّة تقوم على العلم والحكمة وهي تلحظ جميع الجوانب في الموضوع، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾

إشارات:

- نزلت في مقيس بن ضبابة الكناني، في ظروف معركة أحد العصيبة، وذلك أنه أسلم وأخوه هشام بن ضبابة وكانا في المدينة، فوجد مقيس أخاه هشاماً ذات يوم قتيلاً في الأنصار بين بيوت بني النجار، فانطلق إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك، فأرسل رسول الله ﷺ رجلاً من قريش من بني فهر ومعه مقيس إلى بني النجار ـ ومنازلهم يومئذ بقباء ـ أن ادفعوا إلى مقيس قاتل أخيه إن علمتم

ذلك، وإلا فادفعوا إليه الدية، فلما جاءهم الرسول قالوا: السمع والطاعة لله وللرسول، والله ما نعلم له قاتلاً ولكن نؤدي إليه الدية، فدفعوا إلى مقيس مائة من الإبل دية أخيه، فلما انصرف مقيس والفهري راجعين من قباء إلى المدينة وبينهما ساعة، عمد مقيس إلى الفهري رسول الله ﷺ فقتله، وارتدّ عن الإسلام[1].

- يولي الإسلام أهميّة قصوى لنفس المسلم وصون أمنه وماله، ولذلك فإنّ حكم القاتل المتعمّد هو أن يخلّد في العذاب، وذلك للحدّ من حوادث القتل والجرائم الخطيرة. والحقيقة أنّ العبارات المستخدمة في هذه الآية بحقّ القاتل الذي يقتل مؤمناً عن عمد وإصرار لم تذكر في أيّ معصية أخرى. سئل الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ قال: **من قتل مؤمناً على دينه فذلك المتعمّد الذي قال الله تعالى في كتابه عنه: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾**[2].
- «**التعمّد**» مشتقّة من كلمة «**العمود**»، وحيث إنّ النيّة هي عماد الأفعال، لذا، يقال لقصد الشيء والاستناد إليه: بـ «**العمد**».
- أشارت روايات عدّة صراحةً إلى فداحة ذنب القتل، ومن ذلك ما تضمّن المعاني الآتية:

١ ـ أوّل ما يُسأل عنه الإنسان في يوم القيامة هو قتله الأبرياء.
٢ ـ أشقى الناس هو الذي يسفك دم الإنسان أو يضربه.
٣ ـ لا يتحمّل القاتل وزر القتل فحسب، بل أوزار المقتول أيضاً.
٤ ـ لو أنّ أهل السموات والأرض اجتمعوا على قتل مؤمن، أو رضوا به لأدخلهم الله النار.
٥ ـ زوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حقّ[3].

---

(١) المغازي، ج١، ص٣٠٤، نقلاً عن: «پيامبرى وجهاد» (النبوة والجهاد)، ص٣٢٧.
(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج٧، ص٢٧٦.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٢ فما بعد.

التعاليم:

١ ـ في الحكومة الإسلاميّة لا يملك أيّ مسؤول الحقّ في قتل أو إعدام الآخرين دون وجه حقّ، ﴿وَمَن يَقْتُلْ... مُتَعَمِّدًا﴾.

(فيما يؤمن النظام الطاغوتي بشعار ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾)[١].

٢ ـ قيمة الإنسان بأفكاره ومعتقداته السليمة، ﴿مُؤْمِنًا﴾.

٣ ـ الأخطاء التي تُرتكب عن عمد وسابق إصرار لها حساب آخر، ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾.

٤ ـ سفك دم البريء من الكبائر، ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾.

٥ ـ العقوبات الشديدة والقاسية هي عامل ردع يحول دون الفساد في المجتمع، وفي الوقت نفسه، يبعث على إرساء دعائم السّلم الأهلي وتوطيده، ﴿وَمَن يَقْتُلْ... فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

إشارات:

□ بعد عودة الرسول الأكرم ﷺ من غزوة خيبر بعث أسامة بن زيد مع جمع من المسلمين إلى يهود كانوا يسكنون في قرية فدك، من أجل دعوتهم إلى الإسلام، أو الخضوع لشروط الذمّة، مرداس اليهودي هو أحد الذين عرفوا بقدوم جيش الإسلام وكان قد أخذ أمواله وأولاده ولجأ بهم إلى أحد الجبال، هبّ لاستقبال المسلمين وهو يشهد بوحدانيّة الله ورسالة النبي الكريم ﷺ، وقد

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

ظنّ أسامة بن زيد أنّ هذا اليهودي يتظاهر بالإسلام خوفاً على نفسه وحفظاً لماله وأنّه لا يبطن الإسلام في الحقيقة، فعمد أسامة إلى قتله والاستيلاء على غنمه، وعندما وصل نبأ هذه الواقعة إلى النبي الأكرم ﷺ، تأثّر تأثّراً شديداً وغضب من أسامة لقتله الرجل مع عدم علمه بما في قلبه[١].

- لقد ذمّ الإسلام أن تكون الغنائم الحربية والدوافع المادّية وراء جهاد المسلم، كما حذّر من مغبّة التصرّفات المتسرّعة وقتل الإنسان البريء دونما تريّث أو تحقيق، بحجّة الحماسة الثورية والحزم.

- لعلّ عبارة ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ تشير إلى أنّ المسلمين أنفسهم كانوا في البداية مثل هؤلاء المتظاهرين بالإسلام، أو أنّ المقصود منها (كما ذكر المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان) هو: أنتم أيضاً كنتم في الجاهلية تقاتلون بدوافع السلب، والنهب، والحصول على المكاسب المادّية والغنائم الحربية، فجاء الإسلام ووضع حدّاً لتلك الدوافع والنزعات الجاهلية.

- ربّما كان المراد بعبارة ﴿أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ هو إشهار الإسلام وقول الشهادتين، والتي تنسجم أكثر مع سبب نزول الآية، أو كان المقصود هو تقديم عرض لوقف إطلاق النار وإنهاء القتال والاستسلام، وليس اعتناق الإسلام، وبذلك يصبح المعنى: لا ترفضوا دعوة من عرض عدم القتال وأظهر الاستسلام وإنهاء القتال وتقولوا له: لست مؤمناً بما تقول، وذلك لتقتلوه وتغنموا ما عنده[٢].

- طبعاً، ليس بمستبعد أن يكون معنى كلمة ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ الواردة في آخر الآية هو دعوة لتأمّل تاريخ العصر الجاهلي، بمعنى، أنّكم قبل الإسلام كنتم تغزون وتقاتلون من أجل مغانم الدنيا، فتأمّلوا جيّداً مسيرة التاريخ، لتعرفوا مدى التغيير والرشد الذي طرأ عليكم بفضل الإسلام، لذا، لا تتوقّعوا ممّن اعتنق الإسلام حديثاً أن يكون على مستوى راقٍ من المسؤولية والالتزام[٣].

---

(١) تفسير نمونه، ج٤، ص ٧٣.

(٢) تفسير راهنما.

(٣) المصدر نفسه.

التعاليم:

١ ـ يجب أن يكون الجهاد في ضوء المعلومات والإلمام بأوضاع العدوّ وغاياته ونواياه، ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

٢ ـ أولئك الذين يشهرون إسلامهم يجب علينا أن نستقبلهم بالأحضان، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟... لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

٣ ـ احترزوا من استغلال قوتكم وسلطتكم في جبهات الجهاد، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟... لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

٤ ـ احذروا رمي الآخرين بتهمة عدم الإيمان، والتسرّع في تكفير من تشكون فيهم من الأشخاص، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟... لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

٥ ـ إنّا مأمورون بالتعامل مع الأشخاص بحسب ظاهرهم، فإذا لم نثق بأقوالهم، فلا ينبغي المسارعة إلى التكذيب والرفض، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟... لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

٦ ـ ليس المدعي وحده يحتاج إلى دليل، بل من ينكر مدعى لا بد له من دليل أيضاً، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟... لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

٧ ـ لا تكفّروا الآخرين لدوافع مادّية، ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٨ ـ اطرحوا عنكم الأهداف المادّية في الحروب، ولا تسيئوا إلى قدسيّة الجهاد باللهث وراء المغانم، ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٩ ـ زخارف الدنيا تستهوي حتى المقاتلين الذين وضعوا أرواحهم على أكفّهم، ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٠ ـ الهدف من الجهاد أن ينضوي الآخرون تحت راية الإسلام، لا الحصول على المغانم؛ لذا لا ترموا الآخرين بعدم الإيمان من أجل المكاسب المادّية، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟... لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١١ ـ الخطر كلّ الخطر هو في تغيّر الدوافع والنوايا في الجهاد، ﴿تَبْتَغُونَ﴾.

١٢ ـ الدنيا واقع زائل غير مقيم، ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٣ ـ يجب أن يتخلّق المقاتل المؤمن بالزهد وأن يدير ظهره للدنيا، ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾.

١٤ ـ توخّوا الدقّة والتمحيص في كلّ خطوة تخطونها، أمّا المسائل المادّية فسيتكفّل الله بها، ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾.

١٥ ـ الدنيا تكون حقيرة في عين الإنسان إذا ما تذكر الثواب الإلٰهيّ، ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾.

١٦ ـ لا بأس من أن نطلب من الله أن يرزقنا من نعم الدنيا أيضاً، ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ﴾.

١٧ ـ الإنسان مفطور على حب المادة والماديات؛ ولذلك، لا بدّ من تأمينها على نحوٍ ما، وأيّ نحوٍ أفضل من التعريف بالقيم، وسوق تلك الغرائز الفطرية نحوها، وبذلك نكون قد أنقذناه بدلاً من السقوط في مستنقع المتاع القليل والحرام، ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾.

١٨ ـ اللهث وراء الدنيا عادة جاهلية، ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾.

١٩ ـ ضع نفسك مكان الآخرين، ثمّ احكم. أنت نفسك كنت في السابق على هذه الحال، ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾.

٢٠ ـ لا تكن مغروراً، فإيمانك هو بفضل الله، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

٢١ ـ الهداية الإلٰهيّة هي منّة خصّنا الله تعالى بها، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

٢٢ ـ النعم تترتّب عليها مسؤوليات وتكاليف، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا﴾.

٢٣ ـ الأخطار والأضرار الكامنة في قتلِ الخطأ أكبر من احتمال النفاق من قبل الأعداء أو خسارة الغنائم؛ لذا على أولئك الذين يحرسون الأموال والأنفس والأعراض أن لا ينسوا مبدأ الاحتياط والتحقّق، ﴿فَتَبَيَّنُوٓا... فَتَبَيَّنُوٓا﴾.

٢٤ ـ لا تكن ساذجاً ولا سريع التصديق. وفي المقابل، لا تكن سيّئ الظنّ ولا حاقداً، ﴿فَتَبَيَّنُوٓا﴾.

٢٥ ـ في المعارك والحروب التي تتهيّأ فيها الفرص والأعذار المناسبة لقتل

الأبرياء، يجب تغليب العقل والحكمة على المشاعر والعواطف، ولا ننسى أنّ الله من فوقنا عليم وبصير، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾

إشارات:

- الذين يتخلّفون عن الذهاب إلى جبهات الجهاد يتوزّعون على فئات عدّة: المنافقون الذين لا إيمان لهم، المسلمون الجبناء، المرفّهون، الشكاكون، الذين يفتقدون إلى الإرادة والهمّة ويقولون: إنّنا ندعو للمجاهدين وندعمهم بالمال والقول والقلم والدعاء، وأنّ الجهاد بالنسبة إليهم ليس واجباً عينياً. تحمل هذه الآية الكريمة على هذه الفئة الأخيرة المتقاعسة عن الجهاد وتوبّخها، فيما تعرّضت الفئات الأخرى للتوبيخ والتقريع الشديدين في مواضع أخرى من القرآن الكريم، وليس لهم أيّ منزلة أو مقام، ما دام المجاهدون أفضل منهم بدرجة.
- ذكرت الروايات أنّ المرضى الذين أقعدهم مرضهم عن المشاركة في الجهاد، ولكنّ قلوبهم كانت مع المجاهدين في جبهات القتال، فلهم ما للمجاهدين من ثواب وأجر[1].
- الآية الكريمة تتعلّق بالواجب الكفائي، ولو كان الجهاد واجباً عينياً، لعُدّ القاعدون عن القتال متخلّفين.

التعاليم:

١ ـ يجب أن يكون أسلوب الدعاية والتشجيع مرحليّاً. (في البداية قالت الآية

---

(١) تفسير الصافي.

الشريفة: ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ ثمّ استتبعتها بـ ﴿دَرَجَةً﴾ لتختم بـ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٢ ـ لكلٍّ أسلوب خاص في الخطاب والتعامل: فالقرآن الكريم له تعامل خاصّ مع كلّ فئة، مثلاً خطابه إلى المؤمنين المتخلّفين عن الجبهات يختلف عن خطابه إلى المنافقين، أو الجبناء، أو المرفّهين. فقد وصف المؤمنين بالمتخلّفين عن جبهات القتال بكلمة «القاعدين».

٣ ـ أولئك الذين يعانون من مشاكل في الجسم مستثنون من الجهاد، ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾.

٤ ـ يطرح القرآن الكريم الجهاد بالمال إلى جانب الجهاد بالنفس، لأنّ غياب الدعم المالي يضعف الجبهات، ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

٥ ـ التبرعات والمعونات الشعبيّة هي من مصادر تأمين الميزانية الدفاعية، ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

٦ ـ حيثما احتُمل عدم تصديق الناس، لزم الإعادة والتكرار. (في هذه الآية والآية اللّاحقة تكرّرت عبارة ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ و﴿دَرَجَةً﴾).

٧ ـ خدمات وجهود كلّ الأفراد محترمة، فإذا كنّا نثني على دور المشاركين في الجبهات، فلا يجوز أن نقلّل من دور الآخرين ونغمطهم حقوقهم. نعم، للمجاهدين فضل ودرجة؛ ولكن ليس على حساب نبذ الآخرين أبداً، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٨ ـ على كلّ فرد في أيّ مسؤولية وموقع كان أن يعلم أنّه أدنى من المجاهدين فضلاً ومرتبة، ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾.

٩ ـ إذا كان الله تعالى قد فضّل المجاهدين على الآخرين، إذن، ينبغي على الجميع أيضاً أن يُكرم المجاهدين والشهداء في المجتمع، ومعاملتهم معاملة خاصّة. (وفي الوقت نفسه يجب ألّا يتحوّل ذلك إلى طمع أو مطالب غير مشروعة عند المجاهد فيفضي ذلك به إلى سوء العاقبة)، ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾.

﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦﴾

التعاليم:

١ ـ الفرق بين المجاهدين والقاعدين ليس بالقليل، بل تفصل بينهما مسافة شاسعة، ﴿دَرَجَٰتٖ﴾.

٢ ـ الانتهال من فيض الرحمة الإلٰهيّة رهن بالتطهّر سابقاً وحاضراً. ذكرت الآية الكريمة «**المغفرة**» أوّلاً ثمّ أتبعتها بـ «**الرحمة**».

٣ ـ الله تعالى غفور رحيم، ولكن هذه المغفرة والرحمة مشروطتان بالمشاركة في جبهات القتال للجهاد، ﴿وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ . . . غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾

إشارات:

☐ قبل بدء غزوة بدر، أنذر زعماء قريش جميع الأفراد من أهالي مكة الذين يستطيعون حمل السلاح، أنّ عليهم أن يتأهّبوا لقتال المسلمين، محذّرين بأنّ من يخالف هذا الأمر ستهدم داره وتصادر أمواله، وقد أدّى هذا التهديد بنفر من الذين كانوا قد أسلموا في الظاهر، ولكنّهم كانوا قد رفضوا الهجرة لشدّة حبّهم لموطنهم ولأموالهم، أدّى بهؤلاء إلى أن يرغموا على مشاركة المشركين في التحرّك إلى ساحة الحرب، وراودهم الشك في انتصار المسلمين لقلّة عددهم، فقتلوا تحت راية المشركين. فنزلت الآية الكريمة وحدّثت عن المصير الأسود الذي لاقاه هؤلاء بسبب إصرارهم على البقاء في موطن الشرك.

☐ وقد ورد في الحديث عن النبي الأكرم ﷺ أنّه قال: «**من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنّة وكان رفيق إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ**»[١].

---

(١) تفسير الصافي، ذيل الآية.

التعاليم:

١ ـ يحيط الملائكة علماً بأفعال الإنسان، ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ... قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوٓا۟﴾.

٢ ـ ترك الهجرة وتضييع الهدف والعقيدة ظلمٌ للنفس. (شعار «حشر مع الناس عيد» مرفوض من قبل القرآن الكريم)، ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

٣ ـ أوّل ذنب يؤاخَذ عليه الميت بعد موته هو «تركه الهجرة». فالملائكة المأمورون بقبض الروح يؤاخذون الإنسان لحظة قبضهم لروحه، ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾.

٤ ـ الهجرة من دار الكفر واجبة، والانضمام إلى صفوف الكفّار حرام، ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ... أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾.

٥ ـ إن استطعت التأثير على محيطك فافعل، وإلّا فهاجر حتى لا تؤثَم، ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾.

٦ ـ تقديم الأعذار والحجج أمرٌ غير مقبول، ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ...﴾.

٧ ـ للبيئة والأجواء السائدة تأثير كبير على الإنسان، لذلك، ينبغي على الإنسان الهجرة ليتخلّص من ضغط البيئة المحيطة، ﴿فَتُهَاجِرُوا۟﴾.

٨ ـ الإيمان بالله هو المهم وليس حبّ الوطن، ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟﴾.

٩ ـ الهجرة هي إحدى الأساليب في معالجة الاستضعاف الفكري والعقدي، ﴿مُسْتَضْعَفِينَ... أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾.

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

إشارات:

❑ عن الباقر عليه السلام قوله في المستضعف: **«هو الذي لا يستطيع حيلة يدفع بها عنه الكفر ولا يهتدي سبيلاً إلى الإيمان لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر...، مرفوع عنهم القلم»**[1].

---

(١) تفسير الصافي.

❑ وقال عليه السلام أيضاً في المستضعف: **«الصبيان ومن كان من الرجال والنساء على مثل عقول الصبيان»**[(١)].

التعاليم:

١ ـ التكليف شرطه القدرة، ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ...﴾.

٢ ـ الهجرة واجبة حتى على النساء والصبيان الذين يرزحون تحت سلطة الكفر ولهم القدرة على الهجرة، ﴿وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

٣ ـ المستضعف الحقيقي هو من لا قدرة له على الهجرة والفرار من سلطة الكفّار والمشركين، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

٤ ـ الجهل بالمعارف الدينيّة مع إمكان التعلّم معصية وظلم للنفس، ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ... إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ... وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

٥ ـ الأعذار الحقيقيّة مقبولة، لا اختلاق الأعذار الواهية والتبريرات، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ... وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

٦ ـ الهجرة هامّة لدرجة أنّ الآية الكريمة ذكرت الصفح عن ذنب هؤلاء العاجزين والبؤساء الذين تركوا الهجرة بكلمة «عسى» أي ربّما غفر الله لهم ذنبهم، وليس الجزم على المغفرة، ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾.

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

إشارات:

❑ خرج أحد المسلمين من بيته مهاجراً فقال لأهله: احملوني فأخرجوني من أرض المشركين إلى رسول الله ﷺ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي ﷺ، فنزل الوحي ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ...﴾[(٢)].

---

(١) نور الثقلين، ج١، ص٥٣٧؛ معاني الأخبار، ص٢٠١.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٣، ص ١٥٢.

□ الهجرات المقدّسة مثل الهجرة إلى الجهاد، كسب العلم، الدعوة وما شابه ذلك، كلّها أمثلة لهذه الآية.

□ عن عبد الأعلى قال: سألت أبا عبد الله الإمام الصادق عليه السلام عن قول العامّة إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية**»، فقال: **الحقّ والله**، قلت: فإنّ إماماً هلك ورجل بخراسان لا يعلم من وصيّه لم يسعه ذلك، قال: **لا يسعه، إنّ الإمام إذا هلك وقعت حجّة وصيّه على من هو معه في البلد وحقّ النفر على من ليس بحضرته، إذا بلغهم أنّ الله عزّ وجلّ يقول:** ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، قلتُ: فنفر قوم فهلك بعضهم قبل أن يصل فيعلم قال: **إنّ الله عزّ وجلّ يقول:** ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ في الهجرة مندوحة وسعة، ﴿وَمَن يُهَاجِرْ... يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا﴾ من جدّ وجد، ومن زرع حصد.

٢ ـ إنّا مكلّفون بأداء الواجب، لا بضمان النتيجة فالمهمّ هو الخروج من المنزل، لا أن نضمن بلوغ الغاية، ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ﴾.

٣ ـ هاجِروا إلى الله ورسوله، ولا تخشوا الموت والحياة، ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾.

٤ ـ أجر المهاجر على الله، وهو أبعد من الجنّة، ﴿وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

إشارات:

□ بعد الحديث عن الجهاد والهجرة، تبيّن هذه الآية حكم صلاة المسافر.

---

(١) الكافي، ج١، ص ٣٧٨.

❑ **«الضرب في الأرض»** تعبير عن السفر، لأنّ المسافر يضرب الأرض برجليه عند السفر[١].

❑ يستخدم القرآن الكريم أحياناً عبارة «ليس عليكم جناح» للتعبير عن الوجوب، وهذه الآية هي مثال على ذلك. ويتراءى للمرء أنّ المسلمين في صدر الإسلام كانوا متعلّقين بالصلاة تعلّقاً شديداً لدرجة أنّهم ظنّوا أنّ قصرها فيه إثم وذنب.

❑ إنّ الخوف من الأعداء ليس شرطاً وحيداً لقصر الصلاة، ولكن ينطوي السفر، في العادة، على مخاطر وخشية من المجهول، أو أنّ حكم قصر الصلاة شرّع في بادئ الأمر في حالات الخوف، ثمّ توسّع ليشمل جميع الأسفار، فجاء التحديد بعبارة ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾.

❑ من شروط قصر الصلاة، كما ورد في الروايات، هو أن تتجاوز المسافة مسيرة يوم واحد (أو ثمانية فراسخ)[٢].

❑ عند السفر تصبح صلاة الفريضة الرباعية ركعتين، عدا صلاة المغرب[٣].

التعاليم:

١ ـ تمتاز التشريعات الإلٰهيّة بمبدأين هامين هما: الواقعية والمرونة، ﴿تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ...﴾.

٢ ـ يجب أن نحذر العدوّ حتى عند الصلاة. فلا انفكاك بين السياسة والدين، وبين العبادة والفطنة، ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ﴾.

٣ ـ أحياناً، لا ضرورة لليقين، فمجرّد بروز احتمال بوقوع فتنة أو مؤامرة يكفي لإعادة النظر في الخطط، ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ﴾.

٤ ـ إقامة الصلاة واجبة حتى مع احتمال وقوع الخطر، ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ...﴾.

٥ ـ الكفر والإيمان ضدّان لا يجتمعان، ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا﴾.

---

(١) مفردات الراغب، مادة «ضرب».

(٢) تهذيب الأحكام، ج٣، ص٢٠٧.

(٣) من لايحضره الفقيه، ج١، ص٢٧٩.

٦ ـ الكفّار متّحدون على عداوتكم. وردت كلمة «عدوّ» بدلاً من «أعداء».
٧ ـ عداوة الكفّار لكم لها جذور قديمة، وهي مستمرّة، ﴿كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا﴾.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

إشارات:

- في السنة السادسة للهجرة نزل النبي الكريم ﷺ أرض الحديبية ـ وهو في طريقه إلى مكة ـ فسمعت قريش بذلك فبعثت خالد بن الوليد على رأس زمرة من مئتي شخص لاعتراض طريق النبي الكريم ﷺ والمسلمين الذين معه ومنعهم من الوصول إلى مكة، فاستقرّ خالد والذين معه في الجبال القريبة من مكة. ولما كان موعد صلاة الظهر، أذّن بلال، فصلّى النبي الكريم ﷺ بالمسلمين جماعة، فشاهد خالد بن الوليد صلاة المسلمين ففكر في خطّة للهجوم على المسلمين، وأخبر جماعته أن يغتنموا فرصة أداء المسلمين صلاة العصر التي يعتبرونها أعزّ عليهم من أعينهم، فيباغتونهم بهجوم خاطف أثناء الصلاة ويقضون عليهم. وفي هذه الأثناء نزلت الآية الكريمة بحكم صلاة الخوف التي تصون المسلمين من كلّ هجوم خاطف. والحقيقة، أنّ هذه الآية هي إحدى وجوه إعجاز القرآن الكريم إذ أخبرت عن وقوع هجوم قبل قيام العدو بتنفيذه وبذلك أفشلت خطّة العدو، ويقال إنّ خالداً أعلن إسلامه حال مشاهدته لذلك المشهد بعينه[1].

(١) تفسير مجمع البيان.

□ تبيّن هذه الآية طريقة صلاة الخوف التي تؤدّى في ساحة الحرب فتخاطب النبي قائلة: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾، فإذا سجدت جماعة وانقضت الركعة الأولى، من الصّلاة، على الإمام أن يقف في مكانه فتؤدّي الجماعة ـ سريعاً ـ الركعة الثانية وتعود إلى ساحة القتال لمواجهة العدوّ. ثمّ تأتي بعد ذلك الجماعة الثانية التي لم تصلّ بعد، وتأخذ مكان الجماعة الأولى فتصلّي مع الإمام، وعلى الجماعة الثانية أن لا تضع أرضاً لامة حربها، بل تحتفظ بها معها.

التعاليم:

١ ـ لا تعطّل الصلاة حتى في سوح الوغى، فالمقاتل لا يسقط عنه تكليف الصلاة، ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ... وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾.

٢ ـ يكفي في بيان أهميّة صلاة الجماعة أنّها تُؤدّى في جبهات القتال ضدّ العدوّ ولو بركعة واحدة، ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟﴾.

٣ ـ عند تزامن تكليفين (الجهاد والصلاة)، لا يجوز إنجاز أحدهما وترك الآخر، ﴿فَلْتَقُمْ... وَلْيَأْخُذُوٓا۟﴾.

٤ ـ الحذر واجب على المسلمين في جميع الأحوال، حتى أثناء أدائهم الصلاة، لئلا يغفلوا عن خطر الأعداء، ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾.

٥ ـ القائد هو قطب الوحدة والعبادة، ﴿كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾.

٦ ـ توزيع العمل، التعاون وإشراك الآخرين في أعمال الخير حتى في أحرج المواقف، هي من عوامل تآلف المجتمع وتضامنه. تقسّم هذه الآية ركعتي صلاة الجماعة بين فئتين للحيلولة دون أيّ تمييز، ولينال كلّ واحد حصّة من الثواب في أعمال الخير، ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ ...﴾.

٧ ـ تتفاوت الأحكام الإلهيّة بتفاوت الظروف والشروط. (تتعلّق هذه الآية بصلاة الخوف من خطر الأعداء)، ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾.

٨ ـ صلاة الجماعة في الجبهات دليل تعلّق بالله، والقائد والهدف، علاوة على الالتزام بالمبادئ والقيم، ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾.

٩ ـ يجب العمل على توفير الإمكانية لتبديل القوات العسكرية في الجبهات خلال فترة ركعة واحدة، ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟﴾.

١٠ ـ إطالة مدّة الصلاة في الجبهات تزيد من فرص العدوّ في الانقضاض. لذا يجب توفير حماية أكبر. حمل الأسلحة في الركعة الأولى كافٍ، ولكن في الركعة الثانية يجب حيازة وسائل الدفاع مضافاً إلى حمل الأسلحة، ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ... وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

١١ ـ يطلع الله تعالى رسوله الكريم ﷺ على المؤامرات والخطط السرّية المبيّتة للعدوّ. (نظراً إلى سبب نزول الآية الكريمة فإنّ خالد بن الوليد عزم على مهاجمة المسلمين أثناء إقامتهم صلاة الجماعة، ولكنّ هذه الآية جعلت خطّته هباءً منثوراً).

١٢ ـ حركتكم المخلصة هي التي جعلت مدد السماء ينزل في الوقت المناسب. (نزول الآية الكريمة وحكم إقامة صلاة الخوف هي من المدد الإلٰهيّ لإفشال مؤامرة الأعداء).

١٣ ـ يجب عدم إطالة طقوس العبادة في الجبهات، وكلّ ما يؤدّي إلى الغفلة محظور، ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ﴾.

١٤ ـ يجب أن تحيطوا علماً بأماني العدوّ ونواياه، ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ﴾.

١٥ ـ احذروا لئلا تنشغلوا بالعبادة وتنسوا عدوّكم، ﴿تَغْفُلُونَ﴾.

١٦ ـ لا يغفل المسلم الحقيقي إلّا ما ندر. (فكلمة «لو» في العبارة ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ تشير إلى هذا المعنى).

١٧ ـ بالفطنة واليقظة يجب صيانة الإمكانات العسكرية والاقتصادية، ﴿أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾.

١٨ ـ غفلة الأمّة الإسلاميّة عاقبتها غارة الكفّار في ليلة ظلماء، ﴿مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

١٩ ـ كلّ كلمة أو خطّة أو حركة تؤدّي بالمسلمين إلى الغفلة هي بمثابة خطوة باتجاه تحقيق أهداف العدو وغاياته، ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ﴾.

٢٠ ـ المرض والضرر هما المعيار ورخصة الإعفاء من الجبهة والجندية، ﴿بِكُمْ أَذًى... أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾.

٢١ ـ المطر المقرون بالأذى والضرر هو الذي يرخّص بإلقاء السلاح، فالمقاتل لا يلقي سلاحه في المطر الذي لا ضرر فيه، ﴿بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾.

٢٢ ـ في كلّ الظروف، لا ينبغي للمقاتل أن يغفل عن الوسائل الخاصّة بالحماية. فإن لم يكن لديه سلاح فليتدرّع، ﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾.

٢٣ ـ أحد أساليب القرآن الكريم، توعّد الكفّار وطمأنة المؤمنين وبعث الأمل في نفوسهم، ﴿أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

٢٤ ـ عاقبة الكفّار الذلّ والهوان، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

إشارات:

﴿قِيَٰمًا﴾ جمع «**قائم**» وهي تعني الوقوف، وكلمة «**قعودا**» جمع «**قاعد**» وهو الجالس، أمّا «**الجنوب**» فجمع «**الجَنب**» وهي كناية عن الاستلقاء والاسترخاء. و﴿كِتَٰبًا﴾ تعني الشيء المدوّن والواجب، و«**موقوت**» هو ما كان محدّداً بوقت معيّن.

□ وعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال في الآية الكريمة: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾: «**معنى الآية أنّ الصحيح يصلّي قائماً والمريض يصلّي قاعداً ومن لم يقدر أن يصلّي قاعداً صلّى مضطجعاً ويومئ (بإيماء) فهذه رخصة جاءت بعد العزيمة**»[1].

وعن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام في تفسيره معنى ﴿كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾: «**يعني المفروض والواجب**»[2].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٤٨٨.
(٢) الكافي، ج٣، ص ٣٩٤.

التعاليم:

١ ـ التخفيف في أركان صلاة الخوف، يعوّض عنه بذكر الله، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾.

٢ ـ الصلاة وذكر الله واجب في كلّ حال، سواء كان المرء في جبهات القتال أو على فراش المرض، ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

٣ ـ صلاة الخوف استثناء، وحالما ينتهي الظرف الاستثنائي، تؤدّى الصلاة بصورتها العادية الأولى، ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾.

٤ ـ الصلاة من الفروض الإلهيّة القطعية في جميع العصور، ولكلّ الأجيال، ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا﴾.

٥ ـ تجب كل صلاة في وقتها المحدّد لها، ﴿مَّوْقُوتًا﴾.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)﴾

إشارات:

روي أنّ النبي ﷺ، وبعد الأحداث الأليمة لواقعة أحد، صعد إلى الجبل وكان أبو سفيان عليه، فخاطب النبيّ بلغة المنتصر بقوله: يا محمّد يوم بيوم بدر. وعنى أبو سفيان بذلك أنّ انتصارهم في أحد هو بدل هزيمتهم في بدر، فطلب النبي ﷺ من المسلمين أن يردّوا عليه فوراً، ولعلّ النبي أراد أن يثبت لأبي سفيان أنّ من تربّوا في ظلّ الرسالة الإسلاميّة يتمتّعون بكامل الوعي، فردّ المسلمون على أبي سفيان قائلين: هيهات أن يستوي الوضع بين المؤمنين والمشركين فشهداء المؤمنين في الجنّة وقتلى المشركين في النار. فأجاب أبو سفيان صارخاً ومفتخراً بالعبارة التالية: لنا العزّى ولا عزّى لكم، فردّ عليه المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم، ولمّا عجز أبو سفيان عن الردّ على هذا الجواب والشعار الإسلامي الحيّ تخلّى عن صنمه العزّى وعرج على صنم آخر هو هبل متوسّلاً إليه بقوله: أعلُ هبل، أعلُ هبل، فردّ عليه المسلمون بجواب قويّ علّمهم إيّاه نبي

الإسلام ﷺ وهو: الله أعلى وأجلّ. فلمّا أعيت أبا سفيان الحيلة، ولم تجد شعاراته الوثنية نفعاً قال صارخاً: موعدنا في أرض بدر الصغرى. بعد ذلك عاد المسلمون من ساحة القتال مثخنين بالجراح، وحين كان يعتصرهم الألم من أحداث أحد، نزلت الآية المذكورة أعلاه محذّرة المسلمين من الغفلة عن المشركين مطالبة إيّاهم بملاحقة قوى الشرك، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالقتال حتى الجرحى منهم ليصرفوا الكفّار عن أيّ فكرة بالرجوع إلى ساحة المعركة[١].

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للمسلمين من التمتّع بمعنويّات عالية، وألّا توهن عزيمتهم وتضعف إرادتهم الهزائم العابرة (كما في أحد)، ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾.

٢ ـ يجب تعقّب العدوّ والانقضاض عليه بدلاً من التراجع واتّخاذ موقف دفاعي، ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾.

٣ ـ من العوامل التي ترفع من معنويّات المؤمنين، المقارنة بين آلامهم وآلام الآخرين، والأمل بالمدد الإلٰهيّ وأنّهم بعين الله، ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾.

٤ ـ إنّكم منتصرون على الرغم من كلّ خسائر الحرب وجراحاتها؛ لأنّكم وضعتم أملكم بألطاف الله تعالى، ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ المسلم يعلّق آمالاً كبيرة على الله تعالى، من جملتها: الأمل بالمدد الغيبي، النصر، إرهاب العدوّ، الثواب المعنوي وغيرها. (لم تحدّد الآية الكريمة موضوع الأمل، ولذا فهي تعبّر عن كلّ الآمال)، ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ الأمل هو العنصر المحرّك للمقاتل وثروته الروحية. الشهادة والفوز بالسعادة، أو النصر، ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

٧ ـ معاناة المؤمنين في الحروب، كلّها تحصل بعلم الله وبمقتضى حكمته، ولذلك لا يحول دون وقوعها، ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

---

(١) تفسير نمونه، ج٤، ص ١٠٧.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾

إشارات:

□ نقلوا في سبب نزول الآية الكريمة: أنّ في قبيلة بني الأبيرق المعروفة نسبيّاً كان يوجد ثلاثة أشقاء هم «بشر»، و«بشير»، و«مبشّر»، سطا أحدهم وهو «بشير» على دار أحد المسلمين ويدعى «رفاعة» فسرق سيفه، ودرعه، وكمّية من الطعام، وكان ابن أخيه ويدعى «قتادة» من مجاهدي بدر فأخبر النبيّ ﷺ بالواقعة. ولكن الأشقّاء الثلاثة اتّهموا شخصاً من المسلمين اسمه «لبيد» وكان يسكن مع أحدهم في داره، فتألّم لبيد ألماً شديداً من هذه التّهمة الباطلة واستلّ سيفه وتوجّه إلى الأشقّاء الثلاثة صارخاً في وجوههم قائلاً: «أتّتهمونني أنا بالسرقة وأنتم أجدر بهذا العمل؟ فأنتم هم أولئك المنافقون الذين كنتم تهجون النبيّ وتنسبون أبيات الهجو إلى قريش، فإمّا أن تثبتوا ما تنسبونه لي من تهمة، أو أن أهوي بسيفي على رؤوسكم. فلمّا رأى أخوة السارق ذلك حاولوا استرضاء «لبيد»، ولكنّهم لمّا علموا أنّ القضيّة قد وصلت إلى أسماع النبي الكريم ﷺ بواسطة «قتادة» لجأوا إلى أحد متكلّمي قبيلتهم فطلبوا منه أن يذهب مع جمع من الناس إلى النبي ويتظاهر أنّ الحقّ إلى جانبهم ليبرئ السارق ويتّهم «قتادة» بتلفيق التّهمة على شقيقهم، وقد قبل النبي الكريم ﷺ استناداً إلى واجب العمل بظاهر الأمور شهادة تلك المجموعة وأنّب «قتادة» على عمله. وقد تألّم الأخير، الذي كان متأكداً من براءته من هذه الواقعة، وعاد إلى عمّه وأخبره بالحادث مظهراً أسفه الكبير لما حصل، فخفّف عليه عمّه وقال: لا تحزن يا قتادة إنّ الله في عوننا. فنزلت الآية الكريمة لتعلن براءة الرجل، وتؤنّب مرتكبي الخيانة الحقيقيين[1].

□ وقد نقلوا واقعة أخرى في سبب نزول الآية وهي أنّ درعاً لأحد الأنصار كانت قد سرقت في إحدى الحروب، وأن الشك دار حول شخص من قبيلة «الأبيرق»

(١) تفسير نمونه، ج٤، ص ١١٠.

في سرقة ذلك الدرع، ولما علم السارق أنّ الشكوك بدأت تدور حوله رمى بالدرع في دار أحد اليهود، وطلب من قبيلته أن يشهدوا ببراءته أمام النبي الكريم ﷺ، ويستدلّوا بذلك على وجود الدرع في دار اليهودي، ولمّا رأى النبي الأمر بتلك الصورة برأ هذا السارق بحسب ظاهر الشهادة التي جاءت لصالحه وأدان الرجل اليهودي بسرقة الدرع، فنزلت الآية الكريمة لتوضّح الحقيقة.

- «**الخصيم**» هو الذي يتحيّز لأحد الادّعاءات، أمّا الخائن فهو الذي يدّعي أمراً باطلاً في المحكمة[1].
- وفي حديث عن الرسول الكريم ﷺ أنّه قال: «**إنّما أنا بشر، وإنّكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم يكون ألحن بحجّته من بعض، فأقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حقّ أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنّما أقطع له قطعة من نار**».
- قال الإمام الصادق عليه السلام: «**لا والله ما فوّض الله إلى أحد من خلقه إلا إلى رسول الله ﷺ وإلى الأئمّة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ وهي جارية في الأوصياء عليهم السلام**»[2].

التعاليم:

١ ـ القرآن هو الحَكم العدل بين الناس، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

٢ ـ لا بدّ للقاضي أن يحيط بأحكام القرآن إحاطة تامّة، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ﴾.

٣ ـ شرط القضاء أن يتعلّم الإنسان أحكام القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ... لِتَحۡكُمَ... بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾.

٤ ـ نزول القرآن كان على أساس الحقّ، لذا لا بدّ للقضاء من أن يقوم على الحقّ، لا الانتماءات الحزبية، أو الفئوية، أو المناطقية، أو العرقية، ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾.

---

(١) تفسير راهنما.

(٢) الكافي، ج١، ص ٢٦٨.

٥ ـ السلوك العادل ضروري حتى مع غير المسلمين. (في ضوء السبب الثاني لنزول الآية الكريمة)، ﴿لِتَحْكُمَ... بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾.

٦ ـ القضاء من مهام الأنبياء، لا يكفي إبلاغ الأحكام بل الواجب يستدعي تطبيقها أيضاً، ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٧ ـ الكفر ليس سبباً لاتّهام الأشخاص، (في ضوء سبب النزول).

٨ ـ مضافاً إلى الشريعة والكتاب، ينهل النبي من المدد الغيبي، ﴿أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾.

٩ ـ يفيض الله تعالى على نبيّه، علاوة على القرآن الكريم، بمواهب أخرى، ﴿أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾؛ لاحظ أنّه ﷻ لم يقل: «**لتحكم بين الناس به**».

١٠ ـ الله تعالى يحفظ نبيّه الكريم، ويفضح الدسائس والافتراءات، ﴿أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾.

١١ ـ القانون محترم، ولكن يجب اتّخاذ التدابير اللازمة لمنع استغلاله وتوظيفه، فكان المدد الإلٰهيّ هو التدبير الحاسم، ﴿أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾.

١٢ ـ لا يجوز الدفاع عن الخائن وحمايته، ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.

١٣ ـ لا ينبغي للخائنين أن يجدوا ملاذاً آمناً عند الزعماء الدينيين، ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.

١٤ ـ منصب القضاء، يحتّم على من يتصدّى له أن يستغفر الله حتى وإن كان معصوماً، ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾.

١٥ ـ من مفاخر الإسلام أنّه حتى لو كان المظلوم يهوديّاً، فيجب على الحاكم المسلم أن يستغفر للمسلمين الذين ظلموه، ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾.

١٦ ـ لو كان القرآن الكريم من عند النبي، لما أمرته الآيات بالاستغفار، ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾.

١٧ ـ على القاضي أن يواظب على الاستغفار لمحاربة أهواء نفسه، ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾.

١٨ ـ الاستغفار نمير المغفرة والرحمة الإلٰهيّة، ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

١٩ ـ الله غافر الذنب، ورحيم أيضاً، ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٧﴾

إشارات:

□ من نافلة القول، إنّ الإنسان بظلمه الناس وخيانتهم، إنّما يخون نفسه. وما ذلك إلّا بسبب ما يترتّب على ذلك من آثار سيئّة منها:

أ - بالظلم والخيانة يفقد الإنسان روح النقاء وحب العدل.

ب - يؤدّي إلى الحرمان، الأمر الذي سيدفع بالمظلومين إلى الثورة في المستقبل.

ج - مدعاة لاستنزال الغضب الإلٰهيّ وعذاب النار.

د - تصيب الخيانة المجتمع بالفساد، بما في ذلك الخائن نفسه.

التعاليم:

١ - الدفاع عن الخائن حرام، والقبول بالخيانة، يعني الاشتراك في هذه الجريمة، ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ...﴾.

٢ - يجب على الحاكم المسلم أن ينصر المظلوم، لا أن يعين الظالم، ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ...﴾.

٣ - الألقاب والسلطات والتهديدات والرأي العام، كلّها لا تبيح للمرء أن يضع يده بيد الخائن، ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ...﴾.

٤ - على قائد المجتمع والقضاة أن يكتشفوا الخونة، ويتعرّفوا مؤامراتهم وخططهم، ليستطيعوا اتّخاذ الموقف المناسب، ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ...﴾.

٥ - يجب الاستغفار عمّا مضى (الآية السابقة) وتوخّي اليقظة والحذر ممّا يأتي، ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ...﴾.

٦ - يعتبر القرآن الكريم أفراد المجتمع أعضاء جسد واحد، لذا فخيانة الإنسان لمجتمعه، هي خيانة لنفسه، ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ﴾.

٧ - لا تستوي الخيانة الصغيرة التي تنمّ عن جهل وعدم وعي، مع خيانة المتآمرين المفسدين، ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ . . . خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

٨ ـ لا يقطع المرء بخيانته محبّة الناس عنه بل محبّة الله أيضاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾.

٩ ـ حبّ الآخرين غريزة في أعماق الإنسان، فليسعَ إلى استغلال هذه الغريزة في تربية النفس وتهذيبها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾.

١٠ ـ معيار الرسول الكريم ﷺ والمؤمنين في الاختيار والحركة هو حبّ الله وبغضه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ...﴾.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ عقد الاجتماعات الليلية السريّة لحياكة المؤامرات، من أساليب المنافقين والخونة، ﴿يَسْتَخْفُونَ... يُبَيِّتُونَ﴾.

٢ ـ من أهمّ أسباب التقوى إيمان الإنسان بحضور الله وإحاطته بجميع الأقوال والأفعال، ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ... مُحِيطًا﴾.

٣ ـ إن الله تعالى يراقب أعمال الإنسان عن كثب، ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾.

٤ ـ القول أيضاً يُحسب عملاً. لاحظ أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن القول الذي لا يرضي الله، فاعتبرته عملاً، ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

إشارات:

- توجّه الآيات الثلاث من ١٠٧ إلى ١٠٩، ثلاثة تحذيرات إلى ثلاث فئات هي:

  تقول للقاضي: احذر أن تتعدّى حدود الحقّ، ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾.

  وتخاطب الخائن بالقول: الله ناظر ويرى عملك، ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾.

ثمّ تقول لمن يحامي عن الخائن: لن ينفعك سعيك هذا في يوم القيامة، ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا يفرح الخونة بما يقدّم لهم من دعم اليوم، فإنّ غداً لناظره لقريب. فكلّ دعم يقدّم للخونة هو مؤقت وزائل، ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

٢ ـ حكم المحكمة يسري على هذه الدنيا، لكن على المجرم أن يحسب حساب يوم القيامة، عندما يكون وحيداً فريداً، ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

٣ ـ ليحذر الإنسان من الدفاع عن الخائن، ولا ينخدع بمنصب الوكيل في هذا الدفاع، ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ﴾.

٤ ـ فليطمئن المظلوم إذا عجز عن أخذ حقّه في هذه الدنيا، لأنّ له مدافعاً في يوم القيامة يأخذ له حقّه ويعاقب من ظلمه، ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ﴾.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾

إشارات:

- بعدما هدّدت الآية السابقة الخائنين، تفتح هذه الآية لهم باب التوبة ليرجعوا عن خيانتهم.
- «السوء» هو الإضرار بالغير، لذا، تطرح الآية كلا الظلمين، ظلم الآخرين وظلم النفس. وقد فسّر بعضٌ أنّ المراد بـ «السوء» في هذه الآية هو صغائر الذنوب، أمّا «ظلم النفس» فهو الكبائر[١].

---

(١) تفسير راهنما «التفسيرالمرشد».

التعاليم:

١ ـ ليس للإنسان حقّ حتى في ظلم نفسه، والحقيقة أنّ ارتكاب المعاصي هو ظلم للنفس، ﴿يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾.

٢ ـ طريق التوبة للمذنبين مفتوح، ﴿يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾.

٣ ـ ليس ثمّة مسافة تفصل بين العبد وبين المغفرة الإلٰهيّة، ﴿يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا﴾.

٤ ـ التوبة الحقيقيّة لها أثر طيّب في نفس الإنسان لدرجة أنّه يشعر من أعماقه بالرحمة الإلٰهيّة، ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٥ ـ يمحو الله تعالى السيئات لعباده، ويرحمهم أيضاً، ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾

إشارات:

□ المعصية، وهي تعدّي الحدود والأحكام الإلٰهيّة، تَذهب بنقاء القلب وتَقْوَى الروح والعدالة، وهي، لعمري، الضرر الأكبر. فضلاً عن أنّ نظام الكون والسنن الإلٰهيّة يقومان على أنّ عاقبة ظلم الناس ترتدّ على الظالم، عاجلاً أم آجلاً، ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

التعاليم:

١ ـ لكلّ معصية أثر مباشر على روح الإنسان ووجدانه، ﴿يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

٢ ـ الإنسان ليس مكرهاً على ارتكاب المعاصي، فهو يقدم عليها بملء إرادته، ﴿يَكْسِبْ﴾.

٣ ـ لا تخطئ العواقب السيّئة للمعاصي صاحبها، وهذا هو مقتضى الحكمة.

٤ ـ العمل الحكيم يستلزم الوعي والعلم، ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾

إشارات:

- «**الخطأ**» هو الزلل، أو الذنب الذي يصدر عن صاحبه دونما قصد، لكنّ معناه توسّع لاحقاً فأصبح يشمل المتعمّد وغير المتعمّد، أمّا كلمة «**الإثم**» فهي تطلق على الذنب الصادر عن قصد وعمد.
- «البهت» هو من كبائر الذنوب التي تذهب بالإيمان وتصهره، وتمحو العدل وتزلزل أركان الثقة في المجتمع، وهو، بعد، يفضي في الآخرة إلى عذاب شديد. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ البهتان على البريء أثقل من جبال راسيات**»[١].
- و«**البهتان**» مأخوذ من البهت: وهو الكذب على البريء بما ينبهت له ويتحير منه.
- سُئل الإمام أبو جعفر الصادق عليه السلام في الغيبة فقال: «**هو أن تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل وتبثّ عليه أمراً قد ستره الله عليه لم يقم عليه فيه حدّاً**»[٢].

التعاليم:

١ ـ البهتان هو رمي السهام صوب سمعة الآخرين، ﴿يَرْمِ بِهِۦ﴾.

٢ ـ البهتان على البريء من أيّ عِرق أو لون أو دين وفي أيّ عمر أو ظرف كان حرام، ﴿يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾.

٣ ـ من ينسب التّهم زوراً إلى الآخرين، فقد أخذ على عاتقه ثقل المعصية، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ﴾؛ (التنوين الوارد في ﴿بُهْتَٰنًا﴾ و﴿إِثْمًا﴾ للدلالة على عِظم الذنب وثقله).

---

(١) سفينة البحار، مادة «بهت»؛ الكافي ج٢، باب التهمة.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٣، ص٢٨٦.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

إشارات:

- ربّما تستكمل هذه الآية الكريمة ما بدأته الآية ١٠٥ من حديث حول موضوع اتّهام السرقة الذي رمي به بريءٌ وجيء به إلى النبي الكريم ﷺ فشهدت جماعة على سرقته، وقضى لهم النبي الأكرم بموجب تلك الشهادة. أو لعلّ الآية تتحدّث، كما روى بعض المفسّرين، عن جماعة من قبيلة «بني ثقيف» جاؤوا إلى النبي الكريم ﷺ فأعربوا عن استعدادهم لمبايعته ولكن بشرطين: الأوّل هو أن لا يرغم أبناء هذه القبيلة على كسر أصنامهم بأيديهم، والشرط الثاني، أن يسمح لهم بأن يواصلوا عبادة صنمهم (العزّى) لسنة واحدة أخرى! فنزلت هذه الآية لتأمر النبي الأكرم ﷺ بأن لا يبدي أيّ مرونة تجاه هؤلاء.

التعاليم:

١ ـ لا ينتهي الأعداء عن خططهم حتى مع النبي الكريم لتوريطه والوقيعة به، لذا، فعلى قادة المجتمع أن يتوخّوا اليقظة والحذر، ﴿يُضِلُّوكَ﴾.

٢ ـ إصرار المرء على حرف الآخرين، إنّما هو، في الحقيقة، إصرار على حرف نفسه، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

٣ ـ كما وعد الله تعالى بحفظ قرآنه الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1]، فقد تعهّد بحفظ نبيّه الكريم وعصمته، ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

٤ ـ تعليم الله تعالى نبيه الكريم ﷺ الكتاب والحكمة لهو مثال ساطع على فضل الله ولطفه، فضلاً عن كونه دليل عصمة النبي الكريم، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ﴾.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

٥ ـ يوحي الله تعالى إلى نبيه ﷺ من علم الغيب والأسرار، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

٦ ـ من العلائم الدالّة على حقّية النبي الأكرم وصدق دعوته قوله: لولا ما أوحى إليك الله تعالى من علم، ما كان بمقدورك أن تحيط علماً بهذه الأمور. فلو كان القرآن من عنده لما نسب إلى نفسه الجهل أبداً، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

٧ ـ الله تعالى هو معلّم نبيّه الكريم ﷺ، لذا فلا مجال لوقوع أدنى خطأ أو زلل في تعليمه، ﴿وَعَلَّمَكَ﴾.

٨ ـ دائرة العلم محدودة بالنسبة للبشر، بمن فيهم رسول الله، ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

﴿۞لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)﴾

إشارات:

- عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ قال: **«يعني بالمعروف القرض»**[(١)].
- وعنه أيضاً عليه السلام قوله: **«الكلام ثلاثة: كذب، وصدق، وإصلاح بين الناس، وقيل: ما الإصلاح؟ قال: تسمع من الرجل كلاماً يبلغه فتخبث نفسه فتلقاه فتقول: سمعت من فلان قال فيك من الخير كذا وكذا خلاف ما سمعته»**[(٢)].

التعاليم:

١ ـ النجوى مذمومة إلّا في حالات معيّنة، لأنّه يتسبّب في إثارة سوء الظنّ بين المؤمنين، ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾.

٢ ـ عند إبداء الرأي يجب مراعاة العدل والإنصاف، فليست النجوى مذمومة دائماً، ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾.

---

(١) الكافي، ج٤، ص٣٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٤١.

٣ ـ إصلاح ذات البين، يتطلّب أحياناً أن نهمس في أذن كل طرف على حدة، ﴿إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٤ ـ أحياناً تؤدّي الصدقة في العلن أو الدعوة إلى الأمر بالمعروف إلى إحراج الإنسان وعناده، لذا من الأفضل اللّجوء في هذه الحالة إلى النجوى أو السرّية في العمل، ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾.

٥ ـ سمعة الناس مهمّة لدرجة أنّ صيانتها تصيّر النجوى المذمومة ممدوحة، والصدقة والأمر بالمعروف سرّاً يغطّيان على قبح النجوى، ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ...﴾.

٦ ـ قيمة الأعمال تتوقّف على مدى الإخلاص، ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ ليس كلّ كتمان للعمل الصالح دليل إخلاص، فلربّما كان ذلك الكتمان للتظاهر، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

٨ ـ خدمة المجتمع والدعوة إلى الإحسان، والتعايش، والتآلف، مدعاة لكسب الثواب العظيم، ﴿نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

إشارات:

□ قلنا في ما سبق إنّ هذه الآية تتحدّث عن الذين دخلوا في الإسلام وقبلوا دعوة النبي الكريم ﷺ، لكنّهم أبدوا معارضة علنية لأوامره وأخذوا يشاقّونه، فانفصلوا عن سبيل المسلمين.

□ «مشاقة الرسول» هي أن تأخذ شقّاً ويأخذ الرسول الكريم ﷺ الشقّ الآخر. والمعنى هو المخالفة الصريحة المقرونة بالحقد والضغينة.

□ مشاقة رسول الله ﷺ لها أوجه وألوان عدّة، على سبيل المثال: إنكار الدين برمّته، الإيمان ببعضه والكفر ببعضه الآخر، التحريف، التبرير، الحيل الشرعية.

التعاليم:

١ ـ تترتّب على العلم والمعرفة مسؤولية، فمنكر دعوة النبي ﷺ يستحقّ العذاب حينما يعلم بصدق دعوته وحقّيتها، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾.

٢ ـ السيرة العمليّة للمسلمين حجّة ما دامت لا تتعارض مع سنّة رسول الله ﷺ ونهجه، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ... وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ... وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾.

٣ ـ النبي الكريم ﷺ والمؤمنون يقفون في خندق واحد، ومخالفة المجتمع الإسلامي هي مخالفة للنبي الكريم، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ... وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

٤ ـ التسليم لرسول الله ﷺ واجب، ومخالفته حرام، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾.

٥ ـ بثّ الفرقة في صفوف المسلمين عاقبته نار جهنّم، ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ... وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾.

٦ ـ لا يعذّب الله تعالى أحداً إلّا بعد أن يُتمّ الحجّة عليه، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾.

٧ ـ لا يستوي القاصرون والمستضعفون الذين لم يسمعوا نداء الحقّ، أو عجزوا عن تشخيصه، وأولئك الذين سلكوا طريق اللجاج عن وعي وإدراك، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾.

٨ ـ الإنسان هو الذي يوجد أسباب سقوطه، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ... وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾.

٩ ـ كلّ طريق، عدا طريق المؤمنين الحقيقيين، مآله جهنّم، ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ... وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾.

١٠ ـ عاقبة مخالفة رسول الله ﷺ والأمّة الإسلاميّة الخضوع لغير ولاية الله والسقوط في هاوية الجحيم، ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾.

١١ ـ لا يقطع الله تعالى نعمه عن المنحرفين، ويعين العبد على المصير الذي اختاره لنفسه، ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾

إشارات:

- لقد مرّ ما يشبه محتوى هذه الآية في الآية ٤٨ من السورة نفسها. لا شك في أنّ الإعادة والتكرار ضرورية في عمليّة الهداية والتربية.
- لا فائدة من الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ما لم تقتلع جذور الشرك؛ لأنّه مرض نفسي عضال. التوبة بلسم الشرك، وعلى المشرك أن ينجو بنفسه من دائرة الشرك حتى يظلّه الله بظلّ عفوه ورحمته.
- هذه الآية من أكثر آيات القرآن الكريم شحناً للنفس بالأمل والرجاء، وقد وصفت بأنها أرجى آية[١].

التعاليم:

١ ـ مخالفة رسول الله وشقّ عصا المسلمين (كما ورد في الآية السابقة) نوع من الشرك، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ. . . يُشْرَكَ بِهِۦ﴾.

٢ ـ الشرك ذنب عظيم لا يغتفر، ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾.

٣ ـ يجب أن يعيش الإنسان بين الخوف والرجاء حيال المغفرة الإلٰهيّة، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

٤ ـ الشرك عامل الضلال والابتعاد عن أيّ كمال، ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾

إشارات:

- اعتبرت الآية السابقة أنّ المشركين في تيه وضلال، وتوضّح هذه الآية أسباب

---

(١) تفسير أطيب البيان.

ذلك وهي عبادتهم الأوثان وانقيادهم للشيطان.

□ ربّما كان مقصود الآية الكريمة من «الإناث» الأصنام التي كانت معروفة عند المشركين في الجاهلية بأسماء الإناث مثل اللات ومناة والعزّى، أو الملائكة التي اعتقد المشركون أنّها بنات الله. أو قد يكون المقصود بالإناث هو أنّها مخلوقات ضعيفة لا تأثير لها، ولذلك، لا تصلح للعبادة.

التعاليم:

١ ـ غير الله من الآلهة المدّعاة، إمّا أن يكونوا ضعفاء أو طغاة، ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا... إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

٢ ـ الإعراض عن المعبود الحقّ، يؤدي بالإنسان إلى السقوط في أحضان المعبود الباطل أو الشيطان، ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا... إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

٣ ـ كلّ الطرق المنحرفة تنتهي إلى طريق واحد هو الانقياد للشيطان، ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

٤ ـ عبادة ما سوى الله، هي في الحقيقة، عبادة للشيطان، ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾

إشارات:

□ قوله تعالى: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي أشغلهم بالأمنيات العريضة وطول الأمل.

□ تشير الآية إلى واحد من أقبح الأعمال عند العرب في الجاهلية، إذ كانوا يقطعون أو يخرقون آذان بعض المواشي، ومن ثمّ يحرّمون على أنفسهم ركوبها، بل يحرّمون أيّ نوع من أنواع الانتفاع بهذه الحيوانات.

- إصرار الشيطان وتأكيده على إضلال الناس، تحذير لأهل الإيمان.
- يمكن تفسير عبارة ﴿مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ على وجهين هما:

أ ـ يضلّ بعض العباد.

ب ـ أن يقلب بعض لحظات كلّ عبد، إلى لحظات شيطانية.

- جاء في إحدى الروايات عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام أنّ عبارة ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ تشمل تغيير دين الله[1].
- لا يجيز الإسلام أن تبقى البهيمة دونما فائدة أو نفع، فما بالك بالإنسان، ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾.

التعاليم:

١ ـ الشرك يعني السقوط في أحضان الشيطان، ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا... لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ﴾.

٢ ـ الشيطان، هو العدو القديم للإنسان، فحذار من الوقوع في حبائله، ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾.

٣ ـ الشيطان يرمي كلّ سهامه لكي يُضلّ الإنسان، ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾.

٤ ـ لا يستطيع الشيطان أن يُضلّ الجميع، ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ﴾.

٥ ـ الشيطان يقرّ بأنّ الله تعالى هو الخالق، ﴿عِبَادِكَ﴾.

٦ ـ خطر وساوس الشيطان جدّي وماثل دائماً، فلنعرف أعداءنا جيّداً. (اللام في أوّل الفعل دلالة على التوكيد وأنّ الخطر ماثل أمامنا)، ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾.

٧ ـ كلٌّ يضلّه الشيطان بنحوٍ معيّن، فهذا يبتدع في الدين، وذاك يغيّر في خلق الله، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ... فَلَيُبَتِّكُنَّ... فَلَيُغَيِّرُنَّ﴾.

---

(١) تفسير البرهان؛ تفسير العيّاشي.

٨ ـ الآمال العريضة هي من تسويلات الشيطان، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾.

٩ ـ في البداية، يترك الشيطان تأثيره على فكر الإنسان وروحه، فيجعله يسلم قياده له. (تطرح الآية الكريمة بادئ الأمر مسألة الإضلال، والأماني، والآمال العريضة، ثمّ إصدار الأمر)، ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾

١٠ ـ فطرة الإنسان تقوده إلى طريق الحقّ. فكلمة «**إضلال**» تعني أنّه كان على جادة الحقّ ثمّ انحرف عنها، ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾.

١١ ـ يدعو الشيطان الناس إلى تحريم ما أحلّ الله، ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

١٢ ـ الأماني تفتح الباب أمام طاعة الشيطان، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾.

١٣ ـ الخرافات هي نتاج وساوس الشيطان، ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

١٤ ـ تغيير الخلقة (كأن يتمّ تحويل المرأة إلى رجل أو بالعكس) عمل محرّم ومن وساوس الشيطان، ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾؛ يقول الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية: «**أحكام الله ودينه**».

١٥ ـ طاعة الشيطان هي، في الحقيقة، القبول بولايته، ﴿يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا﴾.

١٦ ـ الله وحده له الولاية على الإنسان، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)
أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)﴾

إشارات:

□ ﴿مَحِيصًا﴾ مشتقّ من المصدر «**حِيص**» ويعني العدول والانصراف عن الشيء.

□ لمّا نزلت الآية ١٣٥ من سورة آل عمران وتناولت مسألة غفران الله تعالى للذنوب، صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له: ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا: يا سيّدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه فمن لها؟ فقام

عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا، قال: لست لها، فقام آخر فقال مثل ذلك فقال: لست لها، فقال الوسواس الخناس. أنا لها قال: بماذا؟ قال أعدهم وأمنّيهم حتى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار، فقال: أنت لها، فوكله بها إلى يوم القيامة»[١].

❑ لقد وعد الله الإنسان، وكذلك وعده الشيطان، إلّا أنّ وعد الله هو الحقّ ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾[٢]، ووعد الشيطان الغرور، والكذب، والخداع، ولا شيء غير ذلك، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

❑ علائم وعود الشيطان هي الدعوة إلى الفساد والنظرة الضيقة. نقرأ في آية أخرى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[٣].

التعاليم:

١ ـ التعلّق بالآمال العريضة، هو في الواقع، انزلاق إلى مصائد الشيطان ووساوسه، ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

٢ ـ إطلاق الوعود الكاذبة للآخرين ـ حتى وإن كانوا أطفالاً ـ هو من عمل الشيطان، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ﴾.

٣ ـ جهنّم هي مأوى خالد وأبدي لبعض الناس، ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

٤ ـ التهديد بإنزال العقاب، أحد وسائل التصدّي للفساد، ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

٥ ـ يمكن الفرار من جميع عذابات الدنيا وآلامها، ولكن أين المفرّ من عذاب الآخرة، ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.

٦ ـ لا رجعة في الآخرة، إذن، فلنغتنم فرصة الدنيا للتوبة والإقلاع عن السيّئات، ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾.

---

(١) تفسير الصافي.
(٢) سورة الحج: الآية ٤٧.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٨.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الإيمان مقرون بالعمل ولا فكاك بينهما، ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا﴾.

٢ ـ إذا كانت كلّ الأعمال صالحة، فستكون نافعة. كلمة ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ معرّفة بالألف واللام، وهي إشارة إلى جميع الأعمال الصالحة.

٣ ـ الترغيب والترهيب جنباً إلى جنب، من الأساليب التربوية في القرآن الكريم. (الآية السابقة تضمّنت تهديداً، وهذه الآية تنطوي على ترغيب وبشارة)، ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ... سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾.

٤ ـ نِعَم الدنيا تستبطن الحسرة والفوت، أما نعم الجنّة فهي خالدة لا تنفد، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

٥ ـ وقفة تأمّل نقارن خلالها وعود الشيطان الباطلة ووعود الله الحقّة، سوف تجعلنا نتمسّك بالوعود الإلٰهيّة، ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾

إشارات:

❑ ذكرت التفاسير في سبب نزول هذه الآية أنّ المسلمين كانوا يتفاخرون بأنّ نبيّهم الكريم ﷺ هو خاتم الأنبياء وأنّهم خير أمّة[1]. وفي المقابل، كان أهل الكتاب يتباهون ويفخرون بتاريخهم، وأنّ لهم السبق على المسلمين ودينهم، ويقولون: إنّ نار جهنّم لن تمسّهم إلّا لأيّام معدودة[2]. ولذلك، نزلت هذه الآية الكريمة

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ٨٠.

لتدحض دعاوى الفريقين وتصحّح أفكارهما وتضع العمل الصالح معياراً للفضل والشرف[١].

□ تنسب الآيتان السابقتان الأماني والآمال العريضة إلى الشيطان، أمّا هذه الآية فهي تدحض الأماني الكاذبة.

□ عبارة ﴿يُجۡزَ بِهِۦ﴾ تشمل جزاء الدنيا، أو جزاء الآخرة، وربّما كليهما. تفيد الروايات المنقولة في هذا المجال، أنّ جزاء المؤمن الذي يرتكب السيئات هو مواجهة المشاق والصعاب في هذه الدنيا وفي حياة ما بعد الموت (البرزخ)[٢].

□ توقّع بعض المسلمين أن ينحاز النبي الكريم ﷺ إلى جانبهم في جدالهم مع أهل الكتاب، وتناسوا أنّ العدل هو معيار التفاضل لا الانحياز[٣].

□ وروي أنّه لمّا نزلت هذه الآية ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ فقال رجل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله قد جاءت قاصمة الظهر، فقال ﷺ: **«كلّا، أما تحزن، أما تمرض، أما يصيبك اللأواءُ** (ضيق المعيشة) **والهموم؟»** قال بلى، قال: **«فذلك ممّا يجز به»**[٤].

التعاليم:

١ ـ اطرحوا عن أنفسكم الأوهام والأماني الكاذبة، فلا طائل من ورائها، ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾.

٢ ـ في كلّ طبقة أو شريحة ثمّة أشخاص انتهازيون ممّن لا تنتهي مطالبهم، ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ... أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

٣ ـ يجب مراعاة العدل والإنصاف في أقوالنا وأحكامنا، وإذا وجّهنا نقداً فلا نستثني أحداً، ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾.

٤ ـ إذا أردنا توجيه النقد أو إصلاح العيوب، فلنبدأ بأنفسنا أوّلاً. لاحظ أنّ الآية

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٣، ص ١٧٥.
(٢) تفسير أطيب البيان.
(٣) تفسير الميزان.
(٤) مستدرك الوسائل، ج٢، ص٦٠.

الكريمة انتقدت المسلمين أوّلاً ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ ثم عقّبت بنقد أهل الكتاب ﴿أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٥ ـ الحزم القاطع في الوقت المناسب والوقوف بوجه الانحصارية الفارغة من أفضل أساليب التربية، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾.

٦ ـ يقوم الإسلام على الحقائق لا على الأوهام أو أماني الأشخاص، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾.

٧ ـ الله تبارك وتعالى عادل، وثوابه وعقابه يتبع عمل الإنسان، ﴿مَن يَعْمَلْ﴾.

٨ ـ في الدين الإلٰهيّ، الجميع سواسية أمام القانون، ﴿مَن يَعْمَلْ﴾، (سوء استغلال الاسم والسمعة ممنوع).

٩ ـ العمل هو المعيار، لا الشعارات، والضوابط لا الوسائط، ﴿مَن يَعْمَلْ﴾!

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾

إشارات:

- كلمة «**نقير**» مشتقة من النقر وهو: قرع الشيء المفضي إلى النقب، والنقرة: وقبة يبقى فيها ماء السيل، والنقير: وقبة في ظهر النواة، ويضرب به المثل في الشيء الطفيف[١].

- تقول الآية السابقة: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ وهنا تقول: ﴿يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، إذن، يتّضح لنا أنّ الثواب والعقاب يكون تبعاً لطبيعة «العمل».

- الثواب في هذه الآية هو الجنّة، وفي الآية ٩٧ من سورة النحل هو «**الحياة الطيبة**» علاوة على الجنّة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) مفردات الراغب، مادّة «نقر».

التعاليم:

١ ـ بطاقة الدخول إلى الجنّة هي الإيمان والعمل الصالح، لا العِرق البشريّ، أو المزاعم، أو الأماني. لاحظ الآيتين السابقة والحاليّة، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ... وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ...﴾.

٢ ـ البشر من كلّ عرق، ولون، وطبقة، متساوون في الانتهال من ألطاف الله. ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾.

٣ ـ لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها، يكفي القيام ببعض الأعمال الصالحة لنأمل دخول الجنّة، فالكمال لله وحده، وقدرة الإنسان على الانتهال محدودة، ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾.

٤ ـ يتساوى الرجل والمرأة في الوصول إلى الكمال الروحي، ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ على العكس ممّا يؤمن به فريق من اليهود والنصارى[١].

٥ ـ قبول الأعمال رهن باقترانها بالإيمان، وغير المؤمن يجزى على خدماته في هذه الدنيا ولا خلاق له في الآخرة[٢]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ... وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

٦ ـ الجنّة ثواب المؤمن المحسن، ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾.

٧ ـ الأعمال الصالحة ذات قيمة وإن كانت ضئيلة، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

إشارات:

❑ الآيتان السابقتان ركزتا على العمل بوصفه معياراً للتفاضل، لا اعتناق الإسلام أو المسيحية. وهذه الآية تشرح هذه النقطة لئلا يبرز خلط بأنّ الأديان والعقائد سواسية في قيمتها.

---

(١) تفسير الفرقان. (٢) تفسير الميزان.

□ لا يخفى أنّ التسليم لله تبارك وتعالى أرفع شأناً من الرضا بقضائه، ذلك أنّه في مقام الرضا، يرى لنفسه شأناً واعتباراً، بينما في التسليم ينفي عن نفسه كلّ شأن أو قيمة في مقابل الله تعالى[١].

□ «حنيف» من «الحَنَف» وهو الميل عن الضلال إلى الحقّ والاستقامة، والحنيف هو المائل إلى ذلك، وبعكسه «الجنيف»، المائل عن الحقّ إلى الباطل.

□ «خليل» مشتقّة من كلمة «خُلَّة» وتعني الصداقة، وقد يكون اشتقاقها من المصدر «خلّة» بفتح الخاء لتعني الحاجة، بيد أنّ المعنى الأوّل أنسب.

□ ورد في بعض الروايات أنّ الله جلّ وعلا إنّما اتّخذ النبي إبراهيم عليه السلام خليلاً لكثرة سجوده على الأرض، ولإطعامه الطعام، وصلاته بالليل والناس نيام، وإقرائه الضيف، وعدم ردّ السائل[٢].

□ النبي الكريم صلى الله عليه وآله يتّبع دين جدّه إبراهيم عليه السلام، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

□ إبراهيم عليه السلام خليل الله، ومحمد صلى الله عليه وآله حبيب الله[٤].

□ فاز من اهتدى بهدي الله؛ لأنّ ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[٥].

التعاليم:

١ ـ الدين الأرقى هو اتّباع ملّة إبراهيم عليه السلام، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾.

٢ ـ التسليم لله (جلّ وعلا) والإحسان إلى الناس من الأسس التي تقوم عليها الأديان السماوية، ﴿أَسْلَمَ... وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

٣ ـ الدين يقوم على الإيمان والعمل معاً، ولا يكتمل أحدهما إلّا بالآخر، ﴿أَسْلَمَ... وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

---

(١) تفسير أطيب البيان.
(٢) تفسير نور الثقلين.
(٣) سورة النحل: الآية ١٢٣.
(٤) تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص٢٣٠.
(٥) سورة القصص: الآية ٨٨.

٤ ـ خير القدوات للناس أولئك الذين اصطفاهم الله تعالى لنفسه، ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

٥ ـ من يعرض عن الباطل، يهيّئ نفسه لمنزلة خليل الله، ﴿حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦)﴾

إشارات:

□ الله سبحانه وتعالى محيط إحاطة تامّة بجميع خلائقه. إحاطة قهر وتسخير، وإحاطة علم وتدبير، وإحاطة خلق وتغيير.

التعاليم:

١ ـ إلى الله يرجع أمر كلّ شيء؛ لذا يجب أن لا نسلم وجهنا إلّا لإرادته الحكيمة. (في ضوء مفهوم الآية السابقة) ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ... وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾.

٢ ـ اصطفاء النبي إبراهيم عليه السلام كخليل (الآية السابقة) لم يكن لحاجة الله إليه، فحتى المصطفون هم عباد لله تعالى، «...﴿...إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا... وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾.

٣ ـ الملكية المطلقة المقترنة بالعلم والإحاطة التامّة بالعبد هي لله تعالى وحده، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧)﴾

التعاليم:

١ ـ حقوق المرأة كانت موضع دراسة ونقاش بين المسلمين في صدر الإسلام، ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾.

٢ ـ في الدفاع عن حقوق النساء والأطفال واليتامى إشارة إلى أنّهم كانوا يتعرّضون للظلم على طول التاريخ، ﴿ٱلنِّسَآءِ... يَتَـٰمَى... ٱلْوِلْدَٰنَ﴾.

٣ ـ الدفاع عن حقوق المرأة، هو حكم الله الذي لا لبس فيه، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾.

٤ ـ تشريع الحكم من الله، وتفسيره بعهدة النبي الكريم ﷺ، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾.

٥ ـ يجب كسر العادات الجاهلية بفتاوى صريحة، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾.

٦ ـ لا تحرموا النساء إرثهنّ بسبب العادات الجاهلية، ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾.

٧ ـ لقد جعل الله المرأة مالكة حيث خصّص لها سهماً من الإرث، ﴿كُتِبَ لَهُنَّ﴾.

٨ ـ حفظ حقوق اليتامى، مسؤولية الجميع، ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ﴾.

٩ ـ يجب أن ينبري المجتمع المسلم إلى إرساء أسس العدل بين اليتامى، ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾.

١٠ ـ التعامل بالعدل مع اليتيم أحد الأمثلة على أعمال الخير، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾.

١١ ـ لا تنس خدمة المحرومين وتقديم الدعم والحماية لهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾.

١٢ ـ الإيمان بالعلم الإلٰهيّ، أفضل حافز على فعل الخير، ﴿كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾.

١٣ ـ الله تبارك وتعالى يحيط بالحوادث قبل وقوعها، ﴿تَفْعَلُوا۟... كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

إشارات:

□ «النشوز» مشتقّة من «النشز»: المرتفع من الأرض، ونشز فلان: إذا قصد نشزاً،

ومنه: نشز فلان عن مقره: نبا، وكل نابٍ ناشز، والنشوز هنا بمعنى الطغيان والتمرّد[1]. في الآية ٣٤ كان الحديث عن نشوز المرأة ﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، وهنا تتحدّث الآية عن نشوز الرجل.

- «**الشُّحّ**» في المرأة، هو عدم ارتدائها اللباس الفاخر، وترك التزيّن، أمّا في الرجل فهو الامتناع عن دفع المهر، والنفقة، والإعراض، والصدّ.
- جاء في التفاسير أنّ سبب نزول الآية هو أنّ رافع بن خديج كانت له زوجتان، إحداهما كبيرة السنّ عجوز، والأخرى شابة، فطلّق رافع زوجته العجوز (إثر خلافات نشبت بينهما) لكنّه قبل أن تنتهي عدّتها عرض عليها الصلح مشترطاً عليها أن لا تضجر إذا قدم عليها زوجته الشابة، أو أن تصبر حتى تنتهي عدّتها فيتمّ الفصل والفراق، فقبلت زوجته العجوز الشرط واصطلحا، فنزلت هذه الآية الكريمة مبيّنة حكم هذا العمل.
- سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ فقال: «**هي المرأة تكون عند الرجل فيكرهها فيقول لها: إنّي أريد أن أطلّقك، فتقول له: لا تفعل إنّي أكره أن تُشمِتَ بي ولكن انظر في ليلتي فاصنع بها ما شئت وما كان سوى ذلك من شيءٍ فهو لك ودعني على حالتي**»[2].

التعاليم:

١ ـ يجب أن نتدبّر الأمر قبل وقوعه. في الخلافات العائلية يجب أن نتدارك تفاقم الوضع ووصوله إلى الطلاق، ﴿خَافَتْ﴾.

٢ ـ لا بأس من تنازل الإنسان عن حقّه من أجل تحقيق مصلحة عليا والمحافظة على كيان الأسرة، فذلك أفضل من الإصرار لانتزاع ذلك الحقّ، ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾.

٣ ـ بالنسبة إلى القضايا العائلية، فإنّ أوّل خطوة ينبغي أن تكون الإصلاح بين

---

(١) مفردات الراغب، مادّة «نشز».

(٢) الكافي، ج٦، ص١٤٥؛ وسائل الشيعة، ج٢١، ص ٣٥١.

الزوجين دون تدخّل أحد، وإذا تعذّر ذلك، فليبادر الآخرون لأن يُصلحا بينهما، ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾.

٤ ـ منافع الزوجين من بعضهما هي حقوق قابلة للتنازل؛ وليس حكماً حكم يتعذّر تغييره، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا﴾.

٥ ـ حقوق الأسرة أكثر أهميّة من الحقوق الخاصة بالزوجة أو الزوج. ينبغي التنازل عن الحقوق الشخصيّة من أجل المحافظة على حقّ الأسرة، ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

٦ ـ لا يتحقّق الصلح بالمال دائماً. أحياناً يفتح التنازل عن الحقّ باباً على الصلح والوئام، بينما يقوم البخل بغلقه، ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾.

٧ ـ السبب وراء انهيار كثير من الأسر، هو سيطرة النظرة الضيّقة والبخل والطمع على الإنسان، ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾.

٨ ـ تنازل الزوج عن الرغبات الجنسيّة والعدل بين الزوجات، من أمثلة التقوى والإحسان، ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾.

٩ ـ يمتزج النظام التشريعي في الإسلام مع النظام الأخلاقي، ﴿يُصْلِحَا... تُحْسِنُوا۟﴾.

١٠ ـ التنازل عن الحقّ أو الإحسان إلى الزوجة كلاهما بعين الله، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

١١ ـ ليعلم الزوج الشبق المغتلم أنّه إذا أراد أن يضيّق على زوجته الأولى من أجل تحقيق لذّاته، فيكرهها على أمر، فإنّ الله من فوقه ناظر إلى ما يفعل، ﴿تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾

إشارات:

لا تتعارض قوانين السماء مع الفطرة الإنسانية، فالإنسان بطبيعته يميل إلى

الزوجة التي تفيض شباباً وحيوية أكثر من ميله إلى الزوجة التي دخلت مرحلة الكهولة. لذلك، فإنّ حكم العدالة القرآني يقتصر على أسلوب المعاملة مع الزوجات ولا يشمل الميل القلبي والعاطفي. ولمّا كان تحقيق العدالة في المودّة القلبية أمراً متعذّراً، فلا أقل أن يعدل الرجل في المعاملة والنفقة[1]. الإسلام لا يكلّف نفساً فوق طاقتها، فإذا كان الإنسان ليس في مقدوره أن يعدل في حبّه ومشاعره العاطفية نحو زوجاته، فلا يعدم أن يعدل في المساواة بينهنّ في المعاملة.

- جاء في الروايات أنّ النبي الكريم ﷺ كان يقسم بين نسائه في مرضه، فيطاف به بينهنّ. كما روي أنّ الإمام علي عليه السلام كان له امرأتان، وكان إذا كان يوم واحدة، لا يتوضأ في بيت الأخرى[2].

التعاليم:

١ ـ يحرم على الزوج أن يذر زوجته كالمعلّقة، ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

٢ ـ بالصلح والتقوى يمكن إصلاح أخطاء الماضي، وتدارك غفلة الحاضر، ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لم تعدم الأسرة المخارج والحلول في الإسلام، فإذا لم ينفع العفو، والصلح، وتطبيق الحدود، والإنذارات، فآخر الدواء الكيّ وهو الطلاق، ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾.

٢ ـ لا ينبغي اليأس مع أوّل ظهور للعقبات والعقد في الحياة، بل يجب إصلاح المسيرة وتغيير الاتجاه، ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص ٥٥٨؛ الكافي، ج ٥، ص٣٦٢.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ تفسير البيان.

٣ ـ الخطوة الأولى هي الإصلاح والتقوى. (تأمّل الآية السابقة)، والخطوة التالية الانفصال والطلاق، ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾.

٤ ـ الطلاق أو الانفصال ليس سيئاً في كلّ الأوقات، فهو صمّام الأمان وحلّال المشاكل في بعض الأحيان؛ إذ لطالما أدّت الخلافات العائلية إلى الانتحار والعلاقات غير المشروعة. وهنا يأتي دور الطلاق ليعطي بارقة أمل في تشكيل نواة لحياة أخرى جديدة، ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

٥ ـ الله تبارك وتعالى هو حلّال المشاكل، ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

٦ ـ لكلِّ شخص طريق خاص إلى التطوّر والتقدّم، أحياناً يتمّ ذلك بالزواج ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾[1]، وأخرى بالطلاق ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ﴾، وذلك بحسب ما تمليه الظروف. فلا تخش الزواج وكذلك لا تخش الطلاق؛ لأنّ الله وعد عبده بالغنى واليسار في كلا الحالين، ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ الرزق كلّه بيد الله تعالى، ﴿وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾.

٨ ـ تشريع الطلاق هو من فضل الله وحكمته، ﴿وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾.

٩ ـ إذا اقترن استخدام اليسار والقدرة بالحكمة فهو ذو قيمة وإلّا فهو خطر حقيقي، ﴿وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾

إشارات:

□ في الآية السابقة وعد الله سبحانه وتعالى أن يُغني الزوجين بفضله ورحمته إذا ما قرّرا الانفصال عن بعضهما.

---

(١) سورة النور: الآية ٣٢.

□ جاء تكرّر عبارة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في الآيتين دفعاً لوهم من يتصوّر أنّ الله تعالى لن يكفي المطلّقين والمطلّقات، أو أنّه سبحانه ينتفع بتقواهم أو مضطرّ لحفظهم. لذا، فإنّ كلّ ما في السموات والأرض هو ملك يمينه وفي قبضته، وإذا شاء ذهب بكم وجاء بآخرين غيركم.

□ يقول الإمام علي عليه السلام بشأن طبيعة العلاقة بين الإنسان وربّه: «... **غنياً عن طاعتهم لأنّه لا تضرّه معصية مَن عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه**»[1].

التعاليم:

١ ـ قدرة الله سبحانه وتعالى ومالكيّته هي الضمانة لتنفيذ وعوده، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٢ ـ الدعوة إلى التقوى هي ما أوصى به جميع الأنبياء، وتكرار هذه الوصية هو في الحقيقة من الأصول التربوية التي جاءت في كلّ الأديان، ﴿وَصَّيْنَا... مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

٣ ـ اشتراك الأديان في الأحكام الإلٰهيّة يسهّل مهمّة العمل بها وتطبيقها، ﴿وَصَّيْنَا... مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾.

٤ ـ يجب الخشية ممّن يملك السموات والأرض، لا من أحد غيره، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ... ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾.

٥ ـ عدم التقوى مدعاة للكفر، ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا﴾.

٦ ـ الله تبارك وتعالى غنيّ وبيده ملك السموات والأرض، ولا حاجة به إلى عبادتنا وإيماننا، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٧ ـ الكفر لا يُخرج الناس من سلطة الله تعالى ودائرة قدرته، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٨ ـ الغنى المطلق لله تعالى يفرِضُ علينا عبادَته، ﴿غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

٩ ـ غناه جلّ وعلا دائم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾.

١٠ ـ لا حاجة لله سبحانه إلى إيمان الناس وتقواهم، ﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ. . . وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾.

١١ ـ توكل على الذي بيده ملك السموات والأرض، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾

إشارات:

□ تنقل التفاسير أنّه حينما نزلت هذه الآية ربّت النبي الأكرم ﷺ على كتف سلمان الفارسي وقال: إنّ المعنيّ بالآخرين في الآية هم قوم من العجم من بلاد فارس(١). وهذا الكلام يعني ـ في الحقيقة ـ نبوءة مبكرة بإسلام الإيرانيين فضلاً عن الخدمات الكبيرة التي قدّمتها هذه الأمة إلى الإسلام.

التعاليم:

١ ـ إمهال الكافرين ليس بسبب عجز الله تعالى، بل هو من مقتضيات حكمته، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.

٢ ـ لا تغترّ بنفسك، فليس للإمكانات والمناصب التي تحتلّها بقاء، فهي معلّقة بحبل الإرادة الإلٰهيّة، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

إشارات:

□ أمام الإنسان خياران، الأوّل هو أن يدعو الله ﷻ أن يحفظ له دنياه وآخرته في آنٍ معاً، وأن يوظّف نعم الدارين لخيره وصلاحه، أمّا الخيار الثاني فهو أن

(١) تفسير مجمع البيان.

يكتفي بالدنيا، وأن يسعى من وراء أعمال الخير التي يقوم بها إلى تحقيق الأهداف المادّية، وهو، بلا شك، خطأ قاتل.

- من أسباب نزوع المرء إلى الكفر وعدم التقوى، الظنّ بالحصول على الدنيا فقط، وهو ما تفنّده هذه الآية الكريمة.

التعاليم:

١ ـ غريزة طلب المنفعة والربح موجودة في كلّ إنسان، ويقوم القرآن الكريم بتهذيبها وتوظيفها في خدمة تربية النفس الإنسانية، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢ ـ الإسلام دين جامع وشامل، ويطلب سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة معاً والعمل على تحقيقها، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

٣ ـ الدنيا والآخرة بيده وحده سبحانه وتعالى، إذن، علينا توسيع نظرتنا، والخروج عن الأمور المادّية والنظرة الضيّقة، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

٤ ـ حتى الدنيا إذا طلبناها، فلنطلبها من الله تعالى، لأنّ أمر كلّ شيء بيده، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

٥ ـ أفلح المؤمنون الذين يطلبون الدنيا والآخرة من الله سبحانه وتعالى[1]، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

٦ ـ الثواب الإلهيّ يكون على أساس علم الله تعالى وإحاطته بأعمالنا، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

٧ ـ يجب أن نؤمن بالحقيقة حقًّا وإخلاصاً، لا ظاهريًّا، ذلك أنّ الله يسمع ويرى، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

---

(١) في ضوء الآية ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

إشارات:

- ربّما كان معنى الآية ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ هو: لا تنقادوا وراء الأهواء فيؤدّي بكم ذلك إلى الانحراف عن الحقّ.
- كلمة «**تلووا**» مشتقة من المصدر «**ليّ**» بمعنى الطيّ والبرم، أمّا المراد بها في الآية الكريمة فهو ليّ اللسان نحو تحريف الحقّ والشهادة، أو ليّه باتجاه إعاقة مسير العدالة وتأخير تطبيقها.
- تؤكد جميع كلمات وعبارات هذه الآية على العدل وتطبيقه. إنّ معيار القيام بالعدالة والشهادة بالعدل هو اجتناب أيّ مظاهر فردانية أو ضعف، لا الفقر، أو الغنى، أو القرابة، أو النسب.
- شهادة الإنسان على أوجه عدّة هي:

أحياناً تكون الشهادة ضدّ الأغنياء نابعة من روح التصدّي للاستكبار.

أو أحياناً يشهد المرء لصالح الأغنياء وذلك بدافع من طمع أو سعياً إلى منصب وجاه.

وربّما يشهد على الفقير لعدم اهتمامه به.

أو يدافع عن الفقير حرصاً عليه وتعاطفاً معه.

- تفنّد الآية الكريمة كلّ هذه الدوافع والأسباب وتجعل القيام بالعدل هو محور الحقّ.
- نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: **للمؤمن سبعة حقوق على المؤمن، فأوجبها أن يقول الرجل حقاً ولو كان على نفسه أو على والديه...**[1].

---

(١) تفسير الميزان.

التعاليم:

١ ـ إقامة العدل أمر واجب فضلاً عن كونه من ضرورات الإيمان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٢ ـ تطبيق أسس العدل يجب أن يصبح من صفات المؤمن وأخلاقه. فكلمة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ تحمل مفهوم القائم بالقسط والعدل بصورة دائمة.

٣ ـ يجب تطبيق العدالة حتى مع غير المسلمين وذلك بمقتضى صيغة الإطلاق لعبارة ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٤ ـ تطبيق العدالة يجب أن يشمل جميع مناحي الحياة، فالآية الكريمة لم تذكر حالة بعينها، ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٥ ـ شهادة الحقّ أمر واجب، ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ... شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾.

٦ ـ ينبغي أن لا يكون الهدف من الإدلاء بالشهادة هو تحقيق مكاسب دنيوية، ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾.

٧ ـ إقرار الإنسان على نفسه معتبر، ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

٨ ـ القوانين والقواعد قبل العلاقات والارتباطات، ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

٩ ـ مراعاة المصالح الشخصيّة للإنسان والأقارب والفقراء يجب أن تكون في ظلّ الحقّ تعالى ومرضاته، ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

١٠ ـ الشهادة الباطلة لن تحقّق المصالح الحقيقيّة للفقراء والأغنياء، ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾.

١١ ـ الجميع سواسية أمام القانون، ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾.

١٢ ـ اتّباع هوى النفس حاجز يحول دون تطبيق العدالة، ومن علائمه الأخذ بالاعتبار قضايا القرابة والفقر والغنى، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾.

١٣ ـ الإدلاء بالشهادة أمر واجب، ولا يجوز كتمانها أو تزييفها، ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾.

١٤ ـ أيّ إعاقة، أو تأخير، أو إبطاء، في تطبيق العدالة حرام، ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾.

١٥ ـ الإيمان بعلم الله هو الضمانة لتطبيق العدالة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

إشارات:

- ثمّة احتمالان في المراد بهذه الآية، الأوّل هو: تقدّموا خطوة أبعد لتتبوأوا مرتبة أعلى، أو أن يكون: أقيموا على تصديقكم وأثبتوا عليه، ولا تحيدوا عنه قيد أنملة.
- للإيمان درجات، كما ورد في آيات قرآنية أخرى مثل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ على المؤمن أن يسعى ليرتقي بنفسه إلى أعلى درجات الإيمان[3]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾.

٢ ـ الأديان السماوية لها هدف مشترك وحقيقة واحدة، كما هو الحال مع صفوف المدرسة الواحدة التي تخضع لإدارة مدير واحد، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾.

٣ ـ لا بدّ من الإيمان بجميع الأنبياء والكتب السماوية، ﴿ءَامَنُوا۟... وَمَن يَكْفُرْ... فَقَدْ ضَلَّ﴾.

---

(١) سورة محمّد: الآية ١٧.
(٢) سورة الفتح: الآية ٤.
(٣) تفسير القمي، ج١، ص٣١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾

إشارات:

- في بداية الدعوة الإسلاميّة كانت مجموعة من أهل الكتاب تظهر الإيمان في حضور المسلمين ثمّ ترتدّ لإلقاء الشبهات والريبة في روع المسلمين، ثمّ يعلنون أنّ سبب ارتدادهم هو عدم صحة دعوى الإسلام؛ كما أنّ اليهود آمنوا بدعوة موسى ثمّ عبدوا العجل، ثمّ تابوا عن ذلك ورجعوا إلى دين موسى عليه السلام، ومن ثمّ كفروا بعيسى عليه السلام، وزادوا ذلك الكفر، كفرهم برسالة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

- وقد ورد في موضع سابق ما يشبه مضمون هذه الآية الذي يقول: إنّ أمثال هؤلاء لا تقبل توبتهم، وهم الضالّون الحقيقيّون، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾[1].

- إنّ مردّ السلوك الحربائي لهؤلاء هو إمّا عدم البحث والتقصّي عند اعتناق الدين، أو بدوافع التآمر وتدبير الخطط لإلقاء الريبة والشبهة في نفوس المؤمنين. وبدورها، تميط الآية ٧٢ من سورة آل عمران كذلك اللثام عن هذا النوع من المؤامرات، إذ تقول: إنّهم يؤمنون في الصباح ويكفرون عند المساء، ليخلقوا حالة من عدم اليقين عند المسلمين.

- من الأمثلة الحيّة على هذه الآية، قصّة «شبث بن ربعي» إذ يذكر التاريخ: أنّه أسلم في عهد النبي الكريم صلى الله عليه وآله، ثمّ ارتدّ بعد وفاته، وبعد ذلك تاب وعاد إلى حظيرة الإسلام ليصبح بعد ذلك من أصحاب الإمام علي عليه السلام، وما لبث بعد ذلك أن انقلب عليه ليحاربه في النهروان كقائد للخوارج، ثمّ قدّم التوبة وأصبح من أصحاب الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، ومن جملة الذين بعثوا برسائل إلى الإمام الحسين عليه السلام يحثّونه على القدوم إلى الكوفة، ولكن هيهات، فالطبع

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٠.

يغلب التطبّع، إذ سرعان ما عاد إلى أصله، فغدر بمسلم بن عقيل. وفي وقعة الطف، التحق بجند يزيد، إذ يذكر التاريخ أنّه شيّد مسجداً في الكوفة شكراً لله على استشهاد الإمام الحسين عليه السلام[١].

التعاليم:

١ ـ خطر الارتداد وترك الدين يتهدّد كلّ مؤمن، ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

٢ ـ عدم الثبات على العقيدة يؤدّي إلى الضلال التامّ والحرمان من الرحمة الإلٰهيّة، ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾... ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ﴾.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾

إشارات:

- هذا التوبيخ الشديد الذي يحمل على الذين يتولّون الكفّار ويقيمون علاقات ودّية معهم، ورد بالمضمون نفسه في الآية ٢٨ من سورة آل عمران.
- كان المنافقون في بداية الدعوة يقيمون علاقات ودّ وصداقة مع يهود المدينة ومشركي مكة ويتولّونهم، وكان هدفهم من وراء ذلك هو الحفاظ على مصالحهم ومواقعهم من أيّ ضرر أو خسائر في حال انهزم المسلمون أمام الكفّار.
- العزّة لله تعالى وحده، فهو مصدر العزّة، والعلم، والقدرة، وكلّ ما سواه لا علم له ولا قدرة. فنحن نقرأ في المناجاة الشعبانية: «**وَبِيَدِكَ لَا بِيَدِ غَيْرِكَ زِيَادَتِي وَنَقْصِي وَنَفْعِي وَضُرِّي**»[٢].

---

(١) آية الله كمرئي، مسلم بن عقيل، ص١٧٨؛ التستري قاموس الرجال؛ آية الله الخوئي، معجم رجال الحديث.

(٢) بحار الأنوار، ج٩١، ص ٩٧.

التعاليم:

١ ـ تولّي الكفّار طلباً للعزّة والرفعة، من خصال المنافقين، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ...﴾.

٢ ـ لا يجوز إقامة أيّ علاقات مع الكفّار، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ...﴾.

٣ ـ الأفضل أن نهتمّ بتطوير العلاقات مع البلدان الإسلاميّة في مجال السياسة الخارجيّة، بدلاً من تطوير العلاقات مع بلاد الكفر، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

إشارات:

□ ورد ما يشبه هذا المضمون في الآية ٦٨ من سورة الأنعام إذ توجّه خطاباً صريحاً إلى الرسول الكريم ﷺ فتقول: إذا رأيت المنافقين يخوضون في آياتنا ويستهزؤون بها، فأعرض عنهم حتى يغيّروا الموضوع ويتحدّثوا في غيره، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾.

التعاليم:

١ ـ يجب أن لا يسكت الإنسان إزاء افتراءات وتخرّصات الآخرين، ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ... فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.

٢ ـ المجاملة والسكوت في مجالس المعصية، هو ارتكاب للمعصية، ﴿يُكْفَرُ بِهَا... فَلَا تَقْعُدُوا﴾.

٣ ـ إمّا أن تغيّروا الأجواء الفاسدة، وإما أن تغادروها، ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.

٤ ـ لا يكفي أن يجتنب الإنسان المعاصي أو يكون مستقيماً، بل لا بدّ له من قلب طاولة المعصية والكفر، والتصدّي لانحرافات الآخرين، ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾.

٥ ـ يجب عدم السكوت على الإساءة إلى الدين بحجّة احترام حرّية الرأي، أو من باب التحلّي برحابة الصدر والتسامح، أو حسن الخُلُق، أو المداراة والحياء وضرورة المحافظة على العلاقات مع الناس، وغير ذلك من الأعذار والحجج الواهية، ﴿سَمِعْتُمْ... وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.

٦ ـ الغيرة على الدين، والتصدّي، واتّخاذ المواقف الحاسمة شرط الإيمان الحقيقي، ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.

٧ ـ يحرم بتاتاً التشجيع على الكفر وتقويته والاستهزاء بالدين بأيّ نحو كان، حتى وإن كان من باب «الحشر مع الناس عيد»، ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.

٨ ـ شرط معاشرة الآخرين هي أن لا تترتّب على ذلك أضرار تمسّ الفكر والعقيدة، ﴿سَمِعْتُمْ... يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.

٩ ـ إقامة العلاقات أو قطعها ضروري شرط أن تتمّ في وقتها وظرفها (إقبال ونفور)، ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.

١٠ ـ من ارتضى معاصي الآخرين، شاركهم آثامها، ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

١١ ـ السكوت إزاء تخرّصات المنافقين، هو ذاته نوع من النفاق، ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ﴾.

١٢ ـ مجالسات الآخرة هي نتيجة لمجالسات الدنيا، ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)﴾

إشارات:

□ جدير بالإشارة أنّ القرآن الكريم يستخدم كلمة «فتح» للتعبير عن انتصار

المسلمين، فيما يستخدم كلمة «نصيب» ليشير إلى انتصار الكفّار، وقد يكون ذلك لتبيين أنّ لذّة الكفر زائلة وعابرة، بينما تظلّ النهاية السعيدة والنصر الحقيقي معقودان بناصية الحقّ.

□ ﴿نَسْتَحْوِذْ﴾ مشتقّة من المصدر «حوذ» وهو أن يتبع السائق حاذيي البعير، أي: أدبار فخذيه فيعنف في سوقه، يقال: حاذ الإبل يحوذها، أي: ساقها سوقاً عنيفا[1]، والمعنى هنا: تشجيع الكفّار على حرب المسلمين.

□ يستدلّ الفقهاء في مختلف المسائل الفقهية بالآية ﴿... وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ...﴾ لإثبات عدم إمكان تسلّط الكفّار على المؤمنين. بطبيعة الحال، إنّ التواصل مع الكفّار، واكتساب العلوم والمعارف منهم، والتعلّم والتبادل الثقافيّ والاقتصادي، وغير ذلك، إلخ كلّ ذلك مسموح به شرط ألّا يؤدّي إلى تسلّطهم وغلبتهم. ذلك أنّنا نقرأ في الأحاديث أنّ النبي الكريم ﷺ قال: «**اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ**»[2]، ومثال آخر على ذلك، عندما أمر ﷺ بإطلاق سراح كلّ كافر أسير يعلّم عشرة من المسلمين. كما إنّ المعاملات كانت قائمة بين المسلمين والكفّار في عصر المعصومين.

التعاليم:

١ ـ المنافق انتهازي يتحيّن الفرص والظروف لتوظيفها لصالحه، ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ...﴾.

٢ ـ المنافقون عيون الكفّار وجواسيسهم، يحرّكونهم لقتال المسلمين، ﴿نَسْتَحْوِذْ﴾.

٣ ـ في محكمة العدل الإلٰهيّة في يوم القيامة سوف تسقط جميع أساليب الخداع والنفاق، ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٤ ـ لا يحقّ للمؤمنين أن يولّوا الكفّار عليهم، وتولّيهم هو علامة على زيف إيمانهم، ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

---

(١) مفردات الراغب، مادة «حوذ».
(٢) مصباح الشريعة، ص ١٣.

٥ ـ لا بدّ من اتّخاذ إجراءات تجعل الكفّار يقطعون الأمل في التسلّط على رقاب المسلمين، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ...﴾.

٦ ـ يَحرُمُ أيّ مشروع أو معاهدة أو تواصل أو اتفاقية تفتح الباب أمام تسلّط الكفّار على المسلمين. وعلى المسلمين أن يحصلوا على الاستقلال التامّ في جميع المجالات السياسيّة، والعسكرية، والاقتصادية، والثقافية، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ...﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾

إشارات:

❑ المنافق هو الذي يظهر التزاماً بالأحكام الدينية، دون أن تكون دوافعه الامتثال لأوامر الله ونيل مرضاته، فهو يصلّي مراءً، وكسلاً، وتثاقلاً. وهو يعتقد أنّه يخادع الله تعالى بهذا الأسلوب، بينما هو يخدع نفسه ولكن لا يشعر، لأنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما في نفسه، وسوف يجازيه على خداعه.

❑ سُئل الإمام الرضا عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾، وعن قوله عز وجل: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ فقال: **«إنّ الله عز وجل لا يسخر، ولا يستهزئ، ولا يمكر، ولا يخادع، ولكنّه عز وجل يجازيهم جزاء السخريّة، وجزاء الاستهزاء، وجزاء المكر والخديعة، تعالى عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيرا»**[(١)].

❑ الصلاة المنشودة هي التي تكون بدافع العشق، والإخلاص ،والديمومة. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلا»**[(٢)].

❑ يستخدم القرآن الكريم عبارة «أقاموا الصلاة» بالنسبة إلى المؤمنين، لكنّه يعبّر

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص٢٣٧.

عن صلاة المنافقين بـ ﴿قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، والفرق بين التعبيرين هو في «القيام» و«الإقامة».

التعاليم:

١ ـ الخداع، التثاقل في الصلاة، والمراء والغفلة عن ذكر الله تعالى، كلّها من علامات النفاق، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ . . . يُخَٰدِعُونَ يُرَآءُونَ . . . وَلَا يَذْكُرُونَ﴾.

٢ ـ فليعلم المنافقون بأنّ خصيمهم هو الله سبحانه وتعالى، ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾.

٣ ـ عذاب الله يتناسب مع المعصية، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾.

٤ ـ صلاة المنافق لا تتوافر على الروح العالية والنشاط، ولا على الدوافع أو الكمّ والمقدار، ﴿كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ . . . قَلِيلًا﴾.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

إشارات:

- «تذبذب» حكاية صوت الحركة للشيء المعلق الذي لا يثبت ولا يتمهّل على الأرض، ثم استعير لكل اضطراب وحركة.

التعاليم:

١ ـ ليس للمنافق استقلال فكري أو عقدي، فهو يميل مع كلّ حركة، زمامه بيد الآخرين، حيران لا هدف له، ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

٢ ـ لا يشعر المنافق بالأمان ولا بالاستقرار، لأنّه يغيّر لونه وموقفه باستمرار، يتّخذ قراراته بسرعة وتعجّل، ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

٣ ـ الحزم ضروري في المواقف العقدية والرؤية الفكرية، ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

٤ ـ المنافق موضع سخط الله تعالى، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾.

٥ ـ النفاق ألم لا خلاص منه، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾

إشارات:

- لا يحقّ للمؤمنين إقامة علاقات مع الكفّار، في حين يرتبط المنافقون بعلاقات حميمة ووثيقة مع الكفار. في وصفه الكفّارَ يعبّر القرآن الكريم بأنّهم شياطين المنافقين ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾[1]، وإخوان المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[2]، وتشرح الآيتان القرآنيتان ١٣٩ و١٤١طبيعة علاقة هذه الشريحة بالكفّار.

التعاليم:

١ ـ لا يستقيم القبول بولاية الكفّار مع الإيمان. لا مكان لحبين في القلب، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ...﴾.

٢ ـ التولّي والتبرّي، تولّي المؤمنين والتبرّي من الكافرين من لوازم الإيمان، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾.

٣ ـ يجب اجتناب أيّ تواصل أو صداقة أو اتفاقية تكون عاقبتها الضرر للمسلمين، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾.

٤ ـ في مجال السياسة الخارجيّة، والعلاقات السياسيّة والاقتصادية فإنّ أيّ صلاحيّات، أو عزل، أو تنصيب، أو أيّ إجراء يؤدّي إلى تسلّط الكفّار على رقاب المسلمين، حرام وهو مدان، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾.

٥ ـ المسلم الذليل ليس له عذر أمام الله، ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ...﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤. (٢) سورة الحشر: الآية ١١.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾

إشارات:

❑ كلمة «**درك**» تعني أحطّ نقطة في أعماق البحر، ويسمّى آخر حبل متّصل بالحبال التي توصل الإنسان إلى قعر البحر بـ «الدرك» أيضاً، ويظهر أنّ هذه المعاني مأخوذة من معنى «درك الشيء» أي الوصول إليه ـ كما تسمّى السلالم التي توصل الإنسان إلى مواضع سفلى كالسرداب والبئر بـ «الدرك»، وهذه العبارة تقابل السلالم التي يتسلّق بها الإنسان إلى أعلى حيث تسمّى الدرجات. وكما أنّ للجنّة درجات، فإنّ لجهنّم دركات.

التعاليم:

١ ـ إنّ موضع المنافقين في جهنّم أسوأ من موضع الكفّار، ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾.

٢ ـ جهنّم ذات مراتب ودركات، ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾.

٣ ـ لا منجاة للمنافقين في يوم القيامة، ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

٤ ـ لن ينال المنافقون الشفاعة في يوم القيامة، ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ باب التوبة مفتوح، حتى للمنافقين، لتنتشلهم من «الدرك الأسفل» إلى علياء الفردوس، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾.

٢ ـ الإنسان مخيّر، وبمقدوره تغيير مسيره بملء وعيه وإرادته، ﴿تَابُوا۟﴾.

٣ ـ لا تنسوا أن تمنحوا الناس الأمل حتى مع إطلاق أشدّ التهديد والوعيد لهم، ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ... إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾.

٤ ـ ليست التوبة مجرّد إظهار الندم، بل هي إعادة إصلاح شامل، ﴿وَأَصْلَحُوا... وَاعْتَصَمُوا... وَأَخْلَصُوا﴾.

٥ ـ لكلّ معصيّة أسلوب للتوبة خاصّ بها. فتوبة النفاق الإصلاح بعد التخريب، والاعتصام بالله سبحانه وتعالى بدلاً من تولّي زيد أو بكر، والإخلاص بدل الغشّ، «وأَصْلَحُوا واعْتَصَمُوا وأَخْلَصُوا».

٦ ـ الانتقائية في العقائد والأفكار غير جائزة، ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

٧ ـ لا يستوحش المنافقون التائبون لابتعادهم عن رفاق الأمس، فسيحظون برفاق أخلص، ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٨ ـ على المؤمنين أن يحتضنوا التائبين الحقيقيين، وأن ينظروا إليهم كأنفسهم، ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ العذاب الإلٰهيّ يرتكز على العدل الإلٰهيّ، لا على الانتقام أو السطوة. سبب العذاب هو الإنسان نفسه، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾.

٢ ـ معرفة نعم الله تعالى ومن ثمّ حمده وشكره، تمهّد لقبول الدعوة والإيمان، ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾.

٣ ـ الإيمان بالله أجلى مظاهر الشكر، ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾.

٤ ـ الشكر منجاة من سخط الله وعذابه، ومدعاة للحظوة بألطاف إلٰهيّة أكبر، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ... وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾.

٥ ـ إذا كنت شاكراً، فسوف يشكر لك الله تعالى ذلك، ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾.

٦ ـ الله جلّ وعلا غنيّ، ومع ذلك يتفضّل على عبده الحقير بالشكر. فما لنا لا نشكره ونحمده؟! ﴿إِن شَكَرْتُمْ... وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾.

الجزء السادس

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾

إشارات:

□ تعطي هذه الآية للمظلوم حقّ التظلّم وإطلاق صرخة الاستغاثة، وقد ورد المضمون نفسه في الآية ٤١ من سورة الشورى ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾.

□ لقد نهى القرآن الكريم مراراً عن نشر عيوب الآخرين والمتاجرة بفضائحهم، واعتبر هذا العمل من الكبائر، وتوعّد فاعلها بالعذاب. وقد ورد هذا النهي، على سبيل المثال، في الآية ١٩ من سورة النور التي تصرّح بأنّ الرغبة في نشر عيوب المؤمنين معصية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

□ وردت احتمالات عدّة في تفسير ﴿مَن ظُلِمَ﴾ هي:

١ ـ أن تعني «**ممّن ظلم**»، أي يجوز للمظلوم أن يصرخ ويستصرخ.

٢ ـ أن تعني «**لمن ظلم**»، أي إطلاق الصرخة لنصرة المظلوم حتى وإن لم يكن مطلقها مظلوماً.

٣ ـ أن تعني «**على من ظلم**»، أي إطلاق صرخة بوجه المظلوم الساكت على الظلم، ويتحمّل الذلّة والهوان، والاحتمال الأوّل، بطبيعة الحال، هو أقرب الاحتمالات إلى الواقع.

□ يحرم نشر عيوب الناس بين الآخرين، لا مصارحتهم بعيوبهم. وذلك لقول النبي الأكرم ﷺ: «**المؤمن مرآة المؤمن**»[1].

□ وروي عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٣٣.

﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾: من أضاف قوماً فأساء ضيافتهم فهو ممّن ظلم فلا جناح عليهم فيما قالوا فيه[١].

التعاليم:

١ ـ القانون الأعمّ والأساس هو حرمة نشر عيوب الناس وإذاعة فضائحهم، إلّا في مواضع خاصّة، ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

٢ ـ نشر عيوب الناس، على أيّ نحوٍ كان، حرام. (سواء أكان بواسطة الشعر، أم التهكم، أم التصريح، أم التلميح، أم الحكاية، أم الشكوى، أو غير ذلك)، ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

٣ ـ مزيّة المجتمع الإسلامي هي أن يتمكن المظلوم من إطلاق صرخة التظلّم من الظالم بحريّة تامّة، ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾.

٤ ـ يجوز للمظلوم اغتياب الظالم، ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾.

٥ ـ الإسلام يدافع عن المظلومين، ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾.

٦ ـ لا يجوز إساءة استغلال القوانين. فليعلم الظالمون أنّ حرمة الغيبة لا تفتح أمامهم طريق الظلم، ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾.

٧ ـ للمظلوم فقط حقّ اغتياب الظالم، وفي موضوع الظلم تحديداً، لا في سائر عيوب الظالم،[٢] ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾.

٨ ـ لا حرمة للظالم في المجتمع الإسلامي، يجب إدانته وفضحه على الملأ، ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ. . . إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾.

٩ ـ لا بدّ من مراعاة الأولويّات عند تزاحم القيم الإنسانية. فقيمة الدفاع عن المظلوم أسمى من قيمة الحياء أو السكوت، ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ. . . إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾.

١٠ ـ في حالات الترخيص لفضح العيوب، يجب ألّا نتجاوز دائرة الحقّ، فالله سبحانه وتعالى سميع عليم، ﴿سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٢، ص ٢٨٩.

(٢) تفسير الميزان.

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

إشارات:

- العفو عند المقدرة، فإذا دارت الأيّام وأصبح المظلوم في موضع قدرة، وكان لعفوه عن الظالم أثر تربوي، فعليه العفو، وإذا كان في السكوت ذلّة للمظلوم وقوّة للظالم، فيجب أن يطلق صرخة.
- الانتقام والقصاص «حقّ»، فيما العفو والصفح «فضل»، روي عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**اذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه**»[1].

التعاليم:

١ ـ ينبغي التشجيع والتحفيز على فعل الإحسان، والصفح والعفو عن المساوئ، ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾... ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾.

٢ ـ أحياناً تكون محاربة الظلم وإطلاق الصرخة قيمة، فيما يكون العفو والصفح في أحيان أخرى قيمة، ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾.

٣ ـ العفو عند المقدرة فضل وقيمة، ﴿عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾

إشارات:

- الآيتان ١٥٠ و١٥١ بمثابة المبتدأ والخبر على الترتيب.
- لقد جحد اليهود والنصارى ببعض الأنبياء وكفروا ببعضِ الآخر، إذ أعمتهم الأهواء، والتعصّبات الحمقاء، والنظرة الضيّقة.

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحِكم، ١٠.

التعاليم:

١ ـ النبوّة تيار دائم وسنّة إلٰهيّة أبدية كسلسلة متّصلة ببعضها، لذا، يجب الإيمان بجميع سلسلة هذا التيار لا ببعض حلقاته، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ (كذلك هو الحال مع الإمامة من حيث ضرورة الإيمان بجميع الأئمة. فالإيمان ببعضهم وإنكار بعضهم الآخر أو التوقّف عنده، هو بمثابة الكفر بجميعهم).

٢ ـ الله ورسوله جبهة واحدة، ولا فكاك بينهما، ﴿يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

٣ ـ لا يجوز الكفر بالله ورسوله، أو الإيمان بالله والتنكر للأنبياء، أو الإيمان بالله والتنكر لبعض الأنبياء. فطريق الحقّ هو الإيمان بالله وجميع أنبيائه ورسله، ﴿يَكْفُرُونَ﴾، ﴿يُفَرِّقُوا﴾، ﴿وَيَقُولُونَ﴾، ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

٤ ـ يجب الإيمان بجميع الأديان والاعتراف بها، (طبعاً كلٌّ في عصره)، ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾.

٥ ـ القبول بالتشريعات المناهضة للإسلام نوع من التمييز في الدين وحرام، ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾.

٦ ـ الانتقائية واتّخاذ طريق جديد مغاير لطريق الأنبياء، هو، في الحقيقة، كفر، ﴿يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا... أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

٧ ـ جهنّم مخلوقة الآن، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢)﴾

التعاليم:

١ ـ يجب أن نؤمن بالله وجميع أنبيائه ورسله. صحيح أنّ مراتب الأنبياء ودائرة رسالاتهم متباينة، إلّا أنّه لا بدّ من الإيمان بجميعهم، ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

٢ ـ إنّ وجودنا وكلّ ما نملك من مواهب، وإمكانات، وأدوات، هي من الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك، فهو يتفضّل علينا بالأجر والثواب، ﴿أُجُورَهُمْۚ﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾

إشارات:

- سألت اليهود محمداً ﷺ أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً في ما يدّعيه على صدقه دفعة واحدة، كما أتى موسى بالتوراة؛ تعنّتاً له ﷺ؛ فأعلم الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ أنّه ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1][2].
- تتشابه احتجاجات الكفّار في عدم الإيمان، فالمشركون كذلك طلبوا الشيء نفسه من النبي الكريم ﷺ إذ قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥۗ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ ما يصدر عن الأجداد من شرور الأعمال، والأفكار، والأخلاق، يضحي تاريخاً أسودَ بالنسبة إلى الأجيال اللّاحقة، ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟...﴾.

٢ ـ لم يكن بنو إسرائيل في إثر الحقّ، وإلا كيف نزعوا إلى عبادة العجل بعد كلّ الذي رأوه من المعجزات، ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؟

٣ ـ لا تبتئسوا بعدم إيمان الكفّار، فهذا ديدنهم في اللجاج والعناد في مقابل جميع الأنبياء، ﴿سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾.

٤ ـ الله تعالى أعظم من أن يُرى بالعين المجرّدة، وطلب رؤيته بهذه الكيفية هو ظلم للنفس، ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٧.
(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٣، ص ٢٠٥.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٩٣.

٥ ـ التنكر للحقّ والانحراف الفكري يؤدّي إلى سخط الله تعالى في هذه الدنيا، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.

٦ ـ الرحمة الإلٰهيّة تسع كلّ شيء حتى الذين عبدوا العجل، ﴿فَعَفَوْنَا﴾.

٧ ـ الله تعالى يدافع عن أنبيائه ورسله، ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

إشارات:

□ ورد ما يشبه مضمون هذه الآية في سورة البقرة، الآيتان ٦٣ و٩٣، وكذلك في سورة الأعراف، الآية ١٧١.

□ المراد بميثاق الله مع بني إسرائيل، هو الذي ورد في الآيتين ٤٠ و٨٤ من سورة البقرة، والآية ١٢ من سورة المائدة.

□ للأماكن المقدّسة آداب خاصّة: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾.

وقد ورد في القرآن الكريم حول جبل الطور: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾[١].

بيوت النبي الكريم ﷺ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[٢].

المساجد: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[٣].

المسجد الحرام: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾[٤].

الكعبة المشرّفة: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾[٥].

فضلاً عن آداب أخرى تتعلّق بالمساجد وردت في المصادر الفقهية والمجاميع الحديثية.

---

(١) سورة طه: الآية ١٢.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٣١.

(٤) سورة التوبة: الآية ٢٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٢٥.

التعاليم:

١ ـ أحياناً، تستلزم التربية استخدام أسلوب الترهيب والوعيد، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾.

٢ ـ العمل أثناء العطلة والعبادة، نوع من التعدّي، ﴿لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾

إشارات:

□ لم يكن اليهود في عصر النبي الكريم ﷺ هم من قتل الأنبياء، بل أجدادهم الذين ارتكبوا تلك الجرائم، ولكن لمّا كان أولئك الأبناء راضين عن فعال آبائهم، فإنّ القرآن الكريم نسب تلك الجرائم إليهم[1].

التعاليم:

١ ـ نقض المواثيق والعهود ذنب يرقى إلى مرتبة الكفر، بل إنّه تمهيد للكفر، ﴿نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم﴾.

٢ ـ كفران النعم بلغ حدّاً أنّ الطلقاء على يد الأنبياء يقتلون الأنبياء، ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

٣ ـ يمهّد الإنسان بكفره ولجاجته طريق السقوط لنفسه، ﴿طَبَعَ... بِكُفْرِهِمْ﴾.

٤ ـ إيمان قلّة من الأفراد في مقابل كفر الأكثريّة الساحقة للناس دليل على أنّ الإنسان يمتلك حرّية الاختيار. إذن، ينبغي ألّا يحيد المحيط والنظام الفاسدين بإرادة الإنسان عن طريق الحقّ، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

---

(١) تفسير القمّي، ج١، ص ١٥٧.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾

إشارات:

- بهت اليهود السيدة مريم وافتروا عليها كما ورد في الآية ٢٧ من سورة مريم.
- اتهموها عليها السلام بالزنا، وهو ما يعني، في الحقيقة، أنّ عيسى عليه السلام هو (والعياذ بالله) طفل غير شرعي، وبالتالي عدم أهليّته للهداية والنبوة، وهذه التهمة هي سبب كفرهم بعيسى عليه السلام بحسب ادعائهم.
- قال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ لك من عيسى مثلاً، أبغضته اليهود حتى بهتوا أمّه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذي ليس له، والله تعالى أعلم»[١].
- سمّي البهتان كذلك ربّما لأنّ المؤمن الطاهر يبهت من سماع هذه الافتراءات لفظاعتها.
- البهتان العظيم عاقبته العذاب العظيم. ورد في الآية ٢٣ من سورة النور المباركة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ يقف البهتان في مصاف الكفر، ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ... بُهْتَٰنًا﴾.

٢ ـ في المجتمع الفاسد، يرمى، أحياناً، الأشخاص الأطهار، بأقذع التّهم وأقسى الافتراءات، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا﴾.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

إشارات:

- روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: **«وأمّا غيبة عيسى عليه السلام فإنّ اليهود**

---

(١) تفسير الدّر المنثور، ج٢، ص ٢٣٨.

والنصارى اتّفقت على أنّه قتل فكذّبهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، كذلك غيبة القائم، فإنّ الأمّة ستنكرها لطولها فمن قائل يقول: إنّه لم يولد وقائل يفتري بقوله: إنّه ولد ومات وقائل يكفر بقوله: إنّ حادي عشرنا كان عقيماً و...»[1].

□ إنّ القرائن والدلائل التي تشير إلى اشتباه الأمر وصلب شخص آخر بدلاً من السيّد المسيح ﷺ هي على النحو التالي:

١ ـ إنّ المجموعة التي كلّفت بالقبض على السيّد المسيح ﷺ كانت من جنود الجيش الروماني، وبالتالي كانوا غرباء لا يعرفون لغة اليهود وتقاليدهم. (ويبدو أنّ الشخص الذي وشى بالسيد المسيح وكان يروم الخيانة منذ البداية وتسليم عيسى إلى السلطات مقابل مبلغ من المال، هو نفسه الذي وقع في الفخّ)[2].

٢ ـ حادثة اعتقال النبي عيسى ﷺ تمّت تحت ستار الليل.

٣ ـ إنّ الشخص الذي اعتُقل كان قد شكا من ربّه لا أنه اشتكى إليه، وبديهي أنّ هكذا شكوى لا تنسجم مع مقام النبوّة ولا تليق بنبيّ.

٤ ـ جميع الأناجيل المسيحية التي تذكر حادثة صلب المسيح وافتدائه بشيء من التفصيل قد دوّنت بعده بفترة طويلة، ما يجعل إمكان وقوع الخطأ والتحريف أمراً وارداً جدّاً.

٥ ـ بعض الفرق المسيحية تنفي مسألة صلب المسيح، وما يزيد الأمر غموضاً وجود الاختلاف بين الأناجيل المتداولة.

التعاليم:

١ ـ أحياناً يصل الانحطاط الأخلاقي بالإنسان إلى التباهي وإظهار الفخر بقتل الأنبياء، ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾.

---

(١) الطوسي، الغيبة، ص١٧٠.

(٢) تفسير الفرقان.

٢ ـ لا بدّ من الصراحة في مقابل المزاعم الباطلة، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾.

٣ ـ ولادة النبي عيسى عليه السلام ورفعه من هذه الدنيا حدثتا بصورة خارقة وغير طبيعية. لقد عرج إلى السماء ليكون ذخراً للمستقبل، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

٤ ـ لم يقتصر المعراج على النبي الكريم صلى الله عليه وآله، بل حدث لأنبياء آخرين، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

٥ ـ النبي عيسى عليه السلام ضيف الله سبحانه وتعالى، ﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

٦ ـ توجد إمكانية لحياة الإنسان في السموات، ﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾

٧ ـ الإرادة الإلٰهيّة كفيلة بإفشال جميع المؤامرات، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

إشارات:

□ ربّما كان المقصود بالآية الكريمة هو أنّ جميع أهل الكتاب يؤمنون بعيسى المسيح عليه السلام قبل موته. فبحسب ما ورد في روايات الفريقين، أنّ النبي عيسى عليه السلام سوف ينزل من السماء في آخر الزمان، ليصلّي خلف الإمام المهدي عليه السلام، ثمّ يحيا لفترة قصيرة، ويموت بعدها. وفي ذلك اليوم، سوف يتخلّى المسيحيون عن الاعتقاد بأنّه ابن الله، ويؤمنون به إيماناً صحيحاً[١].

التعاليم:

١ ـ عند احتضار الكافرين والمنحرفين، تنزاح الحجب عن أعينهم، ويستردّون وعيهم، فيؤمنون، ولكن لات حينَ مناص، ﴿وَإِنَّ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾.

٢ ـ الموت سنّة حتميّة تسري على الجميع، حتى على النبي عيسى عليه السلام الذي

---

(١) تفسير الميزان.

يعيش لقرون مديدة في أحسن الظروف في كنف ضيافة الله تعالى وملائكته[١] ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾.

٣ ـ الأنبياء هم الشهود على البشر، ﴿يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾

إشارات:

- قد يكون المراد بالطيّبات التي حُرّمت على اليهود تلك الواردة في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ﴾، وقد جاءت التوراة الحاليّة أيضاً على ذكر هذا التحريم[٢].
- لا شك أنّ ردود أفعال الفرد والمجتمع إزاء الاستفادة من النعم الإلٰهيّة أو زوالها تلعب دوراً رئيساً في هذا المجال. فنحن نقرأ في الآية ١٧ من سورة الفجر المباركة أنّ سبب الحرمان يكون أحياناً عدم إكرام اليتيم ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾، وتقول الآية ٩٦ من سورة الأعراف ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي السياق نفسه نُقل عن أبي عبد الله الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «**من زرع حنطة في أرض لم يزك زرعه أو خرج زرعه كثير الشعير فبظلم عمله في مِلك رقبة الأرض أو بظلم لمزارعه وأكرته لأنّ الله يقول: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ يعني لحوم الإبل والبقر والغنم**»[٣].

التعاليم:

١ ـ الظلم هو عامل الحرمان من النعم، ﴿فَبِظُلْمٍ... حَرَّمْنَا﴾.

٢ ـ في بعض الأحيان، يكون الحرمان الاقتصادي والمصاعب المادّيّة دليل على سخط الله وعذابه، ﴿فَبِظُلْمٍ... حَرَّمْنَا﴾.

---

(١) إذا كان المقصود بـ «قبل موته» موت النبي عيسى عليه السلام.

(٢) التوراة، سِفر اللاويين، الباب ١١.

(٣) مستدرك الوسائل، ج ١٣، ص ٤٧٣.

٣ ـ ليست كلّ المحرّمات من أجل النظافة والصحّة، ﴿فَبِظُلْمٍ... حَرَّمْنَا﴾.

٤ ـ صحيح أنّ موعد نزول العذاب الأصلي هو يوم القيامة، إلّا أنّه توجد عذابات دنيوية تدقّ جرس الإنذار، وتكون للعاصين عذاباً، وللصالحين امتحاناً، ﴿فَبِظُلْمٍ... حَرَّمْنَا﴾.

٥ ـ الصدّ عن سبيل الله بأيّ نحوٍ كان (سواء أكان عن طريق التحريف أم الكتمان، أم الابتداع، أم الفساد، أم الانحراف، أم غير ذلك)، هو عامل حرمان من النعم، ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾

إشارات:

□ التوراة[١] أيضاً تتضمّن حكم تحريم الربا[٢].

التعاليم:

١ ـ ربّما بدا الربا مصدراً للدخل وعامل سعادة وتوفيق، إلّا أنّه في حقيقته، مدعاة للحرمان والعذاب، ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ... وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ... عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٢ ـ تبدي جميع الأديان السماوية اهتماماً وحساسية بالعلاقات المالية بين بني البشر وطبيعة المصارف والمداخيل، ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ... بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

٣ ـ طريق العودة متاح ما لم يضع الإنسان نفسه في دائرة الكفر بسبب الظلم، والربا، وأكل المال الحرام. وفي غير هذه الحالة، فإنّ هذا النمط من

---

(١) التوراة، سِفر التثنيه، الباب ٢٣، الإصحاح ١٩ و٢٠.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

المعاصي يمهّد الطريق إلى الكفر والعذاب، ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ... وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

إشارات:

- نستدلّ على خاتميّة الدين الإسلامي من خلال تكرّر ذكر عبارة ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ في القرآن الكريم، في حين لم ترد ولو لمرّة واحدة عبارة «**من بعدك**».
- ورد في الحديث أن لا صلاة لمن يمتنع عن أداء الزكاة، فالرسول الكريم كان يطرد المصلّين الذين لم يؤدّوا الزكاة من المسجد. والقرآن الكريم يصرّح بأنّ المصلّي الحقيقي ليس بخيلاً، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[١].

التعاليم:

١ ـ يجب أن يتحلّى المرء بالموضوعيّة والإنصاف عند النقد. لاحظ أنّ الآية الكريمة تفرّق بين مؤمني اليهود، وبين الظالمين، وآكلي المال الحرام، ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ... مِنْهُمْ﴾.

٢ ـ قيمة العلم في أن تكون له جذور وامتدادات في الروح، ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾.

٣ ـ المهمّ هو الهدف والمعتقدات المشتركة لا العِرق، أو القبيلة، أو اللغة، ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٤ ـ لا بدّ من الإيمان بجميع الأصول في جميع الأديان السماوية، ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

---

(١) سورة المعارج: الآيتان ٢١ ـ ٢٢.

٥ ـ على الرغم من أنّ الصلاة والزكاة كانتا موجودتين في الأديان السابقة أيضاً، إلّا أنه تمّ ذكرهما بصورة مستقلّة نظراً لأهميّتهما، ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾.

٦ ـ لا فكاك بين الصلاة والزكاة، ولا بدّ للمصلّين أن ينفقوا من أموالهم، ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٧ ـ للصلاة مكانة خاصة. (لاحظ هنا اختلاف إعراب كلمة «المقيمين» عن «**الراسخون، المؤمنون، المؤتون**»، ويدلّ ذلك في اللغة العربيّة على العلوّ والرفعة).

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾

إشارات:

- عدد الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم هو ٢٦ نبيّاً، أحد عشر منهم ورد اسمه في هذه الآية، أمّا البقيّة فهم: آدم، إدريس، هود، صالح، لوط، يوسف، شعيب، ذو الكفل، موسى، إلياس، اليسع، زكريا، يحيى، عُزير عليهم السلام، والنبي الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله.
- ورد في الحديث، أنّه أوحي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله عين ما أوحي إلى الأنبياء السابقين عليهم السلام[1].
- «**الأسباط**» جمع «سبط» وهو ولد الولد كأنّه امتداد للفروع، والأسباط هنا تعني الأنبياء من ولد النبي يعقوب عليه السلام. «**الزبور**» في اللغة تعني الكتاب غليظ الكتابة، لكنّه في الاصطلاح يعني الكتاب المنزل على النبي داوود عليه السلام.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

و«**مزامير داود**» واحد من كتب العهد القديم (التوراة)، ويحتوي على ١٥٠ فصلاً، يدعى كلّ منها مزمور.

□ نعلم بأنّ الوحي الإلٰهيّ قد نزل على مرّ التاريخ مرّات كثيرة، فلماذا لم يؤمن أهل الكتاب بالنبي الكريم ﷺ، وكانوا يفرّقون بينه وبين باقي الأنبياء، وكانوا يطالبونه بمطالبات إضافية ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ...﴾؟

التعاليم:

١ ـ الوحي والنبوّة عبارة عن تيار وسنّة في تاريخ البشر، ولا يشوبهما أيّ خلل، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ...﴾.

٢ ـ طرح الأمثلة التاريخية لموضوع ما (مثلاً نزول الوحي على الأنبياء السابقين) هو من أساليب إثبات الدعوى، ومعرفتها تمهّد الأرضية للإيمان، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ...﴾.

٣ ـ الهدف، والأسلوب، والجوهر العام، للأديان السماوية واحد، وذلك لأنّها تنهل من معين واحد وهو الله سبحانه وتعالى، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ...﴾.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾

إشارات:

□ من بين سور القرآن الكريم، تضمّ سورتا هود والشعراء مجالاً قصصياً أوسع.

□ الخطاب الإلٰهيّ موجّه إلى جميع الأنبياء، لكنّ النبي موسى عليه السلام هو وحده كليم الله، ربّما يعود السبب إلى أنّه عليه السلام أثناء صراعه مع فرعون وتحمّله أنواع الشدائد واللجاج من بني إسرائيل، كان لا بدّ من أن يكون في اتّصال مباشر ومتواصل مع الله تعالى، وأن يتلقّى الأوامر، ولذلك أصبح كليم الله.

التعاليم:

١ ـ الاطلاع على تاريخ الأنبياء يستأثر بأهميّة خاصّة، يدلّ على ذلك اهتمام الله سبحانه وتعالى به، ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

٢ ـ عدد الأنبياء أكبر ممّا ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾.

٣ ـ لا عمر الإنسان يكفي لسماع كلّ قصص التاريخ ولا ثمّة حاجة أصلاً لسماعها كلّها. يجب الاطلاع بالمقدار الذي يكفي للاتّعاظ والاعتبار، ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾.

٤ ـ أحياناً تجد في القرآن الكريم تكرّر حادثة معيّنة مرات عدّة، فيما لا يأتي ذكر بعض الحوادث أبداً، ويشير هذا إلى أنّ القرآن الكريم كتاب ينطوي على بعد هدائي وتربوي، لا قصصي، ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

إشارات:

□ توضّح هذه الآية مبادئ عامة في دعوة الأنبياء ونهجهم والهدف من بعثتهم.

□ العقل كالوحي حجّة إلٰهيّة، لكن إدراكاته محدودة، لذلك فهو لا يكفي الإنسان ولا تتم به الحجة عليه. فيأتي هنا دور الأنبياء ليخبروا بأخبار الغيب والملكوت التي يعجز العقل الإنسانيّ عن إدراكها.

□ ويقول القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾[(١)].

التعاليم:

١ ـ النهج الدعوي للأنبياء يتمحور حول الخوف والرجاء، ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

---

(١) سورة طه: الآية ١٣٤.

٢ ـ الهدف من بعثة الأنبياء هو إتمام الحجّة على الناس، لئلا يقولوا لم يكن لدينا قائد ودليل، ولم نكن نعلم، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾.

٣ ـ يجب أن يكون الأنبياء في مستوى يعجز معه أيّ شخص من أن يُشكل عليهم في أيّ بُعد كان، سواء في المواصفات الشخصيّة والجسمانية، أو السيرة والمكانة الاجتماعية، أو البعد السياسيّ وشرف المحتد، أو على صعيد صنع المعجزات، أو الفصاحة والبيان الصريح، أو التمتّع بالمدد الغيبي، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾.

٤ ـ لأنّ الله عزيز وحكيم، فليس لأحد حجّة عليه، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

إشارات:

❑ كم من لطف تفضّل به الله سبحانه وتعالى على نبيّه الأكرم ﷺ ودعوته، وشواهد هذا اللطف الإلٰهيّ كثيرة مثلاً: إنّه سبحانه ألهم رجلاً أميّاً معارف القرآن الراقية، وبعثه إلى بلاد غارقة في الجهل، والشرك، والعداوة، فهدى الناس وأبدلهم بعد تفرّقهم وحدة، وبعد بخلهم إيثاراً وسخاء، وبعد شركهم توحيداً، وبعد جهلهم علماً، وبعد انحطاطهم عروجاً معنوياً، وأخيراً أنعم عليهم بنعمة الأمة الإسلاميّة الواحدة.

التعاليم:

١ ـ يجب العمل على تقوية المعنويات والارتقاء بها كما ينبغي، في مقابل التثبيط والإحباط المجحف، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾.

٢ ـ الأنبياء أيضاً محتاجون إلى عناية الله ولطفه في مسار الدعوة، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾.

٣ ـ ينبغي لكلّ داعية أن يكون الله سنده وأمله، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾.

٤ ـ منبع الوحي هو علم الله اللامتناهي، ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِۦ﴾، من هنا فإنّه مع تطوّر العلوم يتمّ في كل يوم رفع الستار عن جانب من معارف القرآن الكريم.

٥ ـ إذا كان بعض العاصين المعاندين يوغلون في اللجاج والإنكار، ففي المقابل، توجد ملائكة يشهدون لك، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

إشارات:

- المقصود بـ **«الضلال البعيد»** هو الضلال المضاعف للكافرين، فالكفر هو ضلال، أمّا الحيلولة دون إيمان الآخرين فهو ضلال آخر. الكفر انحراف، أمّا أن يعتبر الكافر نفسه على حقّ، فهذا انحراف أكبر. الكفر ظلم للنفس، وصدّ الآخرين عن طريق الإيمان هو ظلم للتاريخ والبشرية.
- ربّما كان المراد بـ **«الظلم»** في الآية ١٦٨ هو صدّ الآخرين عن الهداية، فأيّ ظلم أكبر من الظلم الفكري، والثقافيّ، والعقدي؟
- أقسى العذاب وأسوأ العبارات قيلت في حقّ الكافرين الذين يتوسّلون بأنواع الدعايات، والتهم، والتهديدات، لمنع وصول رسالة الحقّ إلى أسماع طلابه. (عدم المغفرة، الإضلال، إدخالهم جهنّم وتأبيد العذاب لهم).

التعاليم:

١ ـ الذين يصدّون الناس عن الهداية، هم أشدّ ضلالاً، ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾.

٢ ـ الكفر والظلم قرينان لا ينفصلان، وعاقبتهما الحرمان من المغفرة والهداية الإلٰهيّة، ﴿كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ... وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ﴾.

٣ ـ جزاء الكافرين الظالمين الذين يحولون دون اهتداء الناس هو الخلود في جهنّم، ﴿جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾

إشارات:

❑ كان أهل الكتاب، لا بل حتى المشركون، في انتظار ظهور نبيّ جديد يطلّ عليهم؛ لذلك فقد كانوا مهيّئين لهذا الأمر ذهنيًّا، وهو ما نلحظه في هذه الآية؛ إذ جاءت كلمة «الرسول» في صيغة المعرفة وليست النكرة «رسول»، ما يعني أنّ المقصود هو جاءكم ذلك الرسول الذي تنتظرونه، فآمنوا به وصدّقوه.

التعاليم:

١ ـ الإسلام دعوة عالمية، ولا يختصّ بالعرب وحدهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢ ـ حقّانيّة الأنبياء من أسباب انتشار دعوتهم، ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾.

٣ ـ إيمان الناس يعود عليهم وحدهم بالفائدة والنفع، ولا ينبغي أن يمنّوا على الله بإيمانهم، بل الله يمنّ عليهم أن هداهم إلى الرشاد، ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾.

٤ ـ لا يضرّ الله تعالى كفرُ الناس ولا ينفعه إيمانُهم، ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾.

٥ ـ بعثة الأنبياء وجوهر دعوتهم يقوم على العلم والحكمة الإلٰهيّة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾

إشارات:

❑ «**كلمة الله**» وصف يطلق على الأنبياء والأولياء، فكما إنّ الكلمة تستبطن في

ذهن المتكلّم معاني ومفاهيم معيّنة، كذلك هم الأنبياء والأولياء يمثّلون تجليات لكمالات الخالق. وقد ورد في إحدى الروايات: «**نحن كلمات الله التّامات**»[1].

ربّما يُقصد بـ «الكلمة» عبارة «**كن فيكون**» التي هي قول الله الفصل، وكأيّ كلام آخر، فإنّ نتيجته الكلمة[2]. كما إنّ الله سبحانه وتعالى وفي آية أخرى شبّه خلق عيسى عليه السلام بخلق آدم عليه السلام إذ يقول عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3].

- سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن عبارة ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُۖ﴾ فقال: «**هي روح الله مخلوقة خلقها الله في آدم وعيسى**»[4].

- يؤمن المسيحيون بعقيدة التثليث، وأنّ الله هو الآب، والمسيح هو ابن الله، وجبرائيل هو الواسطة بين هذين الإلٰهيّن، وهو، لا شك، نوع من الكفر. ويقول القرآن الكريم في الردّ على هذه المزاعم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[5]. وثمة فريق آخر منهم يعتبر السيدة مريم أحد الأقانيم الثلاثة بدلاً من جبرائيل، فيردّ القرآن الكريم على هؤلاء بقوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾[6].

- لقد لُعن الغلاة في الروايات، واعتُبروا من أسوأ فرق الكفار والمشركين[7].

- إذا كان عدم امتلاك (أب) دليلاً على الألوهيّة، فمن باب أولى أن يكون آدم عليه السلام إلهاً، فهو ليس له أب ولا أم.

- وردت نسبة عيسى إلى مريم في القرآن الكريم ١٧ مرّة، وذلك للتأكيد على نفي بنوّته لله تعالى. الأناجيل أيضاً ذكرت عيسى بوصفه رسول الله وليس الله. فقد وصف عيسى في الأناجيل باسم عبد الله ورسوله ٨٠ مرّة[8].

---

(١) تفسير أطيب البيان.
(٢) تفسير الميزان؛ في ظلال القرآن.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٩.
(٤) الكافي، ج١، ص ١٣٣.
(٥) سورة المائده: الآية ٧٣.
(٦) سورة المائده: الآية ١١٦.
(٧) ميزان الحكمة.
(٨) تفسير الفرقان.

التعاليم:

١ ـ الغلوّ علامة التعصّب المذموم، وهو محرّم في جميع الأديان. اعتبر اليهود «عُزيراً» ابن الله، والمسيحيون عدُّوا «عيسى» ابن الله، ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾.

٢ ـ آفة الأديان السماوية الغلوّ في تعظيم أئمة الدين، ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾.

٣ ـ الوسطية والاعتدال مطلوبان في كل وقت ومكان، ولا ينبغي أن تقوم محبّة أولياء الله على الغلوّ، ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾.

٤ ـ الغلوّ في البشر، حتى وإن كانوا أنبياء، إساءة إلى الله تعالى ونسبة ما لا يصحّ إليه، ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

٥ ـ وصف القرآن الكريم والإنجيل الحقيقي النبي عيسى بأنّه نبي الله لا ابن الله ولا هو الله، ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ الخلق الإعجازي لعيسى عليه السلام إنّما هو من آيات الله تعالى، كما إنّ الكلمة تكون عنوان المعنى ودالّته، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ﴾.

٧ ـ النبي عيسى عليه السلام ليس جزءاً من الله، وإنّما هو قبس للقدرة الإلٰهيّة في منح الحياة، ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

٨ ـ القرآن الكريم تجسيد للعقائد السليمة ونقض للعقائد المنحرفة الباطلة، ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ... وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾.

٩ ـ ليس الله جلّ وعلا بجسم ليكون له ولد، ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ (إنّ ورود عبارات من قبيل **ثار الله**، **يد الله**، **كلمة الله**، في النصوص إنّما هي عبارات مجازية).

١٠ ـ الله الذي يملك السموات، ما حاجته إلى الولد أو الشريك؟ ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

١١ ـ كلّ شيء من الله، إذن، يجب أن نخلص العبودية له ونتوكل عليه وحده، ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

إشارات:

- نقل بعض المفسّرين أنّ الإمام الرضا عليه السلام لكي يفنّد عقيدة التثليث المنحرفة قال لكبير المسيحيين في ذلك الحين ـ وكان يلّقب بالجاثليق ـ إنّ المسيح عليه السلام كان حسناً في كلّ شيء لولا وجود عيب واحد فيه، وهو قلّة عبادته لله، فغضب الجاثليق وقال للإمام الرضا عليه السلام: ما أعظم هذا الخطأ الذي وقعت فيه، إنّ عيسى المسيح كان من أكثر أهل زمانه عبادة، فسأله الإمام عليه السلام على الفور: ومن كان يعبده المسيح؟! فها أنت قد أقررت بنفسك أنّ المسيح كان عبداً ومخلوقاً لله، وأنّه كان يعبد الله تعالى، ولم يكن معبوداً ولا ربّاً؟ فسكت الجاثليق ولم يحر جواباً.
- الناس في عبادة الله سبحانه وتعالى ثلاث فئات: فئة مستكبرة، وفئة مسلّمة، وفئة طالبة، يقول الإمام علي عليه السلام. «**كفى بي عزًّا ان أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً**»[1].

التعاليم:

١ ـ في المسائل الدينية، لا تكن مَلَكيّاً أكثر من الملك. النبي عيسى يصف نفسه بأنّه عبد الله، وأنتم تدّعون أنّه ابن الله، ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾؟!

٢ ـ ليس فقط يعبد الله، بل إنّ المسيح ذائب في عبوديّته لله، ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾.

٣ ـ الملائكة المقرّبون (بما فيها الروح القدس) كلّهم يعبدون الله، فلِمَ تعتبرون الروح القدس فقط أحد الأقانيم الثلاثة، ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾؟

---

(١) بحار الأنوار، ج ٩٤، ص٩٢.

٤ ـ التكبّر والغرور منشأ ترك العبادة، فإذا استكبرت الروح، فتحت الباب أمام جميع الأخطار، ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ...﴾.

٥ ـ إليه مرجعنا جميعاً، فلنخش يوم القيامة ولا نتكبّر، ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

إشارات:

□ ديدن أهل الكتاب كان إمّا الغلوّ في نبيّهم، أو اعتبارهم أنفسهم المصطفين، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾[1]، أو استحقارهم الآخرين بقولهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[2]، والحال أنّ أيّاً من هذه الادّعاءات لن تنفعهم في يوم القيامة، إلّا من آمن وعمل صالحاً.

التعاليم:

١ ـ الإيمان والعمل الصالح سبيل النجاة، ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

٢ ـ الإيمان يسبق العمل، وعمل بلا إيمان كالصك بلا رصيد، ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

٣ ـ إذا كنت تسعى إلى التخلّق بالأخلاق الإلهيّة، عليك أن تدفع أجرة العامل كاملة غير منقوصة وزد عليها إن استطعت، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾.

٤ ـ بلا عمل ولا إيمان، لا تتوقّعوا أيّ شفاعة من المسيح أو غيره، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ١١٣.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾

إشارات:

□ المقصود بـ «البرهان» بحسب الروايات هو النبي الأكرم ﷺ، أمّا «النور المبين» فهو القرآن الكريم. والحقّ أنّ النبي هو برهان الدين؛ لأنّه الأمّي الذي جاء بكتاب زاخر بالمعارف، وكلّما مرّ الزمان، وتطوّرت مسيرة العلوم، شهدت على حقّية هذا الدين وغور تعاليمه النيّرة.

التعاليم:

١ ـ الإسلام يخاطب كلّ الأمم والأجيال في جميع الأعصار والأمصار، وهو يحمل رسالة عالمية، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢ ـ إرسال النور والبرهان من شؤون ربوبيّة الله سبحانه وتعالى، ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

٣ ـ القرآن الكريم كتاب برهان وهداية ونور، ﴿نُورٗا مُّبِينٗا﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾

إشارات:

□ نقرأ عن الاعتصام بالأولياء والقادة الإلٰهيّين في الزيارة الجامعة: «**مَنِ اعْتَصَمَ بِكُمْ فَقَدِ اعْتَصَمَ بِاللَّه**»[(١)].

□ ذكرت الآيتان السابقتان أنّ الإيمان والعمل والصالح هما الوسيلتان لاستدرار الألطاف الإلٰهيّة، أمّا هذه الآية فتبيّن أنّ العمل الصالح هو سبيل الإيمان والاعتصام بالله تعالى والارتباط به.

التعاليم:

١ ـ الثواب الإلٰهيّ هو فضل من الله ورحمة، لا أننا نستحقه، ﴿فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص ٦١٣.

﴿وَفَضۡلٖ﴾؛ (أن يذكر سبحانه وتعالى في آيات أخرى أنّ هذه الرحمة وذلك الفضل هما ثواب أعمالنا، إنّما هو لطف آخر يسبغه علينا جلّ وعلا، وإلّا هل يعقل أن يكون ثواب بضع دقائق أو أكثر من العمل الصالح الناقص هو الجنّة وقصورها والرحمة منه تعالى).

٢ ـ إنّه وإن كانت الهداية بيد الله ينعم بها على من يشاء، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[1] إلّا أنّه ينبغي علينا نحن أن نتحرّى وسيلة الهداية وتهيئة ظروفها، من خلال الإيمان والاعتصام، ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ﴾.

٣ ـ الحاجة إلى الهداية الإلٰهيّة تبقى قائمة حتى بعد الإيمان والاعتصام، ولا يمكن أن نستغني عن هدايته سبحانه وتعالى لحظة واحدة، ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ﴾.

٤ ـ الصراط المستقيم هو الطريق الذي يوصل الإنسان إلى ربّه، ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾.

﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾﴾

إشارات:

□ جاء في الآية ١٢ من هذه السورة أنّ الأخت والأخ يرثان بعضهما بمقدار السدس، وتقول هذه الآية إنّهما يرثان النصف، والسبب في ذلك هو أنّ مقصود تلك الآية هم الأخوة غير الأشقاء ـ أي الذين هم من أمّ واحدة وآباء متعدّدين ـ أمّا هذه الآية فتقصد الأخوة من أب واحد وأمهات متعدّدات أو من أب وأمّ واحدة[2].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

□ ترث الأخت أو الأخ من الميّت عندما لا يكون له ولد أو أب أو أم، وإلّا فإنّ الإرث سيُحجب عنهما. نلاحظ أنّ سورة النساء المباركة قد شرعت بالحديث عن شؤون الأسرة وهي الآن تختتم بها.

التعاليم:

١ ـ مسؤولية الناس في تعلّم المسائل والأحكام الدينيّة هي في الرجوع إلى قادة الدين، ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾.

٢ ـ يحمل الدين للناس برنامجاً للحياة. فالإرث هو، من جهة، موضوع اقتصادي، ومن جهة أخرى، موضوع عائلي. ولذلك فإنّ الدين يلحظ الجهتين في تشريعه أحكامَ الإرث، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾.

٣ ـ مراعاة الأولويّات في تقسيم الإرث، يشير إلى أنّ الأقربين أولى بالمعروف. الوالدان والأبناء في طبقة واحدة، ويأتي في الطبقة التالية الأخوة والأخوات، ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾.

٤ ـ تشريع سهم الرجل ضعف سهم المرأة يقوم على الحكمة والعلم الإلٰهيّ، لا الظروف الاجتماعيّة الخاصّة السائدة في عصر النبي الأكرم ﷺ والتي كانت تنظر إلى المرأة نظرة استضعاف، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

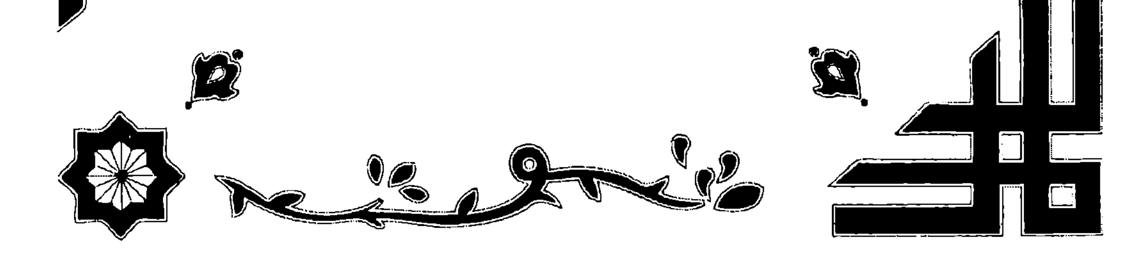
«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ المَائِدَةِ

السورة: ٥ الجزء: ٦ ـ ٧

عدد آياتها: ١٢٠



ملامح سورة المائدة

تحتوي هذه السورة على مئة وعشرين آية، وقيل إنّها نزلت قبل وفاة النبي الأكرم ﷺ بشهور، وليس فيها منسوخ من الآيات. سبب تسميتها بالمائدة هو دعاء النبي عيسى عليه السلام في الآية ١١ بأن ينزّل الله تعالى مائدة من السماء. كما لها أسماء أخرى مثل «العهود» و«المواثيق»، وهي بشكل عام، تتناول موضوع الوفاء بالعهود، كما تزخر السورة بخطاب «يا أيّها الذين آمنوا»، فعلى سبيل المثال، ورد هذا الخطاب إحدى عشرة مرّة في سورة البقرة، بينما ورد ستّ عشرة مرّة في هذه السورة.

ومن الموضوعات والمفاهيم التي تتطرّق إليها السورة، مضافاً إلى الوفاء بالعهود والمواثيق، موضوع الشهادة بالعدل، تحريم القتل، أحكام الأطعمة، أحكام الوضوء، الغسل والتيمّم، الحثّ على العدالة الاجتماعية، استعراض أحكام الوصيّة والقصاص، والسرقة والزنا.

ربّما يكون استهلال السورة بعبارة ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ لأنّها من خواتيم الوحي الإلٰهيّ الذي نزل على الرسول الأكرم ﷺ، فجاءت بمثابة وداع المسافر أهلَه ووصيته لهم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾

إشارات:

- «**البهيمة**» اسم لكلّ ذي أربع بما في ذلك «**الأنعام**» التي تعني الإبل والبقر والأغنام، وقد ذكرت عبارة «**بهيمة الأنعام**» في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، والمراد بها حليّة لحوم الأنعام[١].
- سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قوله عز وجل ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾، فقال: «**الجنين في بطن أمه إذا أشعر وأوبر فذكاته ذكاة أمّه، فذلك الذي عنى الله عز وجل**»[٢]. وقال المرحوم الفيض الكاشاني في تفسيره (الصافي): «قد تكون هذه الرواية بياناً لمصداقها الخفيّ، أو أنّها تسمّى «بهيمة» منذ أن تولد من رحم أمّها، لذلك لا تعارض في تعميمها»[٣].
- عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**لا دين لمن لا عهد له**»[٤]. نعم، إنّ الوفاء بالعهود هو عماد المجتمع وأساس ثباته، وفي نقضها ذهاب لنظامه، وابتلاؤه بالفوضى.

هذا، وقد أوجب القرآن الكريم الوفاء بالعهد لجميع البشر بمن فيهم المشركين. ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾[٥].

- وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**ثلاث لم يجعل الله، عز وجل، فيهنّ رخصة، أداء الأمانة إلى البرّ والفاجر، والوفاء بالعهد للبرّ والفاجر، وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين**»[٦].

---

(١) تفسير مجمع البيان.
(٢) الكافي، ج ٦، ص ٢٣٤.
(٣) نقلا عن: قاموس القرآن.
(٤) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ١٤٤.
(٥) سورة التوبة: الآية ٤.
(٦) الكافي، ج ٢، ص ١٦٢.

وَعَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ «إِذَا أَوْمَى أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَشَارَ بِالْأَمَانِ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَنَزَلَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ فِي أَمَانٍ»[1].

☐ الكتب السماوية العهد القديم (التوراة)، والعهد الجديد (الإنجيل)، والعهد الأخير (القرآن الكريم) هي عهود الله ومواثيقه ويجب الوفاء بها. نقرأ في الحديث الشريف: **«القرآن عهد الله»**[2].

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للمسلم من أن يلتزم بجميع المواثيق والعهود التي يبرمها مع أيّ فرد أو جهة، مهما كان نوع الميثاق، سواء أكان ميثاقاً لفظياً أم مكتوباً، أم مواثيق سياسيّة أو اقتصاديّة أو اجتماعيّة أو عائلية، أم كان ميثاقاً مع القوي أو الضعيف، أو مع الصديق أو العدو، أو مع الله كما هو الحال مع النذر مثلاً، أم العهود التي تقدّم إلى الناس أو الفرد أو المجتمع، صغيراً كان أو كبيراً، أم المواثيق مع دول المنطقة أو أيّ معاهدة دولية، باختصار أقول، إنّ «العقود» هنا معرّفة بالألف واللام وهي تشمل جميع أنواع العقود والمواثيق، ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾.

٢ ـ ثمة إشعارٌ بأنّ الإيمان هو الضمانة للوفاء بالعهد والميثاق، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾.

٣ ـ أما وأنّ الله سبحانه وتعالى قد وهبنا كلّ هذه النعم، فلا بدّ لنا من الوفاء بعهوده، ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم﴾.

٤ ـ أحد العهود مع الله تعالى هو الالتزام بأحكام الأطعمة حلالها وحرامها، ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم﴾.

٥ ـ يهتمّ الدين الإسلامي بالقضايا الاجتماعيّة والاقتصادية على حدٍّ سواء، والوفاء بالعهد يمثّل قضيّة اجتماعيّة واقتصادية، والاستفادة من الحيوانات هي من القضايا الاقتصاديّة، ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

---

(١) دعائم الإسلام، ج١، ص ٣٧٨. (٢) الكافي، ج ٦، ص ١٩٨.

٦ ـ يحرم أكل الميتة والمنخنقة من البقر والإبل والأغنام، ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

٧ ـ ليست لحوم كلّ البهائم حلال، ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (الآية الكريمة تتعلّق بأنواع معيّنة من البهائم).

٨ ـ من أجل المحافظة على حرمة الإحرام، يجب أن نوطّن النفس قليلاً على الحرمان والامتناع عن الصيد، ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

٩ ـ الالتزام بمحرّمات الإحرام، هو من أمثلة الوفاء بعهد الله وميثاقه، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ... غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

١٠ ـ الإحرام هو ميثاق المحرم مع الله، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ... وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

١١ ـ الإحرام هو حالة استثنائية وله حرمته، ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

- «الهَدْيُ»، هو القربان الذي لا علامة له ويُهدى في الحجّ؛ و«القلائد» هي القرابين التي تُعلّم بأن تُعلّق في رقبتها علامة أو تكوى حتى تصل إلى محلّ القربان في مناسك الحجّ وتذبح فيه.
- في بداية الآية، فرض الله سبحانه وتعالى احترام الشعائر، وحرّم انتهاكها أو تجاوزها؛ ومن بين الشعائر، ذكر بالخصوص جملة معيّنة منها هي: شهور رجب، وذي القعدة، ومحرّم، التي يُحرم فيها القتال، وشهر ذي الحجة الذي تقام فيه مناسك الحج، والهدي هي القرابين الخالية من العلائم، والقلائد هي القرابين المعلّمة.

❑ في السنة السادسة للهجرة، خرج المسلمون من المدينة إلى مكة قاطعين ٨٠ فرسخاً وذلك لأداء فريضة الحج، فصدّهم المشركون عن هدفهم، ثمّ انتهى الأمر إلى عقد صلح الحديبية، وبعد فتح مكة مُنع المسلمون من الاعتداء أو مضايقة أولئك الذين صدّوهم عن مكة قبل الفتح، ﴿صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

❑ إذا كان كسب العلم «برّاً» فلا ريب في أنّ الطرق المؤدّية إليه مثل: تهيئة المدارس، والكتب، والمكتبات، والمختبرات، ووسائل النقل، والأساتذة، وغيرها كلّها أمثلة على «التعاون على البرّ».

التعاون على الإحسان والعفاف

❑ تناولت الآية ١٧٧ من سورة البقرة أوجهاً عدّة من «البرّ»: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ... وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، والبرّ هو الإيمان بالله ويوم القيامة والملائكة والكتب السماوية والأنبياء، والتواصل مع المحرومين في المجتمع، والوفاء بالعهود والمواثيق، والصبر في الأعمال.

❑ وردت تأكيدات كثيرة في الروايات على التعاون والتعاضد على فعل الخيرات والإحسان ومساعدة المظلومين والمحرومين، وفي المقابل، ورد نهي شديد عن نصرة الظالم، ونورد في ما يأتي بعض الروايات لنزين هذه السطور بطيب كلماتها:

- عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ومن مشى في عون أخيه ومنفعته، فله ثواب المجاهدين في سبيل الله...**»[١].
- «**إنّ الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**»[٢].
- «**إنّ معونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهرٍ واعتكافه في المسجد الحرام**»[٣].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦٠٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ج١١، ص ٣٤٥.

- **«العامل بالظلم، والمعين له، والراضي به، شركاء ثلاثتهم»**[١].
- وقد وصل النهي عن إعانة الظالم إلى حدود: **«لا تعنهم على بناء مسجدٍ»**[٢].

التعاليم:

١ ـ يتوقّع الله سبحانه وتعالى من المؤمن نمطاً محدّداً من الأفعال، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ...﴾.

٢ ـ احترام شعائر الله تعالى مسؤولية المؤمنين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ لا يجوز انتهاك حرمة الشعائر الإلٰهيّة وقدسيّتها، ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ ليست كلّ الأوقات متساوية في الحرمة والفضل، فتوجد مثلاً أيام الله، وتوجد الأشهر الحُرُم التي لها حرمتها وقدسيّتها الخاصّة، ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾.

٥ ـ حتى الحيوان الذي يسخّر في سبيل الله يكتسب حرمة، ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾.

٦ ـ يجب حفظ حرمة حجاج بيت الله، ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾. كلّ ما يمسّ حرمة أو أمن القاصدين إلى الكعبة المشرّفة حرام، سواء أكان ذلك أثناء رحلة الحج أم العمرة.

٧ ـ الهدف الرئيس للحج هو زيارة الكعبة المشرّفة، ﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ﴾.

٨ ـ الحج والعمرة سبيل لنيل الدنيا والآخرة معاً، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾.

٩ ـ الكسب الحلال يمثّل قيمة، لاحظ أنّ القرآن الكريم يضع موضوع فضل الله تعالى ـ وهو الكسب والعمل ـ إلى جانب رضوان الله وقربه، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٤٥.
(٢) المصدر نفسه، ج١٢، ص ١٣٠.

١٠ ـ النشاطات الاقتصاديّة والتجارية للبلدان الإسلاميّة في مكة، من أيّ نوع كانت، مجازة، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾.

١١ ـ المنافع المادّية منّة وفضل من الله تعالى على الإنسان، وهي من شؤون ربوبيّته جلّ وعلا، ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

١٢ ـ إساءات الآخرين في حقبة ماضية، لا تعطينا الحقّ في الظلم والعدوان في حقبة زمنية لاحقة، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ... أَن تَعْتَدُوا﴾.

١٣ ـ الظلم وتجاوز الحدود حرام مع الأعداء أيضاً ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ... أَن تَعْتَدُوا﴾، فالانتقام مشروط بالعدل وعدم الإسراف.

١٤ ـ لا تتّخذوا من المشاعر الدينيّة حجّة لممارسة الظلم، ﴿صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾.

١٥ ـ الوفاء بالعهود وحفظ حرمة الشعائر الإلٰهيّة وقدسيّتها، يتطلّب التعاون والتكاتف، ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَـٰٓئِرَ اللَّهِ... وَتَعَاوَنُوا﴾.

١٦ ـ غضّ الطرف عن أخطاء الآخرين أحد سبل التعاون على البرّ والإحسان، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ... وَتَعَاوَنُوا﴾.

١٧ ـ على الحكومة والمجتمع الإسلاميين أن يدافعا عن المظلوم في المحافل الدولية، ومساندة أعمال الخير والبرّ، وإدانة الظالم والرذائل والشرور، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

١٨ ـ من أجل النهوض بجميع الفضائل، ينبغي تهيئة الأجواء والظروف لذلك، والتعاون من أجل تحقيق هذا الهدف، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ﴾.

١٩ ـ يجب أن يكون المعيار هو مساندة الحقّ لا القبيلة، أو المنطقة، أو الطائفة، أو العرق، أو اللغة، وأن نتعاون على البرّ، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ﴾.

٢٠ ـ على الذين ينتهكون حرمة الشعائر الإلٰهيّة وقدسيّتها، ويعينون على ارتكاب الشرور والآثام، أن ينتظروا عذاباً شديداً من الله، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

إشارات:

- أشارت الآية الأولى من هذه السورة إلى ما يحلّ من لحوم البهائم، إلّا ما سيأتي تحريمه. وجاءت هذه الآية لتذكر عشرة استثناءات يحرم فيها تناول تلك اللحوم.

- «المنخنقة»، هي التي تموت خنقاً، والخنق حبس النفس سواء فعل بها ذلك آدمي أو اتفق لها ذلك. «الموقوذة»، من «الوقذ» وهو شدّة الضرب، أي التي تتعرّض للضرب والتعذيب. وكانت عادة عرب الجاهلية ضرب بعض الحيوانات حتى الموت إكراماً لأصنامهم وتعظيماً لها، وهذه العادة كانت نوعاً من العبادة والتقديس للآلهة[1]. **«المتردّية»**، الحيوان الذي يسقط من مكان مرتفع. و**«النطيحة»**، الحيوان الذي يموت على أثر نطحه من قبل حيوان آخر.

- ما ورد من تحريم في هذه الآية، ورد كذلك في سور الأنعام، والنحل، والبقرة، بيد أنّ هذه الآية تتضمّن أمثلة للميتة (المنخنقة، والموقوذة، والنطيحة. . . إلخ).

- روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قوله: **«وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الأخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله عزّ وجلّ** ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾»[2].

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) الكافي، ج ١، ص ٢٨٩.

□ ذكرت الآية الكريمة النصب والأصنام، والفرق بينهما هو أنّ الأولى ليست لها أشكال وصور محدّدة، بخلاف الأصنام التي هي ذات شكل وصورة واضحة، وكانت النصب توضع في أطراف الكعبة، وتذبح القرابين عليها، ويُمسح بدمها على تلك النصب.

□ ذكرت الآية ١٠٩ من سورة البقرة مسألة رغبة الكفّار في حرف المسلمين عن دينهم، فأمر الله تعالى المسلمين أن يعفوا ويصفحوا حتى يُظهر أمره. من هنا، يتبيّن أنّ المسلمين كانوا بانتظار حكم قاطع يؤدّي إلى يأس الكفّار، فنزلت الآية الكريمة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

الغدير في القرآن الكريم

□ أمران مستقلّان تبحثهما هذه الآية الكريمة، الأول يتعلّق بالنهي عن أكل اللحوم المحرّمة، إلا من اضطرّ إليها، أمّا الأمر الثاني فهو متّصل بمسألة إكمال الدين ويأس الكفّار، وهذا الأمر جاء مستقلاً بصورة تامّة عن الأول، لأسباب عدّة هي:

أ ـ لا توجد أيّ علاقة تربط بين يأس الكفّار من الدين، وبين أكل الميتة أو عدمه.

ب ـ ما ورد من روايات بطرق الشيعة والسنّة في سبب نزول هذه الآية، وفي توضيح عبارتي ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ و﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فتلك الروايات لا تتعلّق بما قبلها ولا بما بعدها؛ لأنّ تلك العبارات تستعرض أحكام الميتة.

ج ـ وبحسب ما ورد في روايات الفريقين، فإنّ هذا الجزء من الآية ونعني به ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ قد نزل بعد تنصيب علي بن أبي طالب عليه السلام للإمامة في يوم غدير خم.

د ـ لو سلكنا طريق التحليل العقلي، بغضّ النظر عن الأدلة النقلية، فستوصّل إلى النتيجة نفسها؛ لأنّ الآية الكريمة تصف ذلك اليوم بأربع خصائص هي:

١ ـ اليوم الذي يئس فيه الكافرون،

٢ ـ يوم إكمال الدين،

٣ ـ يوم إتمام النعمة الإلٰهيّة على الناس،

٤ ـ واليوم الذي ارتضى فيه الله تعالى أن يجعل الدين الإسلامي ديناً خاتماً للإنسانية جمعاء.

إنّنا إذا ما تأمّلنا وقائع التاريخ الإسلامي، ووقفنا عند تفاصيله، سنجد أنّ الأيام المباركة التي يحتويها مثل يوم البعثة، والهجرة، وفتح مكة، والانتصارات في معارك المسلمين، على الرغم من فضلها وبركتها، إلّا أنّ أيّاً منها لا يوازي فضل وعظمة هذا اليوم، وذلك لافتقادها هذه الخصائص الأربع المهمّة مجتمعة، والمذكورة في الآية الكريمة لهذا اليوم، حتى حجّة الوداع، لا يرقى فضلها إلى فضل هذا اليوم لجهة أنّ الحجّ هو بعض الدين وليس كلّه.

- إذا تحدّثنا عن البعثة النبوية، فلا يمكن القول، بأيّ حال، إنّ الدين قد اكتمل في اليوم الأوّل من شروع دعوة الرسول الأكرم ﷺ.
- أمّا يوم هجرة الرسول الأعظم ﷺ فقد كان بأمر من الله سبحانه وتعالى، وهو اليوم الذي هجم فيه الكفّار على بيت النبي الكريم، وليس لأحد أن يدّعي أنّه يومٌ يئس فيه الكفّار.
- وإذا قلنا: انتصارات المسلمين في بدر والخندق وغيرها، فإنّ الكفّار الذين حاربوا المسلمين في جبهات القتال هم وحدهم الذين أصابهم اليأس، وليس كلّ الكفّار، فيما الآية الكريمة تصرّح بوضوح أنّ جميع الكفّار يئسوا من دين المسلمين: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.
- وأمّا حجّة الوداع حيث أخذ الناس مناسك الحجّ عن النبي الأكرم ﷺ، فهي الأخرى لا يمكن القول إنّها تجسّد تمام الدين؛ لأنّ حجّ الناس فقط هو الذي اكتمل بما علّمهم الرسول الكريم ﷺ من مناسك وشعائر، وليس كلّ الدين، بينما نجد الآية الكريمة تقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.
- إذن، لا يتبقّى لدينا سوى يوم غدير خم، إذ أمر الله تعالى نبيّه الكريم ﷺ أن

يعلن الإمام علياً في ذلك اليوم خليفة على المسلمين من بعده، وهو اليوم الوحيد الذي تنطبق عليه المواصفات التي مرّ ذكرها: ﴿أَكْمَلْتُ﴾، ﴿أَتْمَمْتَ﴾، «رضيت»، ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

- وبالنسبة ليأس الكفّار، فذلك عندما فشلت جميع المؤامرات التي حيكت ضدّ النبي الأكرم ﷺ بدءاً من توجيه التّهم والافتراءات مروراً بشنّ الحروب ووصولاً إلى محاولات قتله، وأصبح أمل الكفّار الوحيد هو موت النبي الكريم ﷺ. إنّ تنصيب علي بن أبي طالب عليه السلام للإمامة برهن للجميع أنّه لو كان للنبي الكريم ولد، ما كان ليصبح أفضل من الإمام علي، وما كان دينه ليمحى بموته، فقد اختار ﷺ للأمّة الإسلاميّة خليفة مثل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا هو مكمن السرّ بالنسبة إلى يأس الكفّار.
- وعن كمال الدين، لا بدّ من القول إنّه إذا شرّعت الأحكام والقوانين الكاملة، ولكن لم يكن للأمّة والمجتمع قائد معصوم وكامل يرعى تلك القوانين والأحكام، فستبقى منقوصة وغير مكتملة.
- ويأتي الحديث هنا عن إتمام النعمة لجهة أنّ القرآن الكريم يصرّح أنّ النعمة الأكبر تتمثّل في نعمة القيادة والهداية، فلو فرضنا أنّ النبي الأكرم ﷺ كان قد رحل عن الدنيا دون أن يستخلف أحداً في أمّته، لكان قد فعل ما لم يفعله الراعي في قطيعه. فأنّى للنعمة أن تتمّ وللدين أن يكتمل دون تنصيب خليفة إلهي؟
- وتفسير الرضا والقبول الإلٰهيّ هنا هو أنّه إذا قيّض للشريعة الكاملة حاكم عادل يسهر على تطبيقها فإنّ ذلك ممّا يستنزل الرضا الإلٰهيّ.

□ والحقيقة، أنّه يكفي حصول واحد من العناصر الأربعة المشار إليها (إكمال الدين، إتمام النعمة، رضا الله تعال، ويأس الكفّار) ليكون ذلك اليوم هو «يوم الله»، فكيف بيوم الغدير الذي جمع فيه العناصر المذكورة كلّها. وهو ما دعا أهل البيت عليهم السلام، كما ورد في الروايات، إلى أن يعتبروا يوم الغدير من أعظم الأعياد على الإطلاق.

□ تتوقّف آثار الأشياء وثوابها على تمامها واكتمال أجزائها تارةً، فمثلاً، إذا أفطر الصائم قبل الأذان ولو بلحظة واحدة، ، فصيامه هذا باطل بلا شك، الأمر الذي يفسّر ذكر كلمة «تمام» في الآية الكريمة ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، وتارة أخرى تكون لكلّ جزء قيمته وأثره المستقلّ، كتلاوة آيات من القرآن الكريم، فالكمال يتمّ، بلا شك، بتلاوة جميع الآيات، ولكن لا يعدم القارئ الثواب في أيّ مقدار من التلاوة.

أحياناً تكون بعض الأجزاء من الأهميّة بحيث تظلّ المجموعة ناقصة من دونها على الرغم من وجود باقي الأجزاء؛ كالطيّار وسائق السيّارة، إذ لا فائدة للطائرة والسيّارة من دونهما. كذلك هي القيادة وولاية الحقّ، فهي تربط مصير الإنسان بربّه، وبدونها تتحوّل المواهب والنعم إلى نقم، ولا تسوق الإنسان إلى ربّه.

الطعام في الإسلام: نظرة سريعة

□ الإسلام هو دين العدل والاعتدال، فلا إفراط في استهلاك اللحوم، كما هو الحال في الغرب، ولا تفريط يصل حدّ تحريم تناول اللحوم، كما يفعل البوذيّون، ولا على طريقة الصينيّين في أكل لحوم كلّ أنواع الحيوانات بصورة مطلقة وكيفما اتّفق. لقد وضع الإسلام لموضوع استهلاك الإنسان اللّحومَ شروطاً أوجب مراعاتها، وخطّ لها حدوداً حرّم تجاوزها، من جملة هذه الشروط نذكر:

أ ـ حرمة أكل الحيوانات اللواحم (آكلات اللحوم) ولعلّه لأنّ الأمراض المايكروبية، والطفيلية، وغيرها من الأمراض، تنتقل منها إلى الإنسان.

ب ـ حرمة أكل الحيوانات الضارية المفترسة، ولعلّها لأنّها تورث صفاتها في الإنسان من قساوة ووحشية.

ت ـ حرمة أكل الحيوانات الكريهة التي ينفر منها الطبع الإنسانيّ وتولّد في النفس التقزّز والاشمئزاز.

ث ـ حرمة أكل الحيوانات التي لا يذكر اسم الله تعالى عليها عند الذبح.

ج ـ حرمة أكل الميتة.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام في أكل الميتة: «**وَأَمَّا الْمَيْتَةُ فَإِنَّهُ لَمْ يَنَلْ أَحَدٌ مِنْهَا إِلَّا ضَعُفَ بَدَنُهُ وَ وَهَنَتْ قُوَّتُهُ وَانْقَطَعَ نَسْلُهُ وَلَا يَمُوتُ آكِلُ الْمَيْتَةِ إِلَّا فَجْأَة**»[1].

□ سؤال: ألا تتعارض حليّة ذبح الحيوان ليأكله الإنسان مع مفهوم الرحمة الإلٰهيّة؟

الجواب: إنّ عالم الخلق يقوم على مبدأ الصيرورة والتحوّل، فالتربة تتحوّل إلى نبات، والنبات إلى حيوان، والحيوان إلى إنسان، وبالنتيجة فإنّ عمليّة التحوّل تفرز رشداً وكمالاً في الخلق، وبعبارة مختصرة كمال الحيوان المأكول هو في ذبحه ليأكل الإنسان.

التعاليم:

١ ـ الإسلام دين جامع وشامل، ويدلّ على ذلك اهتمامه بجميع الغرائز والحاجات الطبيعية، والفطرية، والروحية، للإنسان، وله في كل هذه المجالات رؤية واضحة وصريحة، ﴿حُرِّمَتْ﴾.

٢ ـ في المنظومة التوحيدية، حتى ذبح الحيوانات يجب أن يتّخذ صبغة إلٰهيّة، وإلّا تحرم الذبيحة، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

٣ ـ إذا كان لا يزال في الموقوذة، أو المتردّية، أو النطيحة، رمق من الحياة، وذُبحت يحل أكلها، ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

٤ ـ يجب محاربة جميع مظاهر الشرك، وفي أيّ صورة كانت، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.

٥ ـ موت النبي الكريم صلى الله عليه وآله كان يشكل أهمّ بارقة أمل للكفّار، ولكن بتعيين الإمام علي عليه السلام قائداً للأمّة الإسلاميّة، تحوّل أملهم هذا إلى سراب، ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ...﴾.

٦ ـ حتى وإن قضيتم على أعداء الخارج، فلا زال هناك أعداء الداخل يتربّصون بكم؛ لذا عليكم أن تتصدّوا لهم وتخشوا الله تعالى وحده، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ﴾.

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص ٣٤٦.

٧ ـ أقصى ما يخشاه الكفّار هو الدين الكامل؛ إذ لا خشية من دين يكون القائد فيه خانع، والجهاد معطّل، والموارد مسلوبة، والأمّة متفرقة، ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

٨ ـ إذا لم ييأس الكفّار من دينكم، فلا بدّ من وجود خلل في دينكم على صعيد القيادة، ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ﴾.

٩ ـ لا يكتمل الدين دون قائد معصوم، ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

١٠ ـ القيادة المعصومة هي عمود الدين، وهي وحدها منشأ يأس الكفّار، وليس أيّ شيء آخر، ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

١١ ـ لا تكتمل النعم إلا بوجود نعمة القيادة الإلٰهيّة، ﴿ٱلْيَوْمَ... وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾.

١٢ ـ تنصيب علي بن أبي طالب عليه السلام إماماً للمسلمين هو إتمامٌ للنعمة، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ ،وترك الولاية جحود بالنعمة وكفران بها، وعواقب ذلك وخيمة[1] ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

١٣ ـ لا يرضى الله تعالى إلّا عن إسلام يكون قائده معصوماً، ﴿ٱلْيَوْمَ... وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ﴾.

١٤ ـ عند الاضطرار يُرخّص للإنسان باستعمال الحرام، ولكن لا يجوز له أن يوقع نفسه في الاضطرار مختاراً. تأمّل الفعل ﴿ٱضْطُرَّ﴾ جاء في صيغة المبني للمجهول.

١٥ ـ الشريعة الكاملة هي التي تراعي جميع جوانب الإنسان وظروفه، لا سيّما حالات الاضطرار والمآزق. إذن، أحكام الإسلام لا تعرف طريقاً مسدوداً، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾.

١٦ ـ لا ينبغي لظروف الاضطرار الاستثنائية، أن تكون باباً لارتكاب المعاصي

---

(١) سورة النحل: الآية ١١٢.

والحرّية المطلقة، بل يجب أن يقتصر ذلك على حدود رفع الاضطرار فقط، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾.

١٧ ـ لا يجوز للمضطر أن يسيء استغلال الرخصة الممنوحة له، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾. يقول الإمام الباقر عليه السلام في توضيح هذه الآية: «غير متعمّدٍ لإثم»[1].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤﴾

إشارات:

- «**الجَوارح**»، جمع «**جارحة**»، وهي مشتقّة من «**جَرْح**»، وتعني «الكسب» وكذلك الجرح الذي يصيب البدن. كما يطلق على الحيوان المدرّب على الصيد لأنّه يجرح صيده، أو الحيوان الذي يكسب لصاحبه. وأمّا إطلاق «الجوارح» على أعضاء الجسم؛ فذلك لأنّ الإنسان يستطيع بواسطتها العمل والكسب.
- إذا تأمّلنا كلمة «**مُكلّبين**» المشتقّة من مادة «**كَلَب**»، فهي تعني تدريب الكلاب للقيام بأعمال الصيد، وتحصر الآية الكريمة حليّة الصيد في الكلاب المدرّبة فقط، لذا، فهي لا تشمل عمليّة الصيد بحيوانات غير هذه الكلاب، كما لا يحلّ الصيد إذا أكل الكلب المرسل شيئاً منه.

التعاليم:

١ ـ الأنبياء ملزمون بالإجابة عن الأسئلة والمتطلبات الطبيعية للمجتمع، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

٢ ـ يجب أن نطرح استفساراتنا وأسئلتنا على الأنبياء وورثتهم، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾. كان المسلمون في بداية البعثة يشعرون بالمسؤولية إزاء تعلّم الأحكام والواجبات الدينية.

---

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٤٧.

٣ ـ السؤال المناسب يعتبر قيمة، ودليل على الشعور بالمسؤولية، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

٤ ـ كانت الأسئلة المطروحة مقدّمة لنزول آيات القرآن الكريم تدريجياً، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

٥ ـ علاقة الأمّة بالنبي الكريم ﷺ هي علاقة مباشرة، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

٦ ـ الخبائث ما بطن منها وما ظهر هي المعيار في تحريم كلّ شيء، ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

٧ ـ المبدأ العام هو حليّة كلّ الطيّبات، ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

٨ ـ الإسلام دين الفطرة، وكلّ ما تستسيغه النفس ولا يكون فاسداً، فهو حلال، ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، لاحظ التناغم والانسجام الموجود بين التشريع والتكوين.

٩ ـ لا يقتصر التعليم والتدريب على الإنسان فحسب، فالحيوانات أيضاً تمتلك القابلية على التعلّم والتدرّب، ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾.

١٠ ـ حتى الكلاب ترتقي منزلتها بالعلم، وتزداد مهارتها وفاعليّتها، ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾، لذا قليل من التدريب والتعليم بإمكان الإنسان أن يجعل الكلب يخدمه حتى آخر العمر، ﴿أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ في حين أن كلّ علوم الإنسان أصلها من عند الله تعالى ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ولكن ماذا قدّموا إزاء ذلك؟

١١ ـ إذا أرسلت كلب الصيد إلى الفريسة اذكر اسم الله، ﴿وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

١٢ ـ الالتزام بأحكام الله في أكل اللحوم مظهر من مظاهر التقوى، ﴿فَكُلُوا... وَٱتَّقُوا﴾.

١٣ ـ بعض الحيوانات البرية يحلّ أكل لحومها. (الصيد، دليل على أنّ الحيوان برّي) ﴿فَكُلُوا مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

١٤ ـ الاهتمام بالمعاد والحساب الإلٰهيّ السريع، أحد مناشئ التقوى، ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

- تشير الآية الكريمة إلى أنّ طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين، ولكن في ضوء ما طرحته الآية السابقة من شرط حلّية اللحوم وهو أن يذكر اسم الله عليها، نتبيّن بأنّ ما تقصده هذه الآية هو إباحة جميع أنواع أطعمة اليهود والنصارى عدا الذبائح، ويعضد هذا الرأي ما ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام من أنّ المقصود بالطعام هو القمح، والشعير، والحبوب، والغلات. وفي هذا السياق، أدلى بعض النحاة بدلوهم من أمثال ابن الأثير والخليل الفراهيدي قائلين: إنّ القمح في عُرف أهل الحجاز يعتبر طعاماً[1].
- لقد مهّدت هذه الآية الطريق أمام المسلمين لإقامة العلاقات مع أهل الكتاب والزواج منهم، وبالتالي كان من الطبيعي أن يفتح ذلك باب التزاور أمام المسلمين وصولاً إلى نساء اليهود أو النصارى، الأمر الذي قد يجعلهم يتأثّرون بعاداتهم وأساليبهم في التفكير، وربّما أدّى ذلك إلى ابتعادهم عن روح الإسلام؛ لذلك اختتمت الآية بتحذير موجّه إلى المسلمين لئلا يغفلوا عن إيمانهم، لأنّ في ذلك حبطاً لأعمالهم، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾.
- **«أخدان»**، جمع «خدن»، وتعني الصديق، ولكن عادةً ما تطلق الكلمة على الصداقة السريّة غير المشروعة مع الجنس الآخر.
- عرفنا في موضوع الطعام أنّ الآية الكريمة تبيح للطرفين المسلمين وأهل الكتاب أن يأكلا من طعام بعضهما، ﴿أُحِلَّ لَكُمُ... حِلٌّ لَّهُمْ﴾، بيد أنّها في موضوع الزواج تبيح للمسلمين أن يتزوّجوا من أهل الكتاب دون أن يزوّجوهم نساءهم، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (ولعلّ السبب هنا واضح وهو، أنّه عادةً ما

---

(١) تفسير الميزان؛ الكافي، ج ٦، ص ٣٤١.

تكون المرأة، بسبب رقّة عواطفها، متأثّرة بالرجل، من هنا فإنّ دخول الكتابيّة في الإسلام فيه رشد وصلاح، أمّا دخول المسلمة في دين أهل الكتاب، فليس سوى سقوط وحضيض؛ ولهذا جاء تحريم زواج المسلمة من أهل الكتاب).

- **«المُحصِن» و«المحصنة»**، تقال للعفيفة ولذات الحرمة، والحرّة، ولهذا قيل، المحصنات: المزوّجات، تصوّراً أنّ زوجها هو الذي أحصنها.

والمراد بـ ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ هنا، النساء العفيفات، وإلّا فمن المعلوم أنّ الزواج بالمرأة المتزوّجة حرام قطعاً.

- قيل: إنّ المقصود بالزواج من الكتابية هنا هو الزواج المؤقّت[1]، ويستدلّ على ذلك بالروايات، وكذا، ذكر كلمة ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ التي تتعلّق بشكل خاص بالمهر في الزواج المؤقّت.
- سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾، فقال: **«ترك العمل الّذي أقرّ به»**[2].
- وفي رواية أخرى أنّه سُئل عليه السلام عن أدنى ما يخرج به الرجل من الإسلام فقال: «أن يرى الرأي بخلاف الحق، فيقيم عليه». ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ لا تنسوا أهميّة عنصر الزمان عند بيان الأحكام والقوانين، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾.

٢ ـ القوانين التشريعية تتناغم مع القوانين التكوينية، فما يقبله الطبع السليم، تحلّه الشريعة أيضاً، ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

٣ ـ عفاف المرأة قيمة وفضيلة، أيّاً كان دينها، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٤ ـ العفاف مطلوب للرجال والنساء على السواء، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ... مُحْصِنِينَ﴾.

٥ ـ عند البحث عن الزوجة المناسبة فلننظر إلى إيمانها وعفافها، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

---

(١) في هذه المسألة ينبغي لكلّ شخص الرجوع إلى المرجع الدينيّ الذي يقلّده.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٩٥. (٣) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٦٠.

٦ ـ لا يجوز اتّباع أساليب الاستغفال والاحتيال حتى مع غير المسلمين، ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ فاحترام الحقوق المالية للزوجة واجب حتى وإن كانت غير مسلمة.

٧ ـ للمرأة حقّ الملكية، مسلمة كانت أم غير مسلمة، ﴿أُجُورَهُنَّ﴾.

٨ ـ يجب تسليم المهر للزوجة باليد، ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، لاحظ أنّ الآية الكريمة لم تقل «آتيتم أجورهنّ».

٩ ـ المال المدفوع للمرأة يجب أن يكون للزواج لا للزنا أو العلاقات غير المشروعة، ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾.

١٠ ـ إقامة العلاقات السريّة وغير المشروعة محرّمة حتى مع غير المسلمات، ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾.

١١ ـ يحلّ للمسلم تناول طعام أهل الكتاب والزواج المؤقّت بالعفيفات من نسائهم، ﴿أُحِلَّ. . . وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

١٢ ـ الاختلاط بأهل الكتاب، والعيش معهم، والسفر إلى بلدانهم، هي من جملة المزالق المحتملة التي قد تهدّد معتقدات الإنسان. من هنا، نجد أنّ الآية تجيز العلاقة معهم، ولكنّها في الوقت نفسه توصي بتوخّي الحذر لئلا تعمل العلاقات الاقتصاديّة والأسرية على حرف المسلم عن معتقداته، وتدفعه إلى التضحية بإيمانه من أجل زوجة ينكحها، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

□ تتحدّث الآية ٤٣ من سورة النساء عن موضوع الغسل والتيمّم، وهنا، تتطرّق

الآية، مضافاً إلى الموضوعين المذكورين، إلى مسألة الوضوء.

□ متى ما أُلحِقَ الفعل **«قام»** بحرف الجرّ **«إلى»** أخذَ معنى الإرادة والرغبة، ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بمعنى متى ما أردتم الصلاة.

□ تطلق كلمة **«جُنب»** على المرأة والرجل والمفرد والجمع سواءً بسواء. المراد بالحكم ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ هو الغسل، بدليل أنّه جاءت في الآية ٤٣ من سورة النساء كلمة **«تغتسلوا»** بدلاً من ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾.

□ التحديد بعبارة ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ هو من أجل بيان حدود الغسل، لا جهته. ولمّا كانت كلمة «اليد» في اللغة العربيّة تشمل في معانيها من الأصابع إلى الرسغ، ومن الأصابع إلى المرفق، وكذلك من الأصابع إلى الكتف، لذلك ذكرت الآية الكريمة حدود ما يجب غسله من اليدين في الوضوء وهو حتى المرفقين، لا أقلّ ولا أكثر.

□ تتجلّى في التيمّم روح العبادة لله؛ لأنّ الإنسان يمسح جبهته التي هي أشرف الأعضاء في بدنه بيديه المترَّبتين مع قصد القربة لله ليظهر خضوعه له سبحانه وتواضعه في حضرته.

□ **«صعيد»** من **«صعود»** وهو الذهاب إلى المكان العالي، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«الصعيد: الموضع المرتفع، والطيّب: الموضع الذي ينحدر عنه الماء...»**[1] إذن، فالأرض المنخفضة التي تتجمّع فيها المياه الآسنة لا تصلح للتيمّم، لافتقادها شرط التيمّم وهو التراب الطاهر.

□ ونقرأ في الحديث الشريف أنّه: **«لا صلاة إلّا بطهور»**[2] (الوضوء، أو الغسل، أو التيمّم).

□ وكذلك ورد في الحديث الشريف: **«تابع بين الوضوء كما قال الله عزّ وجلّ، ابدأ بالوجه ثمّ باليدين ثم امسح الرأس والرجلين، ولا تقدمنّ شيئاً بين يدي شيء تخالف ما أمرت به، فإن غسلت الذراع قبل الوجه فابدأ بالوجه وأعد على**

---

(١) معاني الأخبار، ص ٢٨٣.
(٢) تهذيب الأحكام، ج ١، ص ٤٩.

الذراع، فإن مسحت الرجل قبل الرأس فامسح على الرأس قبل الرجل، ثم أعد على الرجل، ابدأ بما بدأ الله»[١].

□ سُئل الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: من أين علمت وقلت: إنّ المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين فقال: «... **ثمّ فصّل بين الكلام فقال: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾، فعرفنا حين قال: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ أنّ المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثمّ وصل الرجلين بالرأس، كما وصل اليدين بالوجه». وذلك لأنّ معنى ذلك هو بعض الرأس، ولو قالت الآية: «وامسحوا رؤوسكم» لوجب المسح على جميع الرأس»**[٢].

□ وسُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فقال: **«هو الجماع ولكنّ الله ستير يحب الستر فلم يسمّ كما تسمّون»**[٣].

□ وعن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال في حكمة الوضوء:

- **«يكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبّار».**
- **«مطيعاً له في ما أمره».**
- **«نقيّاً من الأدناس والنّجاسة».**
- **«ذهاب الكسل وطرد النّعاس».**
- **«وتزكية الفؤاد للقيام»**[٤].

التعاليم:

١ ـ النظافة والطهارة شرطا الإيمان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ... فَٱغْسِلُواْ... فَٱطَّهَّرُواْ﴾.

٢ ـ الطهارة شرط الصلاة، ﴿فَٱغْسِلُواْ﴾.

٣ ـ كما إنّ مسّ القرآن يقتصر على المتطهّرين، ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[٥]، فإنّ الارتباط بالله تعالى أيضاً يحتاج إلى الطهارة، ﴿فَٱغْسِلُواْ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) الكافي، ج ٣، ص ٣٠.
(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٥٥.
(٤) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٦٧.
(٥) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

٤ ـ نجاسة الجسم تحول دون التقرّب إلى الله، ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ﴾.

٥ ـ من المهمّ جداً أن يراعي الخطاب أصول الحياء والعفاف والأدب، لا سيّما في المسائل الزوجية، ﴿لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، طبعاً، في القضايا القانونية لا بدّ من التحدّث بصراحة ووضوح لكي لا يغمط حقّ، كما هو الحال مع الآية الكريمة ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾[1] التي تتحدّث عن مهر الزوجة.

٦ ـ من الممكن التخفيف في ظروف الصلاة ومقدّماتها، ولكن دون تعطيل الصلاة نفسها، ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾.

٧ ـ يجب السعي للعثور على الماء لأغراض الوضوء والغسل، وإذا لم يوجد، حينذاك يمكن اللّجوء إلى التيمّم. عبارة ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ﴾ إشارة إلى أنّ البحث لم يسفر عن شيء.

٨ ـ لا يمكن لنا الوقوف بين يدي الله بالماء والتراب النجس، ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

٩ ـ يجب أن يكون الطعام طيّباً كما أشارت إلى ذلك الآيتان السابقتان، وكذا الحال مع التيمّم إذ يجب التيمّم بتراب طاهر طيّب، ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

١٠ ـ لا حرج أو مشقّة في أحكام الدين، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ... مِّنْ حَرَجٍ﴾.

١١ ـ الهدف من الوضوء، والغسل، والتيمّم، هو تحقيق الطهارة الروحية والاستعداد للوقوف بين يدي الله تعالى، ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾.

١٢ ـ التكاليف الإلٰهيّة نعمة للإنسان، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾.

١٣ ـ القيام بالتكاليف من أمثلة شكر الله تعالى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

إشارات:

□ تذكير الآية الكريمة بموضوع ذكر النعم واحترام العهود والمواثيق جاء في إطار تحذير عام وشامل، بيد أنّه من الممكن أن يكون الهدف، ولأسباب معيّنة، هو

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٣.

موضوع قيادة المجتمع الإسلامي وطاعة ولي الأمر. ومن هذه الأسباب نذكر:

١ ـ القيادة الإلٰهيّة هي عهد وميثاق إلهي، تدلّل على ذلك قصة إبراهيم وطلبه الإمامة لذرّيّته، ومن ثمّ ردّ الله تعالى من أنّه لا يمنح عهده للظالمين، ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

٢ ـ بعد تنصيب علي بن أبي طالب عليه السلام للإمامة في يوم غدير خم، نزلت الآية الثالثة من هذه السورة على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، التي تذكر بتمام النعمة.

٣ ـ لقد بايع الناس عليّاً عليه السلام في غدير خم بقولهم «بخ بخ»، وقالوا له: سمعاً وطاعة. وتجدّد هذه الآية دعوة الناس إلى الوفاء ببيعتهم للقائد وثباتهم على عهدهم معه.

▫ يشمل عهد السمع والطاعة، ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ جميع العهود والمواثيق التي تعهّدت البشرية بالوفاء بها للأنبياء سواء أكانت طبيعية، أم فطرية، أم لفظية، أم عملية، من قبيل بيعتهم أو شهادتهم بالتوحيد والنبوّة.

التعاليم:

١ ـ تأكيد الآية الكريمة على بعض المفاهيم مثل النعمة، والميثاق، والطاعة، والعلم بذات الصدور لا سيّما بعد نزول الآية الخاصة بغدير خم، يمكن أن يكون إشارة إلى التنكر لمضمون الآية الثالثة والانقلاب على نهج الغدير، (كما قال الإمام الباقر عليه السلام[2] في تفسير قوله عز وجل ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾.

٢ ـ التذكير بالنعم، والعهود، والمواثيق، والأقوال، وعلم الله تعالى، كلّها مناشئ للتقوى، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾.

٣ ـ حذار أن تسوّل لنا أنفسنا نقض العهود، فالله عليم محيط، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.
(٢) تفسير نور الثقلين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

□ هذه الآية شبيهة بالدعوة التي أطلقتها الآية ١٣٥ من سورة النساء مع اختلاف طفيف، ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ﴾ ويتمثّل الاختلاف في أنّ هذه الآية توصي المسلمين أن لا يصغوا إلى أضغانهم وأحقادهم فيحيدوا عن الحقّ، فيما تحذّر الآية المشار إليها في سورة النساء من إمكان أن يصبح الغلوّ في الحبّ سبباً في دفع الإنسان إلى خارج جادة العدل والصواب. إذن، فعوامل الانحراف عن طريق العدل إمّا أن تكون الأحقاد والكراهية، أو المحبّة المفرطة والمحاباة، إذ تشير الآيتان إلى واحد منهما.

□ لا جرم أنّ كبح الأحقاد الداخليّة التي تعتمل في النفس تجاه الآخرين أمر صعب، لذلك، نجد الآية الكريمة، إلى جانب الحكم بضرورة العدل، تطرح محفّزات لتشجيع الإنسان على ترك تلك الأحقاد وراء ظهره، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ... ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾.

التعاليم:

١ ـ إذا أصبحت أحقاد الإنسان هي الدوافع التي تحرّكه، سيغيب الإخلاص من حياته، أمّا إذا كان القيام قربةً إلى الله تعالى، فسيختفي أثر الأحقاد في تطبيق العدالة، ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾.

٢ ـ لا شك في أنّ العدالة المتواصلة المتأصّلة في أعماق النفس ذات قيمة متكاملة، وإن كانت العدالة الوقتية أيضاً مطلوبة، ﴿كُونُواْ... شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾.

٣ ـ المؤمن تربطه علاقة بالله تعالى ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ وفي الوقت نفسه، يشهد على الناس بالعدل، ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾.

٤ ـ إذا أيقنّا أنّ الله تعالى عليم بأعمالنا، فلا ريب أنّنا سنسلك طريق العدل، ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ... إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

٥ ـ لا يمكن للإنسان المعقّد والحاقد أن يعدل، فطريق العدالة يحتّم عليه أن يكبح أحقاده وضغائنه، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾.

٦ ـ يجب أن تبقى العواطف في دائرة العدل، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ... ٱعْدِلُوا۟﴾.

٧ ـ إضمار الحقد أسباب الانحراف عن خطّ العدل، ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ۚ﴾.

٨ ـ في مجال رسم السياسات ووضع الخطط والعلاقات الداخليّة والخارجيّة، لا بدّ لنا من أن نسلك طريق العدل، حتى مع الأعداء، ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾.

٩ ـ الإنسان العادل يكون أقرب للتقوى، ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠﴾

إشارات:

- الأجر في القرآن الكريم يشمل أنواعاً عدّة منها: ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[١]، ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[٢]، ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[٣]، لذلك، فإنّ الثواب الإلٰهيّ ذو مراتب ودرجات.
- إنّ وعد الله حقّ، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ...﴾، وهو لا يخلف وعده، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[٤].
- «**الجحيم**» هي شدة تأجّج النار، وهي مشتقّة من الجحمة، ورد في قصّة إبراهيم أنّه ألقي في جحيم (نار متأججة). «**أصحاب الجحيم**» هم أهل النار، والخالدون في نار جهنّم.

---

(١) سورة هود: الآية ١١.
(٢) سورة يس: الآية ١١.
(٣) سورة فصّلت: الآية ٨.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٩.

التعاليم:

١ ـ الإيمان والعمل متلازمان، ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢ ـ الإيمان والعمل الصالح يحتّان الذنوب حتّاً، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، ويستنزلان الثواب والأجر، ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

٣ ـ التبصّر في عاقبة الأمور له أثر كبير في قرارات الإنسان، ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ... أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٤ ـ عذاب الكافرين والمكذبين هو الخلود في جهنّم، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾... ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٥ ـ الحثّ والتشجيع باعث على العمل، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ كما إنّ التهديد والوعيد هو أسلوب للردع في القرآن الكريم، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ لا يُعرف بالضبط طبيعة الحادثة التاريخية التي تتحدّث عنها الآية الكريمة؛ ولكن يمكن أن نعتبر أنّها تشمل جميع الحالات التي انتصر فيها المسلمون على المؤامرات وهجمات الأعداء، بعد التوكل على الله سبحانه وتعالى.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للمؤمنين أن يذكروا نعم الله عليهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ .فهذا يعدّ حمداً لله وشكراً على آلائه، كما أنّه يزيح عن طريق الإنسان الغرور والغفلة، وفوق هذا وذاك، يزيد من حبّ الإنسان لخالقه.

٢ ـ دفع أذى الأعداء هو من نعم الله علينا، ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾.

٣ ـ بالتقوى والتوكل على الله سبحانه والإيمان به، نستجلب ألطاف الله علينا

وندفع عنّا خطر الأعداء، ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، كما إنّه بسبب معاصينا يسلّط الله أعداءنا علينا، في حين أنّ التوجّه إليه سبحانه يكفّ عنّا أذاهم.

٤ ـ التوكل على الله من شروط الإيمان والتقوى، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

٥ ـ التقوى والتوكل من نتائج ذكر الله والإيمان، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ... وَاتَّقُوا اللَّهَ... فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

- «**التعزير**» في الآية من «**عَزّر**» وهو النصرة مع التعظيم.
- ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، السواء في الأصل هو الوسط، أي الطريق الواضح، ومن يحيد عنه يسقط في الهاوية.
- نقباء بني إسرائيل هم وزراء النبي موسى عليه السلام وزعماء اثنتي عشرة طائفة من الطوائف الإسرائيلية. وقد نُقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «**إنّ عدّة الخلفاء بعدي عدّة نقباء موسى**»[1]. لقد عمل أعداء أهل البيت عليهم السلام ما في وسعهم لكي يفسّروا هذا الحديث على الخلفاء الراشدين، وخلفاء بني أميّة، وخلفاء بني العباس، على الرغم من أنّ هذا العدد لا ينطبق على أيّ منهم. وتأتي تلك المحاولات العقيمة في وقت تعجّ المصادر الحديثية للفريقين بعشرات

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ٣٩٨.

الأحاديث الشريفة التي يصرّح الرسول الأكرم ﷺ بأسماء هؤلاء الخلفاء الاثني عشر، بدءاً بالإمام علي عليه السلام وانتهاءً بالإمام المهدي عليه السلام.

التعاليم:

١ ـ الأديان السماوية قبل الإسلام أيضاً كانت تحتوي على الصلاة، والزكاة، ونصرة الأنبياء، والإنفاق، ﴿مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٢ ـ النصرة الإلٰهيّة رهن شروط عدّة هي: إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، الإيمان، نصرة الأنبياء، الإنفاق، ﴿إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣ ـ الإيمان بالأنبياء غير كافٍ ما لم يستكمل بنصرتهم، ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾.

٤ ـ إنجاز جميع الواجبات جيد، ولكن في إنجاز كلّ منها فائدة أيضاً، ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ... وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾.

٥ ـ مساعدة خلق الله مساعدة لله. لاحظ أنّ الآية لم تقل «**أقرضتم النّاس**» بل ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾.

٦ ـ يجب أن يكون الإنفاق على نحوٍ صالح، ومن مالٍ طيّب، ونيّة طيّبة، وبسرعة وبلا منّة، ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾.

٧ ـ لا بدّ للقائد من أن يعيّن بأمر من الله تعالى، وكذلك من يختارهم الأنبياء، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ﴾.

٨ ـ تكتسب الصلاة، والزكاة، والإنفاق، قيمتها إذا تكلّلت بالتسليم ونصرة القادة الإلٰهيّين، ﴿أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾.

٩ ـ النجاح يكون أعظم إذا ولد القائد من رحم الشعب، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾.

١٠ ـ للجنّة ثمن، فهي لا تمنح بالأعذار والحجج. ففي مقابل الصلاة والزكاة، والإيمان، والمساعدة، والإنفاق، توهب الجنّة، ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ... وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾.

١١ ـ الجنّة ليست مكاناً للفاسدين، عليهم أوّلاً أن يتطهّروا ومن ثمّ دخول الجنّة، ﴿لَأُكَفِّرَنَّ... وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾.

١٢ ـ الإيمان والعمل الصالح هما السبيل المؤدّي إلى المغفرة الإلٰهيّة، ﴿ءَامَنتُم... وَأَقْرَضْتُمُ... لَأُكَفِّرَنَّ﴾.

١٣ ـ لا عذر لأحد بعد أخذ الميثاق، وإلقاء الحجّة، وتحديد شروط الحظوة بـالألـطـاف الإلٰـهـيّـة، ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

١٤ ـ من يتمرّد على أحكام الله تعالى، يخرج عن طريق الاعتدال والتوازن، ﴿فَمَن كَفَرَ... فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾. نعم، إنّ إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالأنبياء، والوفاء بالعهود، هي الطريق الوسطى الذي ضلّ عنه العاصون.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

- بدأت هذه السورة بنداء الوفاء بالمواثيق والعهود، ثمّ ذكرت في الآية السابقة بميثاق الله مع بني إسرائيل، حتى انتهت هنا إلى استعراض آثار نقض العهود والمواثيق.
- أحياناً، يتعرّض الإنسان إلى نسيانٍ غير مقصود، وهذا النوع لا شيء عليه، ولكن في أحيان أخرى، يحمل نفسه على التناسي من منطلق الاستخفاف وعدم الاهتمام، ويكون هذا النوع معيباً وموضع انتقاد، مثال ذلك ما ورد في هذه الآية الكريمة، ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا﴾.

التعاليم:

١ ـ لنأخذ الدروس والعبر من نقض بني إسرائيل المواثيق والعهود، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم... لَعَنَّٰهُمْ﴾.

٢ ـ نقض العهود مع الله تعالى، مدعاة للحرمان من الألطاف الإلٰهيّة، وتمهيد

لقسوة القلب، ﴿لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، تذكر الآية ٧٧ من سورة التوبة أنّ نقض المواثيق يفتح الباب كذلك أمام نشوء النفاق، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

٣ ـ طائفة من بني إسرائيل كانت مجبولة على الخيانة، ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾.

٤ ـ كان النبي الأكرم ﷺ يراقب دوماً أعمال اليهود وتصرّفاتهم، ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ﴾.

٥ ـ لا ننس العدل والإنصاف حتى في تصدّينا للأعداء. لاحظ عبارة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهي تعني أن ليس كلّ بني إسرائيل متآمرين.

٦ ـ العفو والصفح من أمثلة الإحسان، ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ... ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٧ ـ العفو والصفح عن الكافر أيضاً يعدّ من أمثلة الإحسان، ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٨ ـ المحسن حبيب الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

- **«النصارى»**، جمع **«نصراني»** ربّما كانت التسمية ناشئة عن الشعار الذي كان يردّده أتباع النبي عيسى عليه السلام وهو ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[1]، فسمّي المسيحيون النصارى.
- ﴿ٱلْبَغْضَآءَ﴾، نفور النفس عن الشيء وهو أمر وجداني بينما **«العداوة»**، تحمل طابعاً عملياً ظاهرياً.

---

(١) سورة الصف: الآية ١٤.

□ المقصود بنسيان بعض ما ذكروا به هو أنّ طائفة من المسيحيين خرجت عن حدود التوحيد ودخلت دائرة التثليث، وبدلاً من الإيمان بدعوة النبي الكريم ﷺ، كانت تكتم صفاته وعلائمه.

□ «أغرينا» مأخوذ من الغراء وهو ما يلصق الشيء بالشيء كالصمغ وشبهه، والمعنى هو أنّنا ألصقنا بهم العداوة من جهة التسليط عليهم.

التعاليم:

١ ـ ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ... فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ﴾.

٢ ـ من زعم شيئاً عليه تحمّل مسؤوليته، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾.

٣ ـ عاقبة نسيان النُّذُر الإلٰهيّة وبشارات العهدين هي الفُرقة والعداوة، ﴿فَنَسُواْ... فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ﴾.

٤ ـ لنأخذ العبرة من المصير السيئ للآخرين وكفرهم جراء نقضهم العهودَ، (لقد أخذنا من النصارى ميثاقهم، فلمّا نسوا سلّطنا عليهم العذاب)، ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ... فَأَغْرَيْنَا﴾.

٥ ـ الفُرقة والعداوة عذاب إلهي، ﴿فَنَسُواْ... فَأَغْرَيْنَا﴾.

٦ ـ الله تعالى رقيب على كلّ الأعمال، وسيجزي الإنسان على كل عمل، ﴿يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ إفشاء ما تخفي السرائر هو من علائم علم الغيب وواحد من طرق علم النبي، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ... تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1].

(١) تفسير الميزان.

التعاليم:

١ ـ الإسلام دين عالمي، ويدعو جميع الأديان إلى الحقّ، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾.

٢ ـ دعوة الناس إلى الرشاد ينبغي أن تشمل أهل الكتاب أيضاً، فلا ينبغي اليأس من هدايتهم، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

٣ ـ الكون بدون القرآن ظلمات، ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ﴾.

٤ ـ لقد حُجبت بعض حقائق التوراة والإنجيل، ﴿كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ﴾.

٥ ـ من أساليب الإرشاد والتوجيه، شرح الموضوع على قدر الحاجة، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾.

٦ ـ عظمة القرآن فوق الوصف، فكلمة «النور» و«الكتاب» جاءتا في صيغة التنكير بما يدلّ على الجلال والعظمة، ﴿نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾

إشارات:

- للهداية مدارج ومراحل: المرحلة الأولى منها هي الهداية العامة لجميع البشر، سواء اهتدوا أم لم يهتدوا، والهداية الأخرى هي هداية خاصة لأولئك الذين دخلوا في الهداية العامة.
- تبيّن الآية الكريمة النوع الثاني من الهداية.
- السلام هو أحد أسماء الله الحسنى ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ...﴾[1]، «ومن أسماء الجنّة ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾[2]. إذن، سبل السلام تعني السبيل المؤدّي إلى الله

(١) سورة الحشر: الآية ٢٣.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٧.

وإلى الجنّة وهي نفسها الصراط المستقيم. و﴿...سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، تشمل سبل سلامة الإنسان، والمجتمع، والأسرة، والجيل، والفكر، والروح، والشرف، وغيرها من الأمور.

□ التجسيد الحيّ لاتباع رضوان الله تعالى في الآية الكريمة ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾، هم السائرون على نهج غدير خم، ذلك أنّ الآية الكريمة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ نزلت بعد تنصيب الإمام علي عليه السلام خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين[1].

التعاليم:

١ ـ الهداية تليق بمن يسعى إلى كسب رضا الله تعالى، لا بمن يسعى وراء المال، والشهرة، وأهواء النفس، والانتقام، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾.

٢ ـ الإنسان هو من يمهّد لهداية نفسه، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾.

٣ ـ الهداية إلى طريق السلامة والسعادة رهن بكسب رضا الله تعالى، ومن سعى إلى إرضاء غيره فهو منحرف، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

٤ ـ طريق الحقّ واحد، وطرق الباطل، والشرك، والكفر، والنفاق، والفُرقة، كثيرة ومتعدّدة، تأمّل كلمة ﴿ٱلنُّورَ﴾ جاءت في صيغة المفرد؛ بينما تجد ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ في صيغة الجمع، نعم، المحاسن، والخيرات، والطهارات، ومضات من نور التوحيد، وكلّها وحدة واحدة ومنسجمة، بينما الظلمة كانت وما زالت باعثاً على تفرّق الصفوف وتشتّتها.

٥ ـ لا شك في أنّ الهدف هو واحد لكنّ السبل المؤدّية إليه متشعبة، ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

---

(١) تفسير أطيب البيان.

٦ ـ في ظلّ مدرسة الوحي تتحقّق السلامة والسعادة للفرد والمجتمع وللروح والجسم، ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

٧ ـ سينعم البشر بالتعايش وبحياة آمنة ومستقرّة في ظلّ القرآن الكريم، ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

٨ ـ تنتهي ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ إلى ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، وكل من يؤدّي تكاليفه المختلفة وفي شتى الظروف سعياً وراء كسب رضا الله، كلّهم سيصلون إلى الصراط المستقيم، ﴿يَهْدِى... سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ... وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٩ ـ لا يكفي التمسّك بالنبي والكتاب فقط للوصول إلى الصراط، بل يلزم أن يقترن ذلك باللطف والإرادة الإلٰهيّة، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾.

١٠ ـ لا جبر ولا تفويض، بل منزلة بين المنزلتين، فالإنسان مخيّر؛ ﴿ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾، ولكنّ السير نحو الهدف بمعزل عن إرادة الله أمر مستحيل، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾.

١١ ـ القرآن هو الدواء الناجع لكلّ الظلمات. فهو يحيل ظلمات الجهل، والشرك، والفُرقة، والهمجية، والشبهات، والشهوات، والخرافات، والجرائم، والاضطرابات، إلى نور العلم، والتوحيد، والوحدة، والتحضّر، واليقين، والصفاء، والأمن، والاستقرار، ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

☐ لقد طرح المسيحيون عدداً من الأفكار غير الصحيحة حول الله تعالى، يشير

إليها القرآن الكريم كما يأتي:

١ ـ الإيمان بوجود ثلاثة أرباب، ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ...﴾[1].

٢ ـ الإيمان بأنّ الله تعالى هو أحد الأرباب الثلاثة (الإله الآب)، ﴿قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ...﴾[2].

٣ ـ حصر الألوهيّة في المسيح، وهو ما تفنّده هذه الآية.

- ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إشارة إلى خلق عيسى ﷺ بدون أب، وخلق آدم بدون أب ولا أم.

- إذا كان المسيح بن مريم هو الله كما يزعمون، فكيف يستقيم زعمهم هذا مع القول إنّه صُلب، فأصبح الصليب رمزاً لظلامته؟ أفهل يُعقل أن يُقتل الله!

التعاليم:

١ ـ يعارض الإسلام كل مظاهر الكفر، أو الشرك، أو الخرافات، في أيّ دين كان. والغلوّ ضربٌ من الكفر، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

٢ ـ النبي الكريم ﷺ مأمور بالحوار المنطقي مع المعارضين، ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ...﴾.

٣ ـ إذا كان المسيح هو الله، فأيّ إله هذا الذي يستقرّ في رحم امرأة تسعة أشهر، ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

٤ ـ احتمالات العدم والفناء لا تستقيم مع الألوهيّة، ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ﴾.

٥ ـ عيسى وأمّه والناس جميعاً خرجوا من رحم امرأة وكانوا ضعفاء، وهم سواء أمام قدرة الله تعالى، ﴿ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

٦ ـ نسبة الألوهيّة لغير الله، المسيح مثلاً، دليل على افتقاد المسيحيين المعرفة

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧١. (٢) سورة المائدة: الآية ٧٣.

الحقيقيّة عن الله تعالى، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ... وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

٧ ـ القدرة الإلٰهيّة غير محصورة في نظام خاص، فبإمكانه سبحانه وتعالى أن يخلق الإنسان بدون أب، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

- روي أنّ النبي الكريم ﷺ دعا جمعاً من اليهود بدعوة الإسلام، وحذّرهم عذاب الله، فقال له اليهود: كيف تخوّفنا من عذاب الله ونحن أبناؤه وأحباؤه؟![1].
- لم يكن اليهود ولا النصارى يعتبرون أنفسهم أبناءَ حقيقيين لله بل كان ذلك على سبيل البنوة الرمزية التشريفية.
- من جملة الجرائم التي تلطّخت بها أيدي بني إسرائيل: قتل الأنبياء، وكتمان البشارات بظهور نبي الإسلام ﷺ، ونقض العهود، وتحريف الكتب السماوية، وعبادة العجل، والتعلّل والتحجّج، وعبادة شهوات البطن وغرائزها. أمّا الأمثلة على العذاب الإلٰهيّ الذي نزل بهم فهي: رفع الطور فوقهم، وأربعون سنة من التيه، والمسخ والذلّة، ﴿يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا تجوز العنصرية، والانتهازية، واحتكار الحقّ من قبل الإنسان أو الجماعة أو الحزب، ﴿بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ﴾.

---

(١) وكذلك وردت عقيدة بنوة الله وصداقة الله في إنجيل يوحنا، الباب ٨، العبارة ٤١، (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل).

٢ ـ لا ينبغي لأيّ فرد، أو قوم، أو طائفة، أو أمّة، أن تطمئنّ لمغفرة الله، كما لا ينبغي لها أن تيأس من رحمته تعالى، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

- الفترة الزمنية التي تفصل بين النبي عيسى عليه السلام وبين دعوة النبي الكريم صلى الله عليه وآله هي بحدود ستمائة سنة، بيد أنّه في السنوات التي انقطع فيها حبل النبوّة، لم تخل الأرض من حجج لله كانوا أوصياء للأنبياء، بحسب قول الإمام علي عليه السلام: «**اللهمّ بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة، إمّا ظاهراً مشهوراً، وإمّا خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيّناته... يحفظ الله بهم حججه وبيّناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم**»[1]، إذن، الفترة لا تعني ترك الناس وإيكالهم إلى أنفسهم.
- الفترات، قصرت أم طالت، لا تخلو من حكمة، فهي تعدّ من البرامج المفيدة في النظام التربوي الإلٰهيّ، ومن أمثلتها في التاريخ نذكر: اعتكاف موسى عليه السلام بعيداً عن قومه، واعتكاف الأنبياء الآخرين، وانقطاع الوحي عن النبي الكريم، والغيبتان الصغرى والكبرى للإمام المهدي عليه السلام.

التعاليم:

١ ـ يوجّه الإسلام دعوة إلى أهل الكتاب للإيمان، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ﴾.

٢ ـ إماطة اللثام عن الحقائق المخفية، أو المحرّفة، أو المنسية، هي إحدى رسالات الأنبياء، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾.

---

(١) نهج البلاغة، قصار الكلمات، ١٤٧.

٣ ـ الأنبياء هم ترجمان الأحكام الإلهيّة، ﴿رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾.

٤ ـ البعثة تغلق الباب أمام أيّ أعذار أو حجج للإنسان، ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ﴾.

٥ ـ الترغيب والترهيب هما من الأساليب الدعوية للأنبياء، ﴿جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

٦ ـ الإنسان حرّ في اختياره، ومسؤولية الأنبياء لا تتعدّى تقديم البشارات والنُّذر، فلا إجبار ولا إكراه، ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

٧ ـ لا تسل كيف يمكن لنبيّ أميّ أن يكشف عن الحقائق المكتومة والتحريفات في الدين، فالله قادر على كلّ شيء، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

- ذكر النعم يقوّي حبل المحبة مع الله، وشكر نعمه والعبوديّة له والتسليم لأحكامه، ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

- «الملك» في اللغة تعني «الحاكم والسلطان»، كما تعني «المالك رقبةَ شيء معيّن»، وقد نقل عن النبي الأكرم ﷺ قوله: **«كان الرجل من بني إسرائيل، إذا كانت له الزوجة والخادم والدابة كتب ملكا»**[1]. وحتى لو سلمنا بأن معنى الملوك هنا هو السلاطين، فهل يعقل أن يكون جميع بني إسرائيل سلاطين وملوكا؟ لهذا السبب نرى أن المقصود بالملك في الآية الكريمة بـ ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي تملكون أمركم لا يغلبكم عليه غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين.

- تشير الآية الكريمة إلى أنّ الله تعالى وهب بني إسرائيل في ذلك الزمان نعماً لم ينعم بها على أحد من أفراد البشر حتى ذلك الحين فتقول: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ

(١) تفسير الميزان.

يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، وقد تعدّدت هذه النعم، فمنها عبورهم نهرَ النيل، ونزول المنّ والسلوى عليهم، وانبجاس اثنتي عشرة عين ماء.

التعاليم:

١ ـ لا بأس من توظيف عامل المشاعر والعواطف لدعوة الناس، ﴿يَا قَوْمِ﴾.

٢ ـ قبل أن نقرأ على الناس الأحكام الإلٰهيّة، علينا شحنهم وتهيئتهم عبر التذكير بألطاف الله تعالى، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾... نجد في هذه الآية استعراضاً للنعم الإلٰهيّة، ومن ثمّ صدور الأمر الإلٰهيّ في الآية التالية.

٣ ـ النبوّة، والحكومة، والقدرة، هي من نعم الله تعالى، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾.

٤ ـ من مسؤوليات الأنبياء تذكير الناس بالنعم الإلٰهيّة، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾.

٥ ـ وُجد أنبياء في بني إسرائيل قبل النبي موسى عليه السلام، إذ يصفهم أنّهم من النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾.

٦ ـ لنتّعظ من دروس التاريخ، فها هم قوم موسى بعد أن نعموا بالألطاف الإلٰهيّة الخاصّة، وأخذوا بزمام الحكم، سقطوا في مستنقع الذلّة والمسكنة، فتغيّرت نعمتهم: ﴿لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ إلى غضب: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾[1].

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١)﴾

إشارات:

□ «الأرض المقدسة» هي بلاد الشام (وتشمل سورية، والأردن، وفلسطين، ولبنان)، أو هي بيت المقدس فقط.

□ ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ إمّا تعني لا تديروا ظهوركم للأحكام الإلٰهيّة وترجعوا عن أمره وتتركوا طاعته، وإما عدم الرجوع عن دخول الأرض التي أمروا بدخولها.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦١.

التعاليم:

١ ـ الوشائج التي تربط بين القائد والشعب يجب أن تكون عميقة وعاطفية، ﴿يَٰقَوْمِ﴾.

٢ ـ لا بدّ من تحرير الأراضي المقدّسة من براثن الأشرار، ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾.

٣ ـ بقاع الأرض ليست على درجة واحدة من الأهميّة، فبعضها ينطوي على قداسة خاصة، ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾.

٤ ـ الفرار من جبهات القتال حرام، ﴿ٱدْخُلُوا... وَلَا تَرْتَدُّوا﴾.

٥ ـ نزول النعم الإلٰهيّة تطوّق العبد بالمسؤوليات، ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا... ٱدْخُلُوا﴾.

٦ ـ من الأمثلة على خسارة المرء، حرمانه دخول البقاع المقدّسة، ﴿ٱدْخُلُوا... وَلَا تَرْتَدُّوا... فَتَنقَلِبُوا﴾.

﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

▫ «جبّار» من «**الجبر**» وأصله: إصلاح الشيء بضرب من القهر، ومنها جبر العظم الكسير. لكنّ الكلمة قد تستعمل في الإصلاح المجرّد، أو في الإكراه والقهر المجرّد. وأمّا في وصفه تعالى فتستعمل في المعنيين، لأنه هو الذي يجبر الناس بفائض نعمه، وقيل: لأنه يجبر الناس أي: يقهرهم على ما يريده[1].

▫ «الجبّارون» هم قوم العمالقة من الساميّين عاشوا في شمال شبه الجزيرة العربيّة

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

بالقرب من صحراء سيناء، هاجموا مصر واستولوا عليها لفترات طويلة، ودام حكمهم هناك ما يقرب من خمسة قرون[١].

التعاليم:

١ ـ وجود الأشرار في مكان، لا يعني انسحاب الصالحين منه، ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا... فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾.

٢ ـ يجب أن نقوم بطرد العدوّ، لا أن ننتظر حتى يخرج من تلقاء نفسه، ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾.

٣ ـ طلب العافية والكسل ممنوع، لا بد من الجسارة والإقدام، وطلب المعونة من أجل طرد العدوّ. والقرآن الكريم يحمل على بني إسرائيل لقولهم: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾.

٤ ـ من غير المنطقي توقّع النصر بدون كفاح، ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾.

٥ ـ أقبح من التمرّد على الأوامر، الوقاحة واللجاجة، ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ﴾؛ نظراً لما في الأداة «لن» من إيحاء بالوقاحة والتبجّح.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

- تذكر التفاسير أنّ الرجلين كانا من نقباء بني إسرائيل وهما «يوشع بن نون» و«كالب بن يوفنا»، وقد وردت أسماؤهما في التوراة في سفر التثنية[٢]. يقول الإمام الباقر عليه السلام: **«وهما ابنا عمّه [موسى]»**[٣].
- يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان: «أينما جاءت كلمة «النعمة» مجرّدة في القرآن الكريم كان المقصود بها الولاية والنبوة».

---

(١) موسوعة فريد وجدي.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٣) تفسير نور الثقلين.

التعاليم:

١ ـ خشية الله باب يؤدّي إلى ألطافه ونعمه، ﴿يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ...﴾.

٢ ـ من يخشى الله سوف يشعر بالمسؤولية، ويؤمن بوجوب طاعة رسول الله، ولن يطأطئ رأسه لأيّ قوّة، ﴿يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ... ٱدْخُلُواْ﴾.

٣ ـ خشية الله هي الباب المؤدّي إلى الشجاعة، والجرأة، والعمل، ﴿يَخَافُونَ... ٱدْخُلُواْ﴾.

٤ ـ خشيةُ الله نعمةٌ منه سبحانه، ﴿يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾.

٥ ـ في الحرب يجب شحن المقاتلين بالمعنويات والحماسة، ﴿فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾.

٦ ـ خشية الله والتقوى تمنحان الإنسان البصيرة والقدرة على التحليل الصحيح والدقيق للقضايا، ﴿يَخَافُونَ... فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾.

٧ ـ يجب أن يكون التوكل على الله وحده، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾.

٨ ـ إذا نزل المؤمنون إلى الساحة بجرأة وشجاعة، فرّ المنحرفون، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾.

٩ ـ أساس النجاح لا يقتصر على العوامل المادّيّة فحسب، بل يستلزم أيضاً التحلّي بالشجاعة، والإيمان، والشهامة، والتوكل على الله، وجرأة اتّخاذ القرار، ﴿ٱدْخُلُواْ... وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾.

١٠ ـ ليس بالتوكل وحده نحقّق أهدافنا، بل يجب أن يقترن ذلك بالعمل والسعي، ﴿ٱدْخُلُواْ... فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾.

١١ ـ التوكل علامة الإيمان ومفتاح الخلاص من المآزق، ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم...﴾.

١٢ ـ منّا الحركة وعلى الله النصرة والبركة، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٣ ـ التوكل ليس باللسان وحده، بل هو روح نابع من جوهر الإيمان، ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

□ مكة وبيت المقدس بقعتان مقدّستان، فقد قال موسى عليه السلام لقومه: ادخلوها وقاتلوا الأعداء، فتعلّلوا بحجج واهية وعصوا الأمر، بينما كان المسلمون على مشارف مكة في السنة السادسة للهجرة يستعدّون لأداء العمرة وكادوا يفتحونها لولا أن منعهم النبي الكريم ﷺ، فانتهت الرحلة إلى عقد صلح الحديبية مع المشركين. نعم، كلاهما وصل إلى مشارف المعركة، ولكن، أحدهما فرّ منها، والثاني انسحب بشهامة وشجاعة.

□ لقد ذاعت شهرة بني إسرائيل في الجبن والتراخي عن محاربة العدوّ، لدرجة أنّ المسلمين قبيل معركة بدر (في السنة الثانية للهجرة) وأثناء دخولهم مكة (في السنة السادسة للهجرة) استشهدوا بتلك الحادثة حين قال المقداد بن الأسود: يا رسول الله امض لأمر الله فنحن معك والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾.

□ إنّ جهود القادة الإلٰهيّين في تحقيق رسالاتهم تثمر عند مساندة الناس لهم.

التعاليم:

١ ـ بنو إسرائيل مثال صارخ على سوء الأدب، والتعلّل، والضعف، واللهث وراء حياة الرفاهية، والدّعة، ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا...﴾.

تكشف عبارة ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾ عن وقاحة سافرة في مقابل أوامر الله تعالى.

وكلمة ﴿أَبَدًا﴾ تحمل إصراراً على الوقاحة.

ونلحظ في كلمة ﴿فَاذْهَبْ﴾ إساءة وإهانة للنبي موسى عليه السلام.

وتبيّن كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ جرأة ووقاحة على الذات الإلٰهيّة المقدّسة وعلامة على ضعف الإيمان.

أمّا ﴿قَٰعِدُونَ﴾ فهي تنمّ عن حالة من طلب الرفاهية والتقاعس لا طلب العزّة.

٢ ـ يجب أن يبادر الناس بأنفسهم إلى إصلاح مجتمعاتهم لا أن ينتظروا الإصلاح من الله ومن الزعماء الدينيين فقط، ﴿فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

٣ ـ تمنّي النصر بدون بذل الجهود وتقديم التضحيات أمر غير منطقي، ﴿فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

- بعد أن أصاب النبي موسى عليه السلام اليأس والقنوط من إمكان تحرّك بني إسرائيل، توجّه إلى الله تعالى رافعاً يديه بالشكوى من قومه.
- طلب موسى أن يفصل بينهما (هو وأخوه هارون) وبين القوم الفاسقين من أجل أن لا تمسّ نار الغضب الإلٰهيّ المخلصين من أتباعه، بل ينزل العذاب بالأعداء فقط، أو أنّه طلب موت الكفّار ليفصل بينهما وبينهم.
- أمّا لماذا ذكر موسى عليه السلام في دعائه هو وأخوه هارون ولم يأت على ذكر الرجلين الورعين اللذين آزراه ودعَوَا الناس إلى دخول المدينة، فقد ذهب المفسّرون مذاهب عدّة نذكر منها:
  - لم يكن موسى واثقاً من ثبات قدميهما[1].
  - لقد تمّ تهديد الرجلين المذكورين بالرجم من قبل القوم، لذلك، قال موسى في دعائه: إلهي! لم تعد لي أي قوّة، فالخطر أصبح يحيط بهذين الرجلين أيضاً[2].

التعاليم:

١ ـ معظم الأدعية القرآنية تطلب العون باستخدام كلمة الرب، ﴿قَالَ رَبِّ﴾.

---

(١) تفسير المراغي.

(٢) تفسير أطيب البيان.

٢ ـ عندما تنقطع بنا السبل ويقلب الناس لنا ظهر المجن، نتوسّل بالمخلّص الأصلي لينجينا، ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ... قَالَ رَبِّ﴾.

٣ ـ بعد أن يستنفذ الأنبياء كلّ السبل وييأسوا من إيمان الناس وطاعتهم يتوجّهون بشكواهم إلى الله تعالى ويلجأون إلى الدعاء على الظالمين، ﴿رَبِّ إِنِّى...﴾.

٤ ـ عصيان أمر الجهاد فسق، ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

٥ ـ من الابتلاءات الاجتماعيّة تفرّق الناس عن الأولياء وابتعادهم عنهم، وانقطاع بركات وجودهم عن قومهم، ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

٦ ـ عيش المؤمن مع الفاسقين وفي أوساطهم ابتلاء وشدّة يُمتحن بها، ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

□ ﴿يَتِيهُونَ﴾ مشتقّة من مادة «تيه» وتعني الحيرة، كما تطلق على الضلال في صحراء سيناء إذ تاه بنو إسرائيل فيها مدّة أربعين سنة، وحُرموا خيرات الأرض.

□ ذكرت قصة تمرّد بني إسرائيل والغضب الإلٰهيّ عليهم، وتيههم في الصحراء في الفصل الرابع من سفر الأعداد في التوراة.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ بني إسرائيل قال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فلم يدخلوها حتى حرّمها عليهم وعلى أبنائهم، وإنّما دخلها أبناء الأبناء**»[1]. (بمعنى أنّ دخول الأرض المقدّسة لم يتمّ طيلة وجود الآباء والأبناء على قيد الحياة).

□ ونقرأ في حديث شريف: «**لتركبنّ أمّتي سنّة بني إسرائيل**»[2].

---

(١) تفسير العياشي.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٨، ص ١٤ و٣٠.

□ العدد أربعون ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ عدد رمزي، وهو يستعمل في الغضب واللطف الإلٰهيّين على السواء. لقد ذهب النبي موسى عليه السلام إلى جبل الطور ليأخذ ألواح التوراة فاعتكف هناك ٤٠ ليلة، وفترة تيه بني إسرائيل ٤٠ سنة.

□ أحياناً يستلزم إصلاح الجيل الجديد هلاك الجيل القديم واندثاره، ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، لذا لا بدّ لزبانية الحكم الفرعوني الذين لم يقدّروا موسى حقّ قدره أن يرحلوا عن هذه الدنيا، ليحلّ محلّهم جيل جديد عاش في فضاء رحب وعرف مشاكل الحياة الصحراوية ليثمّن الحياة في المدينة وفي ظلّ القادة الإلٰهيّين. ورد في الحديث أنّ هؤلاء قد ذهبوا عن الدنيا في أرض «التيه» وجاء أبناؤهم ودخلوا الأرض المقدّسة.

التعاليم:

١ ـ عقوبة الفرار من المعركة هي الحرمان، ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾.

٢ ـ التيه نوع من العذاب للفاسقين، ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

٣ ـ يجب حرمان القاعدين والفارّين من الجبهات من بعض المزايا والإمكانات، ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾.

٤ ـ الأنبياء يحملون هموم الناس، ﴿فَلَا تَأْسَ﴾.

٥ ـ لا تأخذك بالفاسقين رحمة، ﴿فَلَا تَأْسَ﴾؛ فمعاقبة المجرم كالدواء المرّ عاقبته في نهاية الأمر سلامة الفرد والمجتمع.

﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾

إشارات:

□ لعلّ المقصود بتلاوة النبأ بالحقّ هو أنّ هذه القصة وردت محرّفة ومشوبة بالأساطير والخرافات في التوراة، فيما يسردها القرآن الكريم بالحقّ وكما وقعت.

□ جاء في الروايات أنّ هابيل كان صاحب ضرع، وكان قابيل صاحب زرع، وقرّب هابيل كبشاً من أفاضل غنمه، وقرّب قابيل من زرعه ما لم ينقّ فتُقبّل قربان هابيل ولم يُتقبّل قربان قابيل[١]. والقرآن الكريم يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢].

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى آدم أن يدفع الوصية واسم الله الأعظم إلى هابيل، وكان قابيل أكبر منه، فبلغ ذلك قابيل. فغضب فقال: أنا أولى بالكرامة والوصية. فأمرهما أن يقربا قرباناً بوحيٍ من الله إليه، ففعلا فقبل الله قربان هابيل فحسده قابيل فقتله**»[٣].

التعاليم:

١ ـ ينبغي دراسة تاريخ الماضين واستقاء العبر منه، ﴿وَٱتْلُ﴾.

٢ ـ يجب فصل التاريخ عن الأساطير ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فقصّة قربان هابيل وقابيل ليست أسطورة بل حقيقة واقعة.

٣ ـ أصل المسألة هو التقرّب إلى الله تعالى، لا تقديم القرابين، فلتكن القرابين ما تكن، ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾؛ لاحظ أنّ كلمة ﴿قُرْبَانًا﴾ جاءت في صيغة التنكير.

٤ ـ أن يكون الإنسان ابن نبي لا يفيده في قبول أعماله أو ردّها. والدليل على ذلك أنّه تُقبّل من هابيل ولم يُتقبّل من قابيل، ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾.

٥ ـ تاريخ القتل وسفك الدماء على الأرض بدأ مع تاريخ البشرية، ﴿نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ... لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

٦ ـ أحياناً يبلغ الحسد بالإنسان درجة يقتل معها أخاه، ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

٧ ـ لا بدّ للجواب من أن يكون منطقياً حتى مع من يهدّد بالقتل، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) الكافي، ج ٨، ص ١١٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٢.

(٣) تفسير نور الثقلين.

٨ ـ نوايا الإنسان وخصاله لها تأثير في قبول الأعمال أو ردّها، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٩ ـ التقوى هي محك قبول الأعمال لا شخصيّة الإنسان أو طبيعة عمله ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٠ ـ الفرق بين القبول والردّ هو التقوى لا التميز، ﴿مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

□ قال هابيل لأخيه: لن أُقدِم على قتلك، ولكن ليس معنى ذلك أنّه لن يدافع عن نفسه، لأنّ الاستسلام للقاتل يتناقض مع مبدأ التقوى، ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ...﴾.

التعاليم:

١ ـ عند مناقشة الحسود علينا التحدّث إليه بثقة وهدوء، لنطفئ نار حسده ببرد كلامنا ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ...﴾.

٢ ـ الإحجام عن القتل تكون له قيمة إذا كان من منطلق الخشية من الله لا بدافع العجز والضعف، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾.

٣ ـ تقوى الله والخشية منه سبحانه وتعالى تصدّ المرء عن المعصية والاعتداء في أدقّ الظروف، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾.

٤ ـ خشية الله هي إحدى ثمار الإيمان بربوبيّة الله الشاملة، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٥ ـ العالم مجلى ربوبيّة الله تبارك وتعالى، ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

إشارات:

- روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ﴾ أنه قال: «... **ثمّ إنّ إبليس أتاه وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق فقال له: يا قابيل قد تُقُبّل قربان هابيل ولم يُتُقبّل قربانك وإنّك إن تركته يكون له عقب يفتخرون على عقبك ويقولون نحن أبناء الذي تُقُبّل قربانه فاقتله كيلا يكون له عقب يفتخرون على عقبك فقتله**»[1].
- ويقول عليه السلام أيضاً: «**من قتل مؤمناً متعمّدا أثبت الله على قاتله جميع الذّنوب وبرّأ المقتول منها، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ...﴾**»[2].
- ليس معنى الآية السكوت على الظالم بغية غفران الذنوب.
- قال النبي صلى الله عليه وآله: «**بدمشق جبل يقال له قاسيون فيه قتل ابن آدم أخاه**»[3].
- ونقل عن الإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «...**فلم يدر كيف يقتله حتى جاء إبليس فعلّمه فقال: ضع رأسه بين حجرين ثم اشدخه...**»[4].

التعاليم:

١ ـ القاتل يحمل آثام المقتول، ﴿تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي﴾.

٢ ـ في النزاعات، البادئ هو المسؤول عن الأضرار، ﴿بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾.

٣ ـ عاقبة سفك دماء الإخوة دخول النار، ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾.

٤ ـ الإيمان بالمعاد يقع في صلب المعتقدات الأساس للبشر، ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

٥ ـ القاتل يظلم نفسه، والمقتول، وأسرة المقتول، والمجتمع، في آنٍ معاً، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(١) الكافي، ج ٨، ص ١١٣.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) تفسير الدر المنثور.

(٤) تفسير نور الثقلين.

٦ ـ النفس هي التي تسوّل للإنسان من خلال إلقاء الوساوس وتزيين الفعل، حتى يقع في المعصية، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ﴾.

٧ ـ بإمكان النفس أن تقتل في داخلها مشاعر الأخوة أيضاً، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾.

٨ ـ الفطرة الإنسانيّة الخالصة تأبى القتل وتنفر منه، غير أنّ النفس تزيّن هذا الفعل لصاحبها وتدفعه إليه، ﴿فَطَوَّعَتْ﴾.

٩ ـ صراع الحق والباطل بدأ مع بزوغ فجر الإنسانية، ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾.

١٠ ـ اتّباع هوى النفس خسران، ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

١١ ـ القاتل بين نارين، نار عذاب الضمير، ونار انتقادات الناس وفوق هذا وذاك، فهو يواجه العدالة والقصاص، ولذلك فهو لن يهنأ في حياته، ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

١٢ ـ الانتصار والغلبة على الخصم لا تعني دائماً العزّة والرفعة، ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

- تفيد الروايات: أنّ قابيل حين قتل أخاه ترك جثته في العراء حائراً لا يدري ما يفعل بها، فلم يمض وقت حتى حملت الوحوش المفترسة على جثة «هابيل» فاضطر «قابيل» إلى حمل جثّة أخيه مدّة من الزمن لإنقاذها من فتك الوحوش، وفي تلك الأثناء بعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثا عليه التراب، فلما رآه قال: يا ويلتا، أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب، فصنع مثلما صنع الغراب وقام بدفن أخيه.

- كان الإنسان البدائي عديم الخبرة لا يملك تجارب، لكنّ الله تعالى كان يغدق عليه، على الدوام، من ألطافه وبطرق متعدّدة.

□ يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «**فبعث الله غرابين قتل أحدهما الآخر وهو ينظر إليه، ثم حفر له بمنقاره وبرجليه حتى مكن له، ثم دفعه برأسه حتى ألقاه في الحفرة، ثم بحث عليه برجليه حتى واراه**»(١).

□ وعنه عليه السلام أيضاً: «**والذّنوب التّى تورث النّدم قتل النّفس**»(٢).

التعاليم:

١ ـ أحياناً تكون الحيوانات مأمورة من قبل الله تعالى، تتحرّك بأمره وتسير في الاتجاه الذي يعيّنه لها، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾.

٢ ـ كثير من المعلومات التي يملكها البشر مستلهمة من الحيوانات، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ... لِيُرِيَهُۥ﴾.

٣ ـ لا بدّ للإنسان من أن يسعى وراء العلم دوماً. المهمّ أن يتعلّم بأيّ وسيلة كانت حتى وإن كان ذلك عن طريق الحيوانات، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا... لِيُرِيَهُۥ﴾.

٤ ـ أحياناً يجعل الله سبحانه وتعالى الحيوانات الصغيرة وسيلة لتعليم الإنسان، ليبيّن له أنّ الغراب أيضاً يمكن أن يكون وسيلة لتعليم البشر، لذا ينبغي عليه ألّا يغترّ بنفسه، ﴿غُرَابًا... لِيُرِيَهُۥ﴾.

٥ ـ يجب دفن الجثّة، ولا يجوز حفظها في صندوق، أو تحنيطها، أو حرقها، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ... يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾.

٦ ـ دفن الكفار غير واجب، وإكرام المؤمن واجب وذلك بدفنه لئلا يكون طعاماً للطير أو السباع، ﴿يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾.

٧ ـ الندم دليل على أنّ الفطرة الإنسانيّة تصبو إلى الحقّ، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

---

(١) تفسير البرهان؛ تفسير راهنما.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٧٥.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

□ تذكر الآية الكريمة أنّ قتل إنسان واحد هو بمثابة قتل للجنس البشريّ بأكمله، ولأجل تبيين هذه الحقيقة نستعرض عدداً من المفاهيم والملاحظات:

أ - إنّ عقوبة قتل شخص واحد كعقوبة قتل جميع الناس.

ب - حرمة قتل شخص واحد عند الله كحرمة قتل جميع الناس.

ج - قتل شخص واحد، هو استخفاف بالمنزلة الإنسانية.

د - قتل شخص واحد فيه سلب لأمن جميع الناس واستقرارهم.

لمّا كان البشر بمثابة أعضاء الجسد الواحد، نستنتج أنّ قتل أحدهم هو قتل لجميعهم أي للجسد بأكمله.

و - جهنّم مأوى من قتل شخصاً واحداً وكذلك من قتل جميع الناس[١].

ز - قتل شخص واحد، مقدمة لقتل جميع الأشخاص.

ح - بإمكان إنسان واحد أن يكون مصدر خلق لجيل كامل، إذن فقتله هو بمثابة قتل لجيل بأكمله، (يبدو لنا أنّ هذا المفهوم هو الأنسب).

□ نقرأ في الروايات: **«فناء الدنيا بأكملها أهون عند الله من قتل مؤمن واحد»**[٢].

□ ويقول الإمام الصادق عليه السلام: **«من سقى الماء في موضع يوجد فيه الماء كان كمن أعتق رقبة، ومن سقى الماء في موضع لا يوجد فيه الماء كان كمن أحيا**

---

(١) الكافي ج ٧، ص ٢٧١.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٣٨٢. أكتُب هذه السطور غداة آخر جمعة من شهر رمضان المبارك من عام ٢٠٠٠م (يوم القدس العالمي)، والتلفاز يعرض مشاهد مروّعة عن المجازر التي ترتكب على يد الصهاينة بحقّ الشعب الفلسطيني الأعزل.

نفساً، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾»[١].

- وبحسب الآيات والروايات، فإنّ هداية الناس وإرشادهم إلى سبيل الحقّ، إنّما هو نوع من الإحياء المعنوي لهم، وفي المقابل، فإنّ إضلالهم يعتبر، على نحوٍ، قتلاً معنوياً لهم. وفي السياق نفسه تبيّن الآية ٢٤ من سورة الأنفال أنّ دعوة النبي إنّما هي إكسير حياة للناس: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

- كما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: **«مَن أخرجها من ضلال إلى هدى فكأنّما أحياها ومن أخرجها من هدى إلى الضّلال فقد قتلها»**[٢].

- وعنه أيضاً عليه السلام: **«نجاها من غرق ،أو حرق، أو سَبُع، أو عدوّ»**[٣]. وفي رواية أخرى: **«فإن لم تطعموه فقد أمتّموه، وإن أطعمتموه فقد أحييتموه»**[٤].

- وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: **«المسرفون هم الذين يستحلّون المحارم ويسفكون الدماء»**[٥].

التعاليم:

١ ـ أحياناً، تكون الحوادث التاريخية سببا لنزول الأوامر الإلٰهيّة، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾.

٢ ـ إنّ مصائر البشر كانت، على مرّ التاريخ، معقودة بنواصيهم، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

٣ ـ الأحكام الإلٰهيّة تنطوي على حكمة وليست عبثاً، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾.

٤ ـ إنزال العقوبة والعذاب أمرٌ ضروري للحيلولة دون قسوة القلب ومنعاً لتكرار الحوادث، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا﴾.

٥ ـ نفس المؤمن محترمة أيّاً كان عرقه أو بلده، ﴿نَفْسًا﴾.

---

(١) مكارم الأخلاق، ص ١٣٥.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٢١٠.

(٣) تفسير البرهان.

(٤) الكافي، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٥) تفسير نور الثقلين.

٦ ـ شريعة بني إسرائيل أيضاً كانت تتضمّن إعدام المفسد، ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٧ ـ الانتحار والإجهاض من أمثلة «قتل النفس» وهما محرّمان، ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾.

٨ ـ من يفسد في الأرض أو لا يعير أهميّة لأرواح الناس ويقوم بسفك دمائهم، لا يستحقّ الحياة ويجب أن يعدم، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ﴾.

٩ ـ يحلّ قتل الإنسان في حالتين:

أ ـ قصاص القاتل ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

ب ـ أو الفساد في الأرض ﴿أَوْ فَسَادٍ﴾.

١٠ ـ قيمة العمل رهنٌ بالقصد والهدف، فالقتل بهدف الاعتداء، هو قتل للمجتمع ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، أمّا القتل من أجل إنزال القصاص العادل، فهو حياة للمجتمع، ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[1].

١١ ـ الاعتداء على حقوق الفرد، تهديد لأمن المجتمع وسلامته، ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، ويجب على الذين يعملون على إنقاذ أرواح الناس كالأطباء، والممرضات، ورجال الإطفاء، والمسعفين، والصيادلة، أن يعرفوا قدر أنفسهم، ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

١٢ ـ من مظاهر المجتمع النابض بالحياة تقديم الإمدادات والمساعدات للمنكوبين وإنقاذ أرواح الناس، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

١٣ ـ لقد شهد التاريخ على الدوام تنكر الناس لتعاليم الرسل وعزوفهم عن تطبيقها، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

١٤ ـ الإنسان مخيّر، بدليل أنّ بإمكانه أن ينحرف حتى مع وجود الأنبياء، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ... بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾

إشارات:

- ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة أنّ جماعة من المشركين قدموا إلى النبي الكريم ﷺ وأعلنوا إسلامهم لكنّهم ـ لعدم تعوّدهم مناخ المدينة ـ أصيبوا ببعض الأمراض، فنصحهم النبي الكريم ﷺ أن يذهبوا إلى منطقة ذات مناخ جيّد من الصحراء خارج المدينة، كانت مرتعاً لإبل الزكاة، وأجاز لهم الانتفاع بلبن تلك الإبل بما يكفيهم، ففعلوا وتعافوا ممّا كانوا يعانون من الأمراض، لكنّهم بدل أن يقدّموا الشكر للنبي الكريم عمدوا إلى قتل الرعاة المسلمين والتمثيل بهم وسمل عيونهم، ونهب إبل الزكاة وارتدّوا عن الإسلام إلى الشرك، فأمر النبي ﷺ بإلقاء القبض عليهم والقصاص منهم بمثل ما ارتكبوه بحقّ أولئك الرعاة الأبرياء، وجزاء لهم على جرائمهم فسملت عيونهم وقتلوا، لكي يصبحوا عبرة لغيرهم فلا تسوّل لأحد نفسه أن يرتكب مثل هذه الجرائم الوحشية البشعة. فنزلت هذه الآية[١].
- العقوبات الواردة في الآية هي، في الحقيقة، «حقّ الله» لذلك لا يمكن للحكومة أو الشعب أن يعفُوَا أو يغيّرا فيها[٢]. وورد في تفسير الميزان أنّ اختيار أحد الحدود الأربعة المذكورة يقع على إمام المسلمين، وحتى لو عفا أولياء المقتول، فإنّه يجب إقامة أحدها.
- «**الجزاء**» هو ما فيه الكفاية من المقابلة إن كانت عقوبة أو ثواباً، والمعنى هو، أنّ العقوبات أو الحدود الأربعة عادلة وكافية لمن يرتكب هذه الجرائم[٣].
- إصلاح المجتمع يحتاج إلى سيف ذي حدّين، حدّه الأول إسداء الوعظ والنصح

---

(١) تفسير نمونه، ج٤، ص ٣٥٨.

(٢) تفسير أطيب البيان.

(٣) تفسير راهنما.

والإرشاد، وحدّه الثاني هو الحزم والتصدّي الثوري القاطع. (الآية السابقة أصدرت تحذيراً للقاتل وهذه الآية تبيّن عقوبة الشخص المحارب والمفسد).

□ العقوبة يجب أن تكون في إطار العدل، وذلك لجهة تباين المفاسد وطبائع المفسدين وخصوصيّاتهم، وكذا الحال مع العقوبات، فهي غير متساوية، فمثلاً، إذا بلغ الفساد حدّاً مفجعاً، تكون عقوبته الإعدام، أمّا إذا كان ذا طبيعة ثانوية وسطحية، فعقوبته نفي المفسد من دياره. وذلك بحسب ما يستشفّ من الروايات، ومن جملة تلك العقوبات: أنّ عقوبة القتل هي الإعدام، وعقوبة الإرهاب والترويع هي النفي، أمّا عقوبة قطع الطريق والسرقة فهي قطع الأيدي والأرجل، بينما القتل وقطع الطريق والسرقة المسلحة فعقوبتها قطع الأيدي والأرجل والصلب[1].

□ من المعلوم أنّ تطبيق الأحكام والحدود الإلٰهيّة تكون متيسّرة فقط في ظلّ حكومة إسلاميّة، ما يعني أن لا فصل بين الدين والسياسة.

□ أولئك الذين يخرجون على إمام المسلمين أو الحكومة الإسلاميّة يندرجون ضمن حكم المحاربة، ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾[2].

□ استناداً إلى الآية ٢٧٩ من سورة البقرة، فإنّ المرابي يدخل ضمن المحاربين لله ورسوله إذ تقول الآية: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ذلك أنّه بعمله هذا يعرّض سلامة الاقتصاد إلى التهديد. كما ورد في بعض الروايات، أنّ إهانة المسلم والإساءة إليه تدخل في باب محاربة الله: «**من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة**»[3].

التعاليم:

١ ـ مسؤولية الدولة والحكومة هي المحافظة على أمن المدن، والقرى، والطرق، والتصدّي، الحازم للخارجين عن القانون، ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟...﴾.

---

(١) تفسير الصافي.

(٢) تفسير في ظلال القرآن.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤، ص ٦٥.

٢ ـ محاربةُ خلق الله محاربةٌ لله، لأنّ من يعادي الناس كأنّه يعادي الله تعالى، ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾.

٣ ـ التمرّد على أوامر النبي والتصدّي لها، حرب على الله، ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٤ ـ توجد أربع عقوبات لأولئك الذين يعرّضون أمن المجتمع إلى التهديد هي: الإعدام، النفي، قطع الأيدي والأرجل من خلاف، والصلب، ﴿يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾.

٥ ـ المناوئون لولاية رسول الله ﷺ والساعون إلى الانقلاب عليه ومحاربة الحكومة الإلٰهيّة، يستحقّون أشدّ العقوبات، ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ... أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾

إشارات:

❑ أطلقت الروايات مصطلح «المفسد في الأرض» على من يروّع المسلمين ويشهر السلاح بوجههم حتى وإن لم يُقدم على القتل، وهنا تطرح الآية الكريمة مسألة توبة هؤلاء.

والجدير بالإشارة هو أنّ توبة المحارب والمفسد إنّما ترفع عقوبة التهديد والترويع، فيما تبقى عقوبة القتل والسرقة قائمة، بمعنى أنّ التوبة تؤثّر في ما يسمّى بـ «حقّ الله»، أمّا «حقّ الناس» فلا يسقط بالتوبة؛ لأنّه يتوقّف على رضا أصحاب الحقّ. فالمحارب له حساب، والقاتل والسارق لهما حساب آخر[1]. بمعنى أنّ المحارب الذي ارتكب جريمة قتل، إذا تاب عن محاربته، فإنّ حكم القصاص يظلّ سارياً عليه. أمّا إذا اقتصر فعله على الترويع والتهديد، ثمّ رجع عنهما وتاب، فإنّ عقوبة المحارب، حينئذ، تُرفع عنه.

---

(١) الأمثل في تفسير الكتاب الله المنزل.

□ العقوبات الإلٰهيّة تحمل طابعاً تربوياً وإصلاحياً للفرد والمجتمع، لا طابع الانتقام. من هنا، ينبغي على المذنب أن يتوب، وسيكون لتوبته تأثير.

□ بالنسبة إلى رفع العقوبة، لا بدّ من إحراز التوبة الحقيقيّة للمجرم، كأن يتمّ ذلك من خلال تغيّر ملموس يطرأ على أخلاقه أو سلوكه، أو بشهادة شهود عدول ـ أو ما شابه ـ يؤكدون توبته وصلاحه.

التعاليم:

١ ـ باب التوبة مفتوح أمام الجميع، ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ... إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾.

٢ ـ للتوبة تأثير إذا كانت قبل التمكن من المجرم والقبض عليه، ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾، الأمر نفسه بالنسبة إلى سائر المعاصي، فالتوبة تكون مفيدة ما لم يحضر صاحبها الموت[١].

٣ ـ لا بد لنا من اليقين بقبول الله التوبة والمغفرة، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٤ ـ مغفرة الله تعالى مقرونة برحمته لا بالتوبيخ والإهانة، ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

□ يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به وبرسوله، والجهاد في سبيله فإنّه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة، وذرى الأمة الصلاة فإنّها الملّة، وإيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان فإنّه جُنّة من العقاب، وحجّ البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب، وصلة الرحم فإنّها مثراة في**

---

(١) سورة النساء: الآية ١٨.

المال ومنسأة في الأجل، وصدقة السرّ فإنّها تكفّر الخطيئة، وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء، وصنائع المعروف فإنّها تقي مصارع الهوان...»[1].

□ أهل البيت عليهم السلام هم حبل الله المتين ووسيلة التقرّب إليه، **«هم العروة الوثقى والوسيلة إلى اللّه»**[2].

□ التوسّل، موضوع تطرّق له أهل السنّة مراراً ووردت روايات حوله في كثير من مصادرهم مثلاً في «الصواعق» لابن حجر، و«السنن» للبيهقي، و«الصحيح» للدارمي، و«وفاء الوفاء». وفي السياق نفسه، يمكن الإشارة إلى الآيات ٦٤ من سورة النساء، و٩٧ من سورة يوسف، و١١٤ من سورة التوبة، كأدلة على التوسّل.

التعاليم:

١ ـ طريق السعادة والفلاح ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يمرّ عبر الإيمان ﴿ءَامَنُوا﴾، والتقوى ﴿اتَّقُوا﴾، والشفاعة ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، والجهاد ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾.

٢ ـ لبلوغ شاطئ الفلاح، يجب ترك المعاصي ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ والقيام بالطاعات ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

٣ ـ أعمال الخير تشكل جسراً إلى السعادة، شرط أن لا نعمل على نسف هذا الجسر بخطايانا وذنوبنا، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

□ أبواب النجاة سوف تُغلق بوجه الكافرين في يوم القيامة، فلن يكون لهم نصيب

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١١٠.
(٢) تفسير الصافي.

من الرحمة الإلٰهيّة؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى قد خصّ أهل التقوى بها دون غيرهم، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[1]، كما إنّهم لن يحظوا بالشفاعة، فهي للذين رضي الله عنهم، ﴿لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[2]، علاوة على ذلك لن يذوقوا الموت أبداً، بمعنى أنّهم سيخلّدون في النار، ولن يجابوا إلى طلبهم بالموت، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ أهميّة المال تقتصر على هذه الدنيا، إذ لن تكون له فائدة في الآخرة، ﴿مَا تُقُبِّلَ...﴾.

٢ ـ في يوم القيامة لن تقبل الفدية في المحكمة الإلٰهيّة، ﴿لِيَفْتَدُوا... مَا تُقُبِّلَ﴾.

٣ ـ العوامل الرئيسة للسعادة هي الإيمان، والتقوى، والجهاد، وكلّها موجودة في أعماق الإنسان، لا في خارجه (المال والثروة)، ﴿لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا... مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾.

٤ ـ عذاب الكافرين لن يُرفع بفدية، ولن يسقط بمضيّ الوقت، ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾.

٥ ـ من لم تنفعه كلّ هذه البراهين والمواعظ في الدنيا للخروج من ظلمات الشرك والجهل، لن يخرج كذلك من عذاب جهنّم في الآخرة، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

- «**النكال**» هو الأمر الرادع الواقي، وأصله: قيد الدابة وحديدة اللجام. والمعنى

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٢) سورة طه: الآية ١٠٩.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٧٧.

هو أنّ الحكمة من تشريع القوانين الجزائية في الإسلام هي من أجل الردع لا الانتقام. و«النكال» هي العقوبة التي تطبّق لتكون عبرة للآخرين[١].

□ في هذه الآية، بدأ سبحانه بالسارق قبل السارقة بعكس حكم الزنا في الآية الثانية من سورة النور، إذ بدأ بالزانية قبل الزاني، ولعلّ هذا يرجع إلى أنّ السرقة غالباً ما تصدر عن الرجل، بينما في الزنا يكون الدور الرئيس فيه للمرأة المستهترة الخليعة.

□ ورد في كتب التاريخ أنّ المرحوم الشريف المرتضى سُئل قبل ألف سنة في البيت الشعري التالي:

يد بخمسِ مئينٍ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ما بالها قُطِعت في ربع دينار؟

فأجاب رحمه الله قائلاً:

عزّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذلّ الخيانة فافهم حكمة الباري

□ بحسب الروايات الواردة في هذا المجال، فإنّ حدّ السرقة يتحقّق بقطع أربعة أصابع من اليد اليمنى للسارق فقط، على أن يبقى الإبهام والكف. كما لا تقطع يد السارق إلّا في ربع دينار فصاعداً (ربع مثقال من الذهب). وأن تتمّ السرقة من مكان محفوظ كالدار أو محل الكسب، لا الأماكن العامة مثل المضائف، والحمامات، والمساجد. كما ينبغي أن يكون السارق مطّلعاً على حدّ السرقة أي قطع اليد، وإلّا فلا تقطع يده. كما لا يشمله الحدّ إذا سرق موادّ غذائية بدافع الاضطرار في زمن الجفاف أو المجاعة. بطبيعة الحال، حتى في الحالات التي لا تقطع يد السارق، ثمة عقوبات أخرى أتت المصادر الفقهية على بحثها فاطلبها في مظانّها[٢].

□ وفي الخبر عن رسول الله ﷺ **«وأسوأ السرقة الذي يسرق صلاته»**، قالوا: وكيف يسرق صلاته؟ قال: **«لا يتمّ ركوعها ولا سجودها»**[٣].

□ من المعلوم أنّ تطبيق الأحكام يحتاج إلى حكومة، وسلطة، ونظام، وأجهزة،

---

(١) قاموس القرآن.
(٢) تفسير الصافي.
(٣) تفسير القرطبي.

ومؤسّسات إدارية، ومن هنا نقول: إنّ الإسلام دين حكم وسياسة.

- الإسلام يشدّد على أهميّة ووجوب العمل وإدارة حياة الفقراء من خلال بيت المال، والأقارب، وصناديق القرض الحسن، والمؤسّسات التعاونية وغيرها من المؤسسات الإجتماعية؛ ولكن مع ذلك لا يجوز اعتبار الفقر مبرّراً أو إذناً بالسرقة[١].
- النظام الجزائي الدنيوي عاجز عن التصدّي لظاهرة السرقة لأنّ حلوله تقتصر على السجن والغرامة المالية.
- قطع يد السارق بمثابة إنذار دائم ورادع للحدّ من معاودته الانحرافَ هو والآخرين، ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾.

التعاليم:

١ ـ عقوبة السارق والسارقة متشابهة، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾.

٢ ـ لا بدّ من المحافظة على أمن المجتمع بشكل حازم، ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾.

٣ ـ العقوبة والغرامة الثقيلة رادعان يمنعان ارتكاب السرقات، ﴿نَكَٰلٗا﴾.

٤ ـ تُولي القوانين الجزائية الإسلاميّة أهميّة لمعاقبة المجرم إلى جانب حصول العبرة للآخرين، ﴿نَكَٰلٗا﴾.

٥ ـ عندما نقيم الحدود الإلٰهيّة يجب أن لا نتأثّر بالمشاعر والعواطف، ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾.

٦ ـ نعلم أنّ حكم قطع يد السارق يصدره القاضي أو الحاكم، لكنّنا نلاحظ أنّ الله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين في هذه الآية بقوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ إشارةً إلى ضرورة أن يمهّد هؤلاء الأجواء المناسبة لإقامة الحدود الإلٰهيّة.

٧ ـ الملكية الخاصّة والأمن الاجتماعي مهمّان لدرجة تستحقّ معها التضحية بيد السارق من أجل صيانتهما، ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن.

٨ ـ تطبيق السلطة يجب أن يكون بشكل مدروس، ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

٩ ـ حكم قطع يد السارق يشكل مظهراً لعزّة الله وحكمته، ﴿فَٱقْطَعُوٓا۟... عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

□ تقوم أركان الإسلام على العقوبة إلى جانب الإرشاد، والتربية، والرحمة. عرفنا في الآية السابقة حدّ السارق، وهنا تتناول الآية الركن الثاني وهو دعوته إلى التوبة والرجوع إلى الله الغفور، وإصلاح ما بدر منه بالعودة عن غيّه، ليعيد الله تعالى ألطافه على عبده.

□ إذا تاب مرتكب السرقة قبل اعتقاله وأعاد الأموال المسروقة إلى أصحابها، فسوف تسقط عنه العقوبة في الدنيا وفي الآخرة[1]، ولكن بعد القبض عليه، يتوجّب تنفيذ العقوبة، فيما تكون التوبة ليوم القيامة.

□ جاء في الحديث الشريف: أنّ امرأةً سرقت على عهد رسول الله ﷺ فقطعت يدها اليمنى. فقالت: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «**نعم، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك!**»[2].

التعاليم:

١ ـ طريق العودة عن الذنب وإصلاح ما فات مفتوح دائماً أمام العاصي، ﴿فَمَن تَابَ﴾.

٢ ـ لا تقتصر التوبة على الندم الباطني، بل يجب أن تقترن بإصلاح المفاسد السابقة، ﴿وَأَصْلَحَ﴾.

٣ ـ إذا تاب الإنسان، فإنّ الله تعالى يتوب عليه، ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾.

٤ ـ السرقة ظلم للنفس والمجتمع، واعتداء على أمن المجتمع، ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾.

---

(١) الكافي، ج ٧، ص ٢٥٠. (٢) تفسير الميزان.

٥ ـ يجب أن نؤمّل المجرم وندعوه إلى طريق الله تعالى، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ... غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ حاكم الكون هو من يملك الحقّ في وضع القوانين للكون، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ... لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢ ـ فليعلم المجرمون أنّه لا مفرّ لهم سوى العودة إلى الله، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣ ـ لا يحتاج الله تعالى إلى توبة العبد، فهو يملك الوجود برمّته، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٤ ـ يجب أن يبقى الإنسان في حالة بين الخوف والرجاء، ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

٥ ـ العفو أم العذاب، كلاهما مظهران لقدرة الله تعالى، ﴿يُعَذِّبُ... وَيَغْفِرُ... عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول الآية: إنّ علماء اليهود كانوا يتجنّبون اللقاء المباشر مع النبي

الكريم ﷺ ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾، فأرسلوا وفداً من اليهود والمنافقين إليه علّهم يجدون في أحكام الإسلام ما يطابق أحكام توراتهم المحرّفة وما كانوا يبغون إليه، فإذا كانت أقوال النبي الكريم مطابقة لأقوالهم أخذوا بها، وإن لم تكن كذلك تركوها. فجاء وفد المنافقين واليهود إلى النبي الكريم ﷺ، وأصغوا إلى كلامه بدقّة ليقوموا بعد ذلك بتلفيقه وإطلاق الشائعات بشأنه، ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

التعاليم:

١ ـ يتألّم الأنبياء لأحوال الضالين، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ﴾.

٢ ـ الكفر مضمار يتسابق فيه فريق، وفي كل لحظة يوغلون في كفرهم أكثر فأكثر، ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

٣ ـ إذا كان الأعداء يسارعون في كفرهم ونفاقهم، فلماذا يتوانى المسلمون عن حقّهم؟ ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

٤ ـ النفاق مدعاة لزيادة الكفر، ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ... بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.

٥ ـ الإيمان تسليم في القلب، لا تصريح باللسان، ﴿آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾.

٦ ـ يسمو الإيمان حينما يستقرّ في سويداء القلب، ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾.

٧ ـ القلب مستقرّ الإيمان، ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾.

٨ ـ المنافقون واليهود معاً كانوا يسعون إلى هدف واحد، ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ... وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾.

٩ ـ ليس الإصغاء مهماً بل الباعث، ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

١٠ ـ الكفّار عملاء وجواسيس في أوساط المسلمين، فلا ينبغي للدعاة أن يعتقدوا حسن النيّة في جميع المستمعين، ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

١١ ـ التحريف هو الخيانة الثقافيّة لليهود، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾.

١٢ ـ الوشاية عمل بعيد عن التقوى، ومن المسائل الخطيرة، ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ... يُحَرِّفُونَ﴾.

١٣ ـ لكلّ كلمة سماوية منزلة خاصّة، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾.

١٤ ـ يجب علينا التسليم لأوامر الله تعالى، لا أن تكون الأحكام الإلٰهيّة مسايرة لأهوائنا، ﴿فَخُذُوهُ... فَٱحۡذَرُواْۚ﴾[1].

١٥ ـ المعصية تسقط استحقاق الإنسان في الهداية، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾.

١٦ ـ المنافقون محرومون من شفاعة النبي الكريم ﷺ، ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾.

١٧ ـ حتى رسول الله ﷺ لا يملك شيئاً للمتعصّبين المعاندين الذين يتّبعون أهواءهم، ﴿فَلَن تَمۡلِكَ﴾.

١٨ ـ نزول الغضب الإلٰهيّ هو بسبب سوء تصرّفات الإنسان وارتكابه الأعمال القبيحة، ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ... لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾.

١٩ ـ القلب المغلق واللجوج، محروم من أن يمنح من ألطاف الله تعالى، ﴿لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾.

٢٠ ـ عذاب الدنيا لا يقارن بهول عذاب الآخرة، ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

٢١ ـ للمنافقين خزي في هذه الدنيا، وفي يوم القيامة ينتظرهم عذاب عظيم، ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٤٢﴾

إشارات:

❑ ورد في التفاسير: أنّ رجلاً وامرأة من اليهود ارتكبا الزنا وكلاهما محصن، فجاؤوا إلى النبي الكريم ﷺ، علّهم يجدون حكماً مخفّفاً عمّا هو موجود في

(١) أحياناً يرجع الناس إلى مرجع التقليد، أو العالم الدينيّ، أو المحكمة، أو القانون الذي يوافق أهواءهم وميولهم، والآية الكريمة تنهى عن هذا الأمر.

التوراة (وهو الرجم)[١]، ولم يكونوا يعلمون أنّ حكم الزنا هو نفسه في الإسلام، ولمّا وجدوا تطابق حكم القرآن والتوراة في الزنا، أبَوا القبول بما حَكم به النبي الكريم ﷺ، فنزلت الآية الكريمة لتبيّن هذا الموضوع[٢].

- «**السُّحت**»، بحسب الروايات، هو أخذ الهدية أو الرشوة في إزاء القيام بعمل ما[٣]، والسحت في اللغة يقال للمحظور الذي يلزم صاحبه العار[٤].
- «**سَمّاعون للكذِب**» إمّا أن تعني أنّهم كانوا يستمعون كلام النبي ﷺ لا لأجل طاعته بل بقصد أن يجعلوه وسيلة لتكذيب النبي والافتراء عليه، أو المقصود أنّ عامة اليهود كانوا يستمعون إلى أكاذيب أحبارهم وزعمائهم مع علمهم بزيفها وتحريفها.
- تخاطب الآية الكريمة النبي الكريم ﷺ بالقول: إنّ أحبار اليهود يسعون إلى إلحاق الأذى بك، في حين أنّك تحمل همّ الدين وتفكر في مسؤولية المجتمع الإسلامي، فإن رأيت مصلحة في الإعراض عنهم فافعل ولا تهتمّ لما يفعلون، ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾.

التعاليم:

١ ـ أحبار اليهود كانوا مرتشين، ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾، وعامّتهم كانوا يتوقون إلى سماع الأكاذيب والأباطيل، ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾. لعلّ تكرّر عبارة ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، في آيتين متتاليتين فيه إشارة إلى أنّ هذه المسألة أصبحت، شيئاً فشيئاً، عادة لهم ونهجاً ثابتاً.

٢ ـ التعايش بين المسلمين وأهل الكتاب كان كبيراً لدرجة أنّ أفراد هذه الطائفة كانوا يأتون إلى النبي الكريم ﷺ ليقضي فيما بينهم، ﴿جَآءُوكَ﴾.

٣ ـ علاوة على مسؤولية النبوة، كان النبي الكريم ﷺ يحمل على عاتقه عبء الحكومة أيضاً، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

---

(١) تمّ توضيح حكم الزنا في التوراة، سفر التثنية، الباب ٢٣.
(٢) تفسير نمونه، ج٤، ص ٣٨١.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٩٥.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني.

٤ ـ يمتلك الأنبياء صلاحيات إلٰهيّة في مجال الحكم والقضاء يوظّفونها حسبما يرتأون، ﴿فَٱحۡكُم... أَوۡ أَعۡرِضۡ﴾.
٥ ـ حدود الحكومة الإسلاميّة تشمل أهل الكتاب أيضاً، ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾.
٦ ـ إذا ما تمّ اختيار الحاكم الإسلامي للفصل بين البلدان غير الإسلاميّة فعليه أن يراعي العدل، والشجاعة، والصراحة، في أحكامه بشكل كامل، ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾.
٧ ـ يجب أن لا يتأثّر القضاء بمسائل العِرق، والبلد، والانحياز، للحزب، والأهواء الشخصيّة، والتهديدات، ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾.
٨ ـ تعتبر العدالة دائماً قيمة إلٰهيّة ومع كلّ جماعة أو طائفة، ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾.

﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

□ كما بيّنا في الآية السابقة، فإنّ اليهود، وعلى الرغم من وجود التوراة عندهم وما تحتويه من أحكام تجيب عن تساؤلاتهم، كانوا يأتون إلى النبي الكريم ﷺ، علّهم يجدون عنده عقوبة مخفّفة.

التعاليم:

١ ـ ليست كلّ التوراة محرّفة، ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾.
٢ ـ ليت أهل الكتاب كانوا ملتزمين أحكام كتابهم المقدّس، ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾.
٣ ـ ما يهمّ أيّ جماعة هو تخفيف القانون لا الإيمان بالقانون وأداء الواجب، لذلك، فإنّ اليهود على الرغم من وجود التوراة بين أظهرهم، إلا أنهم كانوا

يأتون إلى النبي الكريم ﷺ للبحث عن عقوبات مخففة، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ﴾.

٤ ـ علامة الإيمان هي التسليم للقانون، ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

- «ربّاني» من «ربّان»، وهو المربّي. وبحسب بعض، فإنّها تقال لمن أحكم ارتباطه بالله وأصبح ذا صبغة إلٰهيّة وانشغل بإصلاح الآخرين وتربيتهم.
- روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: **«أنا رباني هذه الامة»**[1]. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«الربّانيّون، هم أهل بيت النبي عليهم السلام»**[2].
- «الحبر» على وزن (فِكر) تعني الأثر المستحسن، وجمعه «أحبار»: لما يبقى من أثر علومهم في قلوب الناس، ومن آثار أفعالهم الحسنة المقتدى بها. وقد لقّب ابن عباس بـ «حَبْر الأمة».
- يقول رسول الله ﷺ: **«من حكم في درهمين بحكم جورٍ ثمّ جبر عليه كان من أهل هذه الآية، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»**[3].

التعاليم:

١ ـ على الرغم من إيماننا بأنّ التوراة محرّفة، إلّا أنّه يجب علينا احترام الكتب السماوية الأصيلة، ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ﴾.

٢ ـ لقد نزلت التوراة على النبي موسى عليه السلام ولكن جميع الأنبياء والعلماء من بعده

(١) تفسير المراغي.
(٢) تفسير الصافي.
(٣) تفسير الصافي؛ الكافي، ج ٧، ص ٤٠٨.

أُمروا أن يحكموا بما جاء فيها، ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾.

٣ ـ يجب الإيمان بالشرائع المستندة إلى الوحي، (من شروط قدرة الأنبياء على الحكم والقضاء هو إيمان الناس)، ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾.

٤ ـ الأنبياء لا يأتون بالأحكام من عند أنفسهم، بل هم يخضعون لحكم الله تعالى، ﴿أَسۡلَمُواْ﴾.

٥ ـ الإسلام أن يسلم العبد وجهه لله تعالى، وهو دين جميع الموحّدين، وقد وُصف أنبياء بني إسرائيل أيضاً بـ ﴿أَسۡلَمُواْ﴾ كما ورد في هذه الآية الكريمة ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾.

٦ ـ العلماء في كلّ أمّة هم المسؤولون عن تطبيق الأحكام الإلٰهيّة في الناس، ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ. . . وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾.

٧ ـ يجب مراعاة التسلسل التراتبي، الأنبياء في المقدمة، ثمّ يليهم الأئمة، فالعلماء، ﴿ٱلنَّبِيُّونَ... وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾.

٨ ـ أُرسل إلى اليهود أنبياء عديدون، ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ...﴾.

٩ ـ تحتوي التوراة على تشريعات في القضاء والحكم، وكانت تشكل محور القضاء، ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾.

١٠ ـ تشعّ الهداية والنور في المجتمع حين يُحكم بكتاب الله ويُقضى بموجبه، ﴿فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾.

١١ ـ سبيل المحافظة على الكتب السماوية هو أن يتمّ الاستناد إليها في العمل، والقضاء، والحكم، ﴿يَحۡكُمُ بِهَا... بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾؛ والمقصود بالاستحفاظ، هو المحافظة من جميع النواحي.

١٢ ـ يجب على العلماء أن يكونوا حافظين للدين، ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

١٣ ـ القضاء مسؤولية العلماء، ﴿يَحۡكُمُ بِهَا... وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

١٤ ـ يحمل العلماء والقضاة رسالتين عظيمتين هما:

أ ـ أن لا يغيّروا أحكام الله خوفاً من الناس، ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ﴾.

ب ـ ألّا تزلّ أقدامهم أو يكتموا الحقّ طمعاً في مال الدنيا، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

١٥ ـ الانحراف عن رسالة القضاء كفر، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

١٦ ـ يتطلّب القضاء الصراحة، والجرأة، والحزم، وألّا يتأثّر القاضي بالتهديد أو التهويل والتضليل، ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ﴾.

١٧ ـ الخشية من الله هي الضمانة لعدالة القضاء، ﴿يَحْكُمُ... فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾.

١٨ ـ التحريف، السكوت، الكتمان، الحكم بغير ما أنزل الله، خسران حتى وإن كان الثمن الحصول على الدنيا كلّها، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا... ثَمَنًا قَلِيلًا... فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وذلك لأنّ متاع الدنيا قليل[1].

١٩ ـ اقتباس قوانين الشرق والغرب في ظلّ وجود شريعة سماوية كفر، فضلاً عن أنّ تلك القوانين ليس لها أيّ اعتبار، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٢٠ ـ من توفرت فيه صفات القاضي الحقيقي، ثمّ أعرض عن تحمّل مسؤولية القضاء فقد كفر، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٢١ ـ من الأخطار التي يُخشى على العلماء التأثّر بها، السكوت والكتمان في مقابل الطواغيت، وبيعهم دينهم للأغنياء، وممارستهم التضليل، ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ... وَلَا تَشْتَرُوا﴾.

٢٢ ـ الجُبن والطمع يجعلان العالِم متهاوناً في حفظ دينه وصيانة كتاب الله، ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ... وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

---

(١) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾، سورة النحل: الآيتان ١١٦ ـ ١١٧.

٢٣ ـ الكسب الحاصل من القضاء الباطل هو كسب غير مشروع، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى﴾.

٢٤ ـ الخوف والطمع هما سبب الانحراف في القضاء، وانحراف القضاء هو مدعاة للكفر، ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟﴾... ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟﴾... ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

- ذكرت الآية السابقة أنّ التوراة هدى ونور، وهنا تشرّع الآية للقصاص، ربّما أمكن الجمع بينهما بالقول، إنّ القصاص في المجتمع يفضي إلى النور والهداية، ويعضد هذا الرأي آية كريمة أخرى تقول: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].
- تسمية العين والأذن في تشريع القصاص جاء من باب ذكر الأمثلة، ذلك أنّ لكلّ عضو قصاصاً[2].
- سُئل الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية فقال: **«يُكفّر عنه من ذنوبه بقدر ما عفا»**[3].
- لم يوجد في التوراة قانون «الدية»؛ فالمجرم أمام خيارين إمّا القصاص أو العفو، حتى جاء الإسلام فشرّع الديّة كحلّ ثالث[4].

التعاليم:

١ ـ كلّ البشر من أيّ طائفة، أو عِرق، أو قبيلة، فقيرهم وغنيّهم، سواسية أمام

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٩.
(٢) تفسير أطيب البيان.
(٣) الكافي، ج ٧، ص ٣٥٨.
(٤) تفسير القرطبي.

القانون[١]، ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

٢ ـ حكم القصاص كان مشرّعاً في الأديان السابقة أيضاً[٢]، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾، فالإسلام والأديان الأخرى تجمعهم تشريعات متشابهة.

٣ ـ الصدقة ليست إنفاقاً مالياً فحسب، بل تشمل أيضاً، على نحوٍ ما، العفو والصفح عن المجرم، ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ﴾.

٤ ـ العفو عن المجرم، يستجلب العفو الإلٰهيّ ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾، وربّما كان المقصود هو أنّ عفونا سيكون كفّارة لذنوب المجرم، ولن يُعذَّب في يوم القيامة بسبب عفونا هذا[٣].

٥ ـ تقترن القضايا الجزائية في الإسلام دائماً بالقضايا الأخلاقية، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا... قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ﴾.

٦ ـ الغرامة المالية والحبس وحدهما لا يمكن أن يشكلا عاملاً رادعاً للمجرم عن معاودة الجريمة، ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

٧ ـ إذا لم تطبّق أحكام الله تعالى، فسرعان ما يشيع الظلم في المجتمع، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦)﴾

إشارات:

- القرآن الكريم يهدي المتّقين، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٤] وكذلك الإنجيل هو كتاب هداية وموعظة لمن يخشى الله، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.
- وردت كلمة «هُدى» مرّتين في هذه الآية الكريمة، في الأولى تطرح دلائل

---

(١) طبعاً، هناك فوارق حكيمة في حكم القصاص لكل من الرجل والمرأة، ورد تفصيلها في كتب الفقه.

(٢) التوراة، سفر الخروج، الأبواب ٢١، ٢٣، ٢٦.

(٣) تفسير الميزان.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢.

الهداية لعموم الناس ـ أي هداية عامة ـ، وفي الثانية تشير إلى الهداية التي تكون باعثاً لهداية المتّقين بصورة خاصة وتكاملهم.

❑ ﴿قَفَّيْنَا﴾ مشتقّة من «تقفية»، وهو اتّباع الأثر.

❑ قد يكون المراد بـ ﴿مُصَدِّقًا﴾ أنّ المواصفات والعلائم الخاصّة للنبي عيسى عليه السلام مطابقة للعلائم التي ذكرها التوراة بشأنه، فيكون المعنى: أنّ النبي عيسى عليه السلام وعلاماته يصدّق بعضهما بعضاً.

❑ جاء في إنجيل متّى (الفصل ٥، الإصحاح ١٧): لا تظنوا أنّي جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمّل.

❑ الكتب المقدّسة التوراة والإنجيل والقرآن الكريم «نور».

❑ يصف الله العزيز الحكيم في الآية ١٥ من هذه السورة القرآن بأنّه نور، ﴿جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾.

ويقول عزّ من قائل في الآية ٤٤ بأنّ التوراة نور، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

وفي هذه الآية يقول تعالى: إنّ الإنجيل نور، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ مصدر الأنبياء وكتبهم المقدّسة واحد، ومسيرهم أيضاً إنما نحو هدف واحد، فهم يصدّقون بعضهم بعضاً، ﴿مُصَدِّقًا﴾.

٢ ـ صحيح أنّ الأنبياء والكتب السماوية جاءت لهداية جميع الناس، ولكن وحدهم المتّقون الذين يهتدون بهذا النور، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

❑ استخدم القرآن الكريم الكلمات «ظالمون»، و«فاسقون»، و«كافرون»، للتعبير

عن الذين يمتنعون عن الحكم بما أنزل الله من شرائع. فهؤلاء كفّار لجهة امتناعهم عن تطبيق شرائع الله، وفاسقون لخروجهم عن دائرة مسؤوليّاتهم، وظالمون بسبب ظلمهم المتّهمين.

- توجّه الآيتان ٤٤ و٤٥ خطابهما إلى اليهود بسبب تحريفهم لشريعة الله، وتصفانهم بأنّهم كفّار وظالمون لبيعهم الدين بثمن بخس، وتوبّخانهم لأنّهم استبدلوا خشية الله تعالى بخشية الناس: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ وظلموا وما زالوا الأفراد والمجتمع في حقوقهم: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فيما تصف الآية النصارى بالفاسقين لأنّهم أخطأوا بعدم الحكم بالإنجيل، (لأنهم سكتوا عن القصاص أو باعوا دينهم كما فعل اليهود)، ولذلك فهم لم يخرجوا عن دائرة الحقّ.

التعاليم:

١ ـ معيار تمييز الحقّ من الباطل في الأديان الإلٰهيّة هو ما أنزل الله تعالى، ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾.

٢ ـ يحتوي الإنجيل على شرائع وقوانين حكومية، ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾.

٣ ـ من لم يحكم بما أنزل الله، لأيّ سبب كان، أو عدل عن حكم الحقّ، فهو فاسق، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم... فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

- «**الشرعة**» في اللغة: الطريق الموصل إلى النهر. و«**المنهاج**»، الطريق الواضح

البيّن. يقول ابن عباس: «شرعة» هي ما ورد في القرآن الكريم من أحكام، و«المنهاج» هي سنّة النبي الكريم ﷺ[١]. و«**مهيمن**» تعني عالياً عليه وحافظاً، وصائناً.

- التصديق السماوي للتوراة والإنجيل لا يعني بقاءهما إلى الأبد، بل يعني انسجام جميع الكتب السماوية وتساوق مضامين بعضها مع بعضٍ الآخر، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.
- تتّحد الأديان في الأصول والمبادئ وتتفرّع في «الشرائع»، كالبحر الذي تصبّ فيه أنهار وجداول متعدّدة. فالدين والشريعة هما الطريق الذي يأخذ بأيدينا نحو الحياة الإنسانيّة الحقيقيّة، بيد أنّه في كل عصر تكون السيادة لشريعة واحدة فقط.

التعاليم:

١ ـ القرآن الكريم كلّه حقّ ومنزّه من أيّ باطل، ﴿ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢ ـ القرآن الكريم كان مدوّناً منذ عصر النبي الكريم ﷺ، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٣ ـ القرآن صائن أصولَ ومبادئ الكتب السماوية الأخرى، ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

٤ ـ يمكن الحكم بين أهل الكتاب بموجب القرآن الكريم، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٥ ـ الخطر الذي يتهدّد القادة هو اتّباع أهواء الناس، ورمي الحقّ وراء ظهورهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

٦ ـ أحد أساليب الامتحان الإلٰهيّ ظهور شريعة جديدة ليتبيّن من يتّبعها ومن يكفر بها ويبدي تعصّباً تجاهها، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً... لِّيَبْلُوَكُمْ﴾.

٧ ـ احتاج الناس على مدار التاريخ إلى إرشاد الأنبياء وهدايتهم، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني.

٨ ـ فلنتسابق في فعل الخيرات بدلاً من التضييق السلبي وقبل فوات الأوان، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

٩ ـ يجب أن يكون محور المسابقات وغايتها هو القيام بأعمال الخير والمسائل الروحية والمعنوية، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩)﴾

إشارات:

❑ المقصود بالفتنة في ﴿يَفْتِنُوكَ﴾، هو التآمر لحرف النبي الكريم ﷺ.

أمّا في سبب نزول الآية الكريمة فقد قيل: إنّ رهطاً من وجهاء اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلّنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد، إنّك عرفت أنّا أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم، وإنّا إن اتّبعناك اتّبعنا اليهود ولم يخالفونا، وإنّ بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم ونؤمن لك ونصدّقك، فأبى ذلك، وأنزل الله عز وجل فيهم هذه الآية.

التعاليم:

١ ـ القضاء من شؤون النبوّة ولوازمها، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾.

٢ ـ شريعة الله تعالى هي أساس القضاء والحكم، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

٣ ـ تتّسع ولاية النبي الكريم ﷺ لتشمل، مضافاً إلى المسلمين، اليهود والنصارى أيضاً، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾.

٤ ـ القضايا المهمّة والخطيرة تقتضي ضرورة التكرار والتذكير باستمرار، كما هو الحال مع هذه الآية الكريمة إذ تكرّرت فيها عبارة ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾... ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ في الآيتين السابقة والحاليّة.

٥ ـ اتّباع رغبات الناس وأهوائهم أحد أكبر الأخطار التي تتهدّد القاضي والحاكم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

٦ ـ في النُذُر الإلٰهيّة تحصين وعصمة للأنبياء، ﴿وَاحْذَرْهُمْ﴾.

٧ ـ احذروا التسلّل الثقافيّ للأعداء، ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ﴾.

٨ ـ إذا كان رسول الله ﷺ يخشى على نفسه خطر المؤامرات، فما بالك بالآخرين؟ ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ﴾.

٩ ـ ترك بعض الأحكام الإلٰهيّة يمكن أن يُنظر له كعلامة على اتّباع أهواء الناس، ﴿أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ...﴾.

١٠ ـ المناوئون أيضاً يرتاحون لبعض الأحكام الإلٰهيّة، لذا، فخطر الإعراض والتحريف قائم بالنسبة للبعض الآخر من الأحكام، ﴿عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

١١ ـ يجب أن نقضي طبقاً لما جاء به الوحي، حتى وإن توقّعنا إعراض بعض الناس، ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ... فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾.

١٢ ـ الغاية لا تبرّر الوسيلة، فلا ينبغي أن نقضي بالباطل من أجل أن يدخل فريق من الناس في الإسلام، (تأمّل شأن النزول).

١٣ ـ النُّذُر الصاعقة مثل ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ... وَٱحۡذَرۡهُمۡ... يَفۡتِنُوكَ﴾ دليل صدق النبي الكريم ﷺ في إبلاغ الوحي، وإلّا، فهل يُعقل أن يخاطب أحد نفسه بهذه الحدّية والجدية.

١٤ ـ الإعراض عن النبي الكريم سبب للسقوط ومدعاة لنزول العذاب الإلٰهيّ، ﴿أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾.

١٥ ـ إعراض الكافرين سببه فسقهم، إذ لا نقص في الشريعة الإلٰهيّة، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ... لَفَٰسِقُونَ﴾.

﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾

إشارات:

□ الشريعة الأفضل هي التي يتوافر مشرّعها على الشروط الآتية:

- أن يكون مطّلعاً على جميع أسرار الكون والإنسان، راهناً ومستقبلاً.
- أن لا يكون له أيّ هدف نفعي.
- أن يكون منزّهاً عن كلّ خطأ، سهواً أو عمداً.

- أن لا يهاب أيّ قوة.
- أن يصبو إلى تحقيق الخير للجميع.

ومعلوم أنّ هذه الشروط لا يتوافر عليها إلّا الله سبحانه وتعالى. فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾، وكل حكم وضعي مخالف لحكم الله هو حكم جاهلي، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾. (ذلك أنّ معظم هذه القوانين وضعت على أساس الأهواء، والمخاوف، والأطماع، والجهل، والأخطاء، والأوهام، والعلم المحدود).

التعاليم:

١ ـ بعض المشركين وطائفة من أهل الكتاب طلبوا من النبي الكريم ﷺ أن يحكم طبقاً لقوانين الجاهلية، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

٢ ـ الفسوق والمعاصي تسوق الإنسان نحو الطبائع والثقافة الجاهلية، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

٣ ـ الذين يصرفون نظرهم عمّا لديهم من أحكام إلٰهيّة ويتجّهون نحو القوانين الوضعيّة، إنّما يسيرون في مسير الجاهلية، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا... أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

٤ ـ لا تقتصر الجاهلية على عصر بعينه، بل متى ما قطع الناس ارتباطهم بالله تعالى فذاك هو عصر الجاهلية، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

٥ ـ العقل والضمير أفضل حَكم وأعدل محكمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾.

٦ ـ الأولى بالذين يرمقون ببصرهم القوانين الوضعيّة ويعتبرونها سبيل الكمال، أن يعيدوا النظر في إيمانهم ويقينهم، ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

- تسمية الآية الكريمة اليهود والنصارى جاء على سبيل المثال لا الحصر، إذ، من البديهي، أنّه لا يجوز القبول بولاية أيّ كافر.

□ يُستشفّ من سائر آيات القرآن الكريم أنّ الاغتذاء من طعام أهل الكتاب (عدا اللحوم)، أو الزواج المؤقت من نسائهم، أو التعامل معهم والتعايش على قاعدة السلم الأهلي، كلّ ذلك جائز، ما يعني أنّ أيّاً من هذه الأمور لا يدخل ضمن مفهوم التولّي أو القبول بسلطتهم.

التعاليم:

١ ـ الله سبحانه وتعالى يريد من عباده المؤمنين أن يكونوا عند حسن ظنّه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ...﴾.

٢ ـ التبرؤ من الأعداء من شروط الإيمان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ...﴾.

٣ ـ الإسلام دين سياسة، ولا يقف عند الأحكام الشخصيّة فحسب، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

٤ ـ حين ينهى القرآن الكريم عن الاستعانة بالكفّار، فإنّه، من باب أولى، يحرّم القبول بولاية أهل الكتاب والكفّار وسلطتهم في مجال العلاقات والسياسة الخارجيّة، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾.

٥ ـ لا نقبل بولاية الكفّار والأعداء لأنّهم لا يفكرون إلّا في أبناء عقيدتهم، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾.

٦ ـ الخلافات بين اليهود والنصارى شديدة، بيد أنّهم متّحدون لسحق الإسلام، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾.

٧ ـ الكفّار أوفياء لمواثيقهم، لكنّهم ليسوا كذلك حين يتعلّق الأمر بالمسلمين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ...﴾.

٨ ـ البلاد الإسلاميّة التي تتولّى الكفّار وتقبل بهيمنتهم تحسب عليهم، ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾؛ إذا أحبّ الإنسان أيّ شخص أو طائفة فإنّه منهم.

٩ ـ لا نتولّى الكفّار، ولا نتولّى من يتولّاهم، ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾.

١٠ ـ القبول بولاية الكفّار يعني قطع حبل ولاية الله تعالى، ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١١ ـ الاستقواء بالكفّار ظلم، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ (٥٣)﴾

إشارات:

- الذين في قلوبهم مرض هم ضعاف الإيمان المشككون في حقّية رسالة النبي الكريم ﷺ، أو بعض العقائد الدينية[1].
- ثمّة أوجه ثلاثة حول تفسير الآية الكريمة هي:

أ ـ عندما انتصر المسلمون وافتضح المنافقون، قال المؤمنون بدهشة: أليس هؤلاء هم الذين أقسموا أيماناً غليظة أن ينصروكم؟

ب ـ بعد انتصارهم، يقول المؤمنون الحقيقيون لبعضهم: ألم يُقسم هؤلاء مرضى القلوب أنّهم ناصِرونا؟ لقد لمسنا كذب مدّعاهم.

ج ـ لقد أقسم هؤلاء الذين في قلوبهم مرض بأنّهم سوف ينصرون اليهود والنصارى، فهل استطاعوا حقّاً نصرتكم يا أهل الكتاب؟

التعاليم:

١ ـ كان النبي الكريم ﷺ يشهد المحاولات المفضوحة لبعض المسلمين من ضعاف الإيمان وتسابقهم للالتحاق باليهود والنصارى والتحالف معهم، ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾.

٢ ـ مرضى القلوب هم التجسيد الحيّ لأولئك الذين حُرموا الهداية الإلٰهيّة إذ تراهم يسارعون للانضمام إلى الكفّار وعقد التحالفات معهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ... ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. حرف الفاء في «فترى» استئنافية تشير إلى أنّ الظالمين في الآية السابقة هم مرضى القلوب المقصودون في هذه الآية.

---

(١) تفسير راهنما (التفسير المرشد).

٣ ـ مرضى القلوب ضعاف الإيمان، يسارعون في عقد التحالفات مع الأعداء الكفرة، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾.

٤ ـ يريد ضعاف الإيمان والمنافقون أن يتماهوا الكفّار، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾، لا أن ينضمّوا إليهم، «يسارعون إليهم».

٥ ـ لا اجتهاد ولا تحرّي للمصلحة في مقابل النصّ والحكم الصريح لله تعالى، ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ... أَوْلِيَاءَ... يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ﴾.

٦ ـ الباعث على عقد التحالفات الذليلة مع القوى الكبرى هو ضعف الإيمان والخشية من غير الله تعالى، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ﴾.

٧ ـ فليأمل المسلمون بالنصر، وانتشار الإسلام، وفضح المنافقين، وتعريتهم، ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ...﴾.

٨ ـ العزّة السياسيّة، والقدرة الاقتصاديّة، والنصر العسكري، كلّ ذلك بيد الله تبارك وتعالى وفيض من عنده، ﴿أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾.

٩ ـ لا تتولّوا الكفّار لكي يفيض الله تعالى عليكم من مدده، ﴿لَا تَتَّخِذُوا... أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾.

١٠ ـ عاقبة النفاق والتبعية للكفّار الحبط، والفضيحة، والعار، ﴿نَٰدِمِينَ﴾.

١١ ـ ليس كلّ قَسَم دليل محبة وصداقة، لذا، لا تنخدعوا بالأقسام، ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾.

١٢ ـ التبعية للأجانب تستتبع مذمّة المؤمنين وملامتهم، ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَهَٰٓؤُلَآءِ... إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾.

١٣ ـ تتجلّى خسارة الإنسان في تضييعه الأعمال الصالحة، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَٰسِرِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾

إشارات:

❑ روي أنّ النبي ﷺ سُئل عن هذه الآية فضرب بيده على عاتق سلمان فقال: **«هذا وذووه»**، ثم قال: **«لو كان الدين معلقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس»**[١].

❑ نبّهت الآيات السابقة إلى مسألة خطر تسلّط الكفّار والمنافقين على المؤمنين، وهنا تتحدّث الآية عن موضوع الارتداد. ربّما تريد الآية أن تشير إلى أنّ النفاق وتولّي الكفّار والقبول بسلطتهم سوف يؤدّي في النهاية إلى الارتداد عن الدين.

❑ وعن الإمام الباقر عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ أنّه قال: **«علي وشيعته»**[٢].

❑ ورد في روايات الفريقين أنّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر بعد أن عجز القوّاد من فتح قلعة خيبر: **«لأعطينّ هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله»**، فبات الناس يدركون أيّهم يُعطاها، فقال: **«أين علي بن أبي طالب»**؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: **«فأرسلوا إليه»**، فعالجه رسول الله ﷺ بوضع ريقه في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن له وجع، فأعطاه الراية»[٣].

التعاليم:

١ ـ على المؤمن أن يفكر في عاقبته، فكم من مؤمن ارتدّ عن الإسلام، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير فرات الكوفي، ص ١٢٣.

(٣) إحقاق الحق، ج ٣، ص ٢٠٠.

٢ ـ على الزعيم ذي الضمير الحيّ أن يضع في حسبانه احتمال ارتداد أتباعه، ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ...﴾.

٣ ـ كفر أو ارتداد فريق من المؤمنين لن يضرّ سبيل الله أو دعوته، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ...﴾.

٤ ـ عامل الارتداد هو الجهل وافتقاد المحبة للدين والله، ﴿يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

٥ ـ لا يحتاج الله إلى إيماننا، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ﴾.

٦ ـ ينبغي علينا ونحن نمضي في طريق الإيمان وكسر السنن والعادات الجاهلية ألّا نخشى اللوم، والتهويل، والدعاية المسمومة للأعداء، وأن لا نستسلم للضغوط، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

٧ ـ سلوك المسلم الرقّة والسماحة مع أخوته في الدين، والشدّة والغلظة على الأعداء، فلا إطلاق في أيّ منهما (الرقّة والشدّة) ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

٨ ـ فضل الله تعالى لا ينحصر في الثروة والجاه، بل إنّ محبّة الله، والجهاد في سبيله، والحزم في الدين، أيضاً من مظاهر اللطف والفضل الإلٰهيّ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾.

٩ ـ المحبّة المتبادلة بين الله وعبده هي من كمال الإنسان، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

١٠ ـ تصدّوا لليأس والخوف من خلال التبشير باستبدال القوم بقومٍ آخرين، ﴿مَن يَرْتَدَّ... فَسَوْفَ يَأْتِي... وَلَا يَخَافُونَ﴾.

١١ ـ المؤمن الحقيقي هو الذي يحبّ الله والله يحبّه، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

١٢ ـ المؤمن الحقيقي لا يشعر بالضآلة أبداً في مقابل الكفّار، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

١٣ ـ القلب الذي يخلو من حبّ الله، قلب مريض أسير الكفّار، أمّا القلب الذي يطفح بحبّ الله فلا يمكن أسره أبداً، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ... يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ... أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

١٤ ـ الإسلام ينتشر، فلا تشغلنا السلبيات عن النظر إلى الإيجابيات، ﴿مَن يَرْتَدَّ... يَأْتِي اللَّهُ﴾.

١٥ ـ راية الإسلام سوف يحملها قوم مجاهدون أشدّاء يحبّون الله، ﴿يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ... أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

١٦ ـ المؤمن الحقيقي لا تؤثّر فيه الحرب النفسية، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

١٧ ـ لا انتهاء لفضل الله تعالى، بيد أنّ الله يعطي كلاً بحسب ما تقتضيه حكمته، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٨ ـ لطف الله تعالى بعبده يكون عن علم وإحاطة، ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول الآية: سأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده إلى السماء وقال: أللهمّ اشهد بأنّي سألت في مسجد رسول الله ﷺ فلم يعطني أحد شيئاً، وكان علي عليه السلام راكعاً فأومى إليه بخنصره اليمنى وكان يختتم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين النبي الكريم ﷺ فلمّا فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال: «**اللهمّ موسى سألك فقال:** ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ **فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً:** ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا...﴾ **اللهمّ وأنا محمد نبيّك وصفيّك اللهمّ فاشرح لي صدري ويسّر لي أمريّ واجعل لي وزيراً عليّاً أشدد به ظهري**». وممّا ينبغي الإشارة إليه هو أنّ عشرة من صحابة النبي الأكرم ﷺ نقلوا هذه الرواية، وهم: ابن عباس، عمّار بن ياسر، جابر بن عبد الله، أبو ذر الغفاري، أنس بن مالك، بلال الحبشي... إلخ، وقد اتّفق الفريقان على سبب نزول هذه

(١) الغدير، ج ٢، ص ٥٢؛ إحقاق الحق، ج ٢، ص ٤٠٠ وكنز العمال، ج ٦، ص ٣٩١.

الآية[١]. ويقول عمّار بن ياسر: بعد أن تصدّق الإمام علي عليه السلام بخاتمه أثناء الصلاة، نزلت هذه الآية الكريمة حيث قال بعدها رسول الله صلى الله عليه وآله: **«مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه»**[٢].

- وفي غدير خم، تلا النبي الكريم صلى الله عليه وآله هذه الآية من أجل بيان مكانة الإمام علي عليه السلام ومنزلته الرفيعة[٣]. والإمام نفسه عليه السلام تلا في مناسبات عدّة هذه الآية للدلالة على حقّه[٤]. وأبو ذر الغفاري، أحد الذين شهدوا هذه الواقعة، قام برواية القصة أعلاه في المسجد الحرام على الناس[٥].
- لا شك أنّ كلمة «الوليّ» في هذه الآية لا تعني الناصر أو المحبّ، ذلك أنّ المحبة والنصرة تشمل كلّ المسلمين ولا تقتصر على الذين ينفقون وهم راكعون.
- يقول الإمام الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ : **«إنّما يعني أولى بكم أي أحقّ بكم وبأموركم وأنفسكم وأموالكم الله ورسوله والذين آمنوا يعني علياً وأولاده الأئمة عليهم السلام إلى يوم القيامة. وصيّر نعمة أولاده بنعمته فكلّ من بلغ من أولاده مبلغ الإمامة يكون بهذه الصفة مثله فيتصدّقون وهم راكعون»**[٦].
- ينقل المرحوم الفيض الكاشاني حديثاً يفيد أنّ جميع الأئمة المعصومين عليهم السلام تصدّقوا على الفقراء وهم قائمون للصلاة وفي حالة الركوع، ويستدلّ لذلك بورود الكلمات «يقيمون، يؤتون، راكعون» بصيغة الجمع.
- يقول الإمام الباقر عليه السلام: **«أمر الله عزّ وجلّ رسوله بولاية علي وأنزل عليه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾»**[٧].
- أفضل تعريف هو أن تذكر أوصاف الشخص وخصاله، ليقوم المخاطب نفسه بالبحث عن الشخص الذي تنطبق عليه تلك الأوصاف. (الآية الكريمة استعرضت الأوصاف والأفعال دونما تصريح باسم الإمام علي عليه السلام).

---

(١) تفسير الميزان.
(٢) تفسير الصافي.
(٣) تفسير الميزان.
(٤) تفسير مجمع البيان.
(٥) الكافي، ج ١، ص ٢٨٨.
(٦) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ١، ص ٢٨١.

❑ يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«لقد حضر الغدير اثنا عشر ألف رجل يشهدون لعلي بن أبي طالب عليه السلام فما قدر على أخذ حقه، وإنّ أحدكم يكون له المال وله شاهدان فيأخذ حقّه فإنّ حزب الله هم الغالبون في علي عليه السلام»**[1].

❑ ولاية الفقيه هي امتداد لولاية الإمام المعصوم، فقد جاء في مقبولة عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دينٍ أو ميراث فتحاكما إلى السلطان وإلى القضاة أيحلّ ذلك قال: **«من تحاكم إليهم في حقّ أو باطل فإنّما تحاكم إلى الطاغوت وما يحكم له فإنّما يأخذ سحتاً وإن كان حقّاً ثابتاً لأنّه أخذه بحكم الطاغوت، وقد أمر الله أن يُكفر به قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾** قلت: فكيف يصنعان؟ قال: **«ينظران إلى من كان منكم ممّن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً فإنّي قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه فإنّما استخفّ بحكم الله وعلينا ردّ، والرادّ علينا الرادّ على الله وهو على حدّ الشرك بالله»**[2].

التعاليم:

١ ـ الإسلام دين ولاية ودين براءة، جذب وطرد، فالآيات السابقة تنهى عن تولّي اليهود والنصارى، وهذه الآية تقول بتولّي الله ورسوله والذين يؤتون الزكاة وهم راكعون، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ... إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ...﴾.

٢ ـ لم تقل الآية الكريمة «أولياءكم» بل ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ وقد يسوقنا ذلك إلى أنّ جوهر ولاية النبي الكريم صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام هو شعاع الولاية الإلٰهيّة، ﴿وَلِيُّكُمُ﴾.

٣ ـ عادةً ما يذكر القرآن الكريم الصلاة والزكاة معاً، ولكن نلاحظ في هذه الآية أنّهما امتزجا في فعل واحد، إيتاء الزكاة أثناء أداء الصلاة، ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) الكافي، ج ١، ص ٦٧.

٤ ـ أولئك الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤدّون الزكاة، ليس لهم حقّ الولاية على الناس، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ...﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر، بمعنى حصر الولاية في أفراد خواص.

٥ ـ الصلاة لا تشكل مانعاً إذا أردنا مساعدة المحرومين، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾. إذاً، لا يجوز أن يعود الفقير من عند المسلمين بخفّي حنين.

٦ ـ الولاية لمن يحرص على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ... يُقِيمُونَ﴾ و﴿وَيُؤْتُونَ﴾ تدل على الاستمرار.

٧ ـ أيّ ولاية، أو حكومة، أو قيمومة، عن غير طريق الله أو الرسول أو الإمام، باطلة، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر.

٨ ـ إنّ الاهتمام بخلق الله وفي سبيل الله أثناء الصلاة لا ينقض التماهي مع الصلاة، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾.

٩ ـ من لم يهتمّ بشؤون الفقراء، لا ينبغي له أن يكون قائدكم أو وليّكم، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ... وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١٠ ـ الأفعال الصغيرة مثل التصدّق بالخاتم أثناء الصلاة لا تعتبر مخلّة بالصلاة وبالتالي لا تبطلها، ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾.

١١ ـ في الثقافة القرآنية يطلق مصطلح صدقة التطوّع على «الزكاة» أيضاً، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١٢ ـ تراتب الولايات طولي وليس عرضياً، والولاية على المسلمين تبدأ من الله تعالى فالنبي الكريم ﷺ فالإمام عليه السلام. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

إشارات:

- ذكرت الآية السابقة أنّ المقصود بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هو الإمام علي والأئمة المعصومون عليهم السلام.

□ ملامح حزب الله كما ترسمها الآية ٢٢ من سورة المجادلة هي:

١ ـ يؤمنون بالمبدأ والمعاد.

٢ ـ لا يتولّون أعداء الله.

□ تبيّن هذه الآية وجوب القبول بولاية الله تعالى ورسوله ﷺ، ثمّ تشرح أنّ المراد من ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ في الآية السابقة، هو الحاكم والقائد لا الصديق والناصر، ذلك أنّ في استخدام تعبير «حزب الله» وغلبته، إشارة إلى النظام المقتدر والدولة.

□ «**الحزب**»، في اللغة الجماعة التي فيها قوّة وصلابة، وكلّ قوم تشاكلت أهواؤهم وأعمالهم[1].

□ ولمّا كان النصر متعذّراً دون توفّر تشكيلات ،وقيادة ،وقوّة، ووحدة، وشجاعة، وغيرها، على هذا الأساس، فإنّ «حزب الله» يجب أن يتوافر على هذه الصفات إن كان يسعى إلى الحاكمية والغلبة.

□ حزب الله هم الغالبون والمنتصرون، مضافاً إلى أنّهم المفلحون، ﴿حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

□ قرأنا في الآية ٥٢ من هذه السورة أنّ طائفة من المسلمين تولّت الكفّار خشية أن يُدالوا، وهنا تشير الآية إلى أنّ حزب الله هم الغالبون، بمعنى أنّ أولياء الكفّار هم المغلوبون، فلا تلحقوا بهم، ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ... يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ... هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ حزب الله هم الوحيدون الذين تولّوا الله، ورسوله ﷺ، وأهل بيته عليهم السلام، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ... فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ النصر النهائي للذين ارتضوا ولاية الله، والنبي الكريم ﷺ، وأهل بيته عليهم السلام، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ... هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

---

(١) المعجم الوسيط.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

٣ ـ الله تبارك وتعالى غالب، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾[1]، ومن يتولّ الله يكن، بالطبع، غالباً أيضاً، ﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

٤ ـ حزب الله مطمئنون لمستقبلهم بفضل البشارات والوعود الإلٰهيّة، ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧)﴾

التعاليم:

١ ـ العذاب الدنيوي لمن يوجّهون الإساءة إلى دين الله والمقدّسات الدينيّة هو أن نقطع كلّ صلة بهم، ﴿لَا تَتَّخِذُوا...﴾، فاحترام المقدّسات شرط ضروري.

٢ ـ شرط الإيمان توافر الغيرة على الدين والبراءة من الأشرار، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا﴾.

٣ ـ السخرية من الدين، والحرب الباردة، والحرب النفسية، من جملة أساليب الأعداء في التصدّي للآخرين، ﴿اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا﴾.

٤ ـ التقوى الإلٰهيّة تقتضي أن لا نهاب الأعداء ولا نتولّاهم، ﴿لَا تَتَّخِذُوا... أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾

إشارات:

- روي في سبب نزول الآية الكريمة أنّ جماعة من اليهود وبعضاً من النصارى حين كانوا يسمعون صوت الأذان، أو حينما يرون المسلمين وهم يقيمون الصلاة يبادرون إلى الاستهزاء بهم، لذلك نزلت هذه الآية[2].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢١.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

التعاليم:

١ ـ حذار من التودّد وعقد الصداقات مع الذين يهزأون بالأذان والطقوس الدينية، ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ... وَإِذَا نَادَيْتُمْ﴾.

٢ ـ عدَّت الآية السابقة الصلاة الوجه المشرق للدين ومظهره المميّز، وتحدّثت عن الاستهزاء بالدين واتّخاذه هزواً ولعباً، وهنا تطرح الآية الكريمة مسألة الاستهزاء بالصلاة، لكونها وجه الدين ومظهره، ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا... وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾.

٣ ـ يجب أن يُنادى للصلاة ليجتمع الناس، ﴿نَادَيْتُمْ﴾، فينبغي إقامة الصلاة جهاراً.

٤ ـ يجب أن يُعلن عن الصلاة في المجتمع الإسلامي، ويُنادى إليها ولا يحق لأحدٍ الاعتراض على ذلك، ﴿نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٥ ـ التعاطي المنطقي هو أسلوب العقلاء، أمّا الحمقى فأسلوبهم الاستهزاء والسخرية، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

□ «تنقمون» مشتقة من مادّة «نقمة»، بمعنى تسخطون، وقيل: تكرهون، وقيل: تنكرون شيئاً معيّناً باللسان أو بالفعل، كما تأتي بمعنى العقوبة والجزاء[١].

التعاليم:

١ ـ ينبغي مجادلة المناوئين بالتي هي أحسن واستخدام أسلوب الاستدلال الممزوج بالأسئلة التي تثير المشاعر والعواطف، ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾.

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني.

٢ ـ إيمان المؤمنين هو سبب عداء الأعداء لهم، ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

٣ ـ إيمان المسلمين بجميع الكتب السماوية هو ما يثير أحقاد أهل الكتاب ضدّهم ويؤلّبهم عليهم، ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾.

٤ ـ عداء أهل الكتاب للمسلمين تاريخي ومتجذّر، ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾.

٥ ـ في إزاء مضايقات الأعداء، يجب أن نحافظ على اعتدالنا وعدالتنا وألّا نَسِم الجميع بالفسق، ﴿أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

٦ ـ التنكر للحقّ وإيذاء أهله فسق، ﴿فَٰسِقُونَ﴾.

﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

إشارات:

- إنّ كلمة «مَثُوبة» وكذلك كلمة «ثواب» تعنيان ـ في الأصل ـ الرجوع أو العودة إلى الحالة الأولى، كما تطلقان ـ أيضاً ـ لتعنيا المصير والجزاء (الأجر والعقاب)، لكنّهما في الغالب تستخدمان في مجال الجزاء الحسن وأحياناً؛ تستخدم كلمة (الثواب) بمعنى العقاب. وفي الآية جاءت بمعنى المصير أو العقاب[١].

- أحرى بأولئك الذين يسخرون من الدين والإسلام وصلاة المسلمين، ويؤذون المسلم بسبب إيمانه، أحرى بهم أن يعودوا إلى تاريخهم الأسود والمشين حينما باؤوا بغضبٍ من الله ومُسخوا وافتضحوا. صحيح أنّ اليهود في عصر النبي الكريم ﷺ لم يكونوا في صورة قردة أو خنازير، لكنّهم كانوا يعتبرون بني إسرائيل شعباً واحداً، له هويّة جمعية واحدة، وكانوا يتباهون بمفاخر أسلافهم

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

وينسبونها إليهم، لذا، فإنّ الكشف عن هذه الفضائح السابقة كسر لكبريائهم وغرورهم.

□ يعتقد عدد من المفسّرين أنّ اليهود مُسِخوا قردة بسبب انتهاكهم حرمةَ يوم السبت من خلال تحايلهم على الدين وابتداعهم الحيل الشرعية، وأنّ النصارى مسخوا خنازير بسبب إنكارهم مائدةَ السماء التي دعا النبي عيسى عليه السلام ربّه لينزلها عليهم[١].

التعاليم:

١ ـ العقوبة الإلٰهيّة تقوم على العدل والقسط، وإذا كان فريق من الناس قد مسخوا قردة وخنازير فذلك جزاءً بما كانوا يعملون، ﴿مَثُوبَةً﴾.

٢ ـ العابدون الطاغوتَ هم في مصاف الممسوخين، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

٣ ـ استذكار سوء عاقبة الأشرار عبر التاريخ إحدى وسائل القرآن الكريم في التربية، والإرشاد، والدعوة، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ﴾.

٤ ـ لا حرمة لمن ينتهك الحرمات، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ...﴾.

٥ ـ العذاب الشديد للانحراف الشديد، ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً... وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا يخدعنّكم تظاهر الشخص بالإيمان، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا... وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ التظاهر بالإيمان لفظاً، لا يعني رسوخه في القلب.

٢ ـ الله سبحانه وتعالى أعلم من الناس بضمائرهم، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾.

(١) تفسير راهنما (التفسير المرشد).

٣ ـ فليعلم الذين يتظاهرون بالإيمان نفاقاً أنّ الله عليم بما في صدورهم، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ... وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

إشارات:

- استكمالاً للآية السابقة التي تحدّثت عن روح الكفر والنفاق التي تسكن أهل الكتاب، تستعرض هذه الآية المفاسد الأخلاقيّة والاجتماعيّة والاقتصادية لهؤلاء.
- كلمة «سَحَت» تعني ـ في الأصل ـ نزع القشرة أو شدّة الجوع، ثمّ أطلقت على كلّ مالٍ غير مشروع، أي محرّم، لا سيّما الرشوة، لأنّ مثل هذه الأموال تنزع الصفاء والمودّة عن المجتمع وتزيل عنه البركة والرخاء مثلما يؤدّي نزع قشر الشجرة إلى ذبولها وجفافها، وعلى هذا الأساس، فإنّ لكلمة «سحت» معنى واسعاً، وإذا ورد في بعض الروايات مصداق خاص لها فلا يدلّ ذلك على اختصاص الكلمة بذلك[1].

التعاليم:

١ ـ ونحن ننتقد سلوك المنحرفين، يجب أن نتحلّى بالعدل والإنصاف، فالآية الكريمة تقول: ﴿كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ لا كلّهم.

٢ ـ من خصائص المجتمع الإسلامي، التسابق في الخيرات، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾[2]، فيما ملامح مجتمع الكفر والنفاق التسابق في الفساد ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾.

٣ ـ أقبح من الفساد الأخلاقي («الإثم»)، والفساد الاجتماعي («العُدوان») والفساد الإداري والاقتصادي («السُّحت»)؛ أقبح من ذلك كله الاعتياد على ممارسة الفساد والتسابق فيه، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. (٢) سورة المؤمنون: الآية ٦١.

كلمة ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ تدلّ على حالة الاستمرار.

٤ ـ كم من مدّعٍ للإيمان يحرز قصب السبق في ارتكاب المعاصي، والاعتداء، وأكل المال الحرام، ﴿وَتَرَىٰ... يُسَٰرِعُونَ﴾.

٥ ـ أقبح من ارتكاب المعصية، الاستغراق فيها حتى النخاع، ﴿فِي ٱلۡإِثۡمِ﴾.

٦ ـ على الرغم من أنّ العدوان وأكل المال الحرام هما من أمثلة الإثم والمعصية، إلّا أنّ الآية الكريمة ذكرت هاتين المعصيتين بصورة مستقلة لما فيهما من خطر كبير أو ربّما لشيوعهما في أوساط أهل الكتاب، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾.

﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝٦٣﴾

إشارات:

□ يقول الإمام علي عليه السلام في آخر خطبة «القاصعة»[١]: «... **فإنّ الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلّا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**».

□ «**الربّانيون**» علماء النصارى، و«**الأحبار**» علماء اليهود.

□ يقول الإمام الحسين عليه السلام في تفسير هذه الآية وسبب سكوت العلماء وتركهم الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر: «**رغبة في ما كانوا ينالون منهم أو رهبة مما يحذرون**»[٢].

□ والملفت للانتباه أنّ الآية السابقة أوردت عبارة ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في حديثها عن العاصين، وهذه الآية تستخدم عبارة ﴿مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ لتصف سكوت العلماء. يقول المرحوم الفيض الكاشاني: الفرق بين «يعملون»

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

(٢) تفسير راهنما (التفسير المرشد)؛ بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٧٩.

و«يصنعون» هو أنّ الصانع هو من يعمل بدقّة ومهارة بحيث يصبح العمل بالنسبة له عادة ومَلَكة.

التعاليم:

١ ـ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي مسؤولية العلماء بالدرجة الأولى، ﴿لَوْلَا يَنْهَنٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ...﴾.

٢ ـ صمت العلماء ولا مبالاتهم مقدمة لانتشار الفساد، ﴿وَتَرَىٰ... يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ... لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ﴾.

٣ ـ يجب أن تكون للعلماء سلطة ليتمكنوا، إلى جانب النصيحة والإرشاد، من التصدّي للمفاسد، ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ﴾.

٤ ـ إذا لم يكن النهي عن المنكر مؤثّراً في التصدّي للمعاصي، فإنّه سيعمل، على الأقل، على كبح جماحه، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ... لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ﴾.

٥ ـ علماء أهل الكتاب لم يعملوا حتى بالحدّ الأدنى من المسؤولية الملقاة على عاتقهم. الآية السابقة ذكرت من جملة ما اقترفوه من معاصٍ: الإثم والعدوان وأكل السحت، ولكن لم تأت هذه الآية على ذكر العدوان، وربّما كان ذلك إشارة إلى أنّه إذا لم يكن علماء أهل الكتاب قادرين على التصدّي للعدوان، فلماذا لم يقفوا، على الأقل، بوجه الإثم والسحت؟

٦ ـ جمال العلم يتمثّل في إبرازه، وقبحه هو في الصمت والكتمان، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

٧ ـ صمت العالِم أقبح من ذنب العاصي، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

٨ ـ لا يشكل أيّ من: الجهر بالمعصية، وكثرة العاصين، وسرعة ارتكاب المعاصي، وتعدّد المعاصي عذراً لصمت العلماء، ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ... لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ﴾.

(كلمة **«ترى»** تشير إلى الجهر بالمعصية، وكلمة **«كثير»** إلى وفرة العدد، وكلمة **«يسارعون»** إلى السرعة في ارتكاب المعصية، والكلمات **«إثم»**، **«عدوان»** و**«سُحت»**، تشير إلى تنوّع المعاصي).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

إشارات:

- أشارت الآية السابقة إلى تخرّصات اليهود ﴿قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ وعدم تصدّي علمائهم لهذه الأعمال، ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ﴾، وهذه الآية الكريمة تذكر مثالاً آخر على تلك التخرّصات إذ كان اليهود يقولون: يد الله (والعياذ بالله) مغلولة ومقيّدة بالسلاسل وأنّه لم يعد يستطيع أن يمنحنا القوة والمهابة التي كانت لنا في الماضي.

- ورد في الروايات أنّ هذه الآية تشير إلى معتقدات اليهود في القضاء، والقدر، والمصير؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ يد الله في بداية الخليقة كانت مطلقة، لكنّه وبعد أن خلق كلّ شيء غُلّت يده وقيّدت.

- يقول الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: «**اعتقد اليهود أنّ الله قد فرغ من الأمر فلا يزيد ولا ينقص**»[1].

- ولا بدّ هنا من أن نلفت الانتباه إلى أنّ كلمة «اليد» في اللغة العربيّة بالإضافة إلى معناها المعروف وهو عضو جسم الإنسان، فهي ترمز أيضاً إلى السلطة والسطوة، كأن نقول مثلاً: فلان له يد نافذة في هذه المنطقة أو المؤسّسة، أو قطعت يده عن بلادنا، أو العين بصيرة واليد قصيرة. كما ورد في بعض الروايات أنّ الأولياء هم يد الله، أي بمعنى واسطة اللطف الإلٰهيّ إلى الناس.

- يفسّر الإمام الباقر عليه السلام قوله عز وجل: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا﴾... بالقول: «**كلّما أراد جبّار من الجبابرة هلكة آل محمد صلى الله عليه وآله قصمه الله**»[2].

---

(١) تفسير نور الثقلين؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، ص ١٦٧.

(٢) تفسير العياشي.

□ ويقول العلامة محمد حسين الطباطبائي: حيثما ذُكر الفقر والجوع والقحط في القرآن الكريم، أو ذكرت الآيات مسألة القرض الحسن لله قالوا: هذا القحط وهذه التوصية على القرض الحسن دليل على أنّ يد الله مغلولة.

التعاليم:

١ ـ من أظهر الرضا والقبول بمعاصي الآخرين كمن شاركهم وزرها، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾؛ فعلى الرغم من أنّ بعض اليهود كانوا يفترون على الله بالقول إنّ يده مغلولة، إلا أنه نُسب هذا الافتراء إليهم جميعاً بسبب إظهار الرضا.

٢ ـ ينبغي ألّا نبرّر قصورنا وعدم كفايتنا، فالشيطان برّر غروره وتكبّره بإغواء الله إيّاه، ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي...﴾[1]، واليهود علّلوا حرمانهم ببخل الله (والعياذ بالله) ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

٣ ـ الردّ على الشبهات يجب أن يكون أقوى من الشبهات نفسها ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ. . . يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾؛ (فهم وصفوا يدا واحدة لله تعالى بالغل، فقال بل يداه مبسوطتان، أي له كمال القدرة).

٤ ـ ينبغي أن يتناسب التوبيخ مع حجم العمل أو شدّته، ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

٥ ـ القرآن الكريم نور وهداية للمتّقين، وفي المقابل لا يزيد المعاندين الألداء إلّا طغياناً وكفراً، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ... طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾.

٦ ـ الطغيان والكفر عاملان لزرع بذور العداوة والحقد، ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ...﴾.

٧ ـ لم يكفّ اليهود يوماً عن إشعال الفتن، لكنّ الهزيمة كانت لهم بالمرصاد في كلّ مرّة، ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾.

٨ ـ كلٌّ من عند الله، إلقاء العداوة والبغضاء في قلوبهم كعقاب لهم، ومن ثمّ إطفاء نار الحرب، ﴿وَأَلْقَيْنَا... أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾.

٩ ـ بأعمالنا نحظى بمحبّة الله أو نبوء بغضبه وسخطه، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٣٩.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾

التعاليم:

١ ـ كثيرون من أهل الكتاب المعاصرين للنبي الكريم ﷺ كانوا قوماً لا إيمان لهم ولا تقوى، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾.

٢ ـ الإيمان والتقوى يقوّمان أيّ انحراف، ويمحوان ما فات من الانحرافات والاعوجاجات، ﴿لَكَفَّرْنَا﴾؛ (جاء في الحديث النبوي الشريف: «**الإسلام يجبُّ ما قبله**»)[1].

٣ ـ إذا أردنا أن ننهل من ألطاف الله تعالى، فيجب أوّلاً أن نتطهّر من ذنوبنا، ﴿لَكَفَّرْنَا... وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ﴾.

٤ ـ إنّ الله ذو عفو ولطف أيضاً، ﴿لَكَفَّرْنَا... وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

- بيّنت الآية السابقة دور الإيمان وأثره في تحقيق السعادة الروحية والأخروية، وهذه الآية تبيّن دور الإيمان في السعادة الدنيوية وتحقيق الرفاهية الاقتصاديّة.
- لو أنّ أتباع الكتب السماوية آمنوا بالقرآن وسلّموا له، ولم ينظروا إلى المسألة على أنّها استسلام اليهود للعرب، وعرفوا أنّ الأصول والتعاليم التي جاء بها الأنبياء واحدة، واعتبروا أنّ الإيمان بما نزل بعد التوراة والإنجيل بمثابة ارتقاء إلى رتبة أعلى وليس نسخاً للشرائع السابقة، لو أنّهم سلّموا بكل هذا، لأغدق الله عليهم، مضافاً إلى الثواب الأخروي، من نعم الدنيا وأنزل عليهم بركات السماء مدراراً.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٢.

□ جرى الحديث في الآية السابقة عن عقيدة اليهود في كون يد الله مغلولة بحسب زعمهم، وهنا تقول الآية: الأحرى بكم أن ترجعوا إلى كتب السماء، ثم احكموا إن كانت يد الله مغلولة أو مبسوطة؟ إنّ تبدّل عظمة اليهود السابقة إلى ذلّ وهوان هو، في الحقيقة، نتيجة طبيعية لكفرهم وتمرّدهم على الأحكام السماوية وليس ما زعموه من أنّ الضعف والعجز اعترى الذات الإلٰهيّة المقدّسة (والعياذ بالله) أو أنّ يده أصبحت مغلولة.

□ شبيه هذه الآية، ما ورد في الآية ٩٦ من سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

□ **سؤال**: هل إنّ العمل بالكتب السماوية يؤدّي إلى إغداق الرزق والنعم؟

الجواب هو: إمّا أن يوسّع الله الرزق على سبيل الثواب والأجر، أو أنّ الطرق الطبيعية لكسب الرزق مذكورة في الكتب السماوية نفسها وأنّهم سيحصلون عليها في حال عملوا بما جاء في تلك الكتب.

□ كان رسول الله ﷺ يقول: «**تفرّقت أمّة موسى على إحدى وسبعين ملّة، سبعون منها في النار وواحدة في الجنّة، وتفرّقت أمّة عيسى على اثنتين وسبعين فرقة إحدى وسبعون فرقة في النار وواحدة في الجنّة، وتعلو أمّتي على الفرقتين جميعاً بملة، واحدة في الجنّة واثنتان وسبعون في النار، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: الجماعات الجماعات**». قال يعقوب بن يزيد: كان علي بن أبي طالب عليه السلام إذا حدّث هذا الحديث عن رسول الله ﷺ تلا فيه قرآناً: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ وتلا أيضاً: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعني أمّة محمد ﷺ[1].

التعاليم:

١ ـ الكتب السماوية غير المحرّفة، بمثابة الدستور، والمحور، والدليل، الذي

(١) تفسير نور الثقلين.

تهتدي بهديه جميع الحركات، وهي كالراية يجب أن تكون دائماً خفّاقة، ﴿أَقَامُواْ﴾.

٢ ـ إذا أردنا دعوة الآخرين إلى الإسلام فينبغي أن لا نمسّ معتقداتهم ومقدّساتهم الحقّة بسوء ﴿أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ...﴾.

٣ ـ تلاوة الكتب السماوية لا تكفي، بل يجب العمل بها أيضاً، ﴿أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾.

٤ ـ جميع الكتب السماوية لها حرمة وقدسية، ﴿أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم﴾.

٥ ـ القرآن جاء لكلّ الأمم وليس المسلمين فقط، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

٦ ـ يهتمّ الإسلام، أيضاً، بتحقيق الرفاهية للناس، ﴿لَأَكَلُواْ﴾.

٧ ـ اتّباع التعاليم الدينية، سوف ينعكس على تنظيم الحياة المادّية أيضاً، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ... لَأَكَلُواْ﴾.

٨ ـ في المنظومة الكونية، يلعب إيمان الإنسان دوراً في خصوبة الأرض الزراعية ونزول المطر وتطوّر الزراعة ووفرة المحاصيل[1]، ﴿أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ... لَأَكَلُواْ﴾.

٩ ـ المجتمع الفاسد لا يكره الإنسان على الانحراف نحو الفساد، فحتى في أوساط الفاسدين يوجد بعض المعتدلين، ﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ﴾.

١٠ ـ العمل بالكتب السماوية يقتضي مراعاة الاعتدال، وعدم التورّط في الإفراط والتفريط، ﴿مُّقۡتَصِدَةٞۖ﴾.

١١ ـ حذار من أخذ جميع أفراد الطائفة، أو العرق، أو المنطقة، أو المذهب، بجريرة بعضهم، ﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ﴾.

١٢ ـ الكثرة ليست دليل حقّ، ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾.

---

(١) تفسير الميزان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

إشارات:

- تتعلّق هذه الآية، للأسباب التي سيأتي ذكرها، بخلافة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وتنصيبه للولاية في غدير خم حين عودة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من حجّة الوداع في السنة العاشرة للهجرة. والملفت في الأمر هو أنّ هذه الآية تتوسّط آيتين تتحدّثان عن موضوع العمل بالكتب السماوية، وربّما كانت إشارة إلى أنّ ثمّة وشيجة محكمة تربط بين القائد المعصوم وبين الكتاب السماوي. نعم، وحده الإمام الذي بمقدوره أن يقيم الكتاب السماوي، وفي المقابل فإنّ كتاب الله هو الذي بإمكانه الكشف عن الإمام الحقيقي وتعريفه للناس.

- يتّفق جميع مفسّري الشيعة، الذين يستندون إلى روايات أهل البيت عليهم السلام، وبعض مفسّري أهل السنّة، على أنّ أحد أسباب نزول هذه الآية يعود إلى تنصيب علي بن أبي طالب عليه السلام لولاية وإمامة المسلمين في واقعة غدير خمّ[1]. والمثير للدهشة أنّ صاحب تفسير المنار ينقل حديث «من كنت مولاه فعليّ مولاه» بسند صحيح وموثّق عن مسند أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، ثمّ يقوم، بحسب وهمه، بالتشكيك فيه عبر طرح استدلالين: الاستدلال الأول، أنّ المقصود بالولاية هو المحبّة والصداقة؛ (متناسياً أنّ الصداقة أو المحبّة لا تحتاج إلى البيعة وتقديم التهاني وكلّ تلك المراسم التي جرت في غدير خم)، الاستدلال الثاني الذي يطرحه هؤلاء هو: إذا كان علي بن أبي طالب عليه السلام حقّاً قد نُصّب إماماً وخليفة للمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فلماذا لم يصرخ بأعلى صوته ليشرح حادثة تنصيبه في غدير خم؟! (هذا في الوقت الذي يتناسى صاحب المنار أنّ كتاب نهج البلاغة يزخر بآهات الإمام علي عليه السلام

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي؛ تفسير المنار.

وشكاواه من إغماط حقّه، كنت أسمعت لو ناديت حياً؛ ولكن لا حياة لمن تنادي)[١].

- هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي تخاطب النبي الكريم ﷺ بلغة تهديدية إن هو كتم أو لم يبلّغ ما أنزل إليه، فإنّ جهوده في الدعوة إلى دين الله طيلة ٢٣ سنة ستذهب هباءً. إذن، يجب سبر فحوى الرسالة المهمّة التي يريد إيصالها بهذه الطريقة الملفتة.
- يقول النبي الكريم ﷺ للإمام علي عليه السلام: **«لو لم أبلّغ ما أُمرتُ به من ولايتك لحبط عملي»**[٢].
- تستبطن الآية الكريمة ملاحظات عدّة تشير إلى الوجهة التي يتّخذها مضمونها:

١ ـ لقد نزلت سورة المائدة المباركة قبيل رحلة النبي الأكرم ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

٢ ـ تذكر الآية عبارة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ بدلاً من **«يا أيّها النّبي»**، وفي ذلك دلالة على وجود رسالة مهمّة يحملها للناس.

٣ ـ الآية الكريمة تستخدم كلمة «بلّغ» وهي أكثر توكيداً من «أبلغ» وتحمل إبلاغاً قطعياً ورسمياً مهمّاً.

٤ ـ لقد هُدّد النبي الكريم أنّه إذا لم يبلّغ هذه الرسالة المهمّة فإنّ كلّ جهوده في الدعوة ستضيع.

٥ ـ تُطَمْئِن الآية الكريمة الرسول الكريم ﷺ وكأنّ أمراً يقلقه وتطلب منه أن يهدّئ من روعه وأن لا يخشى الناس لأنّ الله يحفظه من شرّهم.

٦ ـ لا يخاف النبي الكريم ﷺ على نفسه، فقد انبرى وحيداً لمحاربة عبدة الأوثان، وحمل السلاح ضدّ المشركين في حروب مريرة، فهو ﷺ لا

---

(١) أكتب هذه السطور في ليلة استشهاد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام منتصف ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان ٢٠٠١.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الشيخ الصدوق، الأمالي، ص ٤٠٠.

يهاب الأخطار. (لم يخش النبي الكريم شيئاً عندما كان المشركون ينهالون عليه بالحجارة، وأصحابه يتعرّضون لأقسى أنواع التعذيب، فهل يخاف وهو في أواخر العمر ووسط هذا الجمع الغفير من أصحابه)؟!

٧ ـ تحمل الآية الكريمة رسالة توازي من حيث الأهميّة جميع الرسالات طيلة عصر النبوة والرسالة، وإذا لم تبلّغ هذه الرسالة للناس، فكأنّه عمل على محو جميع الرسالات السابقة.

٨ ـ لا بدّ أن تكون الرسالة حاملة قضيّة كبرى وأساس، وإلّا فالمسائل الثانوية والشخصيّة لا تحتاج إلى كلّ هذا التهديد والوعيد، وهذا التسكين والتطمين.

٩ ـ لا تتعلّق رسالة الآية بموضوع التوحيد، أو النبوة، أو المعاد، لأنّ هذه الموضوعات قد طُرحت في مكة في الأيّام الأولى للبعثة، فلا حاجة لكلّ هذه الوصايا في المحطة الأخيرة للعمر.

١٠ ـ كما إنّ رسالة الآية لا تتناول موضوعات الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والخمس، والجهاد؛ لأنّها أشبعت شرحاً وبياناً طيلة ٢٣ سنة من دعوة النبي الأكرم ﷺ، والناس بدورهم عملوا بها وليس ثمّة ما يقلق في هذا المجال.

إذن، ما هو مضمون تلك الرسالة المهمّة التي نزلت على النبي الكريم ﷺ في أواخر عمره الشريف؟

في الحقيقة، توجد جمهرة من روايات الفريقين انتشلتنا من هذه الحيرة وأنارت لنا دربنا، تقول هذه الروايات: تتحدّث الآية الكريمة عن يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ غَدِيرِ خُمٍّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَجَرٍ يُدْعَى الدَّوْحَ فَقُمَّ مَا تَحْتَهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لَمْ أَجِدْ لِنَبِيٍّ إِلَّا نِصْفَ عُمُرِ النَّبِيِّ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ وَ إِنِّي أَوْشَكَ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ فَقَالَ: كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا كَمَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ

مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ؟ وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَلَى، فَأَوْمَأَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: وَأَنَا مَعَكُمْ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَنَا لَكُمْ فَرَطٌ، وَأَنْتُمْ وَارِدُونَ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَسَعَتُهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى بُصْرَى، فِيهِ عَدَدَ الْكَوَاكِبِ قِدْحَانٌ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ الْفِضَّةِ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخلُفُونِّي فِي الثَّقَلَيْنِ؟ فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الثَّقَلَانِ؟ قَالَ: الْأَكْبَرُ، كِتَابُ اللَّهِ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ وَ[الثَّانِي] سَبَبُ طَرَفِهِ بِأَيْدِيكُمْ، فَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، وَلَا تَزِلُّوا وَلَا تَضِلُّوا، وَالْأَصْغَرُ: عِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، سَأَلْتُ رَبِّي ذَلِكَ لَهُمَا، فَلَا تقدمُوهُمْ فَتَهْلِكُوا، وَلَا تَتَخَلَّفُوا عَنْهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلَا تُعَلِّمُوهُمْ فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ[1] ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ[2].

ولم يتفرّق القوم حتى أعلن رسول الله ﷺ صراحةً تنصيب علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة على المسلمين من بعده.

يا للعجب، من له ظلامةٌ يُنصف بمجرّد أن يأتي بشاهدين اثنين، في حين أنّ الإمام علياً عليه السلام لم يُنصف ولم يستطع أن يأخذ حقّه على الرغم من وجود عشرات الآلاف من الشهود. يا لحبّهم هذه الدنيا وحسدهم، ويا لنيران أحقاد بدر، وخيبر، وحنين، التي تأجّجت في قلوبهم ضدّ الإمام علي عليه السلام.

---

(١) قال الحافظ أبي القاسم سليمان أحمد الطّبراني في المعجم الكبير ج ٣ ص ٦٦ قال: حدّثنا محمّد بن عبد اللّه الحضرمي، حدّثنا جعفر بن حميد، حدّثنا عبد الله بن بكير الغنوي عن حكيم بن جبير، عن أبي الطّفيل، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي لكم فرط، و إنّكم واردون عليّ الحوض، عرضه ما بين صنعاء إلى بصرى، فيه عدد الكواكب قدحان مائه أشدّ بياضا من الفضّة، فانظروا كيف تخلفونّي في الثّقلين». فقام رجل فقال: يا رسول الله وما الثّقلان؟ فقال رسول الله ﷺ: «الأكبر كتاب الله، سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم فتمسّكوا به، لن تزالوا ولا تضلّوا، والأصغر عترتي، وإنّهم لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، وسألت لهما ذاك ربّي فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تعلّموهما فإنّهما أعلم منكم». أنظر: الحديث ٢٦٨٠ و ٢٦٨١.

(٢) المسترشد في إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام، ص ٤٦٧.

□ يقول الإمام الباقر عليه السلام: «بُني الإسلام على خمسٍ: على الصلاة، والزّكاة، والصوم، والحج، والولاية، ولم ينادَ بشيءٍ كما نودي بالولاية فأخذ النّاس بأربعٍ وتركوا هذه»[1]!

□ أمّا الإمام الرضا عليه السلام فيقول: «أمّا بعد قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فإنّه [النبي الكريم] أزال كلّ تقيّة بضمان الله عزّ وجلّ، وبيّن أمر الله تعالى، ولكن قريشاً فعلت ما اشتهت بعده وأمّا قبل نزول الآية فلعلّه»[2].

التعاليم:

١ ـ يجب أن تتناسب طبيعة الخطاب مع طبيعة الهدف، ذلك أنّ الهدف هو إبلاغ الرسالة وإيصالها إلى المستمعين، كما إنّ الخطاب هو، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

٢ ـ اختيار القائد الإسلامي للإمام المعصوم يجب أن يكون من قبل الله تعالى وبأمره، ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾.

٣ ـ أحياناً يجب أن يكون إبلاغ الرسالة الإلٰهيّة بحضور الناس وضمن مراسم عامّة يتمّ فيها أخذ البيعة، فلا يكفي إبلاغ موضوع الولاية خطابياً فقط، بل لا بدّ أن يقترن ذلك بالفعل. الآية الكريمة تقول: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ﴾ ولم تقل: «إن لم تبلّغ»، فتأمّل ذلك جيّداً.

٤ ـ الأحكام والرسائل الإلٰهيّة ليست في مستوى واحد، فتارة يكون كتمان حقيقة ما يعادل كتمان جميع الحقائق، ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾.

٥ ـ في غياب القيادة الحكيمة، يتلاشى الدين وتضلّ الأمّة طريقها، ﴿فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾.

---

(١) الكافي، ج ٢، ص ١٨.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٣٠.

٦ ـ الركن الرئيس في الإسلام هو الإمامة والحكومة، ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

٧ ـ إنكار الولاية نوع من الكفر، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

٨ ـ الزمان والمكان عنصران مهمّان في الدعوة، إذا ما لاحظنا أنّ هذه الآية الكريمة قد نزلت في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة وفي مكان يعدّ مفترق طرق لقوافل الحجّ.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

إشارات:

□ القرآن كتاب سماوي ووسيلة هداية، بيد أنّ بعضاً، وبسبب روح اللجاج والعناد التي تسكنه، عندما تُتلى عليه آيات الله يكشف عن خبثه ودنسه أكثر فأكثر.

□ سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ قال: **«هو ولاية أمير المؤمنين عليه السلام»**[1].

التعاليم:

١ ـ يجب على أهل الكتاب الإيمان بجميع الكتب السماوية، ﴿تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾.

٢ ـ لا يكفي الإنسان أن يدّعي الإيمان، بل يلزم أن يقوم بخطوات عملية، ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا﴾.

٣ ـ يجب أن تكون شرائع السماء هي المحور وأن تكون لها الحكومة، ﴿تُقِيمُوا﴾.

---

(١) تفسير العياشي.

٤ ـ شخصيّة الإنسان وقيمته في مدى التزامه بالواجبات الدينية، ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟﴾.

٥ ـ ينبغي علينا عند دعوة الآخرين احترام معتقداتهم الصحيحة، ومن ثمّ طرح برنامجنا، ﴿تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٦ ـ الطغيان هو شرارة الكفر، ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

٧ ـ الطغيان والكفر يشتدّان تارة ويخفّان أخرى، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾.

٨ ـ طائفة صغيرة فقط من أهل الكتاب على الطريق الصحيح، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾.

٩ ـ لا يجوز إبداء الأسى والأسف على ضلال فئة كافرة ولجوجة، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ... فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

إشارات:

- ذُكر «**الصابئة**» ثلاث مرات في القرآن الكريم إلى جانب اليهود والنصارى، وهم أتباع أحد الأديان السماوية، لكنّهم مع مرور الوقت انحرفوا عن مسارهم وذلك بإيمانهم بتأثير النجوم واعتزال الناس والابتعاد عن معاشرتهم، كما إنّهم يمارسون بعض الطقوس والعادات الخاصة في حياتهم اليومية.

- على أتباع مختلف الأديان أن يؤمنوا بالدين الجديد، وإلّا فإنّ بعثة الأنبياء اللّاحقين ستكون عبثاً وليس لها معنى. لا خيار لليهود، والنصارى، والصابئة، إلّا الإيمان بالنبي الكريم كما آمن المسلمون، وأن يعملوا صالحاً، حينذاك لن يمسّهم خوف أو حزن.

- من بين جميع الأديان القديمة، تذكر الآية الكريمة اليهود ،والنصارى، والصابئة، ويعود ذلك إلى أنّهم أتباع الأديان الإلٰهيّة، وهم أولى بالإيمان بدعوة الحقّ.

التعاليم:

١ ـ الأصول المشتركة التي تجمع الأديان السماوية هي الإيمان بالله وبيوم القيامة وبرسالات الأنبياء، ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ...﴾.

٢ ـ معيار السعادة في جميع الأديان السماوية هو الإيمان والعمل الصالح، لا السمعة والفخر، ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ...﴾.

٣ ـ لا ينفصل الإيمان عن العمل، ﴿ءَامَنَ... وَعَمِلَ﴾.

٤ ـ يتحقّق الأمن والسكينة الحقيقيّة في ظلّ الإيمان والعمل الصالح، ﴿ءَامَنَ... وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ٧٠﴾

إشارات:

- لعلّ المقصود بميثاق بني إسرائيل هو نفس مضمون الآية السابقة أي الإيمان بالله، والمعاد، والعمل الصالح، أو اتّباع الأنبياء الوارد ذكرهم في الآية ﴿رُسُلٗا﴾، أو ربّما المقصود هو الميثاق المذكور في الآية ٩٣ من سورة البقرة والآية ٨١ من سورة آل عمران، أي العمل بما أنزل الله سبحانه عليهم.

- قلنا في تفسير الآية السابقة إنّ مجرّد أن يكون المرء من أتباع الديانات السابقة لا ينجيه من عذاب الله، بل يلزمه الإيمان والعمل الصالح. هذه الآية هي، في الحقيقة، مثال على الآية السابقة، إذ إنّ بني إسرائيل، على الرغم من كونهم يتبعون إحدى الأديان السماوية، إلّا أنّهم لم يتورّعوا عن ارتكاب أيّ فعلٍ مشين.

- يُستشفّ من استهلال هذه السورة المباركة بعبارة: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، وذكرها قصّةَ الغدير في الآية ٦٧ والتي تتحدّث عن نقض العهود وقتل أولياء الله وتكذيبهم، يُستشفّ من هذه المؤشرات أنّ هذه الآيات وفي إطار فضحها

أساليب بني إسرائيل وألاعيبهم فهي، في الوقت ذاته، تدقّ ناقوس الخطر للمسلمين لئلا يتجاهلوا رسالة غدير خم.

التعاليم:

١ ـ مضافاً إلى النبي موسى عليه السلام، فقد أُرسِل إلى بني إسرائيل أنبياء آخرون، ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾.

٢ ـ طريق الأنبياء يختلف عن طريق الأهواء النفسية، ﴿جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾.

٣ ـ الأهواء النفسية لبني إسرائيل هي العامل الرئيس وراء تكذيبهم الأنبياء وقتلهم إيّاهم، ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾.

٤ ـ نقض العهود، وقتل الأنبياء وتكذيبهم، والإصرار على اللجاج، والعناد، هي الخصال التي وصمت بني إسرائيل، ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

٥ ـ في المجتمعات الفاسدة تتعرّض سيرة المؤمنين إلى الإساءة والتشويه أو يُكذّبون أو يُقتلون، ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

٦ ـ كان الأنبياء يضحّون بأرواحهم في سبيل الله، ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

إشارات:

- يمكن تفسير كلمة ﴿فِتْنَةٌ﴾ هنا بالامتحان أو العذاب.
- ظنّ بنو إسرائيل أنّ الامتحانات أو نزول السخط والعذاب الإلٰهيّ مقتصر على عصر موسى عليه السلام وبالتالي فلن يمسّهم شيء من ذلك، من هنا كانوا منصرفين إلى حياتهم المادّية والرفاهية غير آبهين بآيات الله.
- وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال:

«حيث كان النبي بين أظهرهم، فعموا وصموا حيث قُبض رسول الله ﷺ، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ حيث قام أمير المؤمنين عليه السلام، قال: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ إلى الساعة»[1].

التعاليم:

١ ـ الامتحان الإلٰهيّ عام، فلا تأمنوا الفتن أبداً أن تصيبكم، ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

٢ ـ يجب أن لا تبنى العقائد على الظنّ والحدس، ﴿وَحَسِبُوٓا۟﴾.

٣ ـ ليس مهمّاً أن يكون المرء على الطريق المستقيم ردحاً من الزمن، بل العبرة في حسن الخاتمة، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾، تشير ﴿ثُمَّ عَمُوا۟﴾ إلى أنّ بني إسرائيل بعد أن تاب الله عليهم وشملهم بلطفه، ساروا لفترة على الطريق المستقيم، لكنّهم عادوا سيرتهم الأولى.

٤ ـ الغرور، والاستعلاء، والظن، والوهم، كلّها حُجُب تعمي عيني الإنسان وتصمّ أذنيه عن سماع الحقائق، ﴿وَحَسِبُوٓا۟... فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾.

٥ ـ لا يظنّن أحد أنّ بإمكانه ارتقاء السلّم دون امتحان، ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

٦ ـ ما أعظم اللطف الإلٰهيّ فهو يغمر الإنسان حتى قبل توبته، ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ الله تعالى رحمن، غير أنّ الإنسان لجوج عنيد، ﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟﴾.

٨ ـ كثرة السالكين ليست دليلاً على حقّيّة الطريق، ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾.

٩ ـ إيمان الإنسان بأنّ الله من فوقه رقيب له تأثير كبير على حياته، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ﴾.

---

(١) الكافي، ج ٨، ص ٢٠٠.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات:

- جاء في تفسير مجمع البيان: تقول الطائفة اليعقوبية في الدين المسيحي: لقد تماهت ذات المسيح في ذات الله فأصبحتا شيئاً واحداً.
- توضّح هذه الآية عقيدة بعض المسيحيين الذين يؤمنون بأنّ الله هو المسيح، وتشير الآية التالية إلى عقيدة التثليث التي تؤمن بها طائفة أخرى من المسيحيين. والملفت في الأمر هو أنّنا نقرأ في إنجيل مرقص (الباب ١٢، الإصحاح ٢٩) أنّ عيسى عليه السلام يدعو الناس إلى التوحيد إذ يقول:

فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. وفي إنجيل متّى أيضاً (في الباب ٦ الإصحاح ٢٤) نقرأ: لا يقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال.

- ويقول الإمام الصادق عليه السلام في الكبائر: «**أكبر الكبائر الشرك بالله**»، ثمّ تلا هذه الآية ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ عقيدة حلول الله تعالى في المخلوقات كفر، حتى لو كان ذلك المخلوق أشرف البشر، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا...﴾.

٢ ـ أنّى لمن وُلد من رحم امرأة أن يكون إلهاً؟ ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

٣ ـ حذار من الغلوّ في أولياء الله والأطهار والصالحين، فعيسى نفسه كان يدعو إلى عبادة الله، ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ...﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٦؛ عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٢٨٥.

٤ ـ لن يدخل المشرك الجنّة أبداً، ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ...﴾.

٥ ـ الذين يؤمنون بأنّ عيسى هو الله، كفّار ومشركون وظالمون ولن يدخلوا الجنّة أبداً، ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ... مَن يُشۡرِكۡ... وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾.

٦ ـ الشرك بالله ظلم، ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾.

٧ ـ الشفاعة موجودة في يوم القيامة، لكنّ المشركين محرومون منها، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾.

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾

إشارات:

- فنّدت الآية السابقة عقيدة حلول الله في المسيح، وتبيّن هذه الآية انحراف عقيدة التثليث وبطلانها، فكلتاهما شرك يجب محاربتهما.
- تقول عقيدة التثليث إنّ الألوهيّة تتوزّع على الأقانيم الثلاثة الله والمسيح والروح القدس (الآب والابن والروح القدس)؛ ولكن يقال: إنّه ظهرت في الفترة الأخيرة جماعة من العلماء المسيحيين تنزع عن عقيدة التثليث الاعتبار العلمي[1].

التعاليم:

١ ـ الإسلام يهتمّ بانحراف عقائد أتباع الأديان السماوية الأخرى، ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ...﴾.

٢ ـ الشرك وعقيدة التثليث كفر، ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ...﴾.

٣ ـ لن يُعذّب جميع الذين آمنوا بعقيدة التثليث، ﴿كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ...﴾؛ بل فقط أولئك الذين استمرّوا عليها حتى بعد دعوة القرآن لهم بالعودة إلى التوحيد.

(١) تفسير الميزان.

٤ ـ يجب توجيه الإنذار قبل العذاب، ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ﴾.
٥ ـ عاقبة الكفر والشرك هي العذاب الأليم، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يجب التوبة والعودة عن العقائد المنحرفة، ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾.
٢ ـ يجب دعوة المنحرفين إلى الطريق المستقيم عبر الإشارة إلى العفو والرحمة الإلٰهيّة، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.
٣ ـ الله تعالى يغفر حتى الكفر والشرك إذا ما تاب العبد وعاد إلى عقيدة التوحيد، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ... وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.
٤ ـ الله سبحانه يعفو عمّا سلف وينزل رحمته، ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.
٥ ـ إلى جانب ذكر العذاب في الآية السابقة، تتحدّث هذه الآية عن الرحمة التي تغمر التائبين، ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ... عَذَابٌ أَلِيمٌ... وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

إشارات:

□ تستعرض الآية الكريمة ثلاثة أدلة على أنّ عيسى عليه السلام ليس هو الله، هي:
١ ـ أنّه ولد من رحم امرأة وأنّه ابن مريم.
٢ ـ هناك أنبياء مثله سبقوه، وبالتالي فهو ليس فريداً من نوعه في هذا المجال.
٣ ـ إنّه مثل الآخرين بحاجة إلى الطعام، إذ يستمدّ طاقته وقوّته ممّا يأكل، بمعنى أنّه لا يمتلك قدرة ذاتيّة لنقول إنّه إله. إذن، ليس في مقدور من يحتاج إلى الطعام أن يكون خالقاً، هذا هو أسلوب القرآن الواضح والعام والمفهوم من قبل الجميع.

□ «الصدّيق»: من كثر منه الصدق، وقيل: بل يقال لمن لا يكذب قط، وقيل: بل لمن لا يتأتّى منه الكذب لتعوّده الصدق، وقيل: بل لمن صدق بقوله واعتقاده وحقّق صدقه بفعله. وفي آية أخرى يبيّن أنّ مريم هي صدّيقة وذلك بقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ امتلاك بعض الامتيازات أو الأشياء الخارقة ليس دليلاً على الألوهيّة، فالنبي آدم عليه السلام أيضاً لم يكن له أب ولا أم، ولكن لم يرفعه أحد إلى درجة الألوهيّة، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

٢ ـ السيدة مريم من أولياء الله والقرآن يثني عليها ويسمّيها «صدّيقة»، ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾.

٣ ـ الموت أمر محتوم لجميع الأنبياء، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ لذا، فإنّ عيسى عليه السلام سيفنى وأنّه ليس الله.

٤ ـ في ظلّ العناد واللجاج لن تنفع أقوى الأدلة وأوضح البراهين، ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ... أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

٥ ـ بمقدور المرأة أن تبلغ أعلى المراتب الروحية لدرجة يمتدحها الله تعالى، ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾.

٦ ـ التعرّف على التاريخ وسبر أغواره مفيد للآتين، ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ...﴾.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾

إشارات:

□ توجّه الآية توبيخاً إلى فريق من المسيحيين بسبب شركهم وغلوّهم في عيسى عليه السلام، ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) سورة التحريم: الآية ١٢.

التعاليم:

١ ـ ارجعوا إلى عقولكم وضمائركم لتفنيد طريق الشرك، ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾

٢ ـ يقوم أساس العبادة على كسب منفعة أو دفع ضرر، وما من أحد غير الله تعالى يمكنه دفع ضرر أو كسب منفعة، ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

٣ ـ وحده الله ـ وليس ما يزعمون من آلهة ـ سميع الدعاء وعليم بما ينفع الناس وبما يضرّهم، ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

إشارات:

□ إذا ما تأمّلنا هذه الآية قليلاً سنجد أنّ الإيمان بألوهية السيّد المسيح ربّما كان عقيدة غالية مستلهمة من معتقدات الأقوام المشركة السابقة، وما يعزّز هذا الرأي ما ورد في الآية ٣٠ من سورة التوبة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾.

التعاليم:

١ ـ ينبغي على جميع الأديان أن تحافظ على الحدود الفكرية والعقدية، وألّا تغلو في الشخصيّات الدينية، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا﴾.

٢ ـ الغلوّ في شأن القادة الإلٰهيّين، غلوّ في الدين. لاحظ عقيدة الأقوام السابقة في ألوهية المسيح الواردة في الآيات السابقة، ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

٣ ـ إذا كان دين الله يمنع الغلوّ في أولياء الله، فمن باب أولى أنّه يمنع أيضاً الغلوّ والمبالغة في سائر الأفراد، ﴿لَا تَغْلُوا... غَيْرَ الْحَقِّ﴾.

٤ ـ لا يجوز التقليد الأعمى، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾.

٥ ـ لم يكن الغلوّ مقتصراً على عيسى عليه السلام فحسب، فقد غالى بعض اليهود في «عزيرٍ» أيضاً حينما جعلوه ابن الله، ﴿ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾.

٦ ـ لا شك في أنّ العلوم والفنون القديمة لها قيمة، غير أنّ أفكار ومعتقدات الأجداد القائمة على الأهواء التي لا تقوم على أساس، لا قيمة لها، وينبغي لفظها، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ... ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾.

٧ ـ الضلال يمرّ بمراحل، في البداية، يضلّ الإنسان ﴿ضَلُّواْ﴾، ومن ثمّ يُضِلّ آخرين غيره ﴿وَأَضَلُّواْ﴾، وأخيراً يبلغ مرحلة لا رجعة له فيها إلى الحقّ.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾

إشارات:

□ لعن النبيُّ داود عليه السلام بني إسرائيل بسبب التفافهم على الحكم الإلٰهيّ في تعطيل أيام السبت. أمّا النبي عيسى عليه السلام الذي دعا ربّه أن ينزّل على بني إسرائيل مائدة من السماء ليأكلوا منها وتطمئنّ قلوبهم، فقد لعنهم لمّا رأى إصرارهم على الكفر حتى بعد أن أكلوا من المائدة السماوية كما طلبوا[1].

□ وعن الإمام الباقر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أنّه قال: «**الخنازير على لسان داود، والقردة على لسان عيسى بن مريم عليه السلام**»[2].

التعاليم:

١ ـ طائفة من بني إسرائيل لُعنوا على لسان أنبيائهم، ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

٢ ـ العصيان والاعتداء يجرّان الإنسان إلى الكفر، ﴿كَفَرُواْ... بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٨، ص ٢٠٠.

٣ ـ الأنبياء يدعون تارة، لكنّهم يَلعنون تارةً أخرى، ﴿لُعِنَ... عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ...﴾.

٤ ـ المعصية والاعتداء تستتبعان لعنة الأنبياء، ﴿لُعِنَ... بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

٥ ـ الاعتداء وانتهاك الشرائع نهجٌ اعتاد عليه بنو إسرائيل، ﴿وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

إشارات:

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، قال: «**أما إنّهم لم يكونوا يدخلون مداخلتهم ولا يجلسون مجالستهم ولكن كانوا إذا لقوهم [ضحكوا في وجوههم] وأنسوا بهم**»[١].

□ وفي رواية أخرى منقولة عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «**اعتبروا أيّها الناس بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار** ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ **وقال:** ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ **إلى قوله** ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ...﴾ وإنّما عاب الله ذلك عليهم لأنّهم كانوا يرون من الظلمة المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك رغبةً في ما كانوا ينالون منهم ورهبةً ممّا يحذرون»[٢].

التعاليم:

١ ـ من يقف موقف اللامبالاة إزاء الفساد فهو ملعون من قبل الأنبياء، ﴿لُعِنَ... لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾.

٢ ـ لا يقتصر النهي عن المنكر على الدين الإسلامي، ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٣٠.

٣ ـ النهي عن المنكر مسؤولية عامة، ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾.

٤ ـ كان الفساد شائعاً في أوساط اليهود وبني إسرائيل، ﴿مُنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

٥ ـ ترك الأمر بالمعروف يفضي إلى الكفر، ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا... كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ...﴾.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

إشارات:

- توضّح الآية الكريمة سبباً آخر وراء لعن بني إسرائيل وهو أنّهم كانوا يتولّون الكافرين ويعقدون معهم تحالفات وصداقات دائمة وعلنية. (تشير كلمة ﴿تَرَىٰ﴾ إلى العلن والعيان، و﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ إلى الديمومة والاستمرار).
- يقول الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية: **«يتولّون الملوك الجبّارين ويزيّنون لهم أهواءهم ليصيبوا من دنياهم»**[1].

التعاليم:

١ ـ ولاية الكفّار مدعاة لغضب الله وسخطه، ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا... سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

٢ ـ كان أهل الكتاب يصادقون الكفّار ويتولّونهم؛ وفي المقابل، كانوا يعادون المسلمين، ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.

٣ ـ يريد الله تعالى الاستقلال والعزّة حتى لأهل الكتاب ويذمّ تبعيّتهم للمشركين وذيليّتهم وولايتهم لهم، ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ﴾.

٤ ـ أحد المنكرات الخطيرة التي نُهي بنو إسرائيل عن ارتكابها هي ولايتهم للكفّار والمشركين، ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ... تَرَىٰ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

٥ ـ كل معصيّة هي مقدّمة لمعصية أكبر، طرحت الآيات السابقة ثلاث معاصٍ ﴿عَصَوا﴾، ﴿يَعْتَدُونَ﴾، ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾، وهذه مقدّمات تولّي الكفّار والقبول بسلطتهم، ﴿تَرَىٰ... يَتَوَلَّوْنَ﴾.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

إشارات:

□ ثمّة أوجه عدّة تُطرح لتفسير هذه الآية نذكر منها:

أ ـ لو أسلم اليهود لما تولّوا الكفّار[١].

ب ـ لو كان اليهود يؤمنون حقّاً بموسى عليه السلام والتوراة لما اتّخذوا المشركين أولياء[٢].

ج ـ لو آمن الكفّار والمشركون لما اتّخذهم اليهود أصدقاء وأولياء لهم[٣].

في ضوء الآيات السابقة، ينزع ظاهر الآية إلى الوجه الأوّل كتفسير للآية.

التعاليم:

١ ـ إيمان أهل الكتاب بعيد لدرجة أنّه يبدو أشبه بالحلم، ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ...﴾؛ «لو» أداة تمنّي تستعمل في الأماني البعيدة، كأن يقول المرء: لو أنّ الشباب يعود يوماً.

٢ ـ من آمن بالله ورسوله من أعماق قلبه، لن يقبل بغير ولاية الله تعالى، ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ... مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، فالإيمان هو السبيل الحقيقي للتحرّر من سلطة الكفّار وهيمنتهم.

٣ ـ الفسق وعدم الإيمان عاملا رضوخ لسلطة الكفّار، ﴿وَلَوْ كَانُوا... مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير روح المعاني.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٤ ـ لا ينسجم الإيمان مع ولاية الكفّار، ومن يتولّاهم فهو خانع وفاسق ولا دين له، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ... وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

٥ ـ يتناقض الإيمان مع الفسق، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ... وَلَٰكِن... فَٰسِقُونَ﴾.

الجزء (٧)

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

إشارات:

❑ «قسيس»، تعريب لكلمة سريانية تعني الزعيم والموجّه الدينيّ عند المسيحيين.

«رُهبان» من الترّهب: التعبّد، وهو استعمال الرهبة، والرهبانية: غلوّ في تحمّل التعبّد، من فرط الرهبة.

❑ سبب نزول هذه الآيات حتى الآية ٨٥ هو المعاملة الطيبة التي لقيها المهاجرون المسلمون بقيادة جعفر بن أبي طالب على يد النجاشي ملك الحبشة، والمسيحيين في تلك البلاد، وذلك عندما هاجروا من مكة إلى الحبشة في العام الخامس للبعثة، ليظلّوا في كنف النجاشي في مأمن من أذى المشركين ومبعوثيهم الذين جاؤوا إلى الحبشة لاسترداد المسلمين. وفي الوقت نفسه كان اليهود في المدينة يشهدون معجزات النبي الكريم ﷺ وخلقه العظيم ومع ذلك يعرضون عن الإيمان، لا بل كانوا يحيكون الدسائس والمؤامرات ضدّ المسلمين، وينقضون عهودهم، ويثيرون الفتن، بينما القساوسة المسيحيون في الحبشة ينصتون إلى آيات سورة مريم ويذرفون الدموع، ويدافعون عن المسلمين[١].

---

(١) تفسير مجمع البيان.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام بعد تلاوة هذه الآية الكريمة: **«أولئك كانوا قوماً بين عيسى ومحمّد وينتظرون محمّداً ﷺ»**[1].

التعاليم:

١ ـ عداوة اليهود للمسلمين لها جذور تاريخية، ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً... ٱلْيَهُودَ﴾.

٢ ـ يجب التعامل مع أعداء المسلمين وغير المسلمين بما يتناسب وسلوك كل منهم، ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً... أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾.

٣ ـ يجب أن نميّز الصديق من العدو من خلال التحليل الدقيق وسبر الخصائص النفسية والاجتماعية، ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً... أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾.

٤ ـ عوامل الارتقاء والتطوّر في المجتمع ثلاثة: طلب العلم، تقوى الله، والتخلّي عن النفسية الاستكبارية، ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٥ ـ علماء الدين والعابدون المتّقون يلعبون دوراً رئيساً في إصلاح معتقدات المجتمع وأخلاقه، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٦ ـ إذا تواشجت عناصر العلم، والعبادة، والأخلاق، مع بعضها، فستنتج لنا إنساناً نزّاعاً للحقّ وفرّاراً من التعصّب، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٧ ـ ليس في الإسلام تعصّب أعمى، فها هو يمتدح علماء سائر الأديان الذين يتّصفون بالتقوى والعدل، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٨ ـ تأثير دعوة الإسلام بين المسيحين أكبر، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

فعلى الرغم من أنّ المسيحيين يؤمنون بعقيدة التثليث الباطلة، إلّا أنّهم أكثر ميلاً لقبول الحقّ وذلك لأنّ لهم روحاً أنقى.

---

(١) تفسير نور الثقلين؛ تفسير العياشي.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

❑ انهمرت دموع المسيحيين شوقاً وخشية في موضعين، الأول، عندما تلا جعفر بن أبي طالب على النجاشي ملك الحبشة آيات من سورة مريم، والموضع الثاني عندما وصل نفرٌ من المسيحيين إلى المدينة مع جعفر وأنصتوا إلى آيات من سورة يس المباركة فبكوا[١].

التعاليم:

١ ـ سيماء أصحاب القلوب الخاشعة والمتواضعة أنّهم ما أن تداعب مسامعهم ألحان السماء العذبة وصوت الحقّ حتى تنقلب أحوالهم وتفيض أعينهم بالدمع، بخلاف الأشخاص الفاسدين الذين لا يؤمنون حتى لو تجسّد لهم الحقّ عياناً، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ... وَإِذَا سَمِعُوا۟... تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ... يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾.

٢ ـ إذا فاض الدمع من مآقي المعرفة فتلك علامة الكمال والإخلاص، ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟﴾.

٣ ـ روح الإنسان وفطرته تعشقان الحقيقة، ومتى ما اتّصل بالمحبوب انهمرت دموع الشوق والفرح، ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾.

٤ ـ الإيمان والإقرار يجب أن يكونا في إطار المعرفة، ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا...﴾.

٥ ـ في أدعيتنا نستلهم المدد والعون من كلمة «ربّنا» المقدّسة، ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا...﴾.

٦ ـ المعرفة وذرف الدموع والإقرار بالذنوب والخطايا كلّها من علائم الرشد والتهذيب الروحي الراقي، ﴿عَرَفُوا۟... يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾.

٧ ـ للدعاء أثر إذا كان مقترناً بالإقرار والإيمان، ﴿ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٨ ـ لا خير في إيمانٍ مؤقّت، بل يجب أن يكون دائماً وراسخاً مع حسن الختام والعاقبة، ﴿ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا﴾.

٩ ـ المعجزة أن يقطع المرء طريق المئة عام في ليلة واحدة، ﴿سَمِعُوا﴾، ﴿عَرَفُوا﴾، ﴿ءَامَنَّا﴾، ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

إشارات:

□ أولئك الذين عرفوا الحقّ وأقرّوا به بشجاعة وصراحة وصدق، ولم تخفهم الأجواء السائدة ولا أتباع دينهم، هم من القوم الصالحين، ذلك لأنّهم أحسنوا إلى أنفسهم وأنقذوها من عذاب جهنّم، وبإقرارهم فتحوا الباب أمام الآخرين.

التعاليم:

١ ـ بعد معرفة الحقّ ﴿مِمَّا عَرَفُوا﴾ لا يوجد عذر لرفضه، ﴿وَمَا لَنَا﴾.

٢ ـ مجالسة الصالحين هدف مقدّس، ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

٣ ـ علامة الأمنية الصحيحة الإيمان والإقدام العملي، ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ... وَنَطْمَعُ﴾.

٤ ـ الإيمان بالله والإيمان بالوحي متلازمان ولا ينفصمان، ﴿نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾.

٥ ـ ثواب الإيمان هو الجنّة ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ لأنّ تقدير الفعل المحذوف في ﴿يُدْخِلَنَا﴾ هو كلمة «الجنة».

٦ ـ أحد طرق الكمال هو العودة إلى الضمير ومساءلته، ﴿وَمَا لَنَا... فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾، وفي آية كريمة أخرى نقرأ ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي...﴾[1].

(١) سورة يس: الآية ٢٢.

٧ ـ الإقرار اللساني بالتوحيد ورسالة النبي الكريم ﷺ وحقّيّة القرآن الكريم أمرٌ ضروري، ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٨٧﴾

إشارات:

□ وردت روايات عدّة في سبب نزول هذه الآية منها: أنّ رسول الله ﷺ أخذ في أحد الأيام يصف بعض ما يجري في يوم القيامة، وأحوال الناس، ومشاهد يوم الحشر، فاهتزّ الناس لما سمعوا وأخذ بعضهم يبكي، فأقسم بعض صحابة النبي الكريم ﷺ على ترك طيب الطعام والراحة والرفاهية، وأن ينصرفوا إلى الصوم والعبادة، وأن يهجروا زوجاتهم، وأن يناموا من الليل أقلّه. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فجمع الناس في المسجد وخطب فيهم قائلاً: «**ما بال أقوام حرّموا النساء، والطعام، والطيب، والنوم، وشهوات الدنيا، أما إنّي لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً، فإنّه ليس في ديني ترك اللحم ولا النساء، ولا اتّخاذ الصوامع، وإنّ سياحة أمّتي الصوم ورهبانيّتهم الجهاد، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وحجّوا، واعتمروا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا يستقم لكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بالتشديد فشدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم**»[1].

فقام الذين كانوا قد أقسموا على ترك تلك الأمور وقالوا: يا رسول الله لقد أقسمنا على ذلك، فماذا نفعل؟ فنزلت الآيات المذكورة جواباً لهم.

□ تحريم ما أحلّ الله إمّا أن يكون من منطلق الإيمان بالحرمة وهو بدعة محرّمة، أو يكون غير ذلك، فيحرّم الإنسان على نفسه فقط، وهو منهيّ عنه أيضاً.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٢١.

◻ لا يخضع المسلم إلّا لحكم الله تعالى، فلا يحرّم من عنده ما أحلّ الله، ولا يحلّل ما حرّم.

التعاليم:

١ ـ على المؤمن أن يتمتّع من كل شيء بطيّبه وطاهره، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بدلاً من **«يا أيّها النّاس»**.

٢ ـ لا يستقيم الإيمان مع تغيير الأحكام الإلٰهيّة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ...﴾.

٣ ـ الإسلام دين الفطرة فلا يجوز قمعها، ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ﴾. تستخدم كلمة «طيب» للدلالة على ما ينسجم مع طبع الإنسان وفطرته.

٤ ـ الأطعمة، والأشربة، والملذات المشروعة، خُلقت ليتمتّع بها الإنسان، ﴿لَكُمْ﴾.

٥ ـ لا ينسجم الإيمان مع الإفراط والتفريط، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. . . ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾.

٦ ـ يحرّم الدين الإسلامي العزلة، والرهبانية، والإفراط، والتفريط، ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ... وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾.

٧ ـ حرمان النفس من الطيّبات ظلم وتعدٍّ، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾.

٨ ـ فلنتجنّب الإسراف والإفراط في التمتّع بما أحلّ الله تعالى، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾.

٩ ـ في الإفراط والتفريط حرمان من محبّة الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

إشارات:

◻ اعتاد القرآن الكريم عند إصدار الأمر «كلوا» أن يتبعه بأمر آخر، مثل:

﴿كُلُواْ. . . وَٱشْكُرُواْ﴾[١].

﴿كُلُواْ. . . وَلَا تَطْغَوْاْ﴾[٢].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٢. (٢) سورة طه: الآية ٨١.

﴿كُلُوا۟... وَٱعْمَلُوا۟﴾[١].
﴿فَكُلُوا۟... وَأَطْعِمُوا۟﴾[٢].
﴿كُلُوا۟ ... وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[٣].
﴿كُلُوا۟... وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٤].

□ كما ورد في الحديث النبوي الشريف: «**إنّ الله تعالى خلق خلقه وقسم لهم أرزاقهم من حلّها وعرض لهم بالحرام، فمن انتهك حراماً نقص له من الحلال بقدر ما انتهك وحوسب عليه**»[٥].

التعاليم:

١ ـ التمتّع بالنعم المادّية المشروعة لا يتعارض مع الإيمان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟... وَكُلُوا۟﴾.

٢ ـ يجب توخّي الحذر في مسائل التغذية، ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟﴾ لتكون حلالاً في كسبها واستهلاكها.

٣ ـ أرزاق الجميع بيد الله تعالى، فلِمَ العجلة، والحرص، وأكل المال الحرام؟ ﴿رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

٤ ـ التقوى شرط الإيمان، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

إشارات:

□ القَسَم الذي يصدر عن غير قصد أو هدف معيّن سوى التعوّد أو في سورة

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥١.
(٢) سورةالحج: الآية ٢٨.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٣١.
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٤٢.
(٥) تفسير أطيب البيان.

الغضب والانفعال، أو على أساس الأمور الخاطئة، أو من أجل ارتكاب المحرّمات، أقول هذه الأنواع من القسم هي لغو الأيمان ولا كفّارة عليها. أمّا القَسَم الذي يصدر عن قصد وجدّ ومن أجل القيام بعمل مفيد، فهو قسم ملزم يجب على صاحبه البرّ به، وإن لم يفعل فعليه الكفارة.

- عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ قال: **«اللغو قول الرجل لا والله وبلى والله ولا يعقد على شيء»**[1].
- فسّر بعضٌ كلمة **«أوسط»** بأنّه أفضل نوعية للطعام، نظير ما ورد في الآية الكريمة من سورة القلم، ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ بمعنى أفضلهم وأرقاهم.
- كسوة المحرومين في كفّارة القَسَم تشمل أيّ نوع من اللباس، شتوي أو صيفي، نسائي أو رجالي.
- لا بدّ للشريعة العالميّة والخالدة من أن تنطوي قوانينها وعقوباتها على عنصر المرونة والتكيّف، على سبيل المثال، تحرير العبيد، أو إطعام الفقراء، أو إكساء المساكين، فهذا النوع من القوانين قابل للتطبيق على أيّ شخص في أيّ زمان ومكان.
- سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، فقال: **«هو كما يكون، إنّه يكون في البيت من يأكل أكثر من المدّ ومنهم من يأكل أقلّ من المدّ فبين ذلك، وإن شئت جعلت لهم أدماً والأدم أدناه الملح وأوسطه الخلّ والزيت وأرفعه اللحم»**[2].
- وفي تفسيره الآية أعلاه يقول الإمام الكاظم عليه السلام: **«إذا لم يكن عنده فضلٌ من قوت عياله فهو ممّن لا يجد»**[3].

التعاليم:

١ ـ رفع الكفّارة عن لغو الأيمان فضل من الله ولطف، ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ

(١) الكافي، ج ٧، ص ٤٤٣؛ تفسير نور الثقلين.
(٢) الكافي، ج ٧، ص ٤٥٣؛ نور الثقلين. (٣) الكافي، ج ٧، ص ٤٥٢؛ نور الثقلين.

بِٱللَّغۡوِ﴾. . . نحن أيضاً علينا ألّا نأخذ على محمل الجدّ الإساءات التي يوجّهها الآخرون إلينا في حال الغضب.

٢ ـ الإسلام دين سهل سمح، وليس أدلّ على ذلك من أنّه لم يشرّع كفّارة على لغو الأيمان، ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ...﴾. القصد والنيّة هي معيار الأقوال والأفعال.

٣ ـ الغرامات المالية معمول بها في الشريعة الإسلاميّة، ﴿إِطۡعَامُ... أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ﴾.

٤ ـ تشريعات الإسلام تصبّ في مجال محو الفقر، والأحكام الشخصيّة في الإسلام تنسجم مع مصالح المجتمع، إطعام، أو إكساء، أو تحرير رقبة، ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾.

٥ ـ في كلّ الأحوال، يمثّل الاعتدال والعدل قيمة، بما في ذلك طبيعة الجُرم، ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ﴾، إذن المقصود بأوسط هو الحدّ الوسط وليس الجيّد الرفيع.

٦ ـ لا بدّ من أن تتناسب الغرامة مع الوضع المالي للفرد، ﴿مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾.

٧ ـ القيام بالواجبات رهن بالقدرة والاستطاعة على ذلك، ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾.

٨ ـ عند تشريع الغرامة والكفارة يجب الأخذ بنظر الاعتبار الحد الوسط من المعيشة اليومية والعادية للأفراد، لا الأيام الاستثنائية ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ﴾، إذن، مرّة أخرى، فإنّ المقصود بـ «**أوسط**» هو الحدّ الوسط.

٩ ـ فلنحرص عند دفع الكفّارة للفقراء على عدم إيذاء مشاعرهم وأن نتعامل معهم كما نتعامل مع أسرنا، ﴿تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾.

١٠ ـ يجب أن نكبح تجرّؤنا على الحنث بالقسم بمشقّة الصوم أو دفع الكفارة المالية، فالكفّارة عبارة عن برنامج تهذيب متكامل في الشريعة الإسلاميّة، ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾.

١١ ـ يغتنم الإسلام أيّ فرصة من أجل تحرير العبيد، ﴿تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾. حيث نلاحظ أنّه يلجأ إلى هذا الحكم حتى في التعويض والتكفير عن ارتكاب بعض الأعمال.

١٢ ـ علينا أن نكنّ الاحترام والقدسية لأسماء الله الحسنى، فإمّا أن نمتنع عن

القَسَم أو نبرّ بقَسَمنا، أو أن نعوّض عن حنثنا بدفع الكفّارة، ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

١٣ ـ لا يظنّ المرء أنّ له الحقّ في القَسَم في أيّ لحظة شاء، ومن ثمّ التعويض عن حنثه بالقَسَم بدفع الكفّارة ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾، إذن نحن مسؤولون أمام أقسامنا.

١٤ ـ من أعوزته القدرة المالية فلا ملجأ سوى القدرة الجسمية، ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾.

١٥ ـ فتح طريق التكفير عن الذنوب نعمة إلٰهيّة تستحقّ الشكر والثناء، ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ... يُبَيِّنُ اللَّهُ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٦ ـ أفضل الشكر هو العمل بالأحكام، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لم تقل الآية الكريمة **«يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تعملون»** بل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ويستفاد من ذلك أنّ العمل هو أفضل الشكر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾

إشارات:

❑ كانت العرب مولعة بثلاثة: الشعر، والخمر، والغزو، وهو ما يفسّر اتّباع القرآن أسلوب التحريم التدريجي. فأوّل ما نزل في شأنها بعض الآيات التي تشير إلى إمكان الحصول على رزق، وشراب، مسكر، من الكروم والتمور[1]، وكانت هذه العادة أعمق من أن تستأصل بهذه الإشارات والتلميحات، فنزلت آية أخرى تبيّن منافع الخمر والميسر وتذكّر، في الوقت نفسه، بإثمهما الذي يفوق منافعهما[2]. ثمّ بعد فترة أنزل الله تعالى آية أغلظ منها تنهى المسلمين صراحةً عن إقامة الصلاة وهم سكارى[3]. لتنزل أخيراً الآية المباركة أعلاه فاعتبرت

(١) سورة النحل: الآية ٦٧.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٩.
(٣) سورة النساء: الآية ٤٣.

معاقرة الخمر رجساً من عمل الشيطان، وأمرت باجتنابها.

□ أصل «**الخمر**» ستر الشيء، ويقال لما يُستر به: خِمار؛ لكن الخِمار صار في التعارف اسماً لما تغطّي به المرأة رأسها، وجمعه خُمُر، وسمّيت الخَمر لكونها خامرة لمقر العقل، وهو عند بعض الناس اسم لكل مسكر[١].

□ «**المَيسر**» مشتقّة من «اليسر»، وهي السهولة والسماحة، وسمّي القمار الميسر لأنّ المرء يربح الأموال دونما عناء.

□ «**أنصاب**» جمع «نصب»، وهي الحجارة التي كانت حوالي الكعبة تُذبح عليها القرابين ويُتبرّك بها[٢]، أو هي القربان نفسه الذي كان يوضع على الحجارة. جاء في الحديث النبوي الشريف أنّ النبي الكريم ﷺ قال في معنى الأنصاب: **«ما ذبحوه لآلهتهم»**[٣].

□ ال«**أزلام**»، قداح الميسر (ضرب من آلات القمار) كانت شائعة في الجاهلية.

□ يقول الإمام أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام في الخمر: **«كلّ مسكر... إذا أخمر فهو حرام»**[٤].

□ لمّا نزلت الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ قيل: يا رسول الله ما الميسر؟ فقال ﷺ: **«كلّ ما تُقومِرَ به حتى الكعاب والجوز»**[٥].

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«مُدمن الخمر كعابد الوثن»**[٦].

□ ويُشار إلى أنّ المشاركة، مهما كان نمطها، في إنتاج الخمر أو توزيعها أو شربها حرام، إذ ورد في رواية للإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: **«لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: غارسها، وحارسها، وعاصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمول إليه، وبايعها، ومشتريها، وآكل ثمنها»**[٧].

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني، مادة «خمر».
(٢) تفسير الميزان.
(٣) الكافي، ج ٥، ص ١٢٣.
(٤) تفسير نور الثقلين.
(٥) الكافي، ج ٥، ص ١٢٣.
(٦) بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٢٣٤.
(٧) تفسير نور الثقلين.

التعاليم:

١ ـ لا يستقيم الإيمان مع معاقرة الخمر ولعب القمار، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ... فَٱجْتَنِبُوهُ﴾.

٢ ـ شرب الخمر والقمار كعبادة الأوثان، ﴿ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ﴾ ذلك أنّ المقصود بالأنصاب هو الأصنام.

٣ ـ ينهى الإسلام عن الأرجاس والنجاسات، ﴿رِجْسٌ... فَٱجْتَنِبُوهُ﴾.

٤ ـ أكل المال الحلال واجتناب المحرّمات له أثر في تحقيق السعادة والفلاح للإنسان، ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

إشارات:

- تكشف الإحصاءات المنشورة أنّ معظم جرائم القتل، والحوادث المرورية، والطلاق، والأمراض النفسية، والكلوية، وغيرها، سببها تعاطي المواد الكحولية، ولكنّ القرآن الكريم في بيانه سببَ تحريم الخمر يؤكد على بعدين اثنين هما: الأضرار الاجتماعيّة التي تتركها مثل نشر الأحقاد والعداوات بين أفراد المجتمع، والبعد الثاني هو بعد روحي يتمثّل في الغفلة عن الصلاة وذكر الله.
- تذكر الآية أنّ الأثر الأكبر الذي يتركه تعاطي الخمر ولعب القمار هو صدّ الإنسان عن ذكر الله وإلهاؤه عن إقامة الصلاة، وهنا يبرز سؤال ملحّ وهو: إذا كانت الأعمال الأخرى مثل التجارة، والرياضة، والدراسة، والمطالعة، وما شابه، تلهينا عن ذكر الله وإقامة الصلاة، فهل ستكون مثل شرب الخمر ولعب القمار؟ والجواب هو نعم، إذ إنّ كلّ الأمور التي تلهينا عن ذكر الله مثل الخمر والقمار وما شابه ذلك، هي أمور مذمومة، وإذا كان الإسلام لم يحرّمها فذلك لأنّه دين لطف، وسماحة، ورحمة.

التعاليم:

١ ـ من يصبح عامل ضغينة وعداوة بين الناس، فهو كالشيطان، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ...﴾.

٢ ـ إثارة النزاع والعداوة هي الأسلوب الدائم للشيطان، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

٣ ـ المجتمع المشحون بالعداوات هو مجتمع شيطاني، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ...﴾.

٤ ـ لنحافظ على الألفة والوحدة ونتصدّ لكلّ ما يهدّدهما بالزوال، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ﴾.

٥ ـ الألفة والمحبة بين المؤمنين تحظى بعناية خاصّة من لدن الله تعالى، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ﴾.

٦ ـ الخمر والقمار من وسائل الشيطان في زرع الأحقاد وبثّ الفرقة والعداوات، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ... فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾.

٧ ـ الصلاة هي الشكل الأرقى لذكر الله تعالى. لقد وردت في الآية بصورة مستقلة على الرغم من أنّها تعدُّ ذكراً لله أيضاً، ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٨ ـ توضيح الحكمة من تشريع الأحكام هو أحد عوامل تأثير الكلام على الآخرين، ﴿ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ... فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

٩ ـ يجب محاربة جميع عوامل الضغينة والعداوة، ﴿يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ... فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

١٠ ـ يوبّخ الله سبحانه وتعالى بعض المسلمين في صدر الإسلام؛ لأنهم لم يتخلّوا عن معاقرة الخمر على الرغم من تحريم القرآن الكريم للخمر والقمار ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الأوامر الحكومية للرسول الأعظم ﷺ واجبة الطاعة شأنها شأن أوامره

الإلٰهيّة، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، يشير تكرّر الفعل «أطيعوا»، إلى نوعين من الأوامر هما: الأوامر الإلٰهيّة الثابتة، والأوامر الحكومية للرسول الكريم ﷺ.

٢ ـ فلنحذر خطر التمرّد على أوامر الله تعالى ورسوله ﷺ، ﴿وَاحْذَرُوا﴾.

٣ ـ الإنسان حرّ في اختيار طريقه، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾.

٤ ـ بانتهاجنا طريق التمرّد والعصيان لا نؤذي إلّا أنفسنا، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ... أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

٥ ـ إبلاغ الأحكام الإلٰهيّة لا يعتمد على رضى الناس، فمهمّتنا إلقاء الحجّة فحسب، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ... عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

٦ ـ مسؤولية النبي هي إبلاغ الرسالة دونما إكراه أو قسر، ﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)﴾

إشارات:

- روي أنّه بعد نزول آية تحريم الخمر والميسر، قال قوم من صحابة رسول الله ﷺ: إذا كان هذان العملان على هذا القدر من الإثم، فكيف بمن مات من المسلمين وهو يشربها الذين توفّاهم الله قبل نزول هذه الآية وكانوا لا يزالون يمارسونهما؟ فنزلت هذه الآية جواباً لهم.

- تذكر الآية الكريمة الإيمان والعمل الصالح مرّتين، والتقوى والإيمان مرّتين، والتقوى والإحسان مرّة واحدة. بحسب بعض المفسّرين، فإنّ تكرار كلمات الإيمان والتقوى والعمل الصالح يعود إلى تباين حالاتها، ومراحلها، ومراتبها[1]. فيما يقول بعضٌ الآخر إنّ التكرار يعني دوام اتقائهم وإيمانهم[2].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. (٢) تفسير القرطبي.

واعتبر فريق ثالث أنّ التكرار للتوكيد نظير ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾[1].

□ للتقوى تأثير في مختلف شؤون حياة الإنسان:

- على الاستهلاك والسلوك، ﴿طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾.
- على الدين والعقيدة، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾.
- على الخدمة والأخلاق، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾.

التعاليم:

١ ـ آثام المؤمنين السابقة مغفورة شرط عدم العودة إليها والالتزام بالتقوى في المستقبل، ﴿لَيْسَ... جُنَاحٌ... إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾.

٢ ـ إذا عاد الإنسان إلى ارتكاب المعصية على الرغم من سماعه الحكم الإلٰهيّ بالتحريم، فإنّ الله سوف يعذّبه على ما مضى من ذنوبه أيضاً، ﴿لَيْسَ... جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾.

٣ ـ الإحسان أرقى مراحل الكمال وعامل محبّة عند الله ﷻ. لاحظ أنّ كلمة ﴿وَّأَحْسَنُواْ﴾ جاءت بعد ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ... ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ وتبعتها محبة الله للمحسن ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٤﴾

إشارات:

□ يحرم الصيد على الحاج وهو في حال الإحرام أثناء مناسك الحج. في تلك الفترة تعرض للإنسان أحياناً بعض الحيوانات بحيث تكون في متناول يده وهو قادرٌ على صيدها؛ لكنّ النهي الإلٰهيّ يمنعه من صيدها. وقد جاء في الروايات:

---

(١) سورة النبأ: الآيتان ٤ ـ ٥.

«في عمرة الحديبية حشر عليهم الصيد في كلّ مكان حتى دنا منهم ليبلوهم الله به»[١].

□ يطرح القرآن الكريم قضيّة الغرائز والطعام بوصفها واحدة من أسباب الامتحان الإلٰهيّ، تأمّل الأمثلة التالية:

أ - لقد فشل آدم وحواء في امتحان الطعام، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[٢].

ب - كما فشل بنو إسرائيل في امتحان تحريم الصيد في أيّام السبت، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾[٣].

ج - أثناء عبور جنود بني إسرائيل النهرَ نهاهم قائدهم عن الشرب منه، لكنّهم شربوا، إلّا قليلاً منهم، فسقطوا في الامتحان، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[٤].

د - الصوم امتحان عظيم.

هـ - اقتراب الحيوانات من الحاج المُحرم الذي يُحرم عليه الصيد، هو امتحان له، ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾.

□ سؤال: من المعلوم أنّ الإنسان يختبر الشيء ليكتسب علماً بشأنه، ولكن ما حاجة الله سبحانه للاختبار وهو العالم بكلّ شيء؟

الجواب: يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «**ولكنّ الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزاً بالاختبار لهم، ونفياً للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم...**»[٥]. نعم، إنّ الله سبحانه وتعالى يجزي الإنسان ثواباً أو عقاباً، بحسب عمله المتحقّق خارجياً لا طبقاً لعلمه هو جلّ شأنه، كما إنّنا لا نثيب الآخرين بحسب علمنا بمهاراتهم وفنونهم، بل بحسب ما يصدر عنهم من أعمال على أرض الواقع ليستحقّوا منّا التكريم.

---

(١) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٤، ص ٣٩٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٣) السورة نفسها: الآية ٦٥.

(٤) السورة نفسها: الآية ٢٤٩.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

□ سؤال: أيعقل أنّ ضيوف الرحمن وحجاج بيته الحرام يعذّبون عذاباً أليماً بسبب صيدهم؟

الجواب: الصيد بحدّ ذاته ليس عليه شيء، لكنّ العذاب هو لأجل تجرؤ الإنسان وانتهاكه قدسيةَ الحرم والإحرام، وبسبب تجاوزه حدودَ الشريعة، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ امتحان المؤمن سنّة إلٰهيّة حتميّة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾؛ اللام وصيغة الفعل المضارع هي للتوكيد والجزم.

٢ ـ تتجلّى الخشية من الله حينما تكون أبواب المعصية مفتوحة أمام الإنسان فيغلقها على نفسه، ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾.

٣ ـ النِّعم المتاحة والمبذولة للإنسان وسيلة للامتحان والابتلاء، ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ... تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾.

٤ ـ ليس كلّ ما تصل إليه أيدينا رزق حلال، ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾.

٥ ـ معيار التقوى هو الخشية القلبية لا الحياء الظاهري فقط، ﴿يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

٦ ـ المسؤولية والواجب يأتيان بعد البلاغ والإخطار، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾.

٧ ـ الحاج الذي يقطع المسافات البعيدة عبر الصحاري حبّاً بالحقّ تعالى، أحياناً، قد يعيقه صيد تافه عن تحقيق ذلك الهدف، فتدفع به إلى التمرّد ليذوق، بالنتيجة، العذاب الإلٰهيّ، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

إشارات:

□ «حُرُم» جمع «مُحرِم» وهو من تلبّس الإحرام من أجل أداء الحجّ أو العمرة.

□ «النَّعَم» وجمعه «**أنْعام**» تقال للإبل والبقر والغنم.

□ ﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾ مشتق من «**سكن**»، وتقال لمن لا يبرح مسكنه لفقر وعوز، بمعنى أنّ الفقر قد غلبه وأقعده.

□ سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله ﷻ: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾، فقال: «**في النعامة بدنة، وفي حمار الوحش بقرة، وفي الظبي شاة، وفي البقرة بقرة**»[1].

التعاليم:

١ ـ حتى الحيوانات يجب عدم ترويعها عند الإحرام، ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

٢ ـ حكمة الحُرمة والحليّة ليست دائماً ذاتيّة مرتبطة بالشيء نفسه، بل أحياناً تكون متأثّرة بمقتضيات الزمان والمكان، إذن، فالتاريخ والجغرافيا لهما تأثير على الأحكام الإلٰهيّة، ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

٣ ـ للإسلام أحكام خاصّة في الحالات الاستثنائية، ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

٤ ـ تشريعات الإسلام تشمل الجميع، ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم﴾.

٥ ـ الأخطر من الفعل الحرام هو القصد، والهدف، وتعمّد النيّة السيئّة، ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾.

٦ ـ ينبغي للعقوبة أن تراعي شروط العدالة، ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾.

٧ ـ يهتمّ الإسلام في أيّ مناسبة بقضية الجوعى ومحاربة الفقر، ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾.

٨ ـ الذبائح في مكة هي هدايا لمن يستفيد منها، ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾.

٩ ـ يُفضّل السماح للمجرم باختيار نوع الكفّارة: القربان، أو الإطعام أو الصوم، وأن نراعي ظروفه المالية وقدرته الجسمية، ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ... أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾.

---

(١) تهذيب الأحكام، ج ٥، ص ٣٤١؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٧٣. للاستزادة، انظر: الكتب الفقهية مثل رسالة توضيح المسائل، موضوع كفّارة الصيد وأحكامه.

١٠ ـ عقوبة انتهاك القوانين شديدة لدرجة أنّ إطعام ستين مسكيناً أو صيام ستين يوماً تمثل جزءاً منها لا كلّها، ﴿لِّيَذُوقَ﴾.

١١ ـ تطبيق القوانين يكون بعد إبلاغها رسمياً، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾، وليس للقوانين أثر رجعي.

١٢ ـ إذا تكرّر الصيد، سيلقى العاصي، مضافاً إلى الكفّارة، الانتقام والسخط الإلٰهيّ، ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾.

١٣ ـ الإصرار على ارتكاب المعاصي ومعاودتها أمر خطير للغاية ويستتبع عذاباً شديداً، ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

١٤ ـ لنأخذ الوعيد الإلٰهيّ مأخذ الجدّ، ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ... عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

إشارات:

- اعتبر تفسير مجمع البيان وغيره من التفاسير والكتب الفقهية أنّ المقصود من هذه الآية هو حرمة صيد الحيوانات البرية وأكلها في حال الإحرام، بينما يحلّ صيد الحيوانات البحرّية. طبعاً المقصود بالحيوانات البحرّية هي تلك التي تعيش في المياه العذبة أو المالحة أي البحار أو الأنهار.
- يقول الإمام الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾: **«قال مالحه الذي يأكلون»**[1]؛ (الذي يتمّ تمليحه لئلا يفسد لاستعماله في الأسفار الطويلة).

التعاليم:

١ ـ لم تُغلق كلّ الأبواب بوجه المُحرم، فالله تعالى قد عوّضه عن تحريم صيد البر بأن أحلّ له صيد البحر، ﴿أُحِلَّ... وَحُرِّمَ﴾.

---

(١) الكافي، ج ٤، ص ٣٩٢.

٢ ـ يحلّ الصيد إذا كان للأكل لا للهو والعبث، ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾.

٣ ـ خيرات البحر والانتفاع بها ليست حكراً على سكان السواحل فقط، ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾.

٤ ـ سكان السواحل لهم الأولوية في الانتفاع بخيرات البحر، ﴿لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾، لاحظ أنّ الآية الكريمة قالت: ﴿لَّكُمْ﴾ ثمّ بعد ذلك ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾.

٥ ـ صيد الحيوانات البرية أو تناولها في حالة الإحرام ينمّ عن عدم التقوى، ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٦ ـ يجب إنذار العاصين، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

٧ ـ الإيمان بيوم القيامة وحساب الأعمال، عامل ردع يحول دون ارتكاب الإنسان المعصيةَ، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

إشارات:

- «القيام»، والقوام: اسم لما يقوم به الشيء أي: يثبت، كالعماد والسناد: لما يعمد ويسند به[1].
- قيل للإمام جعفر الصادق عليه السلام: لِمَ سُمّي بيت الله بيت الله الحرام؟ قال: «**لأنّه حُرّم على المشركين أن يدخلوه**»[2].
- «الهدي»، الأضحية الفاقدة العلامةَ، و«**القلائد**»، الأضحية ذات العلامة.
- في الحجّ: المركزيّة، الأمن، القدسية، العبادة، القدم، الوحدة، السياسة والبراءة من المشركين، المعرفة، البساطة، الصفاء والنقاء، الإخلاص، الابتعاد عن الجدال، والشهوة، والفسوق.
- الأشهر الحُرُم هي: رجب، ذو القعده، ذو الحجّه، محرّم، ويحرّم في هذه الأشهر القتال.

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات. (٢) تفسير نور الثقلين.

□ من خصوصيات الإسلام أن يجتمع المسلمون بالملايين في مكانٍ مقدّس هو مكة المكرّمة من دون تشريفات أو امتيازات وبعيداً عن الجدل الكلامي والنزاع العملي. وإذا ما أخذنا بالاعتبار المنافع المتعدّدة التي تحصل أثناء موسم الحجّ من قبيل: إبراء الذمّة من الحقوق قبل السفر، الزيارات المتبادلة، الانتعاش التجاري، دفع الخمس والزكاة، التعرّف على الثقافات والأمم المختلفة، زيارة أقدم مركز للتوحيد في التاريخ، الإحساس بآلام الأنبياء وزيارة مقاماتهم، طلب المغفرة والتوبة في صعيد عرفات والمشاعر، ذكر يوم القيامة، التحرّكات السياسيّة والبراءة من الكفّار والمشركين، علاوة على سائر البركات والمنافع الأخرى، إذن، إذا نظرنا إلى هذه المنافع سنتبيّن أنّ هذه الطقوس والمناسك منبثقة عن العلم اللامتناهي لله تعالى، المحيط بكلّ شيء في الكون، حيث لا يمكن للعلم المحدود إطلاقاً أن يشرّع حكماً بهذه الشموليّة والجامعية والروعة.

التعاليم:

١ - الحج مصدر ثبات وقوام، ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾.

٢ - ترتيب الأمور وتنظيمها يحتاج إلى الاجتماع، والوحدة، والعبادة، والاحترام، وصيانة الحرمات ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، واستتباب الأمن والاستقرار ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، والأعمال الخفيّة، والأعمال ذات العلائم، والمجرّدة من العلائم ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾، وتوفير الأطعمة اللازمة ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾.

٣ - المحيط بالكون برمّته هو الذي يملك حقّ التشريع، ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٤ - المسجد والمذبح وسيلتا قوام دين الناس ودنياهم، ﴿ٱلْكَعْبَةَ... وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**جَعَلها الله لدينهم ومعيشتهم**»[1].

٥ - الحجّ الذي لا يكون عامل قوام المجتمع ليس حجّاً حقيقياً، ﴿ٱلْكَعْبَةَ... قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾.

---

(١) تفسير البرهان.

٦ ـ إذا توافر المجتمع على الثبات، سوف تنضج فيه مقوّمات التوحيد، ﴿قِيَمًا... لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

إشارات:

□ إذا نظرنا إلى هذه الآية كامتداد للآية التي سبقتها سنجد أنّ المعنى هو أنّ انتهاك حرمة الكعبة المشرّفة، والأشهر الحُرُم، ومعارضة تقديم الأضاحي وأحكام الحج، واعتبار مناسك الحجّ عبثاً لا طائل من ورائه، كلّ ذلك سيجرّ على صاحبه عذاباً شديداً. وفي المقابل، فإنّ حفظ حرمة الكعبة المشرّفة، والأشهر الحُرُم، والأضاحي، ومناسك الحج، سوف تستدرُّ المغفرة والرحمة الإلٰهيّة. (ويمكن بالطبع النظر إلى الآية بصورة مستقلة عن التي سبقتها فيكون لدينا المعنى نفسه).

التعاليم:

١ ـ الترغيب والترهيب جنباً إلى جنب ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ... غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يجب أن يقف الإنسان بين الخوف والرجاء حتى لا يقطع الأمل تماماً بسبب ارتكابه خطأً أو انتهاكه حُرمة الكعبة، أو يصيبه الغرور والكبر بسبب سلوك جيد أو عمل صالح.

٢ ـ مسؤولية النبي الأكرم ﷺ الدعوة إلى الدين فحسب، وليس إكراه الناس على الإيمان، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

٣ ـ إقبال الناس على الدين أو إعراضهم عنه لن يضرّ النبيّ في شيء، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، وقد تكرّر نفس المضمون في الآية ٢٠ من سورة آل عمران، ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

٤ ـ سواء كتمنا أو أظهرنا فالأمر سيّان عند الله تعالى نظراً لسعة العلم الإلٰهيّ وشموله، ﴿يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

إشارات:

□ الطيّب والخبيث يوجد في كل شيء: الأموال، والإنسان، المكاسب، الأطعمة، وغيرها من الأشياء.

التعاليم:

١ ـ الحقّ والباطل هما معيار القيمة لا الكثرة أو القلّة، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.
٢ ـ «الكثرة» والوفرة خدّاعة فلنحذر ذلك، ﴿أَعْجَبَكَ﴾؛ الأكثريّة لا تدلّ على الحقّية ولا على التفوّق.
٣ ـ إنّ أسلوب «حشرٌ مع الناس عيد» لا ينسجم مع المنطق القرآني، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.
٤ ـ عدم التقوى دليل على غياب العقل والمنطق، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.
٥ ـ العقلاء وحدهم قادرون على تمييز الأصيل من الدخيل، والتمسّك بالتقوى، واجتناب ركوب الموجة والنعق مع الناعقين، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾،
٦ ـ الفلاح، والعقل، والحصافة، كلّها بحاجة إلى تقوى الله تعالى، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول هذه الآية: خطب رسول الله ﷺ فقال: «**إنّ الله كتب عليكم الحجّ**» فقام عكاشة بن محصن وقيل: سراقة بن مالك فقال: أفي كلّ

عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى عاد مرّتين أو ثلاثاً، فقال رسول الله: **«ويحك ما يؤمّنك أن أقول: نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني كما تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»**[١].

□ نعم، علينا أن نسأل أهل العلم عمّا نجهل، ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]، ولكن ثمّة أسئلة إذا اتّضحت أجوبتها، شُقّ على الفرد والمجتمع ووقع ضرره عليهما، من قبيل السؤال عن عيوب الآخرين، أو الأسرار العسكرية.

امثلة ونماذج

- توجد أمور لا ينبغي للمسؤولين أن يذيعوها على الملأ نظير المسائل التي تهمّ الاقتصاد مثل قلّة القمح.
- الصدق أمر ممدوح، لكنّ الصراحة ليست مفيدة في كلّ مكان.
- يجب أن نعمل على تصنيف الأخبار والمعلومات وتبويبها. (يقال: إنّ جابراً الجعفي كان يحفظ آلاف الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام ولكن لم يؤذن له بنقل بعضها لجميع الناس)[٣].
- بعض الأخبار ينبغي عدم إذاعتها عن طريق وسائل الإعلام والصحف لما لها من أثر سلبي على الناس (أحياناً يتوجّب علينا الصمت الحكيم)، ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.
- لا بدّ للمعلّم والخطيب أن يراعي نفسيّة المستمع وتحمّله.
- في بعض الأحيان تقتضي الظروف كتمان المعتقدات، عملاً بأسلوب التقيّة، وعدم الإجابة عن بعض الأسئلة، ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.
- لا يحقّ للإنسان إفشاء أسرار الناس أو الأسرار العسكرية.

---

(١) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢١.
(٢) سورة النحل: الآية ٤٣.
(٣) معجم رجال الحديث، ج ٤، ص ٢٢.

التعاليم:

١ ـ ليست كل معرفة لازمة أو مفيدة، وإنّما يجب تعلّم العلوم المفيدة ﴿لَا تَسْـَٔلُوا﴾. يجب السيطرة على حبّ الفضول والاستطلاع لدينا وأن نمتنع عن تحرّي المعلومات التي تسبّب الضيق، وتثير المشاكل، وتخلّ بنظام المجتمع.

٢ ـ رفع التكليف عن الناس في بعض الأحكام، قبس من الرحمة والصفح الإلٰهيّ، ﴿لَا تَسْـَٔلُوا... عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ﴾.

٣ ـ الله تبارك وتعالى يمنح عباده فرصة للتوبة والعودة، ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

٤ ـ إذا لم يتوافر الناس على الأهلية اللازمة، فإنّ إطلاعهم على بعض الحقائق قد يتسبّب في كفرهم، ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ﴾.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

إشارات:

- التقرّب إلى الله تعالى يجب أن يتمّ من خلال الوسائل والطرق الصحيحة والمنطقية؛ إذ لا يمكن التقرّب إليه بأيّ نذر أو وسيلة كانت.

كثيرة هي البدع التي كانت شائعة في العصر الجاهلي، منها أنّهم كانوا يضعون على بعض الحيوانات علامات وأسماء ويحرّمون أكل لحومها، وشرب لبنها، أو جزّ صوفها، أو ركوبها، وكانوا يطلقون هذه الحيوانات سائبة تسرح دون أن يعترضها أحد، ودون أن يستفيدوا منها شيئاً. نظير هذه العادات يعمل بها في الوقت الحاضر في بلاد الهند، إذ يكنّون تقديساً للأبقار.

- لا يجوز ترك الحيوانات سائبة دون أن ينتفع بها أحد، فما بالك بترك الإنسان.
- جاء في الروايات: «البحيرة» الناقة إذا ولدت خمسة أبطن فإن كان الخامس ذكراً نحروه فأكله الرجال والنساء، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها أي

شقّوها وكانت حراماً على النساء والرجال شحمها ولبنها فإذا ماتت حلّت للنساء[١].

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ أنّه قال: «**إنّ أهل الجاهلية كانوا إذا ولدت الناقة ولدين في بطن قالوا وصلت ولا يستحلّون ذبحها ولا أكلها، وإذا ولدت عشراً جعلوها سائبة ولا يستحلّون ظهرها ولا أكلها. والحام فحل الإبل لم يكونوا يستحلّونه، فأنزل الله عزّ وجلّ أنّه لم يكن يحرّم شيئاً من ذا**»[٢].

التعاليم:

١ ـ يجب تطهير الدين من الخرافات والبدع، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾.

٢ ـ الأصل في الحيوانات أنّها حلال ما لم ينزل تشريع بتحريمها، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾.

٣ ـ إتلاف الأموال وتسريح الحيوانات ثمّ نسبة ذلك إلى الله نوع من الافتراء عليه سبحانه وحرام، ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾.

٤ ـ المصالح الحقيقيّة هي منشأ تشريع الأحكام الإلٰهيّة، أمّا الخرافات فمنشؤها الجهل والحُمق، ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٥ ـ إذا اتّصف غالبية المجتمع بالعقل والحكمة، فلن تجد البدع مجالاً للظهور، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

إشارات:

□ ربّما كانت الآية تتحدّث عن الخرافات التي مرّ ذكرها في الآية السابقة.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٥، ص ٦١. (٢) المصدر نفسه.

التعاليم:

١ ـ يدعو القرآن الكريم الناس إلى اتّباع أحكام الله وطاعة رسوله، ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ...﴾.

٢ ـ الدخول في دعوة الإسلام مدعاة للكمال والرقي، ﴿تَعَالَوْاْ﴾ تشير إلى الحركة نحو العلوّ والسموّ.

٣ ـ الثقافة الإلٰهيّة هي المعيار لا ثقافة الماضين، ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ القرآن الكريم وحده لا يكفي، بل يجب الأخذ بسنّة الرسول الكريم ﷺ، وسيرته، وحكومته كمعيار للعمل، ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾.

٥ ـ الرجعيون المؤمنون بالخرافات والخزعبلات غير مستعدّين للإصغاء للحق، ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا﴾.

٦ ـ لا تقليدية ولا حداثوية بل المعيار هو العلم والهداية، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

٧ ـ فلنحكم ضمائرنا، ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ...﴾.

٨ ـ لا يجوز اتّباع الأفكار الجاهلية للأسلاف والتمسّك بها، ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

٩ ـ التقليد الأعمى دليل حمق وغياب العقل. الآية السابقة تقول: إنّهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، وهذه الآية تتحدّث عن التعصّب للأجداد.

١٠ ـ لا معنى لتقليد الجاهل للجاهل، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا... ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

إشارات:

□ اتّخذ بعضٌ من هذه الآية ذريعة فقال: مسؤولية كلّ منّا حفظ نفسه، وإنّنا لسنا مسؤولين عن خطايا الآخرين، وليس لنا أن نأمرهم أو ننهاهم!

نقول في الردّ على هؤلاء: ثمّة آيات كثيرة وروايات عدّة تشير جميعها إلى

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلّا أنّه يجب القول: إنّ المراد من هذه الآية ليس ترك هاتين الفريضتين، بل، إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر دون أن يسفر ذلك عن نتيجة تذكر، حينذاك ما من مسؤولية عليكم سوى حفظ أنفسكم[1]. هذا فضلاً عن أنّ صيانة المجتمع من المعاصي عبر العمل بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو من أمثلة «حفظ النفس».

التعاليم:

١ ـ لا نستوحش من قلّة سالكي درب الحق، ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم﴾.

٢ ـ إن لم نقدر على ترويض الآخرين، فلا أقلّ من أن نروّض أنفسنا، ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ...﴾.

٣ ـ فساد المجتمع لا يبرّر للمرء أن يحذو حذوه، ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم﴾.

٤ ـ في يوم القيامة كلّ إنسان مسؤول عن نفسه، ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٥ ـ حذار من التفتيش عن عيوب الآخرين[2] ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٦ ـ لن يُحاسَب أهل الإيمان على تصرّفات وأفعال الضالّين ومعتقداتهم الباطلة، ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٧ ـ لا تجعل غرقك ثمناً لإنقاذ الآخرين، ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم﴾.

٨ ـ يجب أن نربّي أنفسنا بحيث نتحصّن من فساد بيئتنا ومجتمعنا، ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾.

٩ ـ حذار من أن يُطفئ انحراف الآخرين جذوة معنويّاتنا، ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾.

١٠ ـ المنحرفون يتربّصون بنا، فلا بدّ أن نتحصّن بالهداية، ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

١١ ـ الإيمان بالمعاد هو عامل تهذيب النفس، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

---

(١) نجد هذا المضمون نفسه في حديث للنبي الكريم ﷺ في تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير نور الثقلين.

١٢ ـ لن ينجي الإنسان في يوم القيامة أن يسلك في الدنيا طريق الأسلاف أو يقلّد الآخرين تقليداً أعمى، فكلّ فرد مسؤول عن نهجه وعمله، ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ... فَيُنَبِّئُكُم﴾.

١٣ ـ الدنيا مزرعة الآخرة، فأقوال الإنسان وأفعاله في الدنيا، ترسم له صورة الآخرة، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦)﴾

إشارات:

❑ جاء في التفاسير في سبب نزول هذه الآيات أنّ أحد المسلمين ويدعى «ابن أبي مارية» ومعه أخوان مسيحيان من العرب يدعيان «تميم» و«عدي» خرجوا من المدينة للتجارة، وفي الطريق مرض «ابن أبي مارية» المسلم، فكتب وصية أخفاها في متاعه، وعهد بمتاعه إلى رفيقيه ـ النصرانيين ـ في السفر، وطلب منهما أن يسلّماه إلى أهله، ثمّ مات ففتح النصرانيان متاعه واستوليا على الثمين والنفيس فيه، وسلّما الباقي إلى الورثة، وعندما فتح الورثة متاعه لم يجدا فيه بعض ما كان ابن أبي مارية قد أخذه معه عند سفره وفجأة عثروا على الوصية، ووجدوا فيها ثبتاً بكلّ الأشياء المسروقة ففاتحوا المسيحيين بالموضوع، فأنكرا وقالا: لقد سلّمناكم كلّ ما سلّمه لنا، فشكوا الرجلين إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآيات تبيّن حكم القضية(١).

غير أنّ سبب النزول المذكور في كتاب «الكافي» يقول: إنّهما أنكرا أوّلاً وجود متاع آخر، ووصل الأمر إلى رسول الله ﷺ، ولمّا لم يكن يوجد دليل ضدّهما طلب منهما رسول الله ﷺ أن يحلفا اليمين، وبرّأهما، ولكن بعد أيّام

---

(١) تفسير الميزان.

قليلة ظهر بعض المتاع المسروق عند الرجلين فثبت كذبهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فانتظر حتى نزلت الآيات المذكورة، عندئذٍ أمر أولياء الميّت بالقسم، وأخذ الأموال ودفعها إليهم[١].

التعاليم:

١ ـ الاحتضار هو الفرصة الأخيرة أمام الإنسان لكي يوصي، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾.

٢ ـ على المؤمن توخّي الدقّة والحذر حين الوصيّة، ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

٣ ـ أشهدوا شاهدين عدلين حتى تعطوا الناس حقوقهم، ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ﴾.

٤ ـ إذا لم يكن للمسلمين حضور عند إعطاء حقوق الناس، فتدبّروا الأمر مع غير المسلمين ﴿غَيْرِكُمْ﴾، ولكن شرط أن يكونوا مؤمنين بالله لكي يحلفوا بلفظ الجلالة المقدّس، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾.

٥ ـ مراعاة حقوق الناس مهمّة في كلّ البقاع لا في بقعة بعينها، ﴿ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٦ ـ لإعطاء الحقوق يجب رفع أيّ ارتياب أو شبهة، ﴿تَحْبِسُونَهُمَا... إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾.

٧ ـ أداء اليمين أحد الطرق لرفع الشك والارتياب، ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾.

٨ ـ لفظ الجلالة «الله» هو اليمين الوحيد المعتبر وذو قيمة، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾.

٩ ـ لنوظّف المشاهد الدينيّة والروحانية، والبقاع والمواقيت المقدّسة في أداء الحقوق[٢] ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) روي أنّ شخصاً جاء إلى الإمام علي عليه السلام وطلب منه مالاً (مضافاً إلى سهمه من بيت المال) فطلب منه الإمام أن يأتي في يوم الجمعة، وفي ذلك اليوم أخذ الإمام عليه السلام بيد ذلك الشخص وجاء به إلى صلاة الجمعة وأشار إلى جموع الحاضرين وقال له: إنّ طلبك المال هو أن تسرق أموال وحقوق هؤلاء الناس. نلاحظ في هذا المثال أنّ الإمام استفاد من بعض العوامل مثل الصلاة، وجموع المصلين، ومناسبة يوم الجمعة، ليكون كلامه أشدّ تأثيراً في نفس المخاطب.

١٠ ـ إغراء المال واحد من عوامل الانحراف، ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾.

١١ ـ الحب وروابط القرابة الأسرية، عامل آخر من عوامل الانحراف، ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

١٢ ـ موضوع «حقّ الناس» هو الحالة الوحيدة الذي تمّ فيها إملاء نصّ القَسَم، ﴿لَا نَشْتَرِى﴾.

١٣ ـ كتمان الحقّ وشهادة الزور تصيّر العادل فاسقاً، وهي محرّمة بحسب جميع الأديان السماوية، يصفهما الله بقوله ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾، أولا ثم يقول: ﴿لَّمِنَ ٱلْآثِمِينَ﴾.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

إشارات:

- «عثور» من عثر إذا سقط، ويستعمل مجازاً في من يطلع على أمر من غير طلبه[١].
- لا يخفى أنّ شهادة ويمين أولياء الميّت تقوم على أساس ما لديهم من معلومات سابقة عن أمواله أثناء السفر وفي غيره.
- ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ في الآية على وجهين:

أ ـ اثنان من الورثة المستحقّين للتركة اللذين تحقّق ضررهما بالشهادة الكاذبة؛ لأنّهما أقرب إلى الميّت.

ب ـ المقصود بهما الشاهدان اللذان طلب منهما الميّت الشهادة، وكانا حاضرين لحظة الموت، وقد استحقّا هذه الأولويّة لجهة حضورهم لحظة الاحتضار أو طلب الميّت منهم أن يشهدوا. على هذا الأساس، يكون تفسير الآية كما يلي: إذا ظهرت خيانة الشاهدين الأوّلين، فليقم اثنان

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني.

آخران بدلاً منهما ويكونا من ورثة الميّت ليشهدا بالحقيقة، ويكون هذان ممّن وقع عليهما ظلم الشاهدين الأوّلين.

□ يجب أن يشهد الاثنان ويحلفا بلفظ الجلالة «الله» وأن يكون نصّ القَسَم ما ورد في الآية المباركة وهو ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ الشهادة الكاذبة هي، بنحوٍ، ظلم وعدوان على حقوق الناس، ﴿ٱعْتَدَيْنَآ . . . لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

إشارات:

□ توضّح هذه الآية الحكمة المتوخاة من وجوب التعامل بدقّة وحذر مع موضوع الإدلاء بالشهادة الذي ورد في الآيات السابقة، وهو أن تكون الشهادة بعد الصلاة وفي حضور الناس، ما سيؤدّي إلى أن تكون الشهادة حقيقيّة وواقعيّة؛ وذلك لأنّه في حال رفض يمينهما وشهادتهما فسيذهب ذلك بماء وجههما وسمعتهما في المجتمع.

التعاليم:

١ ـ لا شك في أنّ المراسيم والترتيبات المتّخذة للمحافظة على حقوق الناس وتثبيتها لها قيمة كبيرة، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن...﴾.

٢ ـ الخوف من الفضيحة في المجتمع أحد العوامل التي تحول دون ارتكاب المعاصي، ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌ﴾.

٣ ـ لنحيَ حياةً نمنع من خلالها الأشرار أو المتظاهرين بالعدل أن يضيّعوا جهودنا بأيمانهم الكاذبة، وليعلموا أنّ جماعة أفضل منهم ستردُّ شهادتَهم، ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾.

٤ ـ التقوى ضرورية في مسائل الوصيّة والقَسَم والشهادة، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٥ ـ الشهادة الكاذبة دليل فسق، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

إشارات:

□ سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن تفسير هذه الآية الكريمة فقال: «**إنّ لهذا تأويلاً يقول ماذا أُجبتم في أوصيائكم الذين خلّفتموهم على أممكم؟ قال: فيقولون: لا علم لنا بما فعلوا من بعدنا**»[1].

□ الله تعالى وحده لديه العلم الحقيقي، وكلّ عليم ينهل من علم الله، كما إنّ علم الغيب بيده سبحانه، يخبر به من يشاء.

التعاليم:

١ ـ في يوم القيامة يُسأل الأنبياء عن رسالتهم وعمّا فعله وقاله الناس لهم، ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾.

٢ ـ علم الأنبياء لا يساوي شيئاً مقارنة بعلم الله تعالى، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

إشارات:

□ ابتداءً من هذه الآية إلى آخر السورة ينصبّ الحديث على النبي عيسى عليه السلام.

(١) الكافي، ج ٨، ص ٣٣٨.

□ تتضمّن الآية استعراض أنواع اللطف الإلٰهيّ، وعلى رأسها تأييد المسيح عليه السلام بالروح القدس. إذ تقول الآية في البداية: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾، بيد أنّنا نجد أنّ كلّ النعم المذكورة في الآية تتعلّق بعيسى وحده لا بأمّه، ربّما يرجع السبب في ذلك إلى أنّ نعمة الابن هي، في الوقت ذاته، نعمة للأم أيضاً. أو لعلّ مراد الآية هو النعم الواردة حول السيدة مريم عليها السلام في سورة آل عمران[1].

□ أمّا المقصود بالكتاب، فقد يكون غير التوراة والإنجيل، وذكر هذين الكتابين هو لأهميّتهما.

□ سُئل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، عن كائنٍ حيٍّ لم يولد من رحم ولا بيضةٍ فأجاب بالإشارة إلى الطير الذي نفخ الله فيه الروح على يد عيسى عليه السلام[2].

التعاليم:

١ ـ ذكر ألطاف الله ونعمه المسبغة على أوليائه يبعث على زرع الطمأنينة والثقة في قلوب سالكي طريق الحقّ، ﴿إِذْ...﴾.

٢ ـ يا له من تكريم هذا الذي يرفع منزلة المرأة لتضاهي منزلة النبي، ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾، لا بل أكثر من هذا، لتصبح الأم وابنها النبي كلاهما آية، ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً﴾[3].

٣ ـ تكلُّم النبي عيسى عليه السلام في المهد كان برهاناً على نبوّته وعلى عفّة والدته وعصمتها في آنٍ معاً، ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾.

٤ ـ كلام النبي عيسى في المهد كان مظهراً للوحي، ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ...﴾.

٥ ـ لم تقف عوامل التجربة، والممارسة، والوقت، بوجه الإرادة الإلٰهيّة إذ تكلّم النبي عيسى عليه السلام في مهده وكهولته بكلام حكيم لا بكلام أطفال، ﴿فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ٤٢ ـ ٤٥.
(٢) تفسير نور الثقلين.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٩١.

٦ ـ لا بدّ للأنبياء من أن يمتلكوا (**الكتاب**) و(**العلم**) وأن يحيطوا أيضاً بآراء الماضين (**التوراة**) فضلاً عن تقديمهم رسالة جديدة (**الإنجيل**).

٧ ـ يمكن استخدام مصطلح الخلق لغير الله أيضاً، ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾.

٨ ـ إذنُ الله تعالى هو الذي أعطى الضوء الأخضر لصنع تماثيل الطيور، ﴿تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾.

٩ ـ لأولياء الله الخواص ولاية تكوينية فالكلمات **«تخلق، تنفخ، تبرئ وتخرج»** موجّهة إلى النبي عيسى عليه السلام.

١٠ ـ معجزة النبي عيسى عليه السلام كانت تركيباً من روحه المسيحانية وفن صنع التماثيل، ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَتَنفُخُ﴾.

١١ ـ الروح المسيحانية صيّرت الجماد طائراً يطير، لكنّ قلوب بني إسرائيل لم تتأثّر بها البتة، ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا﴾.

١٢ ـ اشتداد خطر الشرك يستدعي تكرار التوحيد. تأمّل تكرّر الكلمات، ﴿تَخْلُقُ... بِإِذْنِي... وَتُبْرِئُ... بِإِذْنِي... تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾.

١٣ ـ حينما يهب الله تعالى الأنبياء القدرة على الإحياء والشفاء، يدلّ على أنّ توسّل الناس واستمدادهم بهم جائز، ﴿تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ... فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾، إذ كيف يصحّ أن يعطي الله القدرة لشخص، ثمّ يمنع الناس عن التوسّل به؟

١٤ ـ في هذه الدنيا حدثت «الرجعة» وإحياء الموتى، ﴿تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾.

١٥ ـ دفع الله عن عيسى عليه السلام النوايا السيئة لبني إسرائيل، ﴿كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ﴾.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

إشارات:

□ قد يكون المراد بالوحي إلى الحواريين هو الإلهام الذي قذف في قلوبهم، لا

الوحي عن طريق النبي عيسى عليه السلام، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «أُلهموا»[١].

□ سُئل الإمام الرضا عليه السلام عن عدد الحواريين فقال: **«أمّا الحواريون فكانوا اثني عشر رجلاً... أمّا عند الناس فإنّهم سمّوا حواريين لأنّهم كانوا قصارين يخلصون الثياب من الوسخ بالغسل، وهو اسم مشتق من الخبز الحوار، وأمّا عندنا فسمّي الحواريون حواريين لأنّهم كانوا مخلصين في أنفسهم، ومخلصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكر»**[٢].

التعاليم:

١ ـ أحياناً ينزل الله تعالى إلهامه على القلوب المؤمنة المستعدّة، ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾.

٢ ـ الإيمان بالله لا ينفصل عن الإيمان بالرسول الكريم، ﴿ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾.

٣ ـ حينما تكون الهداية باطنية وإلٰهيّة، يكون تأثيرها أعمق وأسرع، ﴿أَوْحَيْتُ... قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾.

٤ ـ إذا لم يقترن الإرشاد بالنور الإلٰهيّ، يكون عديم التأثير أو قليل التأثير وزائلاً، ﴿أَوْحَيْتُ... ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

٥ ـ الإلهام الإلٰهيّ للناس هو في مسار تأييد وحي الأنبياء لا بالضدّ منه، ﴿أَوْحَيْتُ... ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾.

٦ ـ علامة الإيمان الباطني هو الإظهار والإقرار باللسان، على النحو الذي يكون فيه ظهيراً للشعارات العلنية، ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

إشارات:

□ تسمية هذه السورة المباركة بـ «المائدة» يعود إلى هذه المائدة السماوية.

---

(١) تفسير نور الثقلين. (٢) المصدر نفسه.

□ «**المائدة**» تعني في اللغة الخوان والسفرة والطبق، كما تعني الطعام الذي يوضع عليها.

□ لقد كان أسلوب الحواريين في السؤال غير مهذّب وأقرب إلى الجرأة، فبدلاً من قول: «يا رسول الله» قالوا: «يا عيسى»، وبدلاً من «هل يلطف بنا» قالوا: «هل يستطيع»؟ وبدلاً من «ربّنا» قالوا: «ربّك»؛ لذلك جاءهم الردّ بعبارة ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

التعاليم:

١ ـ التقوى علامة الإيمان، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٢ ـ اليقين القلبي أرفع مرتبة من الإيمان، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، شيء مماثل حصل للنبي إبراهيم عليه السلام حين أجاب عن سؤال ربّ العالمين تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ بالقول: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[1].

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾

إشارات:

□ عادة ما تبدأ أدعية القرآن الكريم بكلمة «ربّ»، ولكن هذه الآية استخدمت عبارة ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾. ربّما كان ذلك لأهميّة الحدث وفداحة النتائج المترتّبة عليه.

التعاليم:

١ ـ التوسّل بأولياء الله تعالى لقضاء الحوائج جائز، ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى... قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ﴾.

٢ ـ عيون الأنبياء تتطلّع إلى التاريخ والأجيال الآتية، ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

٣ ـ علينا دوماً استلهام الدروس والعبر من الآيات الإلٰهيّة، ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾.

٤ ـ الأعياد والاحتفالات الدينيّة عمل سليم من وجهة نظر القرآن الكريم، ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ ميلاد أولياء الله وبعثة النبي الأكرم ﷺ مناسبات ليست أقل شأناً من مناسبة نزول المائدة السماوية.

٥ ـ النبي عيسى ﵇ ركز في دعائه على سماوية المائدة بدلاً من الطعام نفسه، ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾.

٦ ـ عند الدعاء يجب أن نتحلّى بالأدب التامّ وأن ندعو الله تعالى بالصفة التي تتناسب مع طلبنا، لاحظ الآية، أوّلها، ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ ،وآخرها ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

٧ ـ فلنؤطّر مطالبنا المادّيّة بإطار روحي ومعنوي، فالحواريّون كان هدفهم الأول الأكل، ومن ثمّ حصول اليقين لهم، لذلك قالوا ﴿نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ﴾، فيما دعا النبي عيسى أوّلاً لتخليد يوم في التاريخ للاحتفاء والسرور، ﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾، ثمّ آية لقدرة الله وعظمته ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾، وفي المرحلة الثالثة والأخيرة موضوع الرزق ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ وبذلك أفهم الجميع أنّ القضايا الروحية والاجتماعيّة تأتي في المقدمة وتليها القضايا الاقتصاديّة.

٨ ـ لنستغنِ بسؤال الله تعالى عن سؤال الآخرين، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

إشارات:

- لا يوجد في الأناجيل كلام عن قصة المائدة السماوية على النحو الذي جاء القرآن الكريم على ذكرها[1].
- ورد في الروايات: «أنّه بعد نزول المائدة، كفر بعضهم، فمُسخوا خنازير»[2].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. (٢) تفسير الميزان.

وروايات أخرى تقول: «إنّ تلك المائدة كانت تحوي أرغفة من الخبز ومقداراً من اللحم[١]».

❑ إذا كان الحواريون قد نزلت عليهم مائدة من السماء، فإنّ جبرائيل، بحسب الروايات، نزل على رسول الله ﷺ بتفاحة من الجنّة فأكلها فتحوّلت ماءً في صلبه ثمّ واقع خديجة عليها السلام فحملت بفاطمة عليها السلام، وكان ﷺ يشمّ منها رائحة الجنّة[٢].

التعاليم:

١ ـ دعاء الأنبياء مستجاب، ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا... إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾.

٢ ـ أولئك الذين يمتلكون العلم، واليقين، والشهود، تكون مسؤوليتهم أكبر، وعذابهم أشدّ إذا ما ارتكبوا المعاصي، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾؛ إذن فالذين لم يحصلوا على العلم والشهود أقلّ عرضة لعذاب الله.

٣ ـ لعذاب الله تعالى درجات ﴿عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا﴾.

٤ ـ من رفع سقف دعائه إلى درجة أن تنزل عليه مائدة من السماء، يجب أن يكون التزامه أكبر، ﴿مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ... عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾

إشارات:

❑ قرأنا في الآية ١٠٩ من هذه السورة أنّ الله تعالى يجمع الأنبياء في يوم القيامة، فيسألهم: ماذا كانت إجابة الناس على دعوتكم؟ وهنا تسرد الآية حوار الله تبارك وتعالى مع نبيّه عيسى عليه السلام في يوم القيامة.

---

(١) تفسير نور الثقلين؛ تفسير مجمع البيان.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٥.

❑ صحيح أنّ المسيحيين اليوم لا يؤمنون بالسيدة مريم كمعبودة، غير أنّ تعبير «إلهين» الوارد في الآية قد يعود إلى أنّ فئة من المسيحيين في ذلك العصر كانت تحمل هذه العقيدة، أو بسبب عبادتهم أمام تمثالها فأصبح ذلك بمنزلة اتّخاذها معبودة، ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ﴾.

❑ ﴿دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ هي علامة على الشرك، لا إنكار الله تعالى، بمعنى، أنّ اعتبار عيسى ومريم إلهين إلى جانب الله تعالى هو أيضاً شرك. طبعاً، عقيدة التثليث الحاليّة التي يؤمن بها المسيحيون هي الآب، والابن، والروح القدس..

❑ يقول الإمام الرضا عليه السلام: **«يهلك فيّ اثنان ولا ذنب لي: مُحبّ مفرط ومبغض مفرّط، وإنّا لنبرأ إلى الله تعالى ممّن يغلو فينا، فيرفعنا فوق حدّنا كبراءة عيسى بن مريم عليه السلام من النصارى»**[1].

❑ تسبيح السيّد المسيح دليل آخر على تنزيه الله من أيّ شرك.

وفي آيات أخرى ورد في السياق نفسه ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾[2]، ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ أحياناً يكون السؤال والتوبيخ موجّهاً إلى بريء، لكنّ المقصود هم الآخرون؛ أي على طريقة إيّاك أعني واسمعي يا جارة، ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ﴾.

٢ ـ الأنبياء معصومون، ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾.

٣ ـ الأنبياء براء من غلوّ أتباعهم، ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾.

٤ ـ أقوال الإنسان وأسراره الباطنية مكشوفة لله تعالى، ﴿فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾.

٥ ـ لا بدّ من تسبيح الله تعالى وتنزيهه عن كلّ ما لا يليق به، ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٦.

(٣) سورة النحل: الآية ٥٧.

٦ ـ علم الأنبياء محدود، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾؛ فهل يستحقّ الألوهيّة من كان علمه محدوداً؟!

٧ ـ أفكار الناس وأسرارهم هي عن علم الغيب الذي يحيط به الله تعالى، ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾. . . ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾.

٨ ـ العلم التام والشامل بجميع الحقائق لله وحده، ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾.

﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾

إشارات:

□ «التوفي» هو الاستيفاء التامّ، ويعدّ الموت أحد أمثلته. ومن أمثلته أيضاً رفعُ الله تعالى نبيَّه عيسى عليه السلام من وسط قومه، فهو حيّ في السماء حتى يظهر مع الإمام المهدي عليه السلام في آخر الزمان.

التعاليم:

١ ـ الأنبياء معصومون ولا يفعلون إلّا ما يأمرهم به الله، ولا يغيّرون في الوحي شيئاً أبداً، ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾.

٢ ـ النبي عيسى عليه السلام يصف نفسه بأنّه كالآخرين مربوب الله تعالى، ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾.

٣ ـ الأنبياء شهداء على أعمال الناس، ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾.

٤ ـ الدعوة إلى التوحيد على رأس المسؤوليات المناطة بالأنبياء، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ معلوم أنّ رسالة عيسى عليه السلام لم تقتصر على التوحيد إلّا أنّ الآية تركز على هذا الموضوع فقط.

٥ ـ العلامة والمعيار في عبادة الله هي ربوبيّته سبحانه، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾.

﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾

إشارات:

□ يقول النبي عيسى عليه السلام في جوابه عن خطاب ربّ العالمين سبحانه وتعالى:

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أنّه ليس له أيّ دور في عقائد أمّته المشوبة بالشرك، وذلك ليعزل نفسه عنهم وليؤكد على أنّ الله سبحانه وتعالى وحده هو مالكهم.

❑ وجاء في الروايات عن أبي ذر (رضي الله عنه) أنّه قال: صلّى النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلما أصبح، قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية، حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: «**إنّي سألت ربي ﷻ الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يُشرك بالله شيئاً**»[1].

وفي رواية أخرى أنّ النبي ﷺ تلا قول عيسى ﵇: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه، فقال: «**اللهم أمتي**» وبكى، فقال الله: «**يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فاسأله ما يبكيه**»، فأتاه جبريل فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله: «**يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك**»[2].

التعاليم:

١ ـ لقد أوكل الأنبياء أمرهم إلى الله وردّوا المشيئة إليه ﷻ، ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ... وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وليس لأحد أن يتجرّأ على الله ويسأله عمّا يشاء، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[3].

٢ ـ عذاب المشركين أو الصفح عنهم بيد الله وحده، ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ... وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

٣ ـ سخط الله أو رحمته، كلاهما يستند إلى عزّته وحكمته، ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) تفسير المراغي.
(٢) تفسير ابن كثير.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

إشارات:

□ نقلت الآيات السابقة كلام النبي عيسى عليه السلام بين يدي الله تعالى، وتضمّن:

١ ـ ليس لي أن أقول إلّا الحقّ، ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

٢ ـ إذا كنت نطقت بغير الحقّ فإنّك تعلمه، ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾.

٣ ـ لم آمر الناس بشيء غير التوحيد الذي أمرتني به، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٤ ـ كنت عليهم رقيباً وناظراً لئلّا ينحرفوا، ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

فيؤكد الله تبارك وتعالى في هذه الآية أنّ: كلّ ما نطق به عيسى هو الحقّ والصدق، واليوم يومٌ ينفع الصادقين صدقهم.

التعاليم:

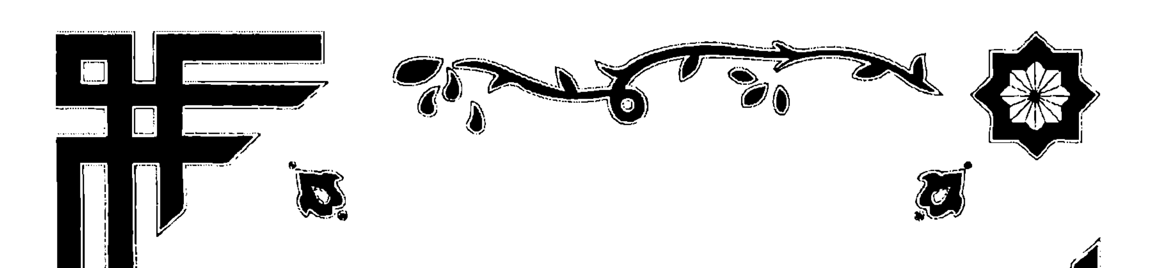
١ ـ إذا تحمّل المؤمن الشدائد والمصاعب في الدنيا بسبب صدقه، فإنّ صدقه سينفعه في الآخرة، ﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

٢ ـ وحدهم الصادقون الذين سوف ينتفعون، لا الأفّاكون أو أصحاب الشعارات، أو المراؤون، ﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٣ ـ الجنّة مع رضى الله تعالى، هي الفوز الأكبر والفلاح، ﴿جَنَّٰتٌ... رَّضِيَ ٱللَّهُ... ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٤ ـ العبادة تليق بمن يملك في قبضته سلطان الكون والقدرة المطلقة، لا بالآخرين، حتى وإن كانوا أنبياء، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ الأَنْعَامِ

السورة: ٦ الجزء: ٧ ـ ٨

عدد آياتها: ١٦٥



ملامح سورة الأنعام

عدد آياتها ١٦٥ آية، جميعها مكيّة، وقد نزلت دفعةً واحدة ووفقاً لترتيبات خاصة، إذ شيّع نزولها سبعون ألف ملك حتى نزلت على النبي الكريم ﷺ.

الهدف الرئيس للسورة الكريمة، هو تأكيد محاربة الشرك والدعوة إلى التوحيد. ولمّا كان المشركون في شبه الجزيرة العربيّة يرزحون تحت نير الخرافات إذ كانوا يحلّون بعض الأنعام ويحرّمون بعضاً آخر، فقد انبرى القرآن الكريم إلى محاربة تلك الخرافات والمعتقدات الباطلة، وأنزل بدءاً من الآية ١٣٦ أحكاماً تخصّ الأنعام فسمّيت السورة بهذا الاسم.

نقلت روايات عدّة في فضل تلاوة هذه السورة وقضاؤها للحاجات، منها ما نقل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: **«من كانت له إلى الله حاجة يريد قضاءها فليصلِّ أربع ركعات بفاتحة الكتاب والأنعام وليقل في صلاته إذا فرغ من القراءة: يا كريم يا كريم يا كريم، يا عظيم يا عظيم يا عظيم، يا أعظم من كل عظيم يا سميع الدعاء يا من لا تغيره الليالي والأيام، صل على محمد وآل محمد وارحم ضعفي، وفقري، وفاقتي، ومسكنتي، يا من رحم الشيخ يعقوب حين رد عليه يوسف قرة عينه، يا من رحم أيوب بعد طول بلائه، يا من رحم محمداً، ومن اليتم آواه ونصره على جبابرة قريش وطواغيتها وأمكنه منهم، يا مغيث يا مغيث يا مغيث، تقول ذلك مراراً فوالذي نفسي بيده لو دعوت الله بها ثم سألت الله جميع حوائجك لأعطاك»**[1].

وتمتاز هذه السورة بكثرة خطاب النبي الكريم ﷺ بكلمة «قل» مقارنة بالسور القرآنية الأخرى، إذ وردت ٤٤ مرّة، ولعلّ مردّ ذلك هو أنّ سورة الأنعام تكثر من طرح عقائد المشركين الباطلة، وانحرافاتهم، وأحلامهم المريضة، لذلك تطلّب المقام إبداء الحزم والشدّة تجاههم، ويشير هذا إلى أنّ النبي الكريم ﷺ مأمور بإبلاغ الرسالة السماوية كما هي دونما زيادة أو نقصان.

---

(١) تفسير أطيب البيان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾

إشارات:

- يلاحظ المرء أنّه في جميع آيات القرآن الكريم وردت لفظة «نور» في صيغة المفرد، بينما «الظلمات» في صيغة الجمع، والحقيقة، أنّ الحقّ هو واحد لا يتجزأ، بينما الطرق المؤديّة إلى الباطل متعدّدة. نعم، إنّ النور هو رمز الوحدة، بينما الظلمات رمز التفرّق والتشتّت. «**يعدلون**» من «**عدل**»، على وزن «حفظ» وتعني التساوي، وهي هنا بمعنى (العديل) أي الشريك، أو الشبيه، أو المثيل.
- تتناول الآية الأولى من هذه السورة «خلق نظام الكون»، والآية الثانية «خلق الإنسان»، والآية الثالثة مراقبة «أعمال الإنسان وسلوكه».
- يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**وكان في هذه الآية رد على ثلاثة أصناف منهم المنحرفون لما قال الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض فكان ردّاً على الدهرية الذين قالوا: إنّ الأشياء لا بدء لها وهي دائمة، ثمّ قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾**[1]**، فكان ردّاً على الثنوية الذين قالوا: إنّ النور والظلمة هما المدبّران، ثمّ قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾**»[2].
- عن أبي إبراهيم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنّه قال في قوله عزّ وجلّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾: «**الكفّار يعدلون بين الظلمات والنور وبين الجور والعدل**»[3].

---

(١) جاء في كتاب «**الأفستا**» الحالي وهو الكتاب المقدّس عند الزرادشتيين أنّ أهريمن هو إله الظلمات وأهورا مزدا إله النور، ويوجد بينهما صراع؛ (تفسير الكاشف).

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) تفسير العياشي؛ بحار الأنوار، ج ٩، ص ٣٥٥.

التعاليم:

١ ـ لقد خَلق الله تعالى الأشياء من العدم (أي أصل وجود الشيء)، كما قام بالجعل وهو يكون في الخصائص، والآثار، والكيفيات، التي هي نتيجة لخلق تلك المخلوقات، أي الخلق الابتدائي ﴿خَلَقَ﴾ والخلق التبعي ﴿جَعَلَ﴾).

٢ ـ الإشراك بالله هو، على نحوٍ، إنكار لله وكفر به، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

- طرحت الآية السابقة المسائل الآفاقية وخلق السموات والأرض، هنا تتحدّث الآية الكريمة عن خلق الإنسان وعالمه الصغير في هذه الدنيا.
- تكرّرت عبارة «أجل مسمّى» ٢١ مرّة في القرآن الكريم.
- لقد وضع الله تعالى لعمر الإنسان أجلين: الأول، الأجل الحتمي، وهو انقضاء العمر (كما هو الحال مع زيت السراج)، حتى لو أزيلت جميع الموانع وهُيِّئت له جميع الأسباب، والثاني هو الأجل غير الحتمي (الاخترامي) الذي يتعلّق بأعمالنا، كالسراج المملوء بالزيت لكنّه وُضع في مهبّ الرياح.
- جاء في الروايات أنّ أعمالاً من قبيل صلة الرحم، والصدقة، والزكاة، والدعاء، وغيرها من الأعمال تسبّب طول العمر وفي المقابل، فإنّ أعمالاً مثل قطع الرحم والظلم وغير ذلك، تتسبّب في قصر العمر.
- وقد سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، فقال: «**هما أجلان، أجل محتوم وأجل موقوف**»[1].
- نقل ابن عباس أنّ الله عيّن للإنسان أجلين: الأجل الأول من الولادة حتى

(١) الكافي، ج ١، ص ١٤٧.

الموت، والأجل الثاني، من الموت حتى يوم القيامة. فالإنسان بأعماله، ينقص من أحدهما ليضيفه إلى الثاني. إذن، فأجل كلّ إنسان لا يتغيّر، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾(١).

التعاليم:

١ ـ طول العمر والأجل ليس بأيدينا، ﴿هُوَ ٱلَّذِى... قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾.

٢ ـ الله تبارك وتعالى وحده المطّلع على الأجل المسمّى القطعي، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾.

٣ ـ إذا كنّا نعلم بأنّ خلق الإنسان وموته بيد الله، فلماذا إذن الشك والمراء في المبدأ والمعاد، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾؟

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾

إشارات:

- ردّاً على عقيدة تعدّد الآلهة الباطلة (إله المطر، إله الحرب، إله السلام، إله الأرض...) تقول هذه الآية: إنّ إله كلّ شيء وكلّ مكان واحد.
- عن محمد بن النعمان قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: **«كذلك هو في كلّ مكان»**، قلت: بذاته، قال: **«ويحك إنّ الأماكن أقدار، فإذا قلت في مكان بذاته لزمك أن تقول في أقدار وغير ذلك، ولكن هو بائن من خلقه محيط بما خلق علماً، وقدرةً، وإحاطة، وسلطاناً، وملكاً، وليس علمه بما في الأرض بأقلّ ممّا في السماء»**(٢).

التعاليم:

١ ـ إيقان المرء بأنّ علم الله يحيط بكل شيء سيحفّزه على العمل الصالح، وكذلك يردعه عن العمل القبيح، ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

---

(١) سورة فاطر: الآية ١١.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ والشيخ الصدوق، التوحيد، ص ١٣٣.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾

إشارات:

□ ربّما كان المقصود بـ «الأنباء العظيمة» في الآية هو فتح مكة أو هزيمة المشركين في وقعة بدر وما شابه[١].

التعاليم:

١ ـ لا فرق بين نوع الدليل والآية عند الفرد اللجوج، فهو يردّها جميعاً دون تفكير، ﴿ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

٢ ـ لا بد من شحن المؤمنين بالروح المعنوية وطمأنتهم بأنّ طريقهم الحقّ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، وفي الوقت نفسه، تهديد الكفار بأنّهم سيلاقون مصيراً أسودَ، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾.

٣ ـ السخرية والاستهزاء هو الأسلوب المعتاد للكفار، ﴿كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٤ ـ سقوط الإنسان يتمّ على ثلاث مراحل: الإعراض، التكذيب، الاستهزاء، وهاتان الآيتان تشيران إلى هذه المراحل جميعها، ﴿مُعْرِضِينَ... كَذَّبُوا۟... يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾

إشارات:

□ الـ«قَرْن» هي الأمّة الهالكة برمّتها[٢]. كما تقال للقوم المقترنين في زمان من الدهر، فالمدة التي يجتمع فيها قوم ثم يفترقون بالموت هي قرن، لأن الذين

---

(١) تفسير المراغي. (٢) أقرب الموارد.

يأتون بعدهم أقوام آخرون اقترنوا فهم قرن آخر، والدليل عليه قوله ﷺ: «**خير القرون قرني**» واشتقاقه من الأقران، ولما كانت أعمار الناس في الأكثر الستين والسبعين والثمانين لا جرم قال بعضهم: القرن هو الستون، وقال آخرون: هو السبعون، وقال قوم: هو الثمانون والأقرب أنه غير مقدّر بزمان معيّن لا يقع فيه زيادة ولا نقصان، بل المراد أهل كل عصر فإذا انقضى منهم الأكثر قيل: قد انقضى القرن[1].

□ «**مدرار**» من الدر والدرة أي: اللبن، ويستعار ذلك للمطر، وتعني الهطول الوفير المتابع وعلى قدر الحاجة[2].

التعاليم:

١ ـ من لا يأخذ الدروس والعبر من التاريخ يتعرّض إلى التوبيخ، ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾.

٢ ـ الكفّار في صدر الإسلام كانوا على علم بتاريخ الأمم السابقة، لذلك كان بمقدورهم استقاء العبر منها، ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾.

٣ ـ وضع مسألة زوال النعم وهلاك المجرمين نصب العين، تحدّ من الغفلة، ﴿أَلَمْ يَرَوْا... فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

٤ ـ لقد سبقت الإسلام حضارات لكنّها انقرضت، ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾.

٥ ـ من الأساليب التربوية في القرآن الكريم سرد القصص الحقيقيّة والمفيدة لكي يستقي الناس منها العبر، ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾.

٦ ـ عذاب الذين يسيئون استخدام النعم الإلٰهيّة هو الهلاك، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾.

٧ ـ لم تقل الآية الكريمة: «أرسلنا من السماء»، بل ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ وفي ذلك دليل على منتهى اللطف الإلٰهيّ.

٨ ـ التحوّلات والحوادث التاريخية هي النتيجة الطبيعية لأفعال الناس، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

---

(١) تفسير الميزان؛ التفسير الكبير، الفخر الرازي.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ٥٢ سورة هود.

٩ ـ إهلاك الناس بسبب معاصيهم هو سنّة إلٰهيّة، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١٠ ـ مضافاً إلى عذاب الآخرة، فإنّ الله سبحانه يعذّب في هذه الدنيا أيضاً، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾.

١١ ـ إذا أصبحت المقدّرات بيد الصالحين فإنّهم سيقيمون الصلاة، ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1]، ولكن إذا صارت بيد الأشرار الذين لا إيمان لهم، أفسدوا وارتكبوا المعاصي، ﴿مَكَّنَّٰهُمْ... فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١٢ ـ المقدّرات المادّية لا تحصّن المرء من العذاب والسخط الإلٰهيّ، ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ... فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾ كما يتوهّم الكفّار ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2].

١٣ ـ الإمكانات المادّية ليست دليلاً على التوفيق والسعادة، ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ... فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾؛ إذ نقرأ في موضع آخر ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[3].

١٤ ـ الموت نوعان؛ موت طبيعي، ويقع عندما يحين الأجل فينتهي عمر الإنسان، وموت غير طبيعي، وسببه العذاب الإلٰهيّ أو الحوادث الطارئة، ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١٥ ـ لا يظنّن الجبابرة الأشرار أنّ الدنيا طوع أمرهم ما لاح نجم في السماء، فالله تعالى يستبدلهم بقوم آخرين، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم... وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

إشارات:

- تشير الآية الكريمة إلى طلب فريق من المشركين قالوا: لن نؤمن لك حتى ينزل عليك كتاب من السماء مع أربعة من الملائكة؛ لكنّهم كانوا يكذبون، فهدفهم هو اختراع المبرّرات والأعذار لكيلا يؤمنوا.

---

(١) سورة الحج: الآية ٤١.
(٢) سورة سبأ: الآية ٣٥.
(٣) سورة العلق: الآيتان ٦ ـ ٧.

□ **«القِرطاس»** هو كلّ ما يكتب عليه سواء كان ورقاً، أو جلداً، أو ألواحاً، أو حجارة، لكنّه اليوم يطلق على الورق.

التعاليم:

١ ـ حجاب العناد والمكابرة يحول دون رؤية أي برهان حتى ما كان محسوساً وظاهراً للعيان، ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ... إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٢ ـ تهمة السحر هي من أكثر الاتهامات شيوعاً عند المشركين ضدّ النبي الكريم ﷺ، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

□ إنّهم إذا شاهدوا المَلَك زهقت أرواحهم من هول ما يشهدون، وتقريره: أنّ الآدمي إذا رأى المَلَك فإمّا أن يراه على صورته الأصلية أو على صورة البشر. فإن كان الأوّل لم يبقِ الآدمي حياً، وإن كان الثاني فحينئذٍ يكون المرئي شخصاً على صورة البشر، وذلك لا يتفاوت الحال فيه سواء أكان هو في نفسه مَلَكاً أم بشراً[(١)].

□ في الحقيقة، إنّ روح العنجهية والتكبّر لا تسمح للمرء أن يطيع بشراً مثله، فهؤلاء يقولون: كيف يجوز أن يأكل الأنبياء الطعام كما نأكل، ويمشون في الأسواق ويلبسون اللباس كما نفعل، ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[(٢)]؟ وكان بعضهم الآخر يقول: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[(٣)].

التعاليم:

١ ـ لا يكفّ الكافرون عن البحث عن الأعذار والمبرّرات، فهم لا يرون الإنسان

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي؛ تفسير نور الثقلين.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٧.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ٣٤.

جديراً بحمل الرسالة السماوية، لذلك كانوا يطلبون أن تنزّل عليهم الملائكة، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

٢ ـ هكذا هي سنّة الله تعالى، إذا طالب الناس بمعجزة وأصرّوا على كفرهم ولم يؤمنوا، فإنّ مصيرهم سيكون الثبور الحتمي[1]، ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

إنّ الأسلوب الذي درجت عليه الدعوات الإلٰهيّة هو إعطاء حرّية التفكير، والاختيار، والإمهال. لذا، فإنّ اللّجوء إلى طريق آخر مثل طلب نزول الملائكة أو الطعام من السماء يسلب الطالب فرصة الإمهال. وفي هذه الحالة، فإنّ الخيار الوحيد المطروح هو القبول بالدعوة لأنّ دون ذلك الهلاك.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

- «لَبس» (على وزن درس) يقال: لبست الأمر على القوم لبساً إذا شبّهته عليهم وجعلته مشكلاً، وأصله من التستّر بالثوب، إلّا أنّ كلمة «لُبس» (على وزن قفل) فتعني ارتداء اللباس[2].
- إذا كان النبي أو قدوة البشر مَلَكاً، فكيف يمكن للإنسان أن يتأسّى به وهو الغارق في بحر الغرائز والشهوات؟
- لعلّه يمكن تفسير الآية على هذا النحو: إذا كان النبي مَلَكاً، فلا بدّ له من أن يظهر في صورة رجل عادي، وسيؤدّي هذا إلى تشابه الأمر على الناس إن كان هذا النبي إنساناً أو مَلَكاً، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾.

التعاليم:

١ ـ سنن الله تنطوي على الحكمة، وهي لا تتغيّر وفقاً لأهواء زيد أو عمر، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾، الأداة «لو» هنا إشارة إلى أنّنا نفعل ما نريد ولا نصغي إلى الطلبات غير المنطقية.

---

(١) تفسير المراغي.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٢ ـ يجب طرح نماذج وقدوات إنسانيّة في مجال التربية والدعوة، تجسّد ريادتها في الدعوة والتطبيق، ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾.

٣ ـ يتمّ اصطفاء الرسل من بين الناس، ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

- الآية الكريمة تسلية للنبي الكريم بأنّ الأنبياء السابقين أيضاً تعرّضوا للاستهزاء، وفي الوقت نفسه تهديد للمستهزئين بوجود عذابٍ أخروي ينتظرهم، مضافاً إلى العذاب الدنيوي.

التعاليم:

١ ـ يزداد الإنسان صبراً على محنته حين يتذكر مصائب الآخرين، ولا ينبغي للداعية أن يتأثّر أو يضيق صدره باستهزاء المناوئين، ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٢ ـ الاستهزاء هو أحد المعارك النفسية للعدو، وهو يشنّها من أجل إضعاف الروح المعنوية للقادة، لذا يجب مقاومتها والتصدّي لها، ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٣ ـ عاقبة المستهزئين الذلّة والهوان، وسيرتدّ كيدهم عليهم، ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟﴾.

٤ ـ الاستهزاء بالدين من الكبائر التي توعّد الله عليها بالعذاب، ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟...﴾.

٥ ـ الله يحمي الأنبياء ويهلك المستهزئين، ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟...﴾.

٦ ـ السخرية والاستهزاء هو النهج الدائم للكفّار، ﴿كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾

إشارات:

□ ورد الأمر ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ستّ مرات في القرآن الكريم. والهدف المنشود من هذا السير والسياحة هو أخذ العبرة والنظر في سيرة الماضين ومصائرهم، من أجل إصلاح السيرة، ومعلوم أنّ الكفّار لم يعملوا بهذه الآية ولم يسعوا إلى هذا الهدف مطلقاً.

التعاليم:

١ ـ الرحلات العلمية التي تنطوي على الفائدة والعِبر ممدوحة وجيّدة، ﴿سِيرُواْ... ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾.

٢ ـ هزيمة أعداء الحقّ واندحارهم أمرٌ محتوم، وإذا كنتم تشكون في ذلك فارجعوا إلى تاريخهم وسيروا في أرجاء العالم لتشاهدوا أطلالهم وآثارهم ولتأخذوا العبرة والموعظة، ﴿سِيرُواْ... ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾.

٣ ـ عزّة المجتمعات أو سقوطها يخضع لسنن وقوانين ثابتة، فإذا وُجِد مثل إنكار الحقّ وتكذيبه وأدّى إلى هلاك ودمار المكذّبين في عصر ما، فإنّه يفعل الفعل نفسه في عصور أخرى، ﴿سِيرُواْ... ٱنظُرُواْ﴾.

٤ ـ تكذيب الأنبياء أحد عوامل سقوط الحضارات، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٥ ـ المظاهر العابرة غير مهمّة، بل العبرة في النتيجة، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٢﴾

إشارات:

□ ذُكر موضوع وجوب الرحمة على الله في موضعين من القرآن الكريم وكلاهما في هذه السورة (الآيتان ١٢ و٥٤).

□ عبارة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ تشير إلى القرآن الكريم وكذلك إلى يوم القيامة.

□ الخسران العظيم للكفّار يتمثّل في اتّباعهم الأهواء بدلاً من اعتمادهم منطق الاستدلال، وانقيادهم للطاغوت بدلاً من نصرة أولياء الله تعالى، وكفرهم وجحودهم بدلاً من إيمانهم بالآخرة، وسقوطهم في النار بدلاً من اهتدائهم إلى النور.

□ كما إنّ الله تعالى شرّع لنا تكاليف وواجبات، فقد أوجب على ذاته المقدّسة أيضاً بعض الواجبات منها هداية العباد ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[١]، ورزقهم: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[٢]، واللطف بهم: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٣]، ونصرة دينه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[٤] غير أنّ تهيئة الظروف والشروط المناسبة للانتفاع بالرحمة الإلٰهيّة تعتمد على العباد أنفسهم. كما ورد في الحديث الشريف: «مَن لايَرْحَم لا يُرحَم»[٥].

□ نقل سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ: **«إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماوات والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»**[٦].

□ يقول القرآن الكريم: إنّ الرحمة الإلٰهيّة شملت كلّ شيء: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٧]، ولهذه الرحمة أمثلة ووجوه عدّة نذكر منها:

ـ نزول المطر: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[٨].

ـ تعاقب الليل والنهار: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[٩].

ـ بعثة النبي الكريم ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١٠].

---

(١) سورة الليل: الآية ١٢.
(٢) سورة هود: الآية ٦.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢.
(٤) سورة المجادلة: الآية ٣١.
(٥) كنز العمال، ج ٣، ص ١٦٢؛ تفسير في ظلال القرآن.
(٦) تفسير في ظلال القران.
(٧) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.
(٨) سورة الشورى: الآية ٢٨.
(٩) سورة القصص: الآية ٧٣.
(١٠) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

ـ القرآن الكريم: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾[١].
ـ التوراة: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[٢].
ـ الحرّية: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[٣].
ـ المحبة بين الزوجين: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٤].
ـ النباتات والفواكه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾[٥].
ـ قبول التوبة: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[٦].

التعاليم:

١ ـ أسلوب طرح الأسئلة والإجابة عنها هو أحد الأساليب في الدعوة والتبليغ التي أمر النبي الكريم ﷺ بممارسته، ﴿قُل لِّمَن. . . قُل لِّلَّهِ﴾.
٢ ـ الرحمة هي أساس الوجود، والرحمة الإلٰهيّة شملت كلّ شيء وكلّ مكان، ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.
٣ ـ كما إنّ مخلوقات الله في الدنيا كالرياح، والأمطار، والليل، والنهار، والنباتات، هي رحمة، فإنّ المعاد أيضاً رحمة، ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾.
٤ ـ على الرغم من كون الرحمة الإلٰهيّة واسعة وضرورية، إلّا أنّ بعض الناس يحرم نفسه منها، ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

□ الليل والنهار كالمهد يحتضنان البشر وجميع الخلائق ويمنحونهم السكينة والطمأنينة. يلتمس بعض الخلائق السكينة في جوف الليل وبعضٌ آخر يلتمسه في وضح النهار.

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٠.
(٢) سورة هود: الآية ١٧.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٧٢.
(٤) سورة الروم: الآية ٢١.
(٥) سورة الروم: الآية ٥٠.
(٦) سورة الزمر: الآية ٥٣.

التعاليم:

١ ـ الله سبحانه وتعالى موجد نظام الكون، ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾، وهو أيضاً الرقيب والمسيطر عليه، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

❑ قيل في سبب نزول هذه الآية الكريمة: إنّ مجموعة من أهل مكة جاءت إلى الرسول الكريم ﷺ، وقالوا: يا محمد، إنّك تركت دين قومك، ولم يكن ذلك إلّا بسبب فقرك، فاقبل منّا نصف أموالنا تكن غنياً على أن تترك آلهتنا وشأنها وتعود إلى ديننا، فنزلت هذه الآية تردّ عليهم[1].

التعاليم:

١ ـ الإنسان بدافع من طبيعته وفقره يبحث غريزياً عن الملاجئ وعن حامٍ له، إلّا أنّ المسألة الرئيسة هي إلى من يلجأ، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ...﴾.

٢ ـ لقد خلق الله تعالى السموات والأرض دون مثال أو نموذج يقلّده، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، الفاطر هو الخالق أو المبدع.

٣ ـ تلبية الاحتياجات وتأمينها تقع ضمن دائرة شؤون الولاية الإلٰهيّة، ﴿وَلِيًّا... يُطْعِمُ﴾.

٤ ـ كلّ الخلائق والأرباب محتاجون إلّا الله تعالى، ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾.

٥ ـ لا بدّ للإنسان من أن يعبد الله ويؤمن بولايته لأنّه خالق البشر، ورازقهم، والقائم على تلبية احتياجاتهم، ﴿فَاطِرِ... وَهُوَ يُطْعِمُ... إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾.

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤، ص ٤٣٣.

٦ ـ النبي الكريم ﷺ مأمور بالإعلان عن موقفه العقدي، ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ...﴾.

٧ ـ يجب على القائد أن يكون الإمام في الشريعة وأن يتبوّأ المرتبة الأعلى في الإخلاص والتسليم، ﴿أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ﴾.

٨ ـ تولّي غير الله شرك، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا... وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ الخشية على وجهين:

أ ـ خشية مذمومة، مثل الخشية من الجهاد.

ب ـ خشية ممدوحة، مثل الخشية من العذاب الإلٰهيّ.

التعاليم:

١ ـ خشية أولياء الله هي من عذاب الله لا من الطواغيت والناس، ﴿أَخَافُ... رَبِّي﴾.

٢ ـ الإيمان بربوبيّة الله تعالى، تقتضي اجتناب المعاصي، ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾.

٣ ـ الخوف من العذاب هو من العوامل الرادعة عن الانحراف والزلل، ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

٤ ـ إفصاح الرسول الكريم ﷺ عن خشيته من يوم القيامة يترك أثراً بنّاءً على الآخرين، ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ... عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

٥ ـ في إزاء إغراءات الآخرين ووعودهم، علينا أن نلجأ إلى سلاح التذكير بحساب يوم القيامة. في ضوء سبب نزول الآية الكريمة، عرفنا أنّهم طرحوا على النبي الكريم تأمينه مادّيّاً مقابل الكفّ عن دعوته، فيجيبهم النبي، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ... عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ روي عن رسول الله ﷺ قوله: «**والذي نفسي بيده ما من الناس أحد يدخل الجنّة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله برحمةٍ منه وفضل**»، ووضع يده فوق رأسه وطول بها صوته»[١].

من المعلوم، بطبيعة الحال، أنّ الرحمة الإلٰهيّة لا تشمل سوى الأعمال الصالحة والأفراد الصالحين.

التعاليم:

٢ ـ الخطر يحيق بالجميع، والخلاص من العذاب الإلٰهيّ يقتضي لطفاً خاصاً من لدنه سبحانه وتعالى، ﴿مَّن يُصْرَفْ... فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾.

٣ ـ التسليم لله تعالى هو تمهيد لاستجلاب الرحمة الإلٰهيّة، ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ... مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ... فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾.

٤ ـ لا يردّ غضب الله إلّا رحمته، وقبول أعمالنا وشفاعة أولياء الله هي قبسات من رحمته تعالى، ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ... فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ مصدر جميع الأمور واحد، لا أنّ الخيرات من مصدر والشرور من مصدر آخر، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ... وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾.

٢ ـ كلّ الآمال معقودة على الله وكلّ الخشية منه سبحانه، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ تفسير نور الثقلين.

٣ ـ لا استثناءات في شرائع الله تعالى، حتى النبي الكريم ﷺ يتوجّه إلى الله في جميع الحوادث حلوها ومرّها، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ... وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

- «القهر»، يطلق على الغلبة المقترنة بالتذليل للمقهور.
- طرحت الآية رقم ١٤ موضوعَ ولاية الله تعالى ورزقه ﴿وَلِيًّا... وَهُوَ يُطْعِمُ﴾، والآية رقم ١٥ القهرَ والقيامة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ... عَذَابَ﴾؛ أمّا الآية ١٦، فتتحدّث عن النجاة والرحمة الإلٰهيّة، ﴿...فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾؛ في حين نقرأ في الآية رقم ١٧، حلولاً للمشاكل ونيل الخيرات ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، وصولاً إلى هذه الآية الكريمة التي تطرح القدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

التعاليم:

١ ـ علينا أن لا نخشى الآخرين، فقدرة الله فوق جميع القدرات، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

٢ ـ قدرة الله سبحانه وقاهريّته، مقرونتان بحكمته وعلمه، ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

٣ ـ النفع والضرر الإلٰهيّان يستندان إلى حكمته وعلمه تبارك وتعالى، ﴿يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ... يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ... وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

- يذكر المفسّرون أنّ عدداً من مشركي مكة جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا:

كيف تكون نبيّاً ولا نرى أحداً يؤيّدك؟ وحتى اليهود والنصارى الذين سألناهم لم يشهدوا بصحّة أقوالك بحسب ما عندهم في التوراة والإنجيل، فائتنا بمن يشهد لك على رسالتك. والحقيقة أنّ هذه الآية التي نزلت في عصر غربة الإسلام تُنبئ عن المستقبل المشرق الذي ينتظر الرسالة العالميّة للإسلام[١].

- ويقول الإمام علي عليه السلام في تفسير عبارة: ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾: **«واعلم يا بنيّ أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رُسُله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه»**[٢].

- أُتي رسول الله صلى الله عليه وآله بأسارى فقال لهم: **«هل دعيتم إلى الإسلام»**؟ قالوا: لا، فخلّى سبيلهم، ثمّ قرأ ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾، ثمّ قال: **«خلّوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم من أجل أنّهم لم يدعوا»**[٣].

- وعن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية: **«ومن بلغ أن يكون إماماً من آل محمد (صلوات الله عليهم) فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله صلى الله عليه وآله»**[٤].

- إنّ غريزة دفع الضرر لدى الإنسان، في العادة، هي أقوى من جلب المنفعة، من هنا يؤكد القرآن الكريم على مسألة الإنذار والوعيد، ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ وفي آيات أخرى نقرأ: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[٥] ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٦].

- فسّرت روايات عدّة عبارة ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ بالأئمة المعصومين عليهم السلام[٧].

- وسُئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾. فقال: **«من بلغ أن يكون إماماً من آل محمد فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله صلى الله عليه وآله»**[٨].

التعاليم:

١ ـ شهادة الله تعالى كافية لإثبات حقّية دعوة النبي الكريم صلى الله عليه وآله، ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾.

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤، ص٤٣٦.
(٢) نهج البلاغة، الرسالة ٣١.
(٣) تفسير الدر المنثور.
(٤) تفسير الصافي.
(٥) سورة فاطر: الآية ٢٣.
(٦) سورة العنكبوت: الآية ٥٠.
(٧) تفسير العياشي.
(٨) الكافي، ج ١، ص ٤١٦.

٢ ـ الغفلة، والسهو، والنسيان، ومحدودية إمكانية الإنسان، تحدّ من قدرته على استقاء الأخبار، مضافاً إلى بعده عن الإحاطة التامّة بهذه الحوادث (بعكس الله تعالى)، لهذه العوامل والأسباب فإنّ الله سبحانه هو أفضل الشهود، ﴿أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ القرآن الشاهد الأكبر على رسالة النبي الأكرم ﷺ، ﴿ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ... هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾.

٤ ـ لغة النُّذُر والوعيد أكثر تأثيراً وأعظم وقعاً في نفوس الغافلين، ﴿لِأُنذِرَكُم﴾.

٥ ـ رسالة النبي الأعظم ﷺ لجميع الأجيال وفي جميع العصور، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

٦ ـ لا تقريع ولا مسؤولية ما لم يتمّ إبلاغ القانون إلى الناس، ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾؛ فالعقوبة بدون إبلاغ أمرٌ قبيح كما يقال في علم الأصول.

٧ ـ من الشروط اللازمة للقائد الإلٰهيّ: الإيمان بالشريعة ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، والأمل بالمستقبل ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾، والتحلّي بالصلابة والحزم ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾، والبراءة من الشرك، ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

□ هذه الآية تشاكل الآية ١٤٦ من سورة البقرة.

□ لقد ذُكر اسم وصفات النبي الأكرم ﷺ في العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل) وكان علماء أهل الكتاب ينتظرونه بوصفه النبي الموعود ويبشّرون الناس بظهوره، وكذلك ذُكرت أخلاق النبي وأصحابه في كتبهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ... ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ...﴾[1].

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٩.

□ معرفة الابن هي أقدم معرفة وأكثرها أصالة، ذلك أنّ الإنسان يعرف ابنه منذ ولادته، بينما معرفة الأخ والأب والأم تبدأ بعد شهور من الولادة، كما إنّ معرفة الزوجة تحصل بعد الزواج. من هنا، فإنّ الآية الكريمة تقول: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

التعاليم:

١ ـ لقد أتمّ الله تعالى الحجة لأهل الكتاب، فهم كانوا يعرفون نبي الإسلام حقّ المعرفة، ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾.

٢ ـ يجب أن تكون صفات النبي واضحة بشكل لا يلتبس أمره على أحد، ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

٣ ـ ليس بالعلم والمعرفة ينجو الإنسان، فما أكثر المتخصّصين في الإلٰهيّات، والنبوة، والأديان، الذين أصبحوا من الخاسرين بسبب لجاجهم وعنادهم، ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾.

٤ ـ مآل كتمان الحقّ سوء العاقبة والإضرار بالنفس، ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

□ يستخدم القرآن الكريم تعبير ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ في خمسة عشر موضعاً، ويشمل حالات الافتراء على الله، وصدّ الناس عن المسجد، وكتمان شهادة الحقّ. وفي ذلك دلالة واضحة على أنّ الظلم الثقافيّ وصدّ الناس عن الفهم والكمال هو من أسوأ الظلم الذي يُرتكب بحقّ المجتمع.

التعاليم:

١ ـ كلما كان الشيء عزيزاً ومقدّساً كان خطر الظلم بحقّه أعظم، لذلك فإنّ الافتراء على الذات الإلٰهيّة المقدّسة لهو أعظم الظلم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾.

٢ ـ الظلم بحقّ الفكر الإنسانيّ والثقافة الإنسانيّة هو أسوأ الظلم، ومن أمثلته: الشرك، الافتراء على الله تعالى، ادّعاء النبوة، البدعة، التفسير بالرأي، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

- المؤاخذة والإذلال للمشركين في يوم القيامة، دليل حرمانهم الفلاح، وقد أشارت إلى ذلك الآية السابقة.
- صحيح أنّ الآية الكريمة تتناول موضوع الشرك، غير أنّ الذين يرضون بولاية غير أولياء الله ويناصبون أولياء الله المعصومين العداء ويحاربونهم، هم، بنحوٍ ما، مشركون. نقرأ في الزيارة الجامعة الكبيرة عبارة: «**ومن حاربكم مشرك**»[1]؛ وفي رواية نقلاً عن المعصوم أنّ: «**الرّاد علينا كالرّاد على الله وهو على حدّ الشرك بالله**»[2].

التعاليم:

١ ـ القيامة هي يوم جلاء حقّية التوحيد للمشركين، ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾.
٢ ـ الشرك وهمٌ لا أكثر، ﴿تَزْعُمُونَ﴾.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

- قال الإمام الصادق عليه السلام في المقصود بالفتنة في قوله تعالى: ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾:

---

(١) مفاتيح الجنان. (٢) الكافي، ج ١، ص ٦٧.

«اعتذار المشركين»[١].

□ «ضلّ الشيء» بمعنى ضاع وهلك[٢].

□ الكذّاب يكذب في يوم القيامة أيضاً بسبب تطبّعه على الكذب في الدنيا، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وجاء في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[٣].

□ عن الإمام علي عليه السلام في حديث طويل: «**ثمّ يجتمعون في موطن آخر فيستنطقون فيه، فيقولون: والله ربّنا ما كنّا مشركين، فيختم الله على أفواههم ويستنطق الأيدي، والأرجل، والجلود، فتشهد بكلّ معصية كانت منهم**»[٤].

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ الله يعفو يوم القيامة عفواً لا يخطر على بال أحد، حتى يقول أهل الشرك: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (لكي يشملهم العفو)**»[٥].

التعاليم:

١ ـ يوم القيامة يوم محتوم كأنّه حاضرٌ الآن، بدلالة قول الآية ﴿ٱنظُرْ﴾ ولم تقل: «ستنظر»، (بإمكان النبي الكريم صلى الله عليه وآله وهو في هذه الدنيا أن يرى بعينه الملكوتية النافذة مشاهدَ ومواقف من يوم القيامة).

٢ ـ كلّ ملجأ أو سند غير إلهي زائل، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾.

٣ ـ في المحكمة الإلٰهيّة لن ينفع الإنسان كذبه ولا قَسَمه، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

٤ ـ كلّ هذا التصميم والإصرار على الاحتماء بالملاجئ غير الإلٰهيّة لا يعدو كونه وهماً، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان.
(٢) لسان العرب.
(٣) سورة المجادلة: الآية ١٨.
(٤) تفسير كنز الدقائق.
(٥) تفسير العياشي.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول هذه الآية الكريمة: إنّ عدداً من زعماء قريش من بينهم أبو سفيان، والوليد بن المغيرة، وشيبة، والنضر بن الحرث، كانوا يستمعون إلى النبي الكريم ﷺ وهو يتلو آيات من القرآن الكريم، فسأل أبو سفيان النضر بن الحرث: ما يقول محمد؟ قال: وربّ الكعبة أرى تحريك شفتيه وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما أحدّثكم عن القرون الماضية، وكان النضر صاحب قصص وأسفار، فسمع أقاصيص في ديار العجم مثل قصة رستم وإسفنديار فكان يحدّثهم، ثمّ نزلت هذه الآية[١].

□ «**أكنّة**» جمع «**كنّ**» أو «**كنان**» وهو الغطاء ،أو الستار ،أو الحاجز. و«**الوقر**» بمعنى ثقل السمع. و«**الأساطير**» جمع «**أسطورة**» نحو أحدوثة وأحاديث وهي مشتقّة من السطر وهو الشيء الممتدّ المؤلّف كسطر الكتاب، والأساطير هي الأباطيل والترّهات التي ينجذب المرء لسماعها.

□ الأكنّة والوقر هو لجهة روح اللجاج التي يتّصف بها المشركون، يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٢].

□ تحدّثت الآية السابقة عن المشركين، فيما تعبّر هذه الآية عنهم باستخدام وصف «الذين كفروا» وفي هذا دلالة على أنّ المشركين كافرون.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للأنبياء والزعماء الإلٰهيّين من أن تكون لهم إحاطة بعقليّة الكفّار والمناوئين وبألاعيبهم، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ﴾.

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤، ص٤٤٢. (٢) سورة الصف: الآية ٥.

٢ ـ لا تيأسوا من كلّ الكفّار، فإنّ بعضهم فقط يتّصف باللجاج والعناد وليسوا جميعاً كذلك، ﴿وَمِنْهُم﴾.

٣ ـ الاستماع إلى تلاوة القرآن يكون قيّماً حينما تسكن كلماته سويداء القلب، ﴿أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

٤ ـ يصرّ الكفّار على إنكارهم، وبسبب هذا الإصرار والعناد يضع الله تعالى أكنّة على قلوبهم، ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.

٥ ـ اللجاج داء لا دواء له، وهو كالمرآة المعوجّة التي تعكس صور الأشياء الجميلة بشكل معوجّ وقبيح، ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.

٦ ـ من كان يبغي الجدال ويضمر روحاً سلبية منطلقاً من خلفية سابقة ونوايا سيئة، فلن يجني فائدة حتى لو كان جليس الأنبياء، ﴿جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ...﴾.

٧ ـ لم ينهج الكفّار أي أسلوب صحيح ومنطقي في مواجهة النبي الكريم، فلجوؤهم إلى أسلوب الجدال والافتراء دليل افتقارهم للمنطق السليم، ﴿يُجَٰدِلُونَكَ...﴾.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

□ «ينأون» مشتقة من «**نأى**» أي ابتعد.

□ بعض المفسّرين من أهل السنّة ـ وللأسف ـ يفسّرون هذه الآية في أبي طالب والد الإمام علي عليه السلام، قائلين إنّه كان ينهى عن أذى النبي الكريم صلى الله عليه وآله، لكنّه لم يؤمن وكان ينأى بنفسه عن الإسلام والإيمان، ويستدلّون على قولهم هذا بآيات من القرآن الكريم (مثل الآية ١١٣ من سورة التوبة والآية ٥٦ من سورة القصص)، هذا فيما يؤمن جميع أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام بأنّ أبا طالب كان من أفضل المسلمين إيماناً، ويطرحون العديد من أدلّة عدة تثبت رأيهم هذا، وسنشير هنا إلى بعضٍ منها:

١ ـ من الأدلة الدامغة على هذا الموضوع ما قاله النبي الكريم ﷺ نفسه حول إيمان أبي طالب.

٢ ـ دعم أبي طالب اللامحدود للنبي الكريم ﷺ في أحلك الظروف.

٣ ـ ما ورد من أبيات شعرية لأبي طالب عن النبي الكريم وارتباطه بالله تعالى.

٤ ـ وصاياه إلى زوجته، وولده، وأخيه الحمزة، في وجوب دفاعهم عن الإسلام والصلاة والنبي الأكرم ﷺ.

٥ ـ الحزن والغمّ الشديد الذي أصاب النبي الأعظم ﷺ بسبب وفاة أبي طالب.

٦ ـ ما ذكره أبو بكر والعباس من أنّ أبا طالب نطق بالشهادتين «أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله» حين حضرته الوفاة.

٧ ـ صعد النبي الكريم ﷺ المنبر ودعا لأبي طالب ثمّ شارك في تشييع جنازته، وأمر الإمام عليّاً عليه السلام بتجهيزه. لم يصلّ عليه لأنّ صلاة الميّت لم تكن قد شرّعت بعد، وكما حصل مع السيدة خديجة.

٨ ـ في كتابه إلى معاوية يذكر الإمام علي عليه السلام الفرق الشاسع بين والده أبي طالب وبين والد معاوية أبي سفيان.

٩ ـ حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه إنّه في يوم القيامة سيكون شفيع أبويه وعمّه أبي طالب.

١٠ ـ جاء في الحديث الشريف أنّ الله تعالى أوحى إلى رسوله الكريم ﷺ بأنّه قد حرّم النار عليه وعلى أبويه وكفيله.

١١ ـ إنّ إسلام السيدة فاطمة بنت أسد عليها السلام أمرٌ مسلّم به، وهي سيدة لها سبق في الإسلام وكانت من أوائل النساء المؤمنات والمهاجرات، ولو لم يكن أبو طالب قد أسلم لما أجاز النبي الكريم ﷺ أن تبقى فاطمة بنت أسد زوجة له[١].

(١) الغدير، ج ٧ و٨؛ الصحيح من السيرة، ج ١، ص ١٣٤ ـ ١٤٢.

التعاليم:

١ ـ ما فتئ الكفّار والمشركون يسعون إلى وضع العصي في الدواليب وصدّ الناس عن الاستماع إلى آيات القرآن الكريم، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ...﴾.

٢ ـ عدم الإذعان لصوت الحقّ يعني إهلاك الإنسان لنفسه، ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

٣ ـ الفهم والمعرفة الحقيقيّة هي في العثور على طريق الحقّ، أمّا عدم الفهم واللامعرفة فهو أن يضلّ الإنسان، أيّاً كان، طريق الحقّ ويسهو عن القائد الحقّ، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

□ بحسب آيات القرآن الكريم، فإنّ تمنّي العودة إلى الدنيا تخطر ببال الإنسان حين الاحتضار وفي جوف القبر وفي يوم القيامة، ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا...﴾[1]، وفي جهنّم أيضاً ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾[2].

□ في الآية ٢٣ أنكر المشركون شركهم، لكنّهم في هذه الآية رجعوا عن إنكارهم واعترفوا بذلك وتمنّوا العودة إلى الحياة الدنيا للتعويض عمّا فاتهم.

التعاليم:

١ ـ يرتعب الكفّار حين يُعرضون على النار، فتأخذهم الذلّة والهوان ويستغيثون ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟﴾، إنّ مواطن يوم القيامة ومشاهدها عديدة، ففي موطن يستغيث المجرمون، وفي موطن آخر يُختم على أفواههم.

٢ ـ التكذيب بآيات الله يورث الندم في الدار الآخرة، ﴿إِذْ وُقِفُوا۟... فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا﴾.

---

(١) سورة المؤمنون: الآيتان ٩٩، ١٠٠. (٢) السورة نفسها: الآية ١٠٧.

٣ ـ فلنؤمن ما دامت توجد فرصة سانحة، لأنّه ما من عودة في الآخرة، ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾. فمن جملة الأماني والحسرات التي يطلقها الكفّار في يوم القيامة العودة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا، ﴿وَلَا نُكَذِّبَ... وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

□ يوم القيامة، هو يوم يُكشف فيه عن سرائر الناس، وقد أشار القرآن الكريم مراراً إلى هذه الحقيقة. على سبيل المثال: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾[1] ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ في يوم القيامة يُكشف عن جميع الأسرار وتُبلى سرائر البشر ويُعلن عنها، ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ﴾.

٢ ـ العودة من الآخرة إلى الدنيا أمرٌ محال، ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ﴾.

٣ ـ ثمّة أناس لا أمل في إصلاحهم مطلقاً، فحتى لو مُنحوا فرصة أخرى كما يطلبون، فسيعودون إلى ما كانوا عليه، ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ﴾.

نعم، حين يتعرّض الإنسان إلى المحن والشدائد في الدنيا يتّخذ بعض القرارات، ولكن عندما يعود إليه الأمان والاستقرار، ينسى كلّ شيء.

٤ ـ حينما يغدو الكذب خصلة وعادة للإنسان، لا يترك عادته حتى في يوم القيامة، ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ كما قرأنا في الآية الشريفة أنّ المشركين يحلفون كذباً ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾.

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٣٣. (٢) سورة الزمر: الآية ٤٨.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٠﴾

إشارات:

▫ تكرّرت العبارة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ في الآيتين ٢٧ و٣٠، لترسم بعض الملامح من المواقف العصيبة في يوم القيامة ولتكون خطوة على طريق هداية الناس.

▫ تقول الآية ٣٠: إنّ الله تعالى يخاطب المجرمين، في مقابل وجود آيات تنفي هذا الأمر، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ومردّ ذلك قد يكون إلى المواطن والمواقف المختلفة التي تتوالى في يوم القيامة، أو ربّما المراد هو أنّه تعالى لا يكلّمهم بكلام يطيّب به خواطرهم ويفرح قلوبهم.

▫ في الآية ٢٢، يؤاخذ الله تعالى الكفّار على إنكارهم التوحيدَ فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾، وفي الآية ٢٧ يؤاخذهم بسبب تكذيبهم النبوّةَ: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾؛ أمّا في الآية ٣٠ فيوبّخهم لإنكارهم يوم القيامة، ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾.

▫ لقد طرح الإسلام على البشر أنواعاً متعدّدة من الحيوات:

١ ـ الحياة الدنيا، ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[١].

٢ ـ حياة البرزخ، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٢].

٣ ـ الحياة المعنوية والهداية، ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾[٣].

٤ ـ الحياة الاجتماعية، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[٤].

٥ ـ الحياة الطيبة (في ظلّ القلب المطمئن والقناعة)، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ﴾[٥].

---

(١) سورة طه: الآية ١٣١.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٠٠.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٢٤.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٧٩.
(٥) سورة النحل: الآية ٩٧.

التعاليم:

١ ـ يتّصف المشركون بالنظرة السطحية والمادّية ويعتقدون أنّ الحياة مقتصرة على هذه الدنيا فقط، وهم ينكرون البعث والنشور، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾.

(ورد في آية أخرى من القرآن الكريم أنّ المشركين يعتبرون الأصنام شفعاءهم، ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾[1]، والمقصود بذلك الشفاعة في الدنيا)[2].

٢ ـ يسلّي الله تعالى نبيّه الكريم ﷺ بأنّ عنادهم ولجاجهم لن يمرّ دون عقاب، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾.

٣ ـ يُحبس المجرمون كالأسرى الأذلاء، ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾.

٤ ـ لن تنفع الكفّار والمشركين اعترافاتهم في يوم القيامة، ﴿قَالُوا بَلَىٰ... فَذُوقُوا﴾.

٥ ـ في يوم القيامة سوف يحلف الكفّار مرّات عدّة، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ـ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾.

٦ ـ عذابات يوم القيامة هي بسبب الإصرار على الكفر وإنكار المعاد في الدنيا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ... فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

- المراد بـ «لقاء الله»، هو اللقاء المعنوي والشهود الباطني في يوم القيامة، لأنّه في ذلك اليوم ستنقطع كلّ علائق الإنسان من مال وجاه وأقارب، وسيواجه الثواب أو العقاب الإلٰهيّ والحاكمية المطلقة لله تعالى.
- الحسرة على ما فات من المنافع، والندم على استقبال العذاب والأهوال[3].

---

(١) سورة يونس: الآية ١٨.
(٢) تفسير الميزان.
(٣) تفسير أطيب البيان.

□ «الساعة» هي يوم القيامة، وسمّيت كذلك للإشارة إلى حدوثها بغتة وفجأة وفي لحظة واحدة كالبرق. (جاء في الآية ٧٧ من سورة النحل: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾).

□ جاء في حديث للرسول الأكرم ﷺ: «**يرى أهل النار منازلهم من الجنّة فيقولون يا حسرتنا**»[1].

التعاليم:

١ ـ من لا يؤمن بيوم القيامة، فقد باع نفسه للدنيا الفانية، ويا له من خسران كبير، ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾.

٢ ـ ستقوم الساعة بغتة، فلا أحد يعلم بموعد قيامها، لذا علينا الاستعداد والتهيّؤ لها دائماً، ﴿جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾.

٣ ـ يوم القيامة هو يوم الحسرة، ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾.

٤ ـ الاعتراف وإبداء الحسرة والندم علامة على حرّية الإنسان، ذلك أنّه كان باستطاعته أن يعمل صالحاً لكنّه لم يفعل، ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾.

٥ ـ القيامة يوم الحسرات، لكن لن تنفع الحسرة في ذلك اليوم، ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا... وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ﴾.

٦ ـ في يوم القيامة تتجسّم المعاصي، ويقوم الإنسان بحملها على ظهره، ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾.

٧ ـ التكذيب بيوم القيامة أو نسيانها يدفع الإنسان إلى ارتكاب المعاصي، فتكون أوزاراً ووبالاً عليه، ﴿كَذَّبُواْ... أَوۡزَارَهُمۡ﴾.

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٣٢﴾

إشارات:

□ إذا لم تكن الدنيا مزرعة الآخرة، فستضحي لهواً ولعباً، والناس أطفال

---

(١) تفسير نور الثقلين.

وألعابهم زخارف الدنيا مثل المال والجاه، وتصبح الدنيا أشبه بحفلة تنكرية، واحد يتزيّى بزيّ الملك، وآخر يتزيّى بزيّ الخادم، وثالث بزيّ الوزير، ولكن بعد أن تنتهي الحفلة ويخلع الجميع أزياءهم، يتخلّى كلّ واحد عن دوره، ويثوب إلى رشده، ويفيق من غفلته، ويوقن بأنّ كل تلك المظاهر والعناوين لم تكن سوى وهم وخيال.

- وصف الآخرة بالخير لعدم شوب ملذّاتها بالعذاب والألم، ولأنّها ليست بزائلة ولا هي وهم وخيال.
- في ضوء آيات القرآن الأخرى يجب أن لا ننظر إلى هذه الآية بوصفها دعوة إلى الرهبنة والعزوف عن الدنيا.
- «**اللعب**»، أصل الكلمة اللعاب، وهو البزاق السائل، ولعب لعباً وألعب: سال لعابه، ولعب فلان: إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً، و«**اللهو**» ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه[1].
- تشبيه الدنيا باللهو واللعب ناشئ عن أمور عدّة:

أ - الدنيا مؤقّتة كما اللعبة.

ب - الدنيا مثل اللعبة تحتوي على اللهو والتعب، وهي مزيج من الحلاوة والمرارة.

ج - المغفلون الذين لا هدف لهم يجعلون من الألعاب شغلهم الشاغل.

د - اللهث وراء الدنيا أشبه باللعبة، يلهي الإنسان عن أهدافه المهمّة.

التعاليم:

١ - الانشداد إلى الدنيا وجعلها غاية نهائية، هي رؤية صبيانية وخاوية، فاللهو واللعب هو من عمل الأطفال والانشغال بالدنيا يلهي الإنسان عن الآخرة، ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات.

٢ ـ التدبّر والتعقّل هو طريق النجاة من حسرات الآخرة، ﴿يَحَسْرَتَنَا... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٣ ـ العاقل من لم تخدعه الدنيا، ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٤ ـ عدم التفكر هو مقدّمة للانشغال بالدنيا والانصراف عن الآخرة، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٥ ـ الغفلة عن الآخرة مدعاة للتوبيخ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٦ ـ التعقّل والتقوى متلازمان، ﴿يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

إشارات:

- قيل في سبب نزول هذه الآية الكريمة: كان المشركون على علم بأنّ النبي الكريم ﷺ صادق، ولكن كانوا يقولون متى كنّا تبعاً لبني عبد مناف. وأحياناً كانوا يقولون: إنّه لصادق لكنّه يخيّل إليه أنّه يوحى إليه، لذلك كانوا يكذّبون بآيات الله.
- عن الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ قال: «**لا يستطيعون إبطال قولك**»[1].

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي للقائد أن يغتمّ ويحزن لتكذيب المعارضين، لهذا السبب نجد أنّ الله تعالى يعزّي نبيّه ويسلّيه، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾.

٢ ـ الله تعالى عليم بسريرة الإنسان وما يستبطن، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾.

٣ ـ تكذيب النبي، تكذيب لله تعالى، كما إنّ بيعة النبي هي بيعة لله، ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٤ ـ إذا تأمّلنا المشاكل الكبيرة، والتكذيب، والوقاحة، التي يتعرّض إليها الآخرون، سوف تهون علينا مشاكلنا، ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ... بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

---

(١) تفسير العياشي.

٥ ـ أعداء رسول الله يعادون الدين لا الشخص، ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ... بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٦ ـ تكذيب آيات الله ظلمٌ للنفس، وظلمٌ لرسول الله ﷺ وظلمٌ للدين، وكذلك ظلم للأجيال اللاّحقة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

- الـ«الكلمات» في الآية، هي السنن الإلٰهيّة: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[1].
- يشكل التاريخ مصدراً لمعرفة الحوادث، ولا بدّ من أخذ العبر والدروس من تلك الحوادث من قبيل صبر وجَلَد الأنبياء الماضين وهلاك الأقوام المختلفة التي كذّبت رُسُلها مثل هود وصالح ولوط. إنّ لله سبحانه وتعالى سنناً في الأرض تتمثّل في إرسال الرسل والأنبياء إلى مختلف الأمم والأقوام ليختاروا بملء إرادتهم طريق الهداية أو الضلال، فيعذّب الكافرين بكفرهم ويمدّ الأنبياء والمرسلين بمددٍ من عنده.
- لقد أوجب الله تعالى على نفسه في آيات متعدّدة دعم ونصرة القادة المؤمنين وأتباعهم الصابرين، من هذه الآيات نذكر:
  - ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[2].
  - ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].
  - ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[4].
  - ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[5].

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٧١ ـ ١٧٣.
(٢) سورة المجادلة: الآية ٢١.
(٣) سورة الروم: الآية ٤٧.
(٤) سورة غافر: الآية ٥١.
(٥) سورة الحج: الآية ٤٠.

التعاليم:

١ ـ لم يكن طريق الحقّ يوماً سهلاً معبّداً، فأهداف الأنبياء لم تتحقّق إلّا بعد تحمّل الصعاب والشدائد، ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟﴾.

٢ ـ من أهمّ أساليب المقاومة إزاء الشدائد والمحن استعراض المدد الإلٰهيّ، ﴿فَصَبَرُوا۟... حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

٣ ـ لم يكن القادة ينتظرون الطاعة والقبول من الجميع، ﴿كُذِّبُوا۟﴾.

٤ ـ النصر معقود بناصية الصبر، ﴿فَصَبَرُوا۟... حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾، يبشّر الله الصابرين بالنصر.

٥ ـ لا يألو الأعداء جهداً لمحاربة الحقّ، سواء أكان ذلك بالتكذيب أم التعذيب، ﴿كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾.

٦ ـ الثبات على الصبر سبب نزول النصر والرحمة الإلٰهيّة، ﴿فَصَبَرُوا۟... حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

٧ ـ النصر للحقّ، ﴿أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

٨ ـ السنن الإلٰهيّة ثابتة لا تتغيّر، والله لا يخلف وعده، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

٩ ـ لكلّ منّا نماذج مشابهة له في التاريخ عليه أن يبحث عنها، يخاطب الله تعالى نبيه الكريم ﷺ بالقول: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

١٠ ـ يجب أن نتذكر جهود وآلام الماضين بالتقدير والاحترام، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

❑ ورد في سبب نزول الآية: أنّ الكفّار كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: لن نؤمن لك حتى تنقب الأرض وتفجّر لنا من الأرض نبع ماء: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ

﴿تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾[١]، أو أن تصعد إلى السماء: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[٢]، ربّما تشير الآية إلى طبيعة الطلبات غير المنطقية لهؤلاء الكفّار، فهم يقولون: لو تحفر الأرض، أو تضع سلّماً إلى السماء، أو تفعل المستحيل لنا، فمع ذلك لن يجدي ذلك نفعاً لأنّنا لن نؤمن لك، إذن، ما من نقصٍ يشوب دعوتك، بل النقص فيهم، فقد تمرّسوا اللجاج، لذا، لا تحزن على عدم هدايتهم ولا تجزع.

التعاليم:

١ ـ كان النبي الكريم ﷺ يحرص على هداية الناس وكان يغتمّ لإعراضهم، ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾.

٢ ـ لا بدّ للنبي من أن يحيط بنفسيّات مخاطبيه وأن يعلم بأنّه يوجد فريقٌ منهم لن يؤمن مهما جاءهم بالمعجزات، ﴿إِعۡرَاضُهُمۡ﴾.

٣ ـ كان هدف النبي ﷺ هداية الناس بأيّ وسيلة كانت، إلّا أنّ المشكلة هي في روح اللجاج التي كانت تسكن هؤلاء الكفّار، وهو ما يحذّره الله تعالى منه، ﴿تَبۡتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

٤ ـ الله تعالى قادر على هداية الجميع، إلّا أنّ حكمته تقتضي أن يحيل ذلك إلى إرادة الإنسان ليختار ما يشاء، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾.

٥ ـ تحقيق مطالب المتحجّجين وجزع الدعاة هو بمثابة جهل، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ الجهل هو مصدر معظم المطالبات غير المنطقية.

﴿۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٣٦﴾

إشارات:

□ لقد وصف القرآن الكريم مراراً وتكراراً غير المؤمنين بالموتى والصمّ. ففي الآية

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩٠. (٢) السورة نفسها: الآية ٩٣.

٨٠ من سورة النمل والآية ٥٢ من سورة الروم ورد: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ الإنسان حرّ في اختيار طريقه، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ...﴾.

٢ ـ الاستماع إلى صوت الحقّ والإيمان به، دليل على وجود الروح المعنوية والحياة في القلب. فالميّت هو من لا حياة معنوية له ولا يسلّم بالحقّ، ليست الحياة الأكل والنوم، فالحيوانات أيضاً تأكل وتنام، ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾.

٣ ـ عليك بالقلوب المتعطشة للحقّ، وعليّ بالكفّار لأحاسبهم بعد البعث والنشور، ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول هذه الآية: إنّ بعض زعماء قريش لجأوا إلى أسلوب الدعاية المغرضة والتعتيم، وجاؤوا إلى الرسول الكريم ﷺ وقالوا له من باب اختلاق الأعذار الواهية: كلّ هذا الذي تقوله لا طائل من ورائه، القرآن وحده ليس بمعجزة، فأتنا إذن بمعجزات أخرى كعصا موسى أو ناقة صالح... إلخ[1].

□ بطبيعة الحال، إنّ النبي الذي يستذكر معجزات الأنبياء السابقين لقادر على أن يأتي بمعجزة شبيهة بما جاء به أولئك الأنبياء، وإلّا لما قام بتذكير الناس بتلك المعجزات حتى لا يُطالب بمثلها. مضافاً إلى ذلك، وطبقاً لما ورد في روايات الفريقين، فإنّ النبي الأكرم ﷺ، قد جاء بمعجزات أخرى غير القرآن الكريم.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

□ إنّ الهدف من الإتيان بالمعجزات هو الإعلان عن العلاقة الخاصة بين الله تعالى ونبيه، ودلالة على القدرة الإلٰهيّة اللامتناهية، وليس تحقيق الأهواء المتتابعة للقوم المعاندين. بيد أنّه تتمّ، أحياناً، الاستجابة لبعض مطالب القوم في إظهار المعجزة، وذلك من باب إتمام الحجّة.

□ إنّ التاريخ ليشهد بأنّ إطلاق المعجزات المتتالية لم يحمل المعاندين اللجوجين على الإيمان والهداية، بل إلى نزول السخط والعذاب الإلٰهيّ. يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ يجب الردّ على أعذار المعارضين وحججهم، ﴿وَقَالُواْ... قُلْ﴾.

٢ ـ الله قادر، ولكن قدرته مقرونة بالحكمة، فهو سبحانه يُظهر قدرته حينما ينطوي الطلب على الحكمة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

□ ما برح القرآن الكريم يهتم اهتماماً خاصاً بحياة الحيوان، فأخذ يوظّف مسألة التذكير بطبيعة خلقتها، ومشاعرها، وصفاتها، من أجل هداية الناس إلى الحقّ، ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2] ولدينا في الروايات والتجارب الإنسانيّة الكثير من الأمثلة التي تدلّل على امتلاك الحيوانات المشاعرَ والإدراك، والحقيقة، إنّ الوقوف على مواطن الشبه والتعرّف على حياة الحيوانات يستلزم التفكر والانتباه[3] ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١١.
(٢) سورة الجاثية: الآية ٤.
(٣) تفسير المراغي.

□ المراد بـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ في الآية الكريمة القرآن الكريم، أو «اللوح المحفوظ» وهو بمثابة كتاب الخلق.

□ في آيات أخرى كذلك وردت عبارات من قبيل ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[١]، و﴿كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٢]، والتي تدلّ على تمام القرآن وكماله.

□ وينقل عن الإمام الباقر عليه السلام، أنّه كان يدعو من يسمع كلامه أن يطالبه بمستند له من القرآن.

□ وفي حديث شريف أنّ النبي الكريم صلى الله عليه وآله نهى عن القيل، والقال، وكثرة السؤال، وفساد المال. وقد سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن المستندات القرآنية لهذا الحديث فقال: «أمّا سند النهي عن القيل والقال فهو قوله عزّ وجلّ ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٣]. وسند فساد المال فهو ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[٤]، وسند كثرة السؤال فهو قوله تعالى[٥] ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[٦].

المشاعر والإدراك عند الحيوانات

يستشفّ من الآيات والروايات وكذلك التجارب بأنّه ليس الإنسان وحده الذي يمتلك الإدراك والمشاعر. ولبسط الحديث في هذا الموضوع تأمّل الأمثلة التالية:

١ ـ عندما عبر النبي سليمان عليه السلام هو وجنده منطقة معيّنة، قالت نملة لأقرانها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٧].

تملك النملة غريزة التعرّف على العدوّ، ولكن أن تعرف أنّه النبي سليمان وجنده فهذا بالتأكيد شيء أبعد من مجرّد الغريزة.

---

(١) سورة النحل: الآية ٨٩.
(٢) سورة هود: الآية ٦.
(٣) سورة النساء: الآية ١١٤.
(٤) سورة النساء: الآية ٥.
(٥) تفسير نور الثقلين.
(٦) سورة المائدة: الآية ١٠١.
(٧) سورة النمل: الآية ١٨.

٢ ـ لقد عرف الهدهد بشرك قوم ملكة سبأ، وذهب إلى النبي سليمان ليطلعه على وجود شعب مشرك في تلك المنطقة، ومن ثمّ بعثه النبي سليمان عليه السلام بمهمّة خاصّة. لا شك في أنّ معرفة الهدهد التوحيدَ والشرك وأنّ الشرك عمل قبيح، وضرورة أن يطلع النبي سليمان عليه السلام واضطلاعه بمسؤولية ساعي البريد، كلّ ذلك يؤكد أنّ لديه ما هو أبعد من الغريزة[١].

٣ ـ إنّ تقديم الهدهد عذراً مقبولاً بعد مؤاخذة النبي سليمان له على غيبته، لهو دليل قوي على امتلاك ما هو أبعد من الغريزة[٢].

٤ ـ ما جاء في القرآن الكريم من أنّ جميع الخلائق يسبّحون بحمد ربّهم لكنّنا لا نفقه تسبيحهم[٣]، ليس تسبيحاً تكوينياً ذلك لأنّنا نفهم ذلك، إذن، القرآن الكريم يقصد تسبيحاً آخر.

٥ ـ نسبت آيات القرآن الكريم السجود لله إلى جميع الخلائق، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾[٤].

٦ ـ كان للطيور حضور في حركة النبي سليمان عليه السلام، ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾[٥].

٧ ـ تحدّث الطيور في ما بينها وتباهي سليمان بأنّ الله قد علّمه منطق الطير، ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾[٦].

٨ ـ الآية الكريمة ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[٧]، تتحدّث عن حشر الحيوانات في يوم القيامة.

٩ ـ الآية الكريمة ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[٨]، تشير إلى امتلاك الحيوانات المشاعرَ وأنّها تعبد الله عن وعي وإرادة.

١٠ ـ صفة الوفاء التي تمتاز بها الحيوانات مثل وفاء الكلب لصاحبه.

---

(١) سورة النمل: الآية ٢٢.
(٢) سورة النمل: الآيات ٢٢ ـ ٢٦.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٤.
(٤) سورة النحل: الآية ٤٩.
(٥) سورة النمل: الآية ١٧.
(٦) سورة النمل: الآية ١٦.
(٧) سورة التكوير: الآية ٥.
(٨) سورة النور: الآية ٤١.

١١ ـ تدريب الكلاب على الصيد والكلاب البوليسية على اكتشاف الجرائم مثل التهريب أو تعليمها لأغراض التبضّع، كلّ ذلك بمثابة دلائل على امتلاكها المشاعرَ والإدراك.

١٢ ـ ما ورد من نهي في الإسلام عن ذبح الحيوان أمام ناظري حيوان آخر، ويدلّل هذا على امتلاك الحيوان للمشاعر إزاء ذبح حيوان آخر من بني جنسه.

التعاليم:

١ ـ لا يقتصر النظام والحياة الاجتماعيّة على بني البشر فحسب، بل يُلاحَظ ذلك في حياة الحيوانات أيضاً، ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾.

٢ ـ البشر والحيوانات كلاهما يحتاج إلى التدبير الإلٰهيّ، فالله تعالى يمنحهما المشاعر والإدراك بحسب ما تقتضيه المصلحة، وكلاهما يمتلك النظام، ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾.

٣ ـ القرآن الكريم أشمل وأكمل كتاب سماوي، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾.

٤ ـ لقد تضمّن القرآن الكريم جميع عوامل الهداية، والتربية، والرشاد، للإنسان، ولا يوجد أيّ ضعف في القرآن لإثبات حقّية نبي الإسلام ﷺ، وهداية الناس، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ﴾.

٥ ـ لا يقتصر المعاد والحشر على البشر فقط، ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

٦ ـ حركة جميع الخلائق نحو الله هي حركة تكاملية وتمثّل مظهراً لربوبيّة الله تعالى، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)﴾

إشارات:

❑ من المعلوم أنّ الهداية والضلال بيد الله تعالى، إلّا أنّ الله أعطى الإنسان

الإرادة والخيار، وأنّ أفعال الله تقوم على الحكمة، على سبيل المثال، إنّ جهاد الإنسان في سبيل الله هو باب للهداية يفتحه الله تعالى لعباده: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[١]، كما إنّ ظلم البشر يؤدي إلى الضلال: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾[٢]، وكذلك فإنّ التكذيب بآيات الله تعالى عامل ضلال للإنسان، ﴿كَذَّبُواْ... يُضۡلِلۡهُ﴾.

التعاليم:

١ ـ الكفر واللجاج ظلمات تحرم الإنسان من الاستفادة من أدوات المعرفة، ﴿كَذَّبُواْ... صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾.

٢ ـ التكذيب بالحقّ وكتمانه هو «بكم» وعدم سماع صوت الحقّ «صمم»، ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ... صُمّٞ وَبُكۡمٞ﴾.

٣ ـ عاقبة التكذيب بآيات الله هي الإضلال والسخط الإلٰهيّ، ﴿كَذَّبُواْ... يُضۡلِلۡهُ﴾.

٤ ـ السير على الصراط المستقيم يتطلّب أذناً صاغية ولساناً ناطقاً بالحقّ ونوراً يضيء السريرة، ﴿يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠﴾

إشارات:

- عندما يطيب العيش للإنسان ويحيا حياة الرفاهية تصيبه الغفلة، ولكن حين يصطدم بصخرة الشدائد والصعاب، ينزاح عن ناظريه ستار الغفلة، ويحلّ محلّها نور الفطرة الإلٰهيّة والتوحيد.

التعاليم:

١ ـ لقد أثبتت التجربة أنّه على الرغم من لباس الكفر الذي يرتديه معظم البشر،

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩. (٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

إلّا أنّهم يستبطنون فطرة إلٰهيّة تكشف عن نفسها حين يجدّ الجدّ وتدلهمّ الملمّات والخطوب. وهنا يأتي دور النبي الأكرم ﷺ في نفض الغبار عن هذه الفطرة الإلٰهيّة المستترة، ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُم...﴾.

٢ ـ في الحوادث والصعاب تنزاح الحُجُب عن قلب الإنسان فيتوجّه بفطرته السليمة نحو الله تعالى فقط. لا شك في أنّ انصراف القلب عن أيّ معبود آخر لهو دلالة على خواء هذه الأرباب، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

إشارات:

- رفع العذاب إمّا أن يكون لإتمام الحجة، وإما بسبب تغيّر نفوس القوم، كما ورد في الآية ٩٨ من سورة يونس المباركة: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾.

التعاليم:

١ ـ كلّ معبود وهم وخيال، فبمجرّد أن يصطدم الإنسان بجدار الحوادث يطوي عنه كشحاً، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ... وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ لا ينساهم فقط، بل يتنكر لهم، وفي آية أخرى ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1]؛ سوف يُنكر المشركون في يوم القيامة شِركهم عبر القَسَم والأيمان.

٢ ـ الدعاء بإخلاص مستجاب، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ﴾.

٣ ـ اليأس من سوى الله مدعاة لسرعة إجابة الدعاء، (تأمّل الفاء في ﴿فَيَكْشِفُ﴾).

٤ ـ إجابة الدعاء رهنٌ بالإرادة والمشيئة الإلٰهيّة الحكيمة، ﴿فَيَكْشِفُ... إِن شَآءَ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٣.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

- «**البأساء**» تعني الحرب، والفقر، والقحط، والسيول، والزلازل، والأمراض المعدية، و«**الضرّاء**» أكثر ما تأتي في العذاب الروحي كالهمّ، والغمّ، والافتضاح، والجهل، والهزيمة.
- يقول الإمام علي عليه السلام: «**ولو أنّ الناس حين ينزل بهم النقم، ويزول عنهم النعم فزعوا إلى ربّهم بصدقٍ من نيّاتهم ووله من قلوبهم لردّ عليهم كلّ شارد وأصلح لهم كلّ فاسد**»[1].

التعاليم:

١ ـ بعثة الأنبياء إلى الناس واحدة من السنن الإلٰهيّة على مرّ التاريخ، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٢ ـ في تاريخ الماضين عبرة ودروس للآتين، ﴿قَبْلِكَ﴾.

٣ ـ في التربية والإرشاد، يقتضي الأمر أحياناً ممارسة الشدّة والضغوط، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

٤ ـ الصعاب طريق لإيقاظ الفطرة الإنسانيّة والتوجّه نحو الله تعالى، ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾.

٥ ـ ليس كلّ رفاهية لطفاً ونعمة، ولا كلّ معاناة سخطاً وعذاباً، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ التضرّع إلى الله تعالى، عامل كمال وتقرّب إليه، وتركه هو قسوة للقلب وغواية، ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾.

---

(١) تفسير الصافي؛ تفسير نور الثقلين.

٢ ـ الإنسان مجبول على حبّ الجمال، لدرجة أنّ الشيطان يوظّف هذه الغريزة لاستغفاله، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

٣ ـ لا تنفع مع الأشخاص المعاندين دعوة ولا عقوبة، ﴿قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾.

٤ ـ جذور الغرور وترك التضرّع تكمن في الافتتان بإغواءات الشيطان، ﴿فَلَوۡلَآ... تَضَرَّعُواْ... وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

- «**مبلسون**» من «**الإبلاس**»، وهو الحزن المعترض من شدّة التألم والمقترن باليأس، وهو ما يصيب المذنب حيث يلزم السكوت في المحكمة وينسى ما يعنيه[1].
- جاء في الآيتين السابقتين: إنّنا نضيق الخناق على الإنسان حتى يتضرّع، وهنا تقول الآية: ينسى بعض الناس الله حتى في لحظات الشدّة والضيق، ﴿نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ...﴾.
- جاء في القرآن الكريم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾[2]، ويقول الإمام علي عليه السلام: «**إذا رأيت الله سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره**»[3].
- ملذّات الدنيا سلاح ذو حدّين، قد تكون للإنسان نعمة وقد تكون نقمة عليه. الآية موضع البحث تعتبر الدنيا نقمة. أمّا الإيمان والتقوى فإنّهما يستنزلان بركات السماء والأرض على أهلهما، كما ورد في الآية ٩٦ من سورة الأعراف: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، إذن، فالغفلة تغلق أبواب الخير على الإنسان.

---

(١) تفسير الميزان.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٦.
(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٢٥.

□ يقول النبي الكريم ﷺ: «**إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاؤون على معاصيهم فإنّما ذلك استدراج منه لهم**» ثمّ تلا هذه الآية[1].

□ وسُئل الإمام الباقر عليه السلام عن تأويل قوله ﷻ ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ قال: «**لما تركوا ولاية علي وقد أمروا بها أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون، فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين**»[2].

التعاليم:

١ ـ رفاهية العيش ليست دائماً دليل رحمة، ربّما كانت أحياناً استدراجاً لعقوبة، ﴿نَسُوا۟... فَتَحْنَا﴾.

٢ ـ إمهال المجرمين واستدراج المذنبين من السنن الإلٰهيّة، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟... فَتَحْنَا﴾.

٣ ـ عذاب الله يأتي بعد إتمام الحجّة، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟... أَخَذْنَٰهُم﴾.

٤ ـ العسر واليسر، والانسدادات والانفراجات كلّها بيد الله وحده، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم... فَتَحْنَا﴾.

٥ ـ الموت والعذاب الإلٰهيّ ينزلان فجأة، فلنكن دائماً على أهبة الاستعداد، ﴿بَغْتَةً﴾.

٦ ـ فرحة المترفين ستتحوّل فجأة إلى أنين وصرخات يأس، ﴿فَرِحُوا۟... مُّبْلِسُونَ﴾.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

□ سُئل الإمام الصادق عليه السلام: من الورع من الناس؟ فقال: «**الذي يتورّع من محارم الله ويجتنب هؤلاء، وإذا لم يتّق الشبهات وقع في الحرام وهو لا يعرفه، وإذا رأى المنكر فلم ينكره وهو يقوى عليه فقد أحبّ أن يُعصى الله، ومن أحبّ أن يُعصى الله فقد بارز الله بالعداوة، ومن أحبّ بقاء الظالمين فقد أحبّ أن يُعصى**

---

(١) تفسير مجمع البيان. (٢) تفسير العياشي.

الله؛ إنّ الله تبارك وتعالى حمد نفسه على إهلاك الظلمة فقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[1].

التعاليم:

١ ـ حبل الظلم قصير، ﴿فَقُطِعَ﴾.

٢ ـ تأثير الظلم يمتدّ إلى ذرّية الإنسان، ﴿دَابِرُ﴾.

٣ ـ هلاك الظالمين وقطع دابرهم أمرٌ محتوم، فالظلم يستأصل جذور الحضارات، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ...﴾ ويقول عزّ من قائل في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[2].

٤ ـ عدم الاكتراث بنُذُر الأنبياء يعدّ ظلماً، ﴿نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟... ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

٥ ـ أحياناً يكون الترف الزائد مقدّمة للظلم، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ... ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

٦ ـ مرّت على التاريخ أقوام لم يبق منهم اليوم أيّ أثر، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ﴾.

٧ ـ إهلاك الظالم عمل محمود، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٨ ـ يجب أن نحمد الله على هلاك الظالمين، ﴿فَقُطِعَ... وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٩ ـ هلاك الظالمين درس تربوي للآخرين، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

□ منذ بداية السورة وحتى الآن حثّ الله تعالى المعارضين في عشرة مواضع تقريباً على التدبّر والتفكر وذلك بطرح الأسئلة عليهم، ذلك أنّ التدبّر والتفكير في

---

(١) معاني الأخبار، ص ٢٥٢.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٨.

النعم وافتراض تغيّرها وتحوّلها يتيح الظروف الملائمة للتوحيد ومعرفة الله تعالى.

- إذا لم تنمُ الأشجار، ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾[١].
- إذا أصبحت المياه مالحة، ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾[٢].
- إذا غارت المياه إلى قاع الأرض، ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾[٣].
- إذا استمرّ الليل أو النهار أبداً سرمداً، ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا... أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾[٤].
- إذا تعطّل بصر الإنسان وسمعه وعقله، ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ...﴾[٥].

□ يقول الإمام الباقر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾: **«أخذ الله منكم الهدى** ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يقول: **يعرضون**»[٦].

التعاليم:

١ - أحد الأساليب الدعائية والتربوية التي دأب القرآن الكريم على استخدامها هو استنطاق الضمائر، ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ... مَّنْ إِلَٰهٌ﴾.

٢ - ليس بعسير على الله تعالى أن يستردّ النعم التي وهبها الإنسانَ، لذا، فلنتيقّظ لذلك، ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ...﴾.

٣ - خلقُ النعم بيد الله تعالى، وكذلك ديمومتها واستمراريّتها في كلّ لحظة، ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾.

٤ - السمع والبصر والعقل أدوات المعرفة لدى الإنسان، وهي من أهمّ النعم التي وهبه الله تعالى إيّاها، ﴿سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ... قُلُوبِكُم﴾.

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٦٥.
(٢) السورة نفسها: الآية ٧٠.
(٣) سورة الملك: الآية ٣٠.
(٤) سورة القصص: الآيتان ٧١ - ٧٢.
(٥) سورة الأنعام: الآية ٤٦.
(٦) تفسير نور الثقلين.

٥ ـ الأرباب الوهميّون لا يملكون أن يهبوا النعم ولا يملكون استردادها ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم﴾، نعم، الذي يستحقّ العبادة هو القادر على إعطاء النعم وعلى استردادها في آنٍ معاً.

٦ ـ أليس بعجيب أن يظلّ توجّه المشركين لغير الله على الرغم من كلّ هذه الدلائل والبراهين، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ...﴾.

٧ ـ مع الشخص اللجوج لا يجدي أيّ أسلوب أو منطق، ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

□ لعلّ المراد بـ «**بغتة**» هو أثناء النوم ليلاً، وكلمة «**جهرة**» أثناء العمل نهاراً.

كما في الآية الكريمة ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾[1]، أو ربّما كان المراد من «**بغتة**»، هو العذاب المفاجئ من دون تمهيدات، ومن كلمة «**جهرة**»، العذاب الذي تظهر آثاره واضحة منذ اليوم الأوّل، كسُحب العذاب التي أُرسلت إلى قوم عاد، كما ورد في الآية الكريمة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

□ سؤال: تقول هذه الآية: وحدهم الظالمون الذين يهلكون بالعذاب الإلٰهيّ، بينما نجد آية أخرى تقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[3]، فالقول واضح والإنذار صريح بتعميم الفتنة ونيران العذاب على الجميع دون استثناء، فكيف يمكن الجمع، إذن، بين مفهومي الآيتين؟

الجواب: ليست كلّ فتنة هلاكاً، فما يصيب الظالمين في الحوادث المريرة هو العذاب والهلاك، فيما تعتبر بالنسبة إلى المؤمنين امتحاناً ورشداً.

---

(١) سورة يونس: الآية ٢٤؛ تفسير روح المعاني.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٤؛ تفسير أطيب البيان.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

التعاليم:

١ ـ النبي الكريم مأمور بطرح الأسئلة لإيقاظ الضمائر واستنطاقها، ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾.

٢ ـ لا تغترّ بتمرّدك ولا تستغلّ المهلة الإلٰهيّة، إذ لربّما نزل العذاب بغتة، ﴿بَغْتَةً﴾.

٣ ـ عندما ينزل عذاب الله تعالى، يكون الهلاك فيه حتمياً، فلا هم (المبتلون بالعذاب) ولا غيرهم باستطاعتهم ردّ العذاب، ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ... يُهْلَكُ﴾.

٤ ـ العذاب الإلٰهيّ عادل لأنّه ينزل ردّاً على ظلم الناس، ﴿يُهْلَكُ... ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٥ ـ الإعراض عن دعوة الأنبياء ظلم، ﴿هُمْ يَصْدِفُونَ... ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

□ سؤال: جاء في آيات عدّة في القرآن الكريم أنّ أولياء الله لا خوف عليهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولكن عند استعراض خصالهم وصفاتهم تُذكر صفة الخشية من الله تعالى، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا...﴾ فكيف نفسّر ذلك؟

الجواب: أوّلاً، أحياناً نجد المريض يخشى إجراء العمليّة الجراحية ومن المعالجة الطبية، ولكن يقوم الطبيب بطمأنته ورفع معنويّاته ويقول له: لا خوف عليك. فهذا التطمين لا يتعارض مع الخوف الذي يساور المريض.

التعاليم:

١ ـ الله وحده الذي يحدّد نطاق واجبات الأنبياء ورسالاتهم، ﴿وَمَا نُرْسِلُ... إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾.

٢ ـ مسؤولية الأنبياء إعطاء البشارات والنذر، لا إكراه الناس، ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

٣ ـ النهج العام لرسالة الأنبياء موحّد ومتشابه، ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

٤ ـ يقوم الإرشاد والتربية على ركني الرجاء والخوف، والثواب والعقاب، ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

٥ ـ الإيمان والعمل الصالح متلازمان ولا ينفصلان عن بعضهما، فالعمل بدون إيمان غير منتج ولا أثر له، ﴿ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾.

٦ ـ أعمال المؤمن يجب أن تكون على طريق الإصلاح دائماً، ﴿ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾.

٧ ـ الصلاح وحده لا يكفي بل يلزمه الإصلاح، ﴿وَأَصْلَحَ﴾.

٨ ـ الإيمان والعمل يحصّنان الإنسان من الأمراض النفسية مثل الخوف والكآبة والحزن، ﴿ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الصحة النفسية تكون في إطار الإيمان والعمل الصالح.

٩ ـ ثمرة المجتمع النبوي هو تحقيق نظام متوازن ومستقرّ وآمن، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ...﴾.

١٠ ـ مواصلة الفسق مقدمة لنزول العذاب الإلٰهيّ، ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

- يبدو أنّ المشركين كانوا يعتقدون أنّ النبي هو من كان يملك خزائن الله، أو أنّهم كانوا ينتظرون حلّ جميع أمورهم اليومية عن طريق الغيب، لذا فالله تعالى يأمر نبيّه الكريم ﷺ في هذه الآية أن يزيل هذه الأوهام من أذهانهم، وأن يعلن صراحة بطلان هذه الآمال الباطلة والتصوّرات الخاطئة، وأن يبيّن لهم حدود مسؤولياته، ويقول لهم: إنّ المعجزات تقع عن طريق الوحي الإلٰهيّ فقط، وليس امتثالاً لأهوائهم ورغباتهم، واعلموا أنّي سآتي بمعجزة متى ما أوحي إليّ بذلك، وليس متى ما اقتضت أهواؤكم ورغباتكم.

□ تنفي الآية الكريمة عن النبي الكريم ﷺ أيّ علمٍ ذاتي له بالغيب، إلّا ما أطلعه الله تعالى على علمه في بعض الأحيان. كما ورد في سرد القرآن لقصص بعض الأنبياء مثل يوسف، ونوح، والسيدة مريم العذراء في آيات عدّة إذ يخاطب ﷻ نبيّه الكريم بالقول: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ فهذه القصص هي من علم الغيب نطلعك عليه. كما ورد في آخر سورة الجنّ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾. إذن، علم الغيب هو لله وحده، وإذا شاء أطلع بعض أوليائه على جانبٍ منه.

□ تعامل الأنبياء مع أقوامهم كان متشابهاً، فنفس هذا الكلام قاله النبي نوح عليه السلام لقومه[1].

التعاليم:

١ ـ صدق الأنبياء كبير لدرجة أنّهم يعترفون للناس بما ليس لديهم، ﴿قُل لَّآ أَقُولُ﴾.

٢ ـ يجب أن لا نتوقّع من الأنبياء ما ليس في استطاعتهم، ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ حياة القائد، وأهدافه، ونهجه في العمل يجب أن تكون واضحة للناس وصريحة، ﴿قُل لَّآ أَقُولُ﴾.

٤ ـ لا تدعوا الناس يغالوا فيكم، لو يطرح كلّ شخص عن نفسه الألقاب الكاذبة، فسوف يحدّ من الغلو والانحراف، ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ لم تكن دعوة الأنبياء بدافع المال أو التهديد أو الإغراء، حتى لا يجتمع الناس حولهم بسبب الخوف أو الطمع، ولكيلا يتصوّروا أنّهم إذا ناصروا النبي، فسيحصلون على علم الغيب أو يمتلكون خزائن الله لحلّ مشاكلهم، ﴿قُل لَّآ أَقُولُ...﴾.

---

(١) سورة هود: الآية ٣١.

٦ ـ في حياته الشخصيّة أو في قيادته للدولة، يسلك النبي مساراً طبيعياً كما الآخرون، فهو لا يوظّف علم الغيب أو خزائن الله لأغراضه الخاصة، وإن كان من الضروري أن يفعل ذلك من أجل إثبات نبوّته، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾.

٧ ـ لا يملك النبي الكريم خزائن الله وليس عنده علم الغيب، لكنّه يوحى إليه وبذلك تكون طاعته واجبة، ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

٨ ـ مهمّة النبي هي اتّباع ما يوحى إليه، لا اتّباع الوهم أو المزاج، ولا الانصياع للرغبات الاجتماعيّة أو التأثّر بالمحيط والبيئة، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

٩ ـ أقوال وأفعال الأنبياء حجّة لنا، لأنّها تقوم على أساس الوحي، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

١٠ ـ اتّباع الأنبياء هو بصيرة، والإعراض عنهم عمى، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

١١ ـ الفكر السليم يرشد الإنسان لاتّباع الأنبياء، ووضع الأعذار والحجج والأهواء جانباً، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

□ لقد خاطب الله تعالى رسوله الكريم ﷺ مرّات عدّة في القرآن الكريم بأنّ نُذُرك ونصحك لا يؤثّران إلّا على الذين يخشون الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[1]، و﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[2].

---

(١) سورة يس: الآية ١١. (٢) سورة فاطر: الآية ١٨.

التعاليم:

١ ـ هداية الأنبياء تكون مؤثّرة شرط أن يتوافر الإنسان على الاستعداد والجاهزية، ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾.

٢ ـ الإيمان بالمعاد هو مفتاح التقوى، ﴿يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ... لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

إشارات:

□ ورد في سبب نزول هذه الآية ما يلي: عن عبد الله بن مسعود قال: «مرّ الملأ من قريش على النبي الكريم ﷺ وعنده صُهيب، وعمّار، وبلال، وخبّاب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فتعجّبوا من ذلك (لأنّهم كانوا يحسبون أنّ شخصيّة المرء مرهونة بالثروة والجاه والمقام، ولم يستطيعوا إدراك المنزلة المعنوية لهؤلاء الأشخاص، ولا ما سيكون لهم من دور بنّاء في إيجاد المجتمع الإسلامي والإنسانيّ الكبير) فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك، منّ الله عليهم من بيننا، أو نحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم نتبعك، فأنزل فيهم القرآن[١].

وفي تفسير المنار، قال عمر بن الخطاب: لو فعلت يا رسول الله حتى ننظر ما يريدون بقولهم وما يصيرون إليه من أمرهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

ومثل هذا القول ورد في شأن الآية ٢٨ من سورة الكهف.

□ وجاء في تفسير القرطبي: فكان رسول الله ﷺ لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يبتدئون القيام.

□ قيل: المراد بالدعاء في أوّل النهار وآخره المحافظة على الصلاة المكتوبة في الجماعة[٢].

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤، ص ٤٧٢. (٢) تفسير الميزان.

التعاليم:

١ ـ المحافظة على العناصر المخلصة، والفقيرة، والمجاهدة خير من استقطاب الأغنياء الكفّار، ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾.

٢ ـ الغاية لا تبرّر الوسيلة، فلا ينبغي الإساءة إلى المسلمين بحجّة جذب رؤوس الكفر وزعمائهم، ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾.

٣ ـ الإسلام دين يحارب التمايز، واللامساواة، والتمييز العنصري، ومنح الامتيازات، والأتاوات، (تأمّل سبب النزول).

٤ ـ الغالبية العظمى من أتباع الأنبياء كانوا من الفقراء والحفاة، (تأمّل سبب النزول).

٥ ـ إذا لم يستطع مختلقوا الأعذار أن يجدوا ثلمة في القائد أو الدين، فسيشكلون على الأتباع وأوضاعهم الاقتصاديّة، (تأمّل سبب النزول).

٦ ـ ما من مزيّة ترقى إلى مزيّة الإيمان، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

٧ ـ الوضع الحالي للشخص هو المعيار، إذا كانت للمؤمن الفقير معايب ونقائص في الماضي، فحسابه على الله وحده، ولا شأن لمخلوق بذلك، ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

٨ ـ حساب كلّ فرد على الله تعالى، وما من أحد مسؤول عن عمل الآخرين بما في ذلك الرسول الكريم ﷺ، ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ فهو نفسه له حسابه الخاص به، ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

٩ ـ طرد الفقراء الحفاة والمحرومين المخلصين ظلم، ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ۝٥٣﴾

إشارات:

□ لقد حمل القرآن الكريم مراراً وتكراراً على نظرة الاستعلاء والغطرسة للكافرين.

فهم كانوا يتوقّعون نزول الوحي والقرآن عليهم، ويشهد بذلك قولهم: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾[١]، و﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٢].

□ المؤمن الحقيقي هو الذي يشكر الله على نعمة الإيمان، وفي بعض الأخبار أنّ رجلاً من فقراء الشيعة شكا إلى الإمام الكاظم عليه السلام الفقر، فسأله عن أغنى الناس؟ فقال له: هارون الرشيد، فقال له هل تعطيه إيمانك وتأخذ ثروته وماله؟ فقال الرجل: لا. فأخبره الإمام أنّه أغنى منه لأنّه لا يقبل بثروته بديلاً عن إيمانه[٣].

التعاليم:

١ ـ الاختلاف الطبقي والاجتماعي يشكل أحياناً وسيلة للاختبار وصقل الخصال وتنميتها. فالأغنياء والفقراء بعضهم امتحان لبعضهم الآخر، ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

٢ ـ بعض الأغنياء يحتقرون الفقراء ويُعلون من شأن أنفسهم، ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ... مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

٣ ـ الفقراء المؤمنون هم المصطفون عند الله، ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

٤ ـ الردّ على إساءات الكفّار يكون بإبراز اللطف والمحبة الإلٰهيّة تجاه المؤمنين، ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ... بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

٥ ـ المنّة الإلٰهيّة بحقّ الفقراء هي بسبب شكرهم الله، ﴿مَنَّ ٱللَّهُ... بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

٦ ـ أفعال الله تعالى تقوم على الحكمة لا على رغبات الناس، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾

٧ ـ الأنبياء تجسيد بارز للشاكرين ﴿بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، والفقراء الذين اتّبعوا هدي الأنبياء هم أيضاً شاكرون نعمةَ الهداية، ﴿بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

---

(١) سورة القمر: الآية ٢٥.
(٢) سورة الزخرف: الآية ٣١.
(٣) تفسير أطيب البيان.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

- قيل في سبب نزول الآية الكريمة: إنّ فريقاً من المذنبين قدموا على رسول الله ﷺ وقالوا: إنّا أصبنا من الذنوب كثيرا، فاستغفر لنا فأعرض عنهم فنزلت الآية[1].
- لقد ذكر الله تعالى في هذه السورة المباركة عبارة ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ مرّتين، المرّة الأولى لتسلية المؤمنين في هذه الدنيا (هذه الآية) والمرّة الثانية في الآية ١٢ من السورة وكانت في موضوع المعاد ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾.
- جاء بيان الجهالة في موضع سابق إذ نُقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ المراد بـ «الجهالة» هو الجهل بقبح باطن المعصية وهذا يشمل جميع العاصين.

التعاليم:

١ ـ ينبغي لزائر رسول الله ﷺ أن يكون مؤمناً ليستطيع أن ينهل من الألطاف الإلٰهيّة، ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ...﴾.

٢ ـ زيارة النبي الكريم طريق لنيل الألطاف الإلٰهيّة، ﴿جَآءَكَ... فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ﴾.

٣ ـ تقوم علاقة القائد بالناس على الألفة والمحبّة، ﴿وَإِذَا جَآءَكَ... فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ...﴾.

٤ ـ أحسن التحيّة هي قول «سلامٌ عليكم»، ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٥ ـ كفّروا عن خطأ احتقار المؤمنين، في الآية ٥٣ قال المتكبّرون بأسلوب

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤، ص ٤٧٦.

مهين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ...﴾، في حين نجد أنّ الله تبارك وتعالى في الآية ٥٤ كفّر عن تلك الإهانة وأمر نبيّه بإلقاء التحيّة على المؤمنين، ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٦ ـ «السلام» هو شعار الإسلام، الكبير أيضاً يلقي التحيّة على الصغير، ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٧ ـ يجب أن يكون تعامل المعلّم والداعية مع الناس قائماً على المحبة والألفة وأن يحترما شخصيّة الفرد، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٨ ـ التوبة مقبولة ما لم تكن المعصية بدافع اللجاج والاستكبار، ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾.

٩ ـ لقد كتب الله تبارك وتعالى على نفسه الرحمة، ولكن بشرط التوبة والاعتذار، ﴿كَتَبَ... ثُمَّ تَابَ﴾.

١٠ ـ التوبة ليست كلمات تجري على اللسان فحسب، بل هي قرار وإصلاح، ﴿تَابَ... وَأَصْلَحَ﴾.

١١ ـ لا شك في أنّ توبة المؤمن مقبولة، ﴿عَمِلَ مِنكُمْ﴾.

١٢ ـ الصفح الإلٰهيّ مقرون بالرحمة، ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فلا ينبغي للعاصي أن ييأس.

١٣ ـ تسليط الضوء على طريق المجرمين والعاصين والمتواطئين من جملة أهداف الدين، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يجب أن تواجه الطلبات غير المنطقية للمشركين، والمتمثلة في اعتناق دينهم والقبول بعبادة الأصنام، بنفي صريح وواضح ﴿نُهِيتُ... لَآ أَتَّبِعُ... ضَلَلْتُ﴾، نعم، إنّ الشرك حرام في أيّ صورة كانت.

٢ ـ تصدّي النبي الكريم ﷺ وموقفه الحازم من الكفّار يستند إلى الوحي، ﴿قُلْ﴾، ﴿قُلْ﴾.

٣ ـ البراءة من الشرك في صلب الدين الإسلامي، ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

٤ ـ جذور الشرك تعود إلى اتّباع الأهواء، ﴿لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾.

٥ ـ لا ينبغي للداعية أن يكون هدفه إرضاء أهواء الناس، ﴿لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾.

٦ ـ اتّباع الأهواء يسدّ منافذ الهداية عند الإنسان، ﴿لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ... وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَٰصِلِينَ ۝٥٧﴾

إشارات:

□ «البينة» مشتقة من المصدر «بينونة» ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثمّ أطلقت على الدليل والحجة الواضحة، لأنّها تفصل بين الحقّ والباطل. إنّ الدلائل والمعاجز التي جاء بها الأنبياء لم تكن معقّدة ولا غامضة، بل كانت واضحة يفهمها الجميع، ولولا عناد المشركين ولجاجتهم لآمنوا بها برحابة صدر، ولهذا السبب كان الأنبياء يقولون: إنّ لديهم بيّنات.

□ كان الكفّار يقولون: إن كنت على حقّ، فلماذا لا يصيبنا عذاب الله، ﴿تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾.

ونظير هذا قالوا في آية أخرى: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾[1]؛ إذن، فالأقوام الأخرى أيضاً كانت تنادي باستعجال العذاب مثل أقوام الأنبياء هود وصالح ونوح حيث كانوا يقولون: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[2].

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٢.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان ٧٠ و٧٧؛ سورة هود: الآية ٣٢.

التعاليم:

١ ـ دعوات الأنبياء تقوم على البيّنات لا على الوهم أو التقليد الأعمى، ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾.

٢ ـ دعم الأنبياء بالبيّنات قبس من ربوبيّة الله تعالى، ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.

٣ ـ لا بدّ للأنبياء من بيّنات إلٰهيّة، لا أن يعملوا وفقاً للأهواء اليومية لأقوامهم، ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ القرآن الكريم هو بيّنة النبي الكريم ﷺ ودليل ساطع على صدقه وحقّيته.

٤ ـ النبي الأكرم محيط إحاطة تامّة بالبيّنة التي جاء بها القرآن الكريم، عبارة ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تشير إلى مفهوم العلو والإحاطة بمفاهيم القرآن الكريم.

٥ ـ لقد كذّب الكفّار ببيّنة النبي، وفي المقابل يتوقّعون منه أن يتّبع أهواءهم النفسانية، ﴿لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ... وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾.

٦ ـ ليس النبي سوى رسول بُعث بالمنطق والبيّنة، ونظام الكون بيد الله تعالى، (فلا تسعوا إلى فناء أنفسكم أو الطبيعة بطلبكم من النبي أن يستعجل لكم العذاب الإلٰهيّ)، ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾.

٧ ـ الآية هي تهديد للكفار، وفي الوقت نفسه، تسلية للنبي الكريم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ استعجال الناس لا يغيّر من حكمة الله تعالى، ﴿تَسْتَعْجِلُونَ... وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾.

٢ ـ العذاب بيد الله تعالى ينزله متى شاء، ولو استجاب لدعاء الكفّار باستعجاله لم يذر منهم أحداً، ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾. كما ورد في الآية ١١ من سورة يونس ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

٣ ـ الله تبارك وتعالى يمهل الظالمين طبقاً لحكمته وسنّته، ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ... وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤ ـ لا يظنّ الكافرون أنّ تأخير نزول العذاب الإلٰهيّ يعني نسيان كفرهم، ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

- **«مفاتح»**، جمع «مِفْتَح» وهو المفتاح، أمّا إذا كانت بفتح الميم فتعني الخزانة، والمعنى الثاني هو الأنسب[1].
- الرطب واليابس كناية عن ثنائيّات الأشياء المتقابلة مثل الموت والحياة، والمرض والصحة، والفقر والغنى، والصالح والطالح، والمجرّد والمادّي. وقد تمّ التوسّع في بحث هذا الموضوع في تفسيرنا الآيةَ ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[2].
- لعلّ المراد بسقوط الأوراق الحركات النازلة، والحبّة التي تنمو في الأرض الحركات الصاعدة[3].

التعاليم:

١ ـ السبب وراء عدم الاستجابة لمطلب الكفّار في استعجال نزول العذاب عليهم، هو علم الله تبارك وتعالى بأسرار الكون، ﴿مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ... وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾.

٢ ـ الأحكام الإلٰهيّة تصدر وفقاً لعلمه سبحانه بالغيب والشهود، ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ... وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾.

٣ ـ نطاق علم الغيب أوسع من العلوم العادية، ويؤيّد ذلك العبارة الحصرية للقرآن الكريم ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾.

---

(١) تفسير الميزان.

(٢) سورة يس: الآية ١٢.

(٣) تفسير في ظلال القرآن.

٤ ـ الله سبحانه وتعالى عليم بكلّ شيء ويحيط بكل تفاصيل الكون، بخلاف القائلين إنّه يحيط بالمحاور العامة للعلم؛ لذلك ينبغي علينا توخّي الدقّة والحذر في أعمالنا، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ...﴾.

٥ ـ لا أحد يعلم الغيب من نفسه إلّا الله تعالى، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

٦ ـ للكون نظام مركزي للمعلومات، ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

٧ ـ منظومة الكون مصمّمة وفقاً لنظام متقن، ﴿كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

إشارات:

- «جرحتم» من «**الجارحة**» وتعني العضو الذي وسيلة الكسب والفعل، ومن ثمّ أطلق على الكسب والعمل نفسه.
- من المعلوم أنّ الله تعالى يتوفّى الروح وحدها حين النوم، بيد أنّه يقول: نحن نتوفّاكم، وفي هذا دلالة على أنّ حقيقة الإنسان تتلخّص في الروح.

التعاليم:

١ ـ النوم بمثابة موت مؤقت، وكل يقظة بمثابة بعث، ﴿يَتَوَفَّاكُمْ... يَبْعَثُكُمْ﴾.

٢ ـ القانون الطبيعي هو أنّ الليل جُعل للسبات والنهار للعمل والكسب، ﴿يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ... جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾.

٣ ـ لحياتنا تاريخ وبرنامج وأجل محدّد، ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

٤ ـ فلنستعدّ لمحكمة يوم القيامة، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

٥ ـ الله سبحانه وتعالى عليم بسيّئاتنا ومع ذلك يمهلنا ويُرجع إلينا أرواحنا التي توفّاها، ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾.

٦ ـ القيامة يوم ظهور حقائق الأعمال، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

- استيفاء الروح في الليل وبعثها في النهار أحد أمثلة قاهريّة الله تعالى على الإنسان.
- إنّ قبض الروح يُنسب في القرآن الكريم إلى الله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾، وإلى ملك الموت والملائكة في آنٍ معاً، وهذا التباين في العبارات ربّما يعود إلى أنّ الملائكة تلي أمر أرواح الأشخاص العاديين، وملك الموت ـ وهو ملك مقرّب ـ يلي أمر أرواح الأشخاص البارزين، أمّا الله تبارك وتعالى فهو يلي أمر أرواح أوليائه.

وقيل أيضاً، ربّما يكون مردّ ذلك أنّ الملائكة تقوم أوّلاً بقبض روح الإنسان، ثمّ تدفعه إلى ملك الموت (عزرائيل)، وبدوره يقوم الأخير بتسليم الروح إلى ربّ العالمين، وبذلك يمكن القول: إنّ قبض الأرواح هو عمل الملائكة، وملك الموت، والله تعالى. إذن، فالله سبحانه هو الفاعل والمسبّب والملائكة هم المباشرون الفعليون لهذا العمل، ومن هنا، فإنّ هذا العمل تارةً ينسب إلى المسبِّب، وأخرى إلى المباشرين الفعليين.

- قد يكون المقصود بالملائكة الحافظين أولئك الذين يراقبون الإنسان ويحفظونه من شرّ الحوادث[1] ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[2]، أو الملائكة المأمورين بكتابة أعمال الإنسان وتسجيلها، ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[3].
- يقين الإنسان بمراقبة الملائكة له، حافز على شكر الله تعالى، والإيمان بأنّ الملائكة تكتب أعمال الإنسان هو عامل حياء وتقوى.

---

(١) تفسير الميزان.

(٢) سورة الرعد: الآية ١١

(٣) سورة الزخرف: الآية ٨٠.

التعاليم:

١ ـ الله تعالى بيده القدرة والسلطة التامّة، أمّا ترك الخيار لنا فذلك لأنّه بلطفه الواسع أمهلنا في هذه الدنيا، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ...﴾.

٢ ـ إنّ قاهريّة الله على عباده كبيرة لدرجة لا تدع مجالاً لمقاومتها، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

٣ ـ يضمّ نظام الخلق أنواعاً عدّة للمراقبة، ﴿حَفَظَةً﴾.

٤ ـ إرسال الملائكة الحافظين أمرٌ دائم، ﴿وَيُرْسِلُ﴾.

٥ ـ لكلّ مجموعة من الملائكة مهمّة خاصة، ﴿حَفَظَةً... تَوَفَّتْهُ﴾.

٦ ـ عند قبض الروح يحضر عدد من الملائكة، ﴿إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾.

٧ ـ الملائكة معصومون، وهم لا يتساهلون في إنجاز مهمّتهم، ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾.
كما ورد في آية أخرى ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾[١].

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

إشارات:

□ روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سُئل: كيف يحاسب الله سبحانه الخلق ولا يرونه؟ قال: **«كما يرزقهم ولا يرونه»**. وروي أنّه سبحانه يحاسب جميع العباد على مقدار حلب شاة[٢].

□ وسُئل الإمام علي عليه السلام: «كيف يُحاسِبُ الله الخلقَ على كثرتهم؟ فقال: **«كما يَرزقُهم على كثرتهم»**. فقيل: كيف يُحاسِبهم ولايرونه؟ فقال: **«كما يَرزقهم ولا يرونه»**[٣].

(١) سورة التحريم: الآية ٦.
(٢) تفسير مجمع البيان؛ تفسير نور الثقلين.
(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٣٠٠.

□ **سؤال**: كيف يمكن تفسير كلّ هذه الآيات والروايات القائلة بسرعة الحساب الإلٰهيّ في يوم القيامة، في ضوء ما يروى عن طول يوم القيامة؟

الجواب: إنّ مسألة طول يوم القيامة هي في الحقيقة نوع من العقوبة والعذاب، وليس بسبب ازدحام الأعمال والعجز عن الحساب السريع[1]. (من المعلوم أنّ الإنسان وهو مخلوق يستطيع اليوم أن يجري أعقد الحسابات بواسطة جهاز الحاسوب في غضون دقائق قليلة، على سبيل المثال جرد المخازن والبضائع وإعداد كشوفات الشؤون المالية المرتبطة بها).

التعاليم:

١ ـ إنّا إلى الله راجعون، وهو وحده القاضي في يوم القيامة، ﴿رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ... لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾.

٢ ـ المولى الحقّ هو الذي بيده الخلق، والرقابة، والنوم، واليقظة، والموت، والبعث، والحكم، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾.

٣ ـ كلّ مولى إمّا مزيّف وإمّا افتراضي، إلا الله تعالى فهو المولى الحقيقي، ﴿ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ وولاية الأنبياء والأولياء هي شعاع من الولاية الإلٰهيّة.

٤ ـ الحساب الإلٰهيّ أسرع من أيّ حساب وأيّ وسيلة أخرى، ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾.

﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾

إشارات:

□ «**التَضرُّع**» هو الدعاء علانيّة أو إظهار التذلّل، و«**خُفية**» هو الدعاء في السرّ.

□ وقد روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «**خير الدعاء الخفي، وخير الرزق ما يكفي**»،

---

(١) تفسير أطيب البيان.

ومر ﷺ بقوم رفعوا أصواتهم بالدعاء فقال: «**إنّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، وإنّما تدعون سميعاً قريباً**»[1].

▫ جاء في الآية ١٢ من سورة يونس: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾.

▫ الشدائد التي يمرّ بها الإنسان تفرز أربع حالات هي: الشعور بالحاجة، التضرّع، الإخلاص، والتمسّك بالشكر. نعم، إنّ الشدائد والمصاعب وانقطاع الأسباب المادّية تنمّي لدى الإنسان روح التوجّه إلى الله تعالى، والإنسان في الملمّات والمصائب يشعر بيد الله فوقه.

التعاليم:

١ ـ أحد أساليب الدعوة والنصح استنطاق الضمير الإنساني، ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾.

٢ ـ أسلوب التذكير وهداية الإنسان إلى الإخلاص هو من أفضل أساليب التوجّه إلى الله ودعوته، ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

٣ ـ في الشدائد والمحن ينزع الإنسان عنه ثوب الكفر والشرك ويلبس ثوب التوحيد، ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

٤ ـ المشرك لا يفي بتعهداته تجاه الله تعالى، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

٥ ـ شرك الإنسان هو أقبح أنواع الجحود، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ... ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

٦ ـ الرفاهية والدّعة وشعور التحرّر وعدم الحاجة كلّها تزرع في الإنسان الغفلة والشرك بالله، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

(١) تفسير نور الثقلين.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

❑ «اللبس» بمعنى الخلط والمزج، و«شيع» جمع «شيعة»، وهي الفرقة.

❑ تحدّثت الآية السابقة عن قدرة الله تعالى على إنجاء عباده، وهنا، الحديث يدور حول قوّته وقدرته على إنزال العذاب والعقوبة.

❑ يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم هو الدخان والصيحة، أو من تحت أرجلكم وهو الخسف، أو يلبسكم شيعاً وهو اختلاف في الدين وطعن بعضكم على بعض، ويذيق بعضكم بأس بعض وهو أن يقتل بعضكم بعضاً، وكل هذا في أهل القبلة**»[1]. ربّما كان عليه السلام بصدد طرح بعض الأمثلة لا جميعها، ذلك أنّ العذاب الفوقاني يشمل ظلم الطواغيت والحكام المتسلّطين على رقاب الناس، والعذاب التحتاني يشمل العذاب الناجم عن تمرّد الطبقات الدنيا وخروجها على القائد الحقّ المنبثق من وسط الناس ومع الناس وبموازاتهم.

❑ توجد عبارات عدّة في القرآن الكريم تخاطب النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وتحمل هذا المفهوم وهو أنّ مسؤولية النبي تتضمّن الدعوة إلى دين الله وليس إكراه الناس على الإيمان به. من تلك العبارات نستعرض ما يلي: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[2]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[3]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[4]، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[5]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾[6]، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[7]، ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[8]، و﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[9].

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٧.
(٣) سورة الغاشية: الآية ٢٢.
(٤) سورة ق: الآية ٤٥.
(٥) سورة المائدة: الآية ٩٩.
(٦) سورة يونس: الآية ٩٩.
(٧) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.
(٨) سورة فاطر: الآية ٢٣.
(٩) سورة الأنعام: الآية ٦٦.

التعاليم:

١ ـ إحدى مسؤوليات النبي الكريم ﷺ هي التذكير بالقدرة العظيمة لله تعالى، ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾.

٢ ـ الشرك باب مفتوح على أنواع العذاب، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ... قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾.

٣ ـ الله تعالى هو المنجي وهو المعذّب، فمن يبغي غير الله عن وعي وقصد، فعليه أن ينتظر العذاب، ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ...﴾.

٤ ـ بثّ الفرقة والتشتّت من العذاب الإلٰهيّ، وهو مذكور إلى جانب عذاب السماء والأرض، ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾.

٥ ـ أحياناً يُعذِّب الناس بالناس وعلى يد بعضهم، فيجعل بأسهم بينهم، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

٦ ـ على دعاة الدين أن يوظّفوا أساليب متنوّعة في إرشاد الناس ووعظهم، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾.

٧ ـ إذا صدّرنا المفهوم في أشكال متعدّدة، فبإمكاننا أن نأمل نتائج أكبر، ﴿نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

٨ ـ ما دام الحقّ طريقكم، فلا تبتئسوا من تكذيب الناس، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

٩ ـ إنّك مسؤول عن أداء الواجب لا ضمان النتيجة، ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

إشارات:

□ قيل في الآية السابقة: إنّ الله قادر على أن ينزّل عليكم العذاب من كلّ صوب، وهذه الآية تقول: إذا لم ينزل العذاب بالكفّار اللجوجين فلا تعجلوا، فلكلّ نبأ حقيقة، ولكلّ خبر وقوع ولو بعد حين، من غير تقدّم أو تأخّر.

التعاليم:

١ ـ إنّ تحقّق جميع الأخبار والوعود الإلٰهيّة أمر حتمي، ويتعلّق ذلك بالحكمة

الإلٰهيّة والمواعيد المقرّرة لها، فما من حادثة تقع صدفة دونما تدبير أو هدف، ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

٢ ـ نعم، أنتم لستم مكرهين على الإيمان، ولكن، تدبّروا عواقب أعمالكم، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٣ ـ لا تتسرّع بإصدار الأحكام، فلا تظنّن إمهال الله لك دليلاً على غفلته عنك، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)﴾

إشارات:

- **«الخوض»** في الأصل هو الشروع في الماء والمرور فيه، ويُستعار في الأمور، وأكثر ما ورد في القرآن في ما يُذمّ الشروع فيه، أو الدخول في موضوع بقصد الاستهزاء والسخرية لا من أجل فهم الحقيقة واستيضاح الأمور[١].
- ﴿بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ قد تعني بعد تذكير الآخرين، أو أن يتذكر الإنسان هو نفسه.
- **سؤال**: نعلم أنّ الأنبياء معصومون، إذن، كيف نفسّر قول الآية الكريمة إنّ الشيطان ينفذ إلى نفس النبي الكريم فينسيه ما ذُكر به، ﴿يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾؟

الجواب: ذكر تأثير الشيطان في مسألة النسيان هو محض افتراض، تماماً مثلما ورد في الآية الكريمة ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٢]، أو الآية ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾[٣]، والحقيقة أنّه لم يقع منه لا شرك ولا تقوّل، فهو مجرّد افتراض.

وربّما كان أتباع النبي هم من قصدتهم الآية الكريمة لا شخصه الكريم ﷺ، على طريقة إيّاك أعني واسمعي يا جارة.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٥.

(٣) سورة الحاقة: الآية ٤٤.

□ شبيه ذلك ما ورد في الآية ١٤٠ من سورة النساء: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ...﴾.

□ وفي أحاديث وروايات عدّة عن النبي الكريم ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام، ورد نهي للمسلم عن مجالسة أهل الخصومات أو المشاركة في مجالس المعصية إذا علم أنّه لن يُقبل منه، حتى وإن كانوا من أقاربه. وفي هذا السياق، يوصي الإمام علي عليه السلام ولده محمد بن الحنفية فيقول: **«ففرض على السمع أن لا تصغي به إلى المعاصي، فقال عز وجل وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره»** ثم استثنى عز وجل موضع النسيان، فقال: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

□ كما نُقل عن رسول الله ﷺ بالاستناد إلى هذه الآية قوله: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس في مجلس يُسبّ فيه إمام أو يعاب فيه مسلم، إنّ الله تبارك وتعالى يقول:** ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾**»**[2].

□ وعن الإمام علي عليه السلام أنّ **«مجالسة الأشرار تورث سوء الظنّ بالأخيار»**[3].

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للمسلم أن يُري الأعداء حميّته وغيرته الدينيّة على المقدّسات، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

٢ ـ الإعراض عن الشرور، والمساوئ، والنضال السلبي ضدّ المسيئين هو أحد الأساليب في النهي عن المنكر، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

٣ ـ الاهتمام أو الاستماع إلى اللغو والأباطيل ومطالعة كتب الضلال أو مشاهدة

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٢٦٦.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٣٦٥.

البرامج المضلّة أمرٌ مذموم ومرفوض[١]، ﴿يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾؛ إلّا إذا كان يُقصد منها الردّ على تلك الأباطيل من قبل المختصّين، ففي هذه الحالة لا مانع من ذلك.

٤ ـ بدلاً من الانصهار في المجتمعات، أو الجماعات، أو المجالس الفاسدة، يجب على المرء أن يعمل على تغييرها، ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾.

٥ ـ لا تكفي البراءة والإدانة اللفظية، بل يجب التصدّي بنحوٍ من الأنحاء، ﴿فَأَعۡرِضۡ... فَلَا تَقۡعُدۡ﴾.

٦ ـ لا تجوز مجالسة الظالمين لذلك ينبغي لنا الإعراض عنهم، ﴿فَلَا تَقۡعُدۡ﴾.

٧ ـ العلم والوعي هو شرط التكليف، ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، النسيان عذر مقبول.

٨ ـ التطاول على القرآن الكريم بغير حقّ من خلال الاستهزاء، أو التفسير بالرأي، أو نشر البدع، أو التحريف... ظلم، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾

إشارات:

□ بالنسبة إلى آية التحريم التي نزلت في موضوع مجالسة أهل الخصومات والمستهزئين، فقد قال فريق:

إذا كان علينا أن نلتزم بهذا النهي في كل مكان فإنّه يمتنع علينا الذهاب إلى المسجد الحرام والطواف به، (وذلك لأنّ المشركين كانوا منتشرين في أطراف المسجد ولا يفتأون يتناولون الآيات القرآنية بالكلام الباطل، فحيثما نتوقف في أرجاء المسجد ثمّة احتمال أن يصل كلامهم إلى مسامعنا). عندئذٍ نزلت الآية الثانية تأمر المسلمين في مثل هذه الحالات أن ينصحوهم، ويهدوهم، ويردّوهم قدر إمكانهم[٢].

---

(١) ربّما أمكننا الاستناد إلى هذه الآية في تحريم كتب وبرامج الضلال.

(٢) تفسير نور الثقلين.

❑ في الحقيقة لا مانع من المشاركة في مجالس أهل المعصية بقصد النهي عن المنكر، والتوجيه، والإرشاد؛ ولكن شرط أن يكون المرء على قدر كبير من الورع والحصانة ضدّ البدع، وإلّا فلا فائدة أن يذهب الإنسان لنجاة الغريق، وإذا به نفسه يغرق.

التعاليم:

١ ـ تشخيص الأولوية هو من أهمّ المبادئ المنطقية والإسلاميّة في التعامل مع المسائل. إذ إنّ الاستماع إلى الشبهات والتخرّصات بصورة مؤقّتة بغية الردّ عليها أو إرشاد المنحرفين أمرٌ جائز، ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾.

٢ ـ التقوى والورع أداة صيانة للإنسان وتحصين ضدّ المعصية، كالملابس المضادّة للحريق التي يرتديها رجال الإطفاء، ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

٣ ـ لنبتعد عن مجالس أهل الخصومات، ونعرض عن سماع كلامهم، إلّا ما طرق أسماعنا مكرهين، ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ... مِّن شَىْءٍ﴾.

٤ ـ مضافاً إلى تقواه هو، يجب أن يحثّ المسلم غيرَه أيضاً على التزام التقوى، ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

❑ تدعو الآية الكريمة إلى ترك المنحرفين، ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ﴾، من خلال إبراز المقت والنفور تجاههم، وقطع أيّ صلة بهم، وربّما إلى حدّ النزاع والقتال معهم أحياناً، لا أن يكون المعنى هو ترك جهادهم فقط، كما قد يُفهم للوهلة الأولى.

□ ﴿تُبْسَلَ﴾ أن ترتهن، وتُحرم الثواب ،وتُسلّم للهلكة.

□ موضوع اتّخاذ الدين ملعبة يتقمّص في كلّ عصر ثوباً جديداً، فتارةً يكون في ثوب الإيمان بالمعتقدات الخرافية، وتارةً أخرى بالإيحاء بعدم إمكان تطبيق الأحكام، وثالثة بتبرير الأخطاء والمعاصي، ورابعة بالبدعة والتفسير بالرأي واتّباع المتشابهات. . . إلخ.

التعاليم:

١ ـ الحميّة الدينيّة هي وسيلة لطرد المجدّفين ومقاطعة المناوئين للدين في المجتمع ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ...﴾. وقد ورد في هذا المعنى في آيات أخرى مثل ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[١]، ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾[٢]، و﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[٣].

٢ ـ الافتتان بالدنيا والتعلّق بحبائلها، مقدّمة لاتّخاذ الدين لعبا، ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا... وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

٣ ـ يمكن للتذكير والنصح أن يكون عامل نجاة من السخط والعذاب الإلٰهيّ، ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾.

٤ ـ في التذكير والإنذار يجب الاستعانة بالقرآن الكريم، ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾.

٥ ـ لا تغترّ بالدنيا فما من مجير للإنسان في يوم القيامة إلّا الله تعالى، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

٦ ـ السبب في المآسي التي يعانيها الإنسان هو نفسه وما كسبت يداه، ﴿بِمَا كَسَبَتْ... بِمَا كَسَبُوا۟... وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

---

(١) سورة السجدة: الآية ٣٠.

(٢) سورة الحجر: الآية ٣.

(٣) سورة النحل: الآية ١٢٧.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات:

- الآية ٧٢ تشير، من بين جميع التكاليف، إلى «الصلاة»، ومن بين جميع العقائد، إلى «المعاد»، الأمر الذي يعكس أهميّتهما الكبيرة.
- يستبطن التوحيد حالة الاستقرار والتركيز، فيما يعكس الشرك وتعدّد الآلهة حالة الاضطراب والحيرة، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1].

في التوحيد، الله تعالى واحد أحد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وفي الوقت نفسه سريع الرضا كما جاء في الدعاء «**يا سريع الرّضا**»[2]، بينما في الشرك تتعدّد الآلهة، مضافاً إلى أنّ لكلّ آلهة طلباتها ورغباتها المتنوّعة، وعدا ذلك، فإنّ إرضاءها جميعها أمرٌ جدّ عسير.

التعاليم:

١ ـ فلنوقظ الضمائر عبر استنطاقها وتوجيه الأسئلة، ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

٢ ـ الشرك أمر غير عقلاني، لأنّ الحافز على العبادة هو إمّا استجلاب منفعة أو دفع ضرر، والأصنام غير قادرة لا على هذا ولا على ذاك، ﴿لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.

٣ ـ يجب توظيف غريزة طلب المنفعة عند الناس في مجال الدعوة والإرشاد، ﴿لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.

٤ ـ الشرك نوع من الرجعية العقدية، ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣٩.

(٢) مصباح المتهجد و سلاح المتعبد، ج٢، ص ٨٥٠.

٥ ـ الشرك مدعاة للحيرة، ﴿حَيْرَانَ﴾.

٦ ـ يجب اتّخاذ موقف صريح إزاء الخلافات والثبات عليه، ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ... قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

٧ ـ التسليم لله تعالى هو عامل رشدنا وكمالنا، ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٨ ـ الخير كلّ الخير في الصلاة المقرونة بالتقوى، ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾.

٩ ـ الإيمان بالمعاد والبعث يبعث التقوى في نفس الإنسان، ﴿وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٧٣)﴾

إشارات:

❑ يذكر القرآن الكريم حالتين من النفخ في الصور: الحالة الأولى هي للهلاك والفناء، والحالة الثانية نفخٌ لبعث الناس. هذه الآية الكريمة تشير إلى الحالة الأولى، وفي الآية ٦٨ من سورة الزمر جاء ذكر كلتا الحالتين: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

❑ تحدّثت الآيات السابقة عن التسليم لله تعالى وإقامة الصلاة، وهنا تبيّن الآية سبب ذلك، وهو أنّ نظام الخلق بيده وهو العليم الحكيم المطّلع على كلّ شيء.

❑ عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قال: «**الغيب ما لم يكن، والشهادة ما قد كان**»[1].

التعاليم:

١ ـ نظام الخلق ينطوي على هدف وحكمة، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لقد أشير، بطبيعة الحال،

(١) معاني الأخبار، ص ١٤٦.

إلى هذه النقطة في آيات عدّة منها: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾[١].

٢ ـ لا شيء يقف بوجه إرادة الله تعالى، ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

٣ ـ الغيب والشهود، السرّ والعلن، سيّان عند الله، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾.

٤ ـ أساس الحاكمية الإلٰهيّة يقوم على الحكمة والعلم، ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ... وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

٥ ـ في يوم القيامة سوف تتجلّى القدرة الإلٰهيّة للجميع؛ لأنّ الأدوات والأساليب ستفقد مفاعيلها في ذلك اليوم، ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

إشارات:

□ تطلق كلمة «أب» في العربيّة على الوالد غالباً، ولكنّها قد تطلق أيضاً على الجدّ من جهة الأمّ وعلى العم، ويعضد هذا الرأي إطلاق أبناء النبي يعقوب كلمة أب على آبائهم وعمّ أبيهم النبي إسماعيل عليه السلام: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾[٢]، وفي هذا المعنى يقول النبي الكريم صلى الله عليه وآله: «**أنا وعلي أبوَا هذه الأمّة**»[٣]. إذن، فإنّ آزر هو عمّ النبي إبراهيم عليه السلام وليس أباه، إذ إنّ آباء النبي إبراهيم عليه السلام كانوا جميعاً موحّدين.

ومن علماء أهل السنّة أيضاً مثل الطبري، والآلوسي، والسيوطي، من يقول بهذا الرأي وهو أنّ آزر لم يكن أبا إبراهيم. مضافاً إلى أنّ إبراهيم عليه السلام قد دعا لوالديه حسب ما جاء في القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ...﴾[٤]، في حين نحن نعلم أنّه لا يحقّ للمسلم أن يدعو للمشرك حتى وإن كانت تربطه به صلة قرابة.

---

(١) سورة ص: الآية ٢٧.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٣.
(٣) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٣٦٤.
(٤) سورة إبراهيم: الآية ٤١.

يتبيّن من كلّ ما تقدّم، أنّ كلمة «أب» الواردة في هذه الآية الكريمة لا تعني الوالد، وفوق كلّ هذا، فإنّ المشهور في كتب التاريخ أنّ اسم والد إبراهيم عليه السلام هو «تارُخ» وليس آزر[١].

□ ويجب أن نشير هنا إلى أنّ استغفار إبراهيم عليه السلام لعمّه آزر كان قبل أن تتجلّى بوضوح روح الكفر التي تسكنه، وأيضاً لجهة الوعد الذي قطعه له إبراهيم عليه السلام، لكنّه عندما أيقن بانصرافه عن قبول الحقّ، تبرّأ منه وفارقه، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[٢].

التعاليم:

١ ـ صلة القرابة لا تحول دون النهي عن المنكر، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ...﴾.

٢ ـ المعيار في التعامل هو الحقّ لا العمر، ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ لقد بيّن النبي إبراهيم عليه السلام الحقّ لعمّه آزر الذي يكبره سنّاً وأنذره بعواقب الأمور.

٣ ـ النهج الصحيح في الدعوة إلى الحقّ يقتضي البدء بالأقارب أوّلاً، ﴿لِأَبِيهِ﴾، وأن يتمّ طرح القضايا الرئيسة، ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾.

٤ ـ يعود تاريخ الشرك وعبادة الأصنام إلى ما قبل رسالة النبي إبراهيم عليه السلام، ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾.

٥ ـ عوامل الأغلبية، والسابقة، والعمر لا تستطيع تبديل الباطل إلى حقّ، وهي ليست قيمة في جميع الظروف، ﴿أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾.

٦ ـ عبادة الأصنام انحراف يثير انتقاد الضمائر الحيّة والعقول السليمة، ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا... ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٧ ـ عُرف النبي إبراهيم بالحلم وسعة الصدر، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[٣]، ولا بدّ للنبي من أن يكون ليّن العريكة حتى مع فرعون، غير أنّنا نلمس حِدّة

(١) تفسير الميزان.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٣) السورة نفسها: الآية ١١٤.

وغلظة في كلام إبراهيم مع عمّه، والسبب هو إصرار الأخير على كفره، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾

إشارات:

❑ حول كلمة «الملكوت» نقل هنا آراء بعض المشاهير هي:

«الملكوت» من **«ملك»**، وزيدت «الواو» و«التاء» للتوكيد والمبالغة في الصفة. والملكوت هو الحكومة المطلقة لله ﷻ على عالم الوجود برمّته، ومشاهدة الملكوت تعني مشاهدة الأشياء لجهة ارتباطها بالله تعالى، والنظرة الملكوتية تعني فهم وإدراك التوحيد في الوجود، وبطلان الشرك[١].

تقسّم عوالم الوجود إلى أربعة أقسام: اللّاهوت (عالم الألوهيّة الذي لا يحيط به سوى الله تعالى)، الجبروت (عالم المجرّدات)، الملكوت (عالم الأجسام)، والناسوت (عالم الكون والفساد والتغيّر والتحوّل)[٢].

فعالم الملكوت هو عالم الغيب المختصّ بالأرواح والنفوس والعجائب[٣].

وملكوت السموات هو عجائبها[٤].

والنبي إبراهيم عليه السلام بمشاهدته ملكوت السموات والأرض تعرّف عن كثب على سنّة الله في خلقه، وحكمته، وربوبيّته. عن أبي جعفر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: **«أعطى بصره من القوة ما بعد السموات والأرض فرأى السموات وما فيها، ورأى العرش وما فوقه، ورأى ما في الأرض وما تحتها»**[٥].

❑ الاستدلال المتقن والحوار العلمي مع الآخرين يتطلّب الإيمان القلبي، والنبي

---

(١) تفسير الميزان.

(٢) تفسير أطيب البيان.

(٣) المعجم الوسيط.

(٤) تفسير روح المعاني.

(٥) تفسير نور الثقلين.

إبراهيم ﷺ بعدما حصل له اليقين ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ دخل مرحلة الاستدلال وهو ما ستتحدّث عنه الآيات اللّاحقة[1].

- حرف «الواو» في عبارة ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ يشير إلى أنّ المشاهدة الملكوتية كانت تتضمّن أهدافاً، أحدها بلوغ النبي إبراهيم مرحلة اليقين.

التعاليم:

١ ـ من عرف الحقّ ولبّى دعوته دون أن يخشى شيئاً، فقد ألهمه الله تعالى مشاهدة ملكوتية، كما النبي إبراهيم ﷺ، بحسب ما تقرّره الآية السابقة ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ...﴾، نعم، بمقدور شاب يافع أن يبلغ مرحلة المشاهدة الملكوتية من خلال الكمال المعنوي؛ لأنّه، وطبقاً لتفاسير عدّة، فإنّ إبراهيم في تلك الفترة كان فتى ناشئاً لم يصل مرحلة الشباب بعد.

٢ ـ اليقين أعلى مراتب الإيمان، ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

٣ ـ بلوغ مرحلة اليقين يحتاج إلى مدد إلهي، ﴿نُرِىٓ... ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

إشارات:

- في عصر النبي إبراهيم ﷺ كانت عبادة الكواكب والنجوم هي الرائجة، إذ كان القوم يعتقدون أنّ للنجوم تأثيراً في تدبير الكون.
- **سؤال:** هل يمكن لنبي عظيم كالنبي إبراهيم ﷺ أن يعبد ولو للحظة واحدة النجوم، أو القمر، أو الشمس؟

الجواب: إنّ المحادثة التي جرت بين النبي إبراهيم ﷺ وبين مشركي عصره كانت من باب مجاراتهم وإبداء المرونة في النقاش معهم وصولاً إلى تفنيد عقيدتهم، ولم يكن إبراهيم أبداً مؤمناً إيماناً قلبياً بآلهتهم، ذلك لأنّ الشرك يتعارض تماماً مع العصمة. إنّ قوله كلمة ﴿يَٰقَوْمِ﴾ في الآية التي تلي الآية اللّاحقة، هي علامة

(١) تفسير الميزان.

للمجاراة في قول ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ولهذا السبب عند غروب القمر أو الشمس يقول: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[1] ولا يقول: «بريء ممّا أشرك».

علاوة على أنّ ذلك حدث بعد إراءة الله تعالى ملكوت السموات والأرض لإبراهيم كما حدّثتنا عنه الآية السابقة وأنّه (أي إبراهيم) قد بلغ مرحلة اليقين، إذ إنّ شروع الآية كان بالحرف «فاء» ومعنى ذلك أنّ نتيجة ذلك الملكوت واليقين هو هذا النوع من الاستدلال.

- الشيء الذي له شروق وغروب يكون محكوماً بالقوانين لا حاكماً عليها. فالنبي إبراهيم عليه السلام يتظاهر في البداية بقبول تلك الكواكب، ومن ثمّ يقوم بتفنيدها بالاستدلال.

التعاليم:

١ ـ أحد أساليب المناظرة والحجاج مجاراة الخصم والتظاهر بقبول عقيدته الباطلة، ومن ثمّ تفنيدها، ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾.

٢ ـ ومن أساليب الدعوة إيقاظ الفطرة، وتفعيل الأفكار، والاهتمام بالمشاعر، ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾.

٣ ـ المحبوب الحقيقي هو الذي لا يحدّه مكان أو زمان ولا يكون عابراً زائلاً، ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾.

٤ ـ يجب أن يكون المعبود هو المحبوب، وعبادته بدافع الحب، وروح الدين هو الحبّ، ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾

إشارات:

- «بازغ» من «بزغ»، وبزغه: شقّه وأسال دمه، وإطلاق هذه الكلمة على طلوع

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٧.

الشمس أو القمر إنّما هو تعبير بليغ يحمل أجمل صور التشبيه، وكأنّ الشمس بطلوعها تشقّ ستار الظلام، وتسكب عند الأفق احمرار الشفق الذي ليس ببعيد الشبه عن الدم المسفوح[١].

- لقد تصدّى النبي إبراهيم عليه السلام لعبدة النجوم كما تصدّى لعبدة القمر والشمس سواء بسواء[٢]. ويرى كثير من المفسّرين أنّ المحاججة بين إبراهيم عليه السلام وبين المشركين كانت قد حصلت في مدينة بابل.

- حينما يصل الإنسان برأيه إلى طريق مسدود فلا بدّ له أن يراجع نفسه ويقوم بتعديل رأيه بعيداً عن أيّ تعصّب أو عناد. وليس الرجل، كما يقال، من تشبّث برأيه وأقام عليه، بل هو، كما توضّح لنا هذه الآية، من ثبت على الحقّ، حتى وإن اضطرّه ذلك إلى تغيير موقفه.

التعاليم:

١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ما تقدم تحت الأرقام ١ و٢ و٣ في الآية السابقة يصدق هنا أيضاً.

٤ ـ النقد يجب أن يتمّ بأسلوب الخطوة خطوة، لاحظ في الآية السابقة وردت عبارة ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ في حين خطت هذه الآية خطوة أبعد بقولها إنّ عبادة القمر انحراف وضلال.

٥ ـ في دروب المعرفة، لا بدّ من الاتكاء على فيض الهداية الإلٰهيّة، وما لم نفعل ذلك فلن نصل إلى ينابيع المعارف الصافية[٣] ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾.

٦ ـ حتى الأنبياء بحاجة إلى الهداية الإلٰهيّة، ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾.

٧ ـ الهداية شأن من شؤون الربوبيّة، ﴿يَهْدِنِى رَبِّى﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) تفسير الميزان.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾

إشارات:

◻ في هذه الآية أيضاً يواصل النبي إبراهيم عليه السلام حجاجه مع خصومه من المشركين، لا من باب تبيين معتقده الشخصي، بدليل أنّه استخدم كلمتي ﴿يَٰقَوْمِ﴾ و﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي أنّه لا يؤمن بعبادة القمر والشمس كما تمّ الكلام عنه سابقاً[1].

التعاليم:

١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ما تقدم تحت الأرقام ١ و٢ و٣ في الآية ٧٦ يصدق هنا أيضاً.

٤ ـ ليست المسألة صِغر الأجسام أو عظمها، ولكن كونها متغيّرة وحادثة فهي لا تصلح أن تكون إلهاً، ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾.

٥ ـ طريقة الانتصار للحقّ أو انتقاد الباطل يجب أن تكون تدريجية وبأسلوب الخطوة خطوة، ففي البداية كان رفض الكواكب ثم القمر فالشمس، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ... قَالَ﴾.

٦ ـ البراءة من الشرك هي «صرخة إبراهيمية»، ﴿بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

٧ ـ البراءة من «الشرك» لا «الأشخاص»، ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، ولم يقل: «منكم».

٨ ـ البراءة يجب أن تأتي بعد طرح الدلائل والبراهين. في البداية، طُرح موضوع الأفول والغروب، ومن ثمّ البراءة من المشركين، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ...﴾.

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

إشارات:

◻ العبور فوق الأفول والحدوث والوصول إلى الثبات هو مظهر من المشاهدة

---

(١) تفسير أطيب البيان.

الملكوتية التي أنعم بها الله تبارك وتعالى على نبيّه إبراهيم عليه السلام.

- «حَنيف» من «حنف،» بمعنى الخالص وغير المنحرف، والميل من الضلال إلى الاستقامة والحقّ.
- ﴿فَطَرَ﴾ أصل الفطر هو الشقّ طولاً، وفطر الله الخلق، وهو إيجاد الشيء وإبداعه، ولعلّ إطلاق هذه الكلمة على خلق السموات والأرض ناشئ من كون العالم كان في اليوم الأول كتلة واحدة حسبما يقول العلم المعاصر ثمّ تشقّقت وظهرت الكرات والأجرام السماوية الواحدة تلو الأخرى(١).

التعاليم:

١ ـ بمجرّد أن ينبلج صبح الحقّ، ينبغي لنا أن نعلن عن موقفنا بحزم غير آبهين بالوحدة والعزلة، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ﴾.

٢ ـ من يتجاوز عبادة الأصنام المادّية المحدودة الفانية يصل إلى المعبود الروحي اللامتناهي والسرمدي، ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

٣ ـ حذار من الاستغراق في المظاهر، لأنّها عاجلاً أم آجلاً ستفقد بريقها، وليكن توجّهنا إلى الله فهو خالق المظاهر، ﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

٤ ـ بمقدور الإنسان أن يرتقي عالياً ليحطّم المعتقدات الباطلة لجميع العصور والأجيال، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٥ ـ التوحيد الأصيل مقرون بالبراءة من الشرك، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)﴾

التعاليم:

١ ـ يحمل أهل الباطل تعصّباً ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾، لقد بلغت الوقاحة بالقوم

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

المنحرفين درجة أصبحوا يتباهون بشركهم ويدافعون عنه بدلاً من أن يخجلوا منه.

٢ ـ تعصّب أهل الباطل ووقاحتهم تثير الدهشة والعجب، ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ الموحّد بالله لن يخشى مواجهة الجماعة حتى لو كان وحيداً في هذه المواجهة، ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ... وَلَآ أَخَافُ﴾.

٤ ـ الإنسان يسعى وراء الحقّ، بيد أنّ الهداية من الله تعالى، ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾، حتى الأنبياء بحاجة إلى الهداية.

٥ ـ ماذا يخشى الذي يستظلّ بالهداية الإلٰهيّة، ﴿هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ﴾؟

٦ ـ من علائم التوحيد عدم الخشية إلّا من الله، ﴿وَلَآ أَخَافُ﴾، لقد هدّد المشركون النبي إبراهيم عليه السلام بالانتقام.

٧ ـ من بقايا الشرك، الخوف والاعتقاد بأذى الأصنام والطواغيت، ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ الخوف من الأصنام مدعاة للتشبّث بعبادتها والتعصّب لها.

٨ ـ تأثير كلّ ظاهرة ودورها يعتمد على الإرادة الإلٰهيّة، ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي﴾.

٩ ـ الربوبيّة تليق بمن أحاط بكلّ شيء علماً، ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ﴾.

١٠ ـ الحقيقة أمرٌ فطري ووجداني، ومعرفتها لا تحتاج سوى التذكير، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

إشارات:

- «السلطان»، بمعنى الدليل والحجّة والبرهان.
- بخلاف أولئك الذين يعتقدون أنّ الخوف هو الباعث على الإيمان بالله، تقول الآية الكريمة: إنّ الخوف هو الباعث على الشرك.

التعاليم:

١ ـ لا تخشوا التهديدات الوهمية، ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾.

٢ ـ الاستقرار النفسي يتحقّق في ظلّ التوحيد، ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾.

٣ ـ يجب أن تستند المعتقدات الدينيّة إلى الدلائل والبراهين، ﴿وَكَيْفَ ... أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾.

٤ ـ في النقاشات والمناظرات يجب عدم إثارة النعرات والعصبية لدى الناس. لاحظ أنّ الآية تقول: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ ولم تقل: «إنّا في أمنٍ وأنتم في خطر».

٥ ـ العلم المفيد سلّم للارتقاء إلى الله تعالى، إذا ما قمنا بتوظيفه على النحو السليم، فسوف نحقّق نتائج سليمة، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

- تناولت الآيات السابقة موضوع التوحيد والشرك، وهاتان الآيتان بمثابة خلاصة لما ورد في الآيات السابقة. وقد ورد عن النبي ﷺ أن الظلم في هذه الآية هو الشرك[١].

- وفي بعض الروايات: إنّ المراد بالظلم هو الشك[٢]. أحياناً يكون هذا الشك، بطبيعة الحال، لا إرادياً ومقدّمة للبحث والتأمّل، بينما يحمل في أحيانٍ أخرى طابع التشكيك والتبرير، وهذا النوع لا يعدو كونه ظلماً[٣].

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٢، ص ٣٩٩.

(٣) تفسير راهنما (التفسير المرشد).

□ يقول الإمام الباقر عليه السلام في هذه الآية الكريمة: **«هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأهل بيته لأنّهم لم يشركوا بالله طرفة عينٍ قط»**[1].

□ **«اللبس»** هو ستر الشيء وتغطيته، لذا فالمعنى هو أنّ الإيمان فطري، وهو لا يفنى بل تغطّيه غبار العقائد المنحرفة.

التعاليم:

١ ـ آفة الإيمان الظلم والشرك والانقياد وراء القادة غير الإلٰهيّين، ﴿ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾.

٢ ـ الإيمان وحده غير كافٍ، بل يلزمه الديمومة والاستمرار، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾.

٣ ـ الأمن والهداية الحقيقيّة تتحقّق في ظلّ الإيمان ونبذ الشرك، ﴿ءَامَنُوا۟... لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

٤ ـ ما لم يكن الإيمان خالصاً من كلّ شائبة، لا تأمن النفس الخوف والاضطراب، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟... بِظُلْمٍ... لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾.

٥ ـ العلم والحكمة شرطان لازمان للتدبير والإدارة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ إذا ما علمنا أنّ كلمة «رب» تعني المدير أو المعلّم.

٦ ـ الموحّد الذي يتصدّى لانحرافات المجتمع بالدلائل والبراهين، له حظوة ودرجات، ﴿دَرَجَٰتٍ﴾.

٧ ـ الدرجات الإلٰهيّة تمنح للأشخاص بحكمة ودراية، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ. . . حَكِيمٌ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

إشارات:

□ وردت في هذه الآية والآيتين اللّاحقتين أسماء ١٧ نبيّاً.

(١) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٣٦٧.

□ في متعلّق الضمير في ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ رأيان: الأوّل هو أنّه يعود على النبي إبراهيم ﷺ، لأنّ الحديث في الآيات السابقة كان بشأنه، وأغلب الأسماء المذكورة هي من ذرّيّته ونسله، علاوة على أنّ الروايات تعضد هذا الرأي. الرأي الثاني هو أنّ الضمير يعود على النبي نوح ﷺ لقربه منه، مضافاً إلى أنّ من ذرّيّته بعض الأنبياء مثل لوط.

التعاليم:

١ ـ الذرّيّة الصالحة هي عطيّة إلٰهيّة، ﴿وَوَهَبْنَا... نَجْزِى﴾.

٢ ـ ما برحت سنّتا الهداية والبعث جاريتين، ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾.

٣ ـ الألطاف الإلٰهيّة لا تُغدق بغير حساب، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

إشارات:

□ اعتقد بعض أنّ كلمة الذرّيّة تطلق على الأحفاد من الابن، فيما نجد الآية الكريمة اعتبرت النبي عيسى ﷺ من ذرّيّة إبراهيم ﷺ، فهو ينتسب له من ناحية والدته السيدة مريم، لأنّه ليس له أب. وقد استند الإمامان الصادق والكاظم ﷺ إلى هذه الآية ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ... وَعِيسَىٰ﴾ في البرهنة على أنّ أهل البيت ﷺ هم ذرّيّة وأبناء رسول الله ﷺ عن طريق الأم[1]. وقد اعترف الفخر الرازي أيضاً بهذه النقطة في تفسيره. كما ينقل صاحب «تفسير المنار» حديثاً من صحيح البخاري أنّ رسول الله ﷺ استخدم كلمة «ابن» للتعبير عن الإمام الحسن ﷺ في حديثه الشهير: «**إنّ ابني هذا سيّد**».

---

(١) تفسير نور الثقلين.

□ أراد بعضٌ الاستناد إلى الحرف «من» في ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ﴾ لإثبات أنّ آباء بعض الأنبياء يمكن أن يكونوا من الضالّين، ولكن ما يُستشفّ من الآيات يشير إلى أنّ المقصود هو اجتباء أو اصطفاء أولئك الآباء لمقامَ النبوة وحمل الرسالة، وبالتالي فإنّ الاعتراض مرفوض لأنّ الحديث لا يدور عن إيمانهم أو كفرهم[1].

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الهداية الإلٰهيّة هي الهداية الحقيقيّة، ولا تعدو سائر الهدايات كونها سراباً، ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ الهداية بيد الله تعالى، وحتى الأنبياء لا يملكون لأنفسهم الهداية، ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٣ ـ الشرك يمحو الأعمال ويبطلها، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ...﴾.

٤ ـ في السنن الإلٰهيّة، لا مكان للتمييز، فحتى الأنبياء يُعاقبون في حال أشركوا، لأنّ الحقّ هو المحور والأساس، وليس الأشخاص. (نظراً إلى أنّ الآيات السابقة تتعلّق بالأنبياء)، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾.

٥ ـ الأنبياء معصومون ولا يمكن أن يتلوّثوا بغبار الشرك أبداً، وافتراض شرك الأنبياء في الآية هو من قبيل الفرض المحال بقرينة الأداة ﴿لَوْ﴾.

٦ ـ بحسب الرؤية الكونية الإلٰهيّة فإنّ قيمة الأعمال هي في إخلاص النيّات، فإذا انعدم هذا الإخلاص، فلن يبقى شيء البتة، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «**الحُكم**»، تأتي بمعنى الحكومة والإمساك بزمام الإدارة، أو بمعنى

(١) الأمثل في تفسير الكتاب الله المنزل.

القضاء، ولها معنى ثالث هو العقل والإدراك. ذكر الراغب في **«مفرداته»** أنّ المعنى الأصلي لها هو المنع وذلك أنّ العقل السليم يمنع من وقوع الأخطاء والمخالفات، وكذا القضاء الصحيح يمنع من وقوع الظلم، وأيضاً الحكومة العادلة تقف بوجه الحكومات غير العادلة، إذن، الكلمة قد استخدمت في المعاني الثلاثة.

- جاء في **«تفسير المنار»** و**«تفسير روح المعاني»** عن بعض المفسّرين أنّ المقصود بالقوم الذين يؤمنون بالحقّ ولا يكفرون به هم الفرس[١].
- عن الإمام الصادق عليه السلام: **«إنّ صاحب هذا الأمر محفوظةٌ له أصحابه، لو ذهب الناس جميعاً أتى الله له بأصحابه، وهم الذين قال الله عزّ وجلّ:** ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾**»**[٢].

التعاليم:

١ ـ يملك الأنبياء حقّ الحكم والقضاء، ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾.

٢ ـ الإحسان والعمل الصالح والاهتداء إلى الطريق المستقيم كلّها من خصال الأنبياء، ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ... كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ... وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ... ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٣ ـ لكلّ دين أنصار وأعداء، وفي كلا المعسكرين يوجد المنحرفون ويوجد المهتدون. فتارةً تجد المهتدي ينحرف، وأخرى المنحرف يهتدي، وإذا بالمسلم يصبح مرتدًا، والكافر يدخل في الإسلام، ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾.

٤ ـ لن يخلو دين الحقّ من المناصرين حتى مع ارتداد ثلّة قليلة، فإذا كان الإنسان على طريق الحقّ، فلا ينبغي له أن يتأثّر بكثرة المناصرين أو قلّتهم، ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
(٢) النعماني، الغيبة، ص ٣١٦.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾

إشارات:

- الهاء في «اقتدِه»، ليست ضميراً، بل هي هاء السكت لبيان الحركة في الوقف.
- يجب تخليد ذكرى أولياء الله، وأسمائهم، وطريقهم، ولا ينبغي للمبتدعات الجديدة أن تنسخ القيم الأصيلة، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾.

التعاليم:

١ ـ الاهتداء بهدي الأنبياء، هو اقتداء بالهدي الإلٰهيّ، ﴿هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾.

٢ ـ قيمة الإنسان في نهجه الفكري وسيرته العملية، (الآية تقول: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾، ولم تقل: «بهم اقتَدِه»).

٣ ـ نسخ الأديان السابقة لا يعني بطلان مبادئها وأصولها العامة، فالنهج العام للأنبياء يجب أن يستمرّ ويتواصل، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾.

٤ ـ مهما تألّق الإنسان في حياته لا بدّ له من الاقتداء بكمال خصال السلف، وخُلُقهم الرفيع، ونهجهم الأصيل، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾.

٥ ـ أهداف جميع الأنبياء واحدة، وإلّا كيف يمكن الاقتداء بأنبياء لهم أهداف مختلفة، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾؟

٦ ـ الهداية هي ثمرة الاقتداء، ﴿هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾.

٧ ـ لا ينبغي للداعية أن ينزع إلى زخارف الدنيا أو يُتّهم بذلك، ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾.

٨ ـ من جملة الشواخص التي تميّز الأنبياء عن غيرهم من الأدعياء أنّ هدف الأنبياء لا يندرج في الماديّات، ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾.

٩ ـ الأنبياء هم ذكرى للمتناسين والغافلين، ﴿ذِكۡرَىٰ﴾.

١٠ ـ الإسلام دين عالمي، ﴿ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

إشارات:

- روي أنّ جماعة من اليهود على الرغم من إيمانهم بموسى عليه السلام إلّا أنّهم وبسبب عنادهم ولجاجهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا محمد أحقّاً أنزل الله عليك كتاباً؟ فقال: «نعم» فقالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً على نبيّ. فنزلت الآية الكريمة لتفنّد مزاعمهم وتقول لهم إنّ كلامهم يتناقض مع عقائدهم، فإذا كان الله لم ينزل الوحي على أحد، فمن أوحى التوراة التي تؤمنون بها[1]؟

التعاليم:

١ ـ إرسال الأنبياء والكتب السماوية هو من ألطاف الله على عباده، ومن ينكر ذلك فهو، في الحقيقة، ينكر الرحمة والحكمة الإلٰهيّة، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ...﴾.

٢ ـ يجب الردّ على الشبهات المثارة، ﴿قَالُواْ... قُلْ﴾.

٣ ـ التوراة الأصلية كانت نوراً وهداية، ﴿نُورًا وَهُدًى﴾.

٤ ـ التوراة الأصلية كانت تتضمّن بعض الأشياء؛ لكن أحبار اليهود قاموا بإخفائها، ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ﴾.

٥ ـ يجب على الدعاة الدينيين تبيين معارف الدين وحقائقه للناس دون اعتبار لأيّ مصالح شخصيّة، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ... وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ﴾.

٦ ـ من دون الوحي يبقى الإنسان بعيداً عن كثير من المعارف، ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾.

٧ ـ مسؤولية الأنبياء هي الإبلاغ لا الإكراه، ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾.

٨ ـ يجب أن يكون الحجاج على قدر الحاجة وليس أكثر. هذه الآية بمثابة نوع من الحجاج تقول ما داموا لا يقبلون بالبراهين فـ ﴿ذَرْهُمْ﴾.

---

(١) تفسير نمونه، ج٥، ص ٣٣٧.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

إشارات:

□ في هذه الآية وردت كلمة «لتنذر» معطوفة بواو العطف، ولعلّها تشير إلى أنّ القرآن الكريم، مضافاً إلى الإنذار، له أهداف أخرى.

التعاليم:

١ ـ القرآن يحتوي على جميع البركات من قبيل الهداية، والعبرة، والشفاء، والرشد، والعزّة، ﴿مُبَارَكٌ﴾.

٢ ـ القرآن الكريم مكمّل للكتب السماوية الأخرى، ومصدّق لها، وفي ذلك دلالة على وحدة الهدف وأنّها نابعة من مصدر إلهي واحد، ﴿مُّصَدِّقُ﴾.

٣ ـ الشروع بالدعوة يجب أن يكون من أمّ القرى والمدن المهمّة، ومن ثمّ يمتدّ إلى الضواحي والأطراف، ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

٤ ـ الإيمان بالقرآن الكريم والإيمان بيوم القيامة جنباً إلى جنب، ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٥ ـ الصلاة أجلى مظاهر الإيمان، ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

٦ ـ الإيمان بالآخرة من عوامل المحافظة على الصلاة، ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ... عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

إشارات:

□ ورد في سبب نزول هذه الآية: أنّ شخصاً يدعى عبد الله بن سعد بن أبي سرح

كان يكتب للنبي ﷺ الوحي، ولمّا خان طرده رسول الله فراح يزعم أنّه قادر على قول مثل آيات القرآن. ويقول جمع آخر من المفسّرين: إنّ الآية أو قسماً منها نزلت بحقّ مسيلمة الكذّاب الذي ادّعى النبوّة. ولكن نظراً إلى أنّ مسيلمة ظهر في أواخر حياة الرسول الكريم ﷺ وإلى كون هذه السورة مكيّة ادّعى مؤيّدو هذا التفسير: أنّ هذه الآية نزلت في المدينة ثمّ أُدخلت ضمن هذه السورة بأمرٍ من رسول الله[1] ﷺ.

- «الغمرات» جمع «غمرة»، بمعنى الشدائد والصعاب التي تعصف بالإنسان أثناء الاحتضار فتغمره غمراً.
- من أدعياء النبوة في ذلك العصر: مسيلمة في اليمن، والأسود العنسيفي كذلك في اليمن، وطليحة الأسدي في بني أسد[2].
- عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾: **«العطش يوم القيامة»**[3].
- وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال في الآية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ **«من ادّعى الإمامة دون الإمام عليه السلام»**[4].

التعاليم:

١ ـ الافتراء على الله تعالى ظلم ثقافي، وادّعاء الزعامة من قبل المنحرفين أعظم الظلم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ... أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾.

٢ ـ عدوّ الحقّ إمّا أنّه يُنزل من شأن الحقّ، أو يُعلي من شأنه هو. في البداية يقول إنّ القرآن أساطير، فإذا لم ينجح في مسعاه، يقول أنا أيضاً بإمكاني أن آتي بمثل هذا القرآن، ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾. وفي موضع آخر نقرأ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾[5].

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤، ص٥١٨.

(٢) تفسير المراغي.

(٣) تفسير نور الثقلين.

(٤) تفسير العياشي.

(٥) سورة الأنفال: الآية ٣١.

٣ ـ سكرة الموت شديدة على أدعياء المناصب الدينيّة من المنحرفين والأفّاقين، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٤ ـ العذاب الأخروي يبدأ من لحظة الموت إذ يقال للكافرين: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، وهو نوع من الاحتقار والزجر.

٥ ـ روح الإنسان مجرّدة من الجسم ومستقلّة عنه، ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾.

٦ ـ عقوبة الإساءة إلى الوحي والدين عذاب مهين، ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

إشارات:

□ هذا الخطاب موجّه إلى المشركين لحظة الاحتضار أو في يوم القيامة.

□ «خولنا» من «**الخَوَل**»، بمعنى إعطاء ما يحتاج إلى التعهّد والتدبير والإدارة وهو النعم التي يسبغها الله تعالى على عباده، «**خوّلناكم**» أي ملّكناكم وأعطيناكم.

التعاليم:

١ ـ يوم القيامة سيكون الإنسان وحيداً، ﴿جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾.

٢ ـ المعاد سيكون جسمانياً، ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٣ ـ كان المشركون يستقوون بأربعة أشياء هي القبيلة والعشيرة، والأموال والثروات التي جمعوها، والسادة والكبراء الذين كانوا يستندون إليهم، والأصنام التي كانوا يعبدونها. هذه الآية تبيّن بطلان هذه الأشياء وعدم فائدتها.

﴿فُرَٰدَىٰ﴾ بلا عشيرة أو قبيلة.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ بلا مال ولا ثروة.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ بلا ناصر ولا صاحب.

﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ فناء جميع القوى الوهمية.

٤ ـ الظنون الواهية هي السبب وراء كثير من الضلالات، ﴿شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾.

٥ ـ في يوم القيامة، سوف تمحى الحقائق الظاهرية والسرابية، ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

إشارات:

- ﴿فَالِقُ﴾ من «**فلق**» وتعني شقّ الشيء وإبانة بعضه عن بعض. ﴿ٱلْحَبِّ﴾ و«**الحبة**»، تقال لأنواع الحبوب الغذائية كالقمح والشعير ونحوهما. «**النوى**» هي النواة.
- يخلق الله الحيوان الحيّ من العلف الذي لا حياة فيه ومن الحيوان الحيّ يخلق اللبن الذي لا حياة فيه، ومن النواة الميّتة يخرج الشجرة الحيّة، ومن الشجرة الكبيرة يخرج النواة الميّتة.
- من الأمثلة على هذه الآية كما ورد في الروايات أنّه أحياناً يخرج الكافر من المؤمن، ويُخرج المؤمن من الكافر[1]، ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

التعاليم:

١ ـ زرع الحبّ والنوى هو عمل الإنسان، ولكن فلقها وإنباتها هو عمل الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾.

(١) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٢، ص ٥.

٢ ـ التدبّر في الظواهر الطبيعية هو من أفضل طرق معرفة الله تعالى، ﴿فَالِقُ الْحَبِّ... وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ... ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾.

٣ ـ رزق الإنسان يأتي عن طريق هذا الحبّ والنوى الذي ينبته الله تعالى، إذن، من نتبع، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

إشارات:

- «**الإصباح**» تعني الصبح، وكذلك تعني انزياح الليل وانبلاج الفجر، ولكنّه هنا يتحدّث عن «**طلوع الصبح**».
- طرحت الآية السابقة ثلاث علائم على قدرة الله تعالى على الأرض، وتنقل هذه الآية بعض العلائم عن قدرته سبحانه وتعالى في السماوات. فتعاقب الليل والنهار آيتان للقدرة الإلٰهيّة، إذ يتمّ ذلك من خلال الحركة المنتظمة للشمس والقمر.
- جعل الليل سكناً، حيث ذمّ العمل والكسب والسفر في الليل[1]، (لمّا كانت الآية الكريمة تعتبر الليل عامل سكون واستقرار، فلا شك أنّها، في المقابل، تعتبر الصبح مخصّصاً للعمل والكسب).
- يقول الإمام الرضا عليه السلام: «**تزوّج بالليل فإنّه جعل الليل سكناً**»[2].

التعاليم:

١ ـ تعاقب الليل والنهار يحتاج إلى إله قادر وعليم يستطيع أن يقوم بذلك بإتقان ونظام دقيق، ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ... تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

٢ ـ الشمس والقمر وسيلة للنظام، والحساب، والتخطيط[3]، ﴿حُسْبَانًا﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين. (٢) المصدر نفسه.

(٣) ربّما أمكن الاستنتاج من جعل الشمس والقمر وسيلة للحساب، صحّة التقويمين الشمسي والقمري معاً.

٣ ـ النظام الدقيق والتطبيق الكامل يحتاج إلى علم وقدرة، ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

٤ ـ التدبّر في النظام المتقن والدقيق للكواكب السماوية هو الطريق إلى معرفة الله تعالى، ﴿۞ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

إشارات:

- علم الهيئة من أقدم العلوم التي عرفتها البشرية، عندما كان الإنسان في غابر العصور يستعين بالنجوم في أسفاره عبر الصحراء وفي عباب البحار. هذه الطريقة بمثابة وسيلة دقيقة، ودائمية، ومبتكرة، وطبيعية، وعامة، ولا تنطوي على أيّة تكاليف.
- للإسلام اهتمام خاص بالظواهر الطبيعية. وقد سمّيت بعض سور القرآن على أسماء بعض الأشياء الطبيعية. العبادات الإسلاميّة كذلك مرتبطة بالأمور الطبيعية مثل: قياس الوقت، معرفة اتجاه القبلة، الخسوف والكسوف، وصلاة الآيات، استهلال الشهور والهلال. كلّ هذه الظواهر الطبيعية دفعت بالمسلمين إلى الولوج في علم الهيئة واستحداث المراصد الفلكية في بغداد، ودمشق، والقاهرة، ومراغة، والأندلس، وتدوين العديد من الكتب الخاصة في هذا المجال.
- لقد وضع الله تعالى للبشرية دليلاً يهديها في أسفارها عبر البحار والصحارى والتي نادراً ما تحدث في حياة الإنسان، والآن، هل يمكن القول بعد كلّ هذا إنّه لا يوجد دليل لحركة الإنسان الدائمية يضمن عدم ضلاله وانحرافه عن مسير الحق؟ يتبيّن لنا ممّا تقدّم ضرورة وأهميّة الرسالة والإمامة من أجل هداية البشرية.
- المراد بالنجوم الهادية في الأحاديث القادة المعصومون وأولياء الله تعالى[1].

---

(١) تفسير كنز الدقائق.

التعاليم:

١ ـ النجوم صنائع الله تعالى ووسيلة للاهتداء في الأسفار، وهي ليست خالقة ومدبّرة كما اعتقد بعض، ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا﴾.

٢ ـ منظومة النجوم في السماء دقيقة للغاية لدرجة أنّه يمكن اكتشاف طرق الأرض بواسطتها، ﴿لِتَهۡتَدُواْ بِهَا﴾.

٣ ـ إنّ مجرّد معرفة الوزن، والحجم، ومقدار المسافة، وسرعة الحركة، ومدار الكواكب، أو لنقل بشكل عام معرفة علم النجوم، لا تقود الإنسان إلى الله تعالى، بل ينبغي توافر الإرادة في الإنسان وأن يسعى هو إلى معرفة الله تعالى عن هذا الطريق، ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

إذن، مجرّد النظر إلى المرآة لا يكفي لحلق شعر الرأس والوجه، بل لا بدّ من توافر الإرادة والرغبة والعمل من أجل الحلق. فما أكثر بائعي المرايا الذين لا يملّون من النظر إليها، لكنّهم لم يكلّفوا أنفسهم ولو مرّة واحدة بتجميل صورتهم وترتيبها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾

إشارات:

- تحمل كلمة **«أنشأ»** في الآية الكريمة مفهومين هما: ١ ـ الإبداع، ٢ ـ التربية المتواصلة.
- يلاحظ المرء أنّ خلق الإنسان ينطوي على عنصر الإبداع والابتكار، إلى جانب التربية المستمرة والمتواصلة، ومن الواضح أنّ الخلق التقليدي للشيء أو خلقه ثمّ إهماله لا ينطوي على قيمة أو أهميّة تذكر.
- كثر الكلام عند المفسّرين حول معنى مستقرّ ومستودع، وممّا طُرح في هذا المجال: أنّكم تملكون روحاً مستقرّة وجسماً مستودعاً غير مستقرّ، أو تملكون إيماناً مستقرّاً أو غير مستقرّ، أو أنّكم تُخلقون من حيمن الذكر المتحرّك غير المستقرّ ومن بويضة المرأة المستقرّة في الرحم، أو مستقرّ في الأرض ومودع

في القبر حتى يوم القيامة، أو أنّ النعم أحياناً تكون مستقرّة وأحياناً أخرى وديعة.

□ نقرأ في تهذيب الأحكام في الدعاء بعد صلوة الغدير المسند إلى الصادق عليه السلام:
«اللهمّ إنّي أسألك بالحقّ الذي جعلته عندهم وبالذي فضّلتهم على العالمين جميعاً، أن تبارك لنا في يومنا هذا الذي أكرمتنا فيه، وأن تتمّ علينا نعمتك، وتجعله عندنا مستقراً، ولا تسلبنا أبداً، ولا تجعله مستودعاً فإنّك قلت: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فاجعله مستقراً ولا تجعله مستودعاً»[1].

التعاليم:

١ ـ البشرية ترجع إلى أصل واحد، فلم إذن كلّ هذه الصراعات ونزعة السيطرة والتفوّق والتميّز، ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؟

٢ ـ إنّ كلّ هذا التباين والإبداع في خلق البشر والذي جاء من نفس واحدة، لدليل على عظمة الله سبحانه وتعالى، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

٣ ـ ليست كلّ النعم والإمكانات دائمة، فلنغنم وجودها ونوظّفها أقصى توظيف، ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

٤ ـ ما لم يكن الإنسان أهلاً للفهم والمعرفة، فلن ينال حظّاً منها، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

إشارات:

□ ذكرت الآية السابقة أنّ جميع البشر خُلقوا من نفسٍ واحدة، وما يشبه هذا

(١) تفسير نور الثقلين.

الكلام تقوله هذه الآية وهو أنّ كلّ ما في الأرض من نباتات، وأشجار، وفواكه، يعود إلى أصل واحد وهو ماء المطر.

□ «متراكب» مشتقّة من «ركوب»، أي تركب الفاكهة بعضها على بعض والحبّ متراصفاً ومنظّماً.

«الطلع» هو عذق التمر قبل أن ينشقّ عن الإغريض (غلافه الأخضر)، و«قنوان»، الخيوط الرفيعة التي تشكل عذق التمر أو عنقود النخلة. «دانية»، أعذاق قريبة من بعضها ومن الأرض ينالها القائم والقاعد لثقل ثمرها. المراد بـ «المتشابه»، إمّا الشبه الظاهري للأشجار، مثل شجرة الرمّان وشجرة الزيتون، أو الفواكه المتشابهة.

□ وردت في هذه الآية والآيتين السابقتين ثلاث عبارات متتالية هي: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، إذ تمّ توضيح مفاهيمها ضمن الفقرة الرابعة من «التعاليم».

التعاليم:

١ ـ ماء المطر هو العامل الأصلي في نمو جميع النباتات، ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٢ ـ نزول المطر ونموّ النباتات والفواكه كلّه من صنع الله تعالى، ﴿أَنزَلَ... نُخْرِجُ﴾.

٣ ـ فلتكن علاقة الإنسان بالفواكه علاقة فكرية وتوحيدية أيضاً وليس علاقة مادّية غذائية فحسب، ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ... إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ﴾.

٤ ـ الاهتداء بالنجوم يستدعي توفّر العلم والخبرة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، التفكير في موضوع الركب الإنسانيّ ونشوئه من نفس واحدة، وحركته بصورة مستقرّة ومستودعة، كلّ ذلك يحتاج إلى فهم عميق، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؛ كما إنّ الإنسان يحتاج إلى إيمان عميق ليتدبّر في وجوب الاستلهام المعنوي من النبات، والمطر، والفاكهة، وضرورة ألّا يغفل أنّ الوجود برمّته هو لله تعالى، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

إشارات:

□ «**الخلق**»، هو إيجاد الشيء بحساب، و«**الخرق**»، تمزيق الشيء بغير روية ولا حساب.

□ «**خرقوا**» تعني اختلقوا الأكاذيب دون أن يدرسوا جوانب الموضوع وبدون أن يعدّوا له ما يلزم من الأمور[1].

□ بحسب القرآن، فإنّ المسيحيين اعتبروا النبي عيسى عليه السلام ابن الله وكذلك اليهود اعتبروا عزيراً ابن الله[2]. كما قال المشركون: إنّ الملائكة بنات الله، والزرادشتية اعتبرت «اهريمن» ـ وهو من الجنّ ـ ندّاً لله ونسبوا إليه كلّ الشرور، أمّا العرب فقد قالت: إنّ الله تزوّج من الجنّ فكانت بينهما صلة قرابة، ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[3]، والخلاصة أنّ هذه الآية الكريمة تفنّد كلّ هذه المزاعم والخرافات وتقول: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ النزوع إلى الخرافات مردّه الجهل، ﴿وَخَرَقُوا... بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، عقيدة الإنسان بالله يجب أن تقوم على العلم.

٢ ـ أنّى للمخلوق أن يكون شريكاً للخالق ﴿شُرَكَاءَ... وَخَلَقَهُمْ﴾؟

٣ ـ الزواج والإنجاب هما لإشباع غريزة، والله تعالى منزّه عن كلّ نقص وعيب، ﴿سُبْحَانَهُ﴾.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٠.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٥٨.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾

إشارات:

☐ «بديع» مشتقة من المصدر «إبداع» وهو إنشاء صنعة بلا احتذاء أو اقتداء.

☐ أيّ حاجة لمن يخلق السموات والأرض دون تقليد أو خطة مسبقة، إلى الزوجة والولد؟ يكفيه أن يريد شيئاً فيقول له: كن فيكون.

التعاليم:

١ ـ خالق الكون قادرٌ على كلّ شيء، ولا حاجة له لزوجة أو ولد، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٢ ـ فلنقارن بين الله تبارك وتعالى الذي يتحدّث عنه القرآن والآلهة التي يؤمن بها الآخرون، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ طبقاً للعقيدة الإسلاميّة، الخالق والربّ واحد، ﴿رَبُّكُمْ... خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، بينما يؤمن المشركون بالله كخالق واحد وبأرباب متعدّدين.

٤ ـ الخالقية المطلقة لله هي دليل التوحيد، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٥ ـ خلق، وبقاء، وثبات كلّ شيء بيد الله تعالى، ﴿خَٰلِقُ... وَكِيلٌ﴾.

٦ ـ فلسفة عبادة الله تعالى هي ربوبيّته وخالقيّته، ﴿رَبُّكُمْ... خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

إشارات:

☐ «بَصَر» يقال للجارحة الناظرة، ويقال لقوة القلب المدركة: بصيرة وبصر[1].

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني.

لذلك، بالإمكان تفسير الآية على النحو التالي: لا العين الباصرة تستطيع أن تراه، ولا البصيرة بمقدورها أن تسبر أغوار معرفته وتتوّهمه.

□ كلمة **«اللطيف»** تحمل معانٍ عدّة هي:

١ ـ من يستصغر عطاءه ويستعظم طاعة الناس.

٢ ـ الدقيق، الذي يتعاطى الأمور الخفيّة والدقيقة التي لا تدركها الحواس.

٣ ـ خالق الأشياء الدقيقة واللطيفة غير المرئية.

٤ ـ من كان من أهل المداراة والرفق.

٥ ـ الذي يثيب أهل الوفاء ويصفح عن أهل الجفاء.

□ يقول الإمام الرضا عليه السلام: **«لا يقع الأوهام ولا يُدرك كيف هو»**[١].

□ إنّ الله تعالى لا يُرى أبداً، فبمجرّد أن نقل موسى عليه السلام طلب قومه في رؤية الله، قال الله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾[٢]. غير أنّ بعض علماء أهل السنّة لهم رأي آخر في الموضوع إذ يقولون: إنّ رؤية الله ممكنة في يوم القيامة، مستدلّين لذلك ببعض الآيات مثل: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٣][٤]، متناسين بأنّ الله تعالى ليس بجسم ولا مادّة ولا يجوز عليه ما يجوز على الجسم والمادّة، والمقصود بالنظر إلى الله هو بعين القلب، ذلك أنّ النظر بالعين الباصرة يكون إلى الشيء الذي يحتوي على المادة، أو يتحيّز (يشغل حيّزاً)، أو يتحدّد، أو له لون. . . إلخ وجميع هذه الصفات دلائل عجز وضعف تنزّه الله عنها.

□ وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام وقد سأله رجل عمّا اشتبه عليه من الآيات: **«وأمّا قوله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فهو كما قال لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام وهو يدرك الأبصار يعني يحيط بها»**[٥].

□ المراد بعبارة ﴿يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، علمه ببصائر الإنسان، مثل «السميع» و«البصير» التي تعني علمه بالمسموعات والمشاهدات.

---

(١) تفسير البرهان.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٣) سورة القيامة: الآية ٢٣.

(٤) تفسير المنار.

(٥) تفسير الصافي.

التعاليم:

١ ـ الله تعالى ليس بجسم مادّي، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾

٢ ـ لا تحيط الأوهام بالذات الإلٰهيّة المقدّسة، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾.

٣ ـ لا يحول حجاب أو ستار دون علم الله أبداً، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

٤ ـ الله سبحانه لطيف بنا على الرغم من علمه بموبقاتنا، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

٥ ـ الله تعالى محيط بجميع لطائف الكون وأسراره، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾

إشارات:

- تناولت الآيات من ٩٥ وحتى الآن موضوع التعريف بالذات الإلٰهيّة المقدّسة وتوبيخ عقيدة الشرك، ووصلنا إلى هذه الآية التي تعتبر استنتاجاً موجزاً لما سبقها.
- يحتوي القرآن الكريم على آيات كثيرة شبيهة بهذه الآية التي تعزو إلى الإنسان نفسه عاقبة الإيمان أو الكفر، الشرّ أو الخير، التبصّر أو عماء القلب والغفلة. من هذه الآيات نستعرض ما يلي:
  - ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[١].
  - ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[٢].
  - ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٣].

التعاليم:

١ ـ بعد نزول القرآن الكريم لم يعد لأحد أيّ عذر، ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٦.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧.

٢ ـ الناس مخيّرون في انتهاج السبيل الذي يرتأون، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ... وَمَنْ عَمِيَ﴾.

٣ ـ توعية الناس من مهام الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٤ ـ ثواب إيمان الناس أو عذاب كفرهم يعود عليهم وحدهم، لا على الله، ﴿فَلِنَفْسِهِۦ... فَعَلَيْهَا﴾.

٥ ـ نزول العذاب على فئة من الناس ليس دليل بطلان تعاليم الأنبياء، بل علامة على عماء بصيرتهم، ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾.

٦ ـ النبي مأمور بإبلاغ الرسالة لا الإكراه عليها، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

إشارات:

□ كان الكفّار في سعيهم إلى تكذيب النبي الكريم ﷺ يقولون: هذا الكلام ليس من عنده بل يتلّقاه من قوم آخرين (أي اليهود والنصارى)، ﴿دَرَسْتَ﴾، وفي مواضع أخرى قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[1]، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ تعدّد أساليب البيان، والاستدلال، والتعليم توسّع دائرة القبول، ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

٢ ـ بعضٌ يتصدّى لآيات الله عبر أساليب الافتراء والإنكار، ﴿دَرَسْتَ﴾، وبعضٌ آخر من الصالحين يسترشدون ويقبلون بالحقيقة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

إشارات:

□ في الآية السابقة، اتّهم المشركون النبي الكريم ﷺ بأنّ هذه الآيات ليست من

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤.

كلام الوحي بل ممّا اقتبسه من الآخرين. وهنا يسلّي الله تعالى نبيه الكريم بأن امضِ في طريقك ولا تلقِ بالاً لما يقولون.

□ تتباين أساليب التعاطي مع المناوئين باختلاف الحالات والظروف، على سبيل المثال:

- عبر إلقاء التحية والسلام، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[١].
- بالسكوت وعدم إبداء أيّة ردّة فعل، ﴿ذَرْهُمْ﴾[٢]، ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾[٣].
- الإعراض عنهم وتجاهلهم، ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[٤].
- إبداء الغلظة والشدّة، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[٥].
- أو الردّ بالمثل، ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[٦].

التعاليم:

١ - يجب ألّا تفتر عزيمة القادة الإلٰهيّين وأن لا تفتّ في عضدهم الافتراءات، والإساءات، والتحليلات الخاطئة للأعداء، ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾.

٢ - أحياناً يكون سقوط الإنسان شديداً بحيث يؤمر النبي الكريم ﷺ بالإعراض عنه، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

إشارات:

□ الإرادة الإلٰهيّة على نوعين: الإرادة التشريعية والإرادة التكوينية. فمن الناحية التشريعية يريد الله الهداية للناس جميعاً، وهو ما يفسّر إرساله الأنبياء والكتب السماوية إليهم، غير أنّه من الناحية التكوينية يريد أن يسلك الإنسان طريقه مختاراً دون إكراهه على الدخول في الدين.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٣.
(٢) سورة الحجر: الآية ٣.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.
(٤) سورة المائدة: الآية ٤٢.
(٥) سورة التوبة: الآية ٧٣.
(٦) سورة البقرة: الآية ١٩٤.

التعاليم:

١ ـ الإرادة الإلٰهيّة لا تخلف الميعاد، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾.

٢ ـ الإرادة الإلٰهيّة تقوم على تخيير الإنسان، والدليل على ذلك وجود المشركين، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾.

٣ ـ الأنبياء هم معلّمو الأمم لا سجّانون يكرهونهم على تطبيق الأوامر، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

٤ ـ النبي ليس مسؤولاً لا عن رفع البلاء عن المشركين ولا عن جلب المنفعة لهم، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

٥ ـ الأنبياء ملزمون بالتكليف لا بالنتيجة. على الرغم من كلّ جهودهم، لم تؤمن فئة كبيرة من المشركين، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

٦ ـ كان النبي ﷺ يعتصر ألماً من أجل هداية الناس، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

إشارات:

□ لقد جعل الله تعالى خلق الإنسان يتأثّر بالأعمال، صالحة كانت أم سيئة، ويتطبّع عليها تدريجياً، لتترك أثراً في نفسه. من هنا، نرى أنّ تزيين الأعمال تُنسب تارةً إلى الله تعالى ﴿زَيَّنَّا﴾ الذي خلق هذا التأثير، وتارةً أخرى إلى الشيطان من خلال وساوسه وإغراءاته إذ يزيّن القبائح فيصيّرها محاسن جميلة، ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[١].

□ يقول الإمام علي عليه السلام لجنده في حرب صفين: «**إنّي أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنّكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر**»[٢].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٣.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٢٠٦.

□ وعنه عليه السلام أيضاً: «من مصاديق سبّ الله سبّ وليّ الله»[١].

□ اللعن والبراءة تختلف عن السبّ والشتم وبذاءة الكلام، فاللعن والبراءة المذكوران في آيات عدّة من القرآن الكريم هما في الحقيقة إعلان لموقف صريح من الظالمين والمشركين والبراءة منهم، ﴿لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢]، ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ...﴾[٣].

التعاليم:

١ ـ يجب السيطرة على مشاعرنا تجاه المناوئين، والاحتراز من إطلاق أيّ سباب أو كلام بذيء، ﴿وَلَا تَسُبُّواْ﴾.

٢ ـ لا بدّ لنا من أن نأخذ بالاعتبار تأثيرات تصرّفاتنا وانعكاساتها، ﴿وَلَا تَسُبُّواْ... فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾.

٣ ـ بالسبّ والشتائم لا يمكن ثني الناس عن السير في طريق الانحراف، ﴿وَلَا تَسُبُّواْ﴾.

٤ ـ الشتائم سبب في إثارة العداوات، والأحقاد، والسبّ، ﴿وَلَا تَسُبُّواْ... فَيَسُبُّواْ... عَدۡوَۢا﴾.

٥ ـ الشتائم والسباب دليل غياب المنطق، أو الأدب، أو الصبر عند المسلمين، فمن خلال الكفّ عن السبّ والشتائم يبرهن المسلم على صبره، ومنطقه، وحسن أدبه، ﴿وَلَا تَسُبُّواْ﴾.

٦ ـ كل عمل يتسبّب في الإساءة إلى المقدّسات حرام، ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾.

٧ ـ لا يجوز توظيف سلاح الشتم والسبّ في عمليّة النهي عن المنكر، والدعاية، والمناظرات، ﴿وَلَا تَسُبُّواْ﴾.

٨ ـ أيّ عمل يؤدّي إلى دفع الآخرين لارتكاب المعاصي فهو حرام[٤]، ﴿وَلَا تَسُبُّواْ... فَيَسُبُّواْ﴾.

---

(١) تفسير الميزان.

(٢) سورة هود: الآية ١٨.

(٣) سورة التوبة: الآية ١.

(٤) تفسير مجمع البيان.

٩ ـ أحياناً يجد الإنسان نفسه متورّطاً بصورة لا إرادية في معاصي الآخرين، وذلك من خلال تهيئة أسباب ومقدمات ارتكاب المعصية لهم، ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾.

١٠ ـ من السنن الإلٰهيّة تزيين أعمال الأمم في عيون أبنائها، ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾؛ فكلّ أمّة تحسن أعمالها في نظرها حتى وإن كانت ظالمة.

١١ ـ تزيين العمل لا يعني حقّيته، ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾.

١٢ ـ اطلاع الناس على عواقب أعمالهم في يوم القيامة، من شؤون الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم...﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

إشارات:

❑ قال المفسّرون في سبب نزول الآية: إنّ قريشاً قالت: يا محمد تخبرنا أنّ موسى كانت معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أنّ عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أنّ ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا بآية من الآيات كي نصدّقك، فقال رسول الله ﷺ: **«أيّ شيءٍ تحبّون أن آتيكم به؟»** قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، وابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحقّ ما تقول أم باطل، وأرنا الملائكة يشهدون لك، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً!! فقال رسول الله ﷺ: **«فإن فعلت بعض ما تقولون، أتصدّقونني؟»**، قالوا: نعم والله لئن فعلت لنتبعنّك أجمعيّن، وسأل المسلمون رسول الله أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا. فقام رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى أن يجعل الصفا ذهباً، فجاء جبرئيل عليه السلام فقال له: إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولكن إن لم يصدّقوا عذّبتهم وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: **«بل يتوب تائبهم»**، فأنزل الله تعالى بأنّ المعجزات بيده وأنّه ينزلها بحكمته وليس استجابةً لأهواء الناس ورغباتهم[1].

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

□ المعجزة ضرورية على قدر إتمام الحجّة، لا لإرضاء أهواء كلّ فرد، إنّ نظام الكون ليس ألعوبة بيد المشركين، ناهيك عن أنّ بعض أهواء وطلبات المشركين تتعارض مع العقل مثل طلب رؤية الله.

التعاليم:

١ ـ مشركو مكة كانوا يؤمنون بالله تعالى وكانوا يحلفون به، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾.
٢ ـ لا تنخدعوا بالأيمان الكاذبة للأعداء، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾.
٣ ـ نعم لطلب البراهين، ولكن لا للرضوخ للأهواء والشهوات، ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.
٤ ـ الله يتكفّل بمعجزات الأنبياء، ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.
٥ ـ العناد داء عضال، يدفع بصاحبه إلى عدم الإيمان بأي معجزة، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ سنّة الله تعالى تقتضي تقليب قلوب المعاندين اللجوجين، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾.
٢ ـ الإيمان بالله تعالى وبالرسالة يحتاج إلى قلب سليم، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾.
٣ ـ المعصية واللجاج تقلب نظر الإنسان وبصيرته، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾.
٤ ـ من لا يؤمن بعد وقوع المعجزات الأولى، فلا ينبغي له أن يطالب بمعجزات أخرى، ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.
٥ ـ صحيح أنّ الله هو مقلّب القلوب، لكنّ الإنسان هو الذي يهيّئ ظروف التحوّل باختياره الإيمان أو الكفر، ﴿وَنُقَلِّبُ... كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا﴾.
٦ ـ الطغيان هو أساس الكفر، ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا... طُغْيَانِهِمْ﴾.
٧ ـ من وكله الله إلى نفسه، وقع في الحيرة، ﴿وَنَذَرُهُمْ... يَعْمَهُونَ﴾.

الجــزء (٨)

﴿۞وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

إشارات:

- إذن، أحد مطالب المشركين كانت نزول الملائكة عليهم وتحدّث الموتى إليهم، ولكن هؤلاء كانوا من اللجاج والعناد بحيث حتى لو تجسّدت أمامهم القضايا الغيبية عياناً في صورة الملائكة فإنّهم سوف لن يبرحوا موقع الشرك ولن يؤمنوا أبداً.
- «قُبُلًا» إمّا بمعنى أمامهم وقبالتهم، أو هي صيغة الجمع لـ «قبيل» أي الفئة أو المجموعة.
- الآيتان السابقتان طرحت المزاعم الكاذبة للمشركين بالإيمان في حال وقوع معجزة أمامهم، وهنا تطرح هذه الآية أمثلة لهذه المعجزات.
- في الآيتين ١٤ و١٥ من سورة الحجر ورد ما يشبه مضمون هذه الآية: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ مع القلوب المعاندة اللجوجة لا تنفع أيّ آيّة لجذبها صوب الإيمان، ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾.

٢ ـ لو شاء الله أن يؤمن الجميع بالإكراه لفعل ولكن ذلك يتعارض مع حكمته، ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ الجهل هو سبب عدم الإيمان بآيات الله تعالى، ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾

إشارات:

- جاء في آية سابقة: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. وهنا تقول الآية الكريمة: ﴿فَذَرْهُمْ﴾.
- يبدأ سقوط الإنسان منذ لحظة نفوذ وساوس الشيطان إلى نفسه، ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[1]. فمن تركت هذه الوساوس أثراً فيه، فهو من أنصار الشيطان، ﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[2] ليصبح بالتالي هو نفسه شيطاناً، ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾.
- التعارض والتنازع بمثابة مقدّمة إلى التكامل الإرادي. من هذا الباب، جعل الله تعالى العالم مسرحاً لتنازع الإرادات وتعارضها، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾.

التعاليم:

١ ـ مطالعة تاريخ الأمم الأخرى وما نزل بها من البلايا تشكل عامل استقامة وثبات للإنسان، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾.

٢ ـ صراع الحقّ مع الباطل كان حاضراً على الدوام على مرّ التاريخ، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾.

٣ ـ على قائد المجتمع أن يهيّئ نفسه لأيّ نوع من المعارضة، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾.

٤ ـ لا نتوقّع اجتثاث الأعداء والأشرار نهائياً، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا﴾.

٥ ـ من جملة السنن الإلٰهيّة مواجهة الأنبياء لمختلف الأعداء والمناوئين، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾.

٦ ـ الكافر اللجوج كالشيطان، ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ...﴾.

---

(١) سورة الناس: الآية ٥. (٢) سورة الإسراء: الآية ٢٧.

٧ ـ ارتباط شياطين الإنس والجنّ وتواصلهم مع بعضهم يتمّ عن طريق الإلقاء والوسوسة خُفية، ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ...﴾.

٨ ـ يعلّم الشياطين بعضهم بعضاً أساليب الخبث والأعمال الشيطانية، ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

٩ ـ أعداء الأنبياء لهم دعاية داخليّة، ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

١٠ ـ ربّما كانت الكلمات الجميلة والمنمّقة الخدّاعة عامل استغفال للإنسان، ﴿يُوحِى... زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

١١ ـ لقد خلق الله تعالى الإنسان حرّاً، وجعل الدنيا مسرحاً للصراعات، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

١٢ ـ حريّة البشر تصبّ في مسير تربية الإنسان ورشاده، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

١٣ ـ في نظام الكون، توجد إرادة واحدة حاكمة، لا قوّتا الخير (يزدان) والشر (أهريمن) (كما تقول العقيدة الزرادشتية)، لذا فالمحاولات المنحرفة لا تخرج عن دائرة الحاكمية والقدرة الإلٰهيّة، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

إشارات:

- «تصغى» من «**الصَغْو**»، وهو الميل إلى الشيء، ولكنّه في الأغلب ميل ناشىء عن طريق السمع، فإذا استمع أحد إلى كلام مع الموافقة فهو «الصغو» و«الإصغاء».

- «**اقتراف**»، بمعنى الحصول أو الاكتساب حسناً كان أم سيئاً، وهو في الإساءة أكثر استعمالاً.

التعاليم:

١ ـ الوساوس والدعاية وحدهما لا يشكلان عامل انحراف، إلّا إذا أضيف إليهما الإصغاء، والتجاوب، والانجذاب، ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ... وَلِيَرْضَوْهُ﴾.

٢ ـ نفوذ الشيطان في النفس وتسلّطه عليها يعود إلى عدم الإيمان بالآخرة، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

إشارات:

- «الحكم» القاضي والحاكم، وبعضهم يراه مساوياً للحاكم من حيث المعنى، ولكن يرى بعضهم، ومنهم صاحب مجمع البيان أنّ الحكم من لا يحكم بغير الحقّ، أمّا الحاكم فقد يحكم بكليهما، ويرى آخرون، ومنهم صاحب المنار أنّ الحكم من يختاره الطرفان للحكم، وليس الحاكم كذلك[1].
- كان الحديث في الآية ١١١ من هذه السورة بأنّه حتى لو بُعث الموتى من قبورهم وتحدّثوا إلى هؤلاء، أو نزلت عليهم الملائكة فإنّهم لن يؤمنوا. وهذه الآية تقول: إنّ أهل الكتاب يعلمون أنّ القرآن الكريم وحي منزل من السماء، لذا فإنّ مطالبتهم بالمعجزات لا تعدو كونها أعذاراً واهية.
- النبي الكريم ﷺ لم تكن لديه أيّ شكوك أو تردّد في دعوته، من هنا فإنّ خطاب الآية الكريمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ موجّه إلى المسلمين لئلا تنتابهم الوساوس والشكوك في حقّية الطريق الذي سلكوه.

التعاليم:

١ ـ القبول بغير القرآن حكماً أمرٌ قبيح ويستحقّ التوبيخ، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾، التشريع والتحكيم لله وحده فقط.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ تفسير المنار.

٢ ـ الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن مفصّلاً، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾.

٣ ـ أحد دلائل حقّية الدين الإسلامي بشارات الأنبياء السابقين في التوراة والإنجيل، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ كما يقول ﷻ في آية أخرى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾[1].

٤ ـ يجب أن يتوافر القائد على صفتي الحزم والحسم في دعوته، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ...﴾.

٥ ـ حذار أن يتسلّل الشك إلى نفوسكم بسبب عدم إيمان أهل الكتاب، فهم يعرفون حقّية القرآن الكريم حقّ المعرفة، لكنّ لجاجهم وعنادهم يدفعهم إلى إنكاره، ﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾.

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾

إشارات:

- في ضوء الآيات السابقة، فإنّ المقصود بـ ﴿كَلِمَتُ﴾ في هذه الآية هو القرآن الكريم، غير أنّ «الكلمة» بحسب الثقافة القرآنية والروايات تعني الوعد المحتوم، ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾[2] إذ إنّ الله تعالى أنجز وعده بالنصر لبني إسرائيل لما صبروا.
- كما تأتي «الكلمة» بمعنى دين الله، أو النبي أو أولياء الله، كما تقول الآية الكريمة ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾[3].
- قد ورد في الروايات نقلاً عن الأئمة عليهم السلام قولهم: **«نحن الكلمات»**[4].

التعاليم:

١ ـ القرآن آخر الكتب السماوية والإسلام ختام الأديان الإلٰهيّة، ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٦؛ سورة الأنعام: الآية ٢٠.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٣٧.
(٣) سورة النساء: الآية ١٧١.
(٤) بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ١٧٤.

٢ ـ القرآن معجزة تامّة تبرهن على رسالة النبي الكريم ﷺ، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.
٣ ـ القرآن يلبّي جميع متطلبات الهداية للمجتمعات الإنسانية، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾.
٤ ـ الإسلام يكمّل الأديان السابقة، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ...﴾.
٥ ـ إتمام الدين من خلال بعثة الرسول الكريم ﷺ هو بمثابة تجلٍّ لربوبيّة الله تعالى، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.
٦ ـ الصدق والعدل هما أساس الشرائع والسنن الإلٰهيّة في نظام الكون، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.
٧ ـ أنباء القرآن صادقة، وأحكامه قائمة على العدل، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ وفي آية أخرى نقرأ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[1].
٨ ـ القرآن مصان من التحريف، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾.
٩ ـ الله يحيط إحاطة تامّة بالاحتياجات، وفي ضوئها أنزل القرآن، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾

إشارات:

- «**الخرص**» هو كلّ قول أُطلق عن ظنّ وتخمين، وأصله من تخمين كمية الثمر على الأشجار عند استئجار البستان، وأمثال ذلك، ثمّ أُطلق على كل ظنّ وتخمين قد يطابق الواقع وقد لا يطابقه، والكلمة تستعمل في الكذب أيضاً، وقد تكون في الآية بكلا المعنيين[2].

التعاليم:

١ ـ طريق الهداية والقرآن هو المعيار، لا طريق الناس أو الأغلبية، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ...﴾.

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٧.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٢ ـ الأغلبية ليست معيار الحقّية، الحقّ هو المعيار لا الكثرة، إذن، لا ترهبكم قلّة روّاد طريق الحقّ من المضي فيه، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ﴾.

٣ ـ ثمن جذب اهتمام الأغلبية يكون أحياناً انحراف الإنسان وضياعه، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ... يُضِلُّوكَ﴾، فلتكن حركتنا في سبيل الله حتى وإن تعارض ذلك مع رأي الأغلبية.

٤ ـ للأغلبية رهبة بحيث إنّ الله تعالى يحذّر نبيّه الكريم ﷺ من الانجرار وراءها، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾، على الأنبياء اتّباع الوحي لا آراء الناس.

٥ ـ جذور الضلال تكمن في الاعتماد على الظنّ والتخمين، ﴿يُضِلُّوكَ... إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

٦ ـ الأغلبية التي تعتمد الظنّ والأهواء بدلاً من الحقّ، لا تستحقّ أن تُتّبع، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ... يُضِلُّوكَ... يَخْرُصُونَ﴾.

٧ ـ اختيار الطريق، يحتاج إلى الدليل والبرهان لا الظنّ والتخمين، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ... يَخْرُصُونَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

إشارات:

□ «المهدي»، من كان مهتدياً بالهدي الإلٰهيّ منذ البداية، مثل الأئمة المعصومين ﷺ، أمّا «المُهتدي» فهو الذي هُدي بعد ضلال[1].

التعاليم:

١ ـ الإنسان ذو علم، لكنّ الله هو الأعلم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ توسّط الضمير «هو» بين المبتدأ والخبر لبيان الحصرية.

٢ ـ التربية بحاجة إلى وعي عميق، ﴿رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾.

(١) تفسير أطيب البيان.

٣ ـ لا نخدع أنفسنا والآخرين بالتظاهر والنفاق، فالله أعلم بنفوسنا، ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ...﴾.

٤ ـ يجب أن نتبع الأعلم لا الأغلبية، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾

إشارات:

□ من علائم شموليّة الدين الإسلامي وجامعيّته هو أنّه في مسألة ثانوية مثل ذبح الحيوان يتناول جميع الجوانب والأبعاد الخاصّة مثل: مسائل العقيدة (ذكر اسم الله)، أداة الذبح (الحديد)، طريقة قطع الأوداج، الأمّة أو الدين (الشخص الذي يقوم بالذبح يجب أن يكون مسلماً)، وجهة الذبح (القبلة)، وأخيراً الاتجاه (نحو القبلة)، ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

التعاليم:

١ ـ طعام المؤمن يجب أن يكون ذا صبغة إلٰهيّة، ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ﴾.

٢ ـ ذكر اسم الله بمثابة إذن الاستهلاك والترخيص الرسمي باستعمال لحم الحيوانات المباحة، ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ...﴾.

٣ ـ لا بدّ من استغلال كلّ الفرص لترسيخ أسس التوحيد بما في ذلك ذبح الحيوان. نعم، التوحيد ليس قضيّة نظرية، ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

٤ ـ الطعام الحلال والالتزام بالأحكام من شروط الإيمان، ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)﴾

إشارات:

□ إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين في الجاهلية الذين كانوا يسوّغون

لأنفسهم أكل لحوم الحيوانات الميتة بالقول: أيجوز أن تعتبر لحوم الحيوانات التي نذبحها نحن حلالاً، ولحوم الحيوانات التي يذبحها الله حراماً؟ فنزلت الآية لتوضيح الأمور للناس وتردّ على هؤلاء.

التعاليم:

١ ـ من يحرّم ما أحلّ الله دون مسوّغ شرعي يستحقّ التوبيخ، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾، بعض المسلمين كانوا يحرّمون على أنفسهم ما أحلّ الله وذلك بتأثيرٍ من العادات الجاهلية.

٢ ـ إذا كان لحم الحيوان ذا صبغة إلٰهيّة فأكله حلال، وإذا لم يكن كذلك فهو حرام، ﴿ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ﴾.

٣ ـ لقد ذكر الدين الإسلامي المبين جميع المحرّمات الإلٰهيّة، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾[١].

٤ ـ الأصل في التشريع الإسلامي هو حليّة جميع الأطعمة، إلّا ما بيّن الله حرمته، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾.

٥ ـ لا يوجد طريق مسدود في الأحكام الإسلاميّة، ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

٦ ـ الاضطرار يسقط التكليف، ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

٧ ـ التكاليف الإلٰهيّة تتناسب مع الظروف الزمانية والمكانية وقدرة الإنسان، ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

٨ ـ أكل الأطعمة المحرّمة جائز في الحالات الاضطرارية فقط، ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

٩ ـ تبيين الحلال والحرام يستند إلى الأحكام الإلٰهيّة، ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

١٠ ـ الجهل والهوى من أسباب الانحراف، ﴿لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

١١ ـ إضلال الناس هو بمثابة اعتداء على حقوق المجتمع، ﴿أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

---

(١) هذا البيان المفصّل هو إشارة إلى الآية ١١٥ من سورة النحل؛ تفسير الميزان.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

إشارات:

□ الناس قديماً وحاضراً يخشون ظواهر الإثم فحسب.

التعاليم:

١ ـ بسيف الإرادة يجب قطع إغراءات المعصية وإغواءاتها النفسَ، ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

٢ ـ يهتمّ الإسلام بنقاء الظاهر والباطن معاً، يجب الإقلاع عن المعاصي العمليّة والقلبية ـ مثل سوء الظنّ ـ معاً، ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

٣ ـ العذاب الإلٰهيّ يحيط بالمعاصي التي ترتكب عن علم وعمد، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾.

٤ ـ على الرغم من وساوس الشيطان، إلّا أنّ الإنسان يرتكب المعصية بإرادته، ﴿يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾.

٥ ـ القيامة وعذاب الآخرة ليسا ببعيدين، ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾.

٦ ـ العذاب الإلٰهيّ هو حصاد أعمالنا، ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

إشارات:

□ لقد حرّم الإسلام تحريماً شديداً الأطعمة المحرّمة لأنّها تورث قسوة القلب وتمهّد لمعاصٍ أخرى، وهو ما جاء أيضاً في خطبة الإمام الحسين عليه السلام للأعداء في يوم عاشوراء: «**قد ملئت بطونكم من الحرام**»[1].

(١) بحار الأنوار، ج٤٥، ص ٨.

□ لقد تقدّم في الآية ٥ من سورة المائدة حليّة طعام أهل الكتاب ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾. وهذه الآية الكريمة تقول: إنّ كلّ حيوان لم يذكر اسم الله عليه فأكله حرام. ولمّا كان أهل الكتاب لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم، من هنا نستنتج أنّ ذبائحهم حرام، وأنّ ما ذكرته الآية من حليّة طعامهم إنّما هو للحبوب وما شابهها، وليس اللحوم[1].

□ إنّ وساوس الشيطان تكون على هذا النحو: إنّ الحيوان الميّت قتيل الله، وقتيل الله أفضل من قتيل الإنسان! إذن، كيف تُحرم الميتة بينما يحلّ الحيوان المذبوح على يد الإنسان؟! هذا في الوقت الذي يتناسى فيه الإنسان أنّ تطبيق أحكام الله أهمّ من كلّ ذلك.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للمسلم أن يحترم الالتزامات الدينيّة حتى في مسائل الطعام والتغذية، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

٢ ـ ذكر اسم الله عند ذبح الحيوان ليس أمراً صورياً أو تشريفياً، بل حكماً واجباً، وفي تركه فسق، ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾.

٣ ـ حيثما كان عدم الإيمان أشدّ، لزم التوكيد، ذلك أنّ قبول الناس في العصر الجاهلي بشروط حليّة الذبح كان أمراً عسيراً، ونلاحظ هنا أنّ الله سبحانه وتعالى طرح المسألة في إطار تأكيدات متعدّدة. جملة ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ اسمية، والأداة «إنّ» وحرف اللام للتوكيد.

٤ ـ بسبب أكل الحرام، يصبح الإنسان أكثر استعداداً لتقبّل إغواءات الشيطان، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟... وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾.

٥ ـ للشياطين القدرة على إلقاء الوساوس، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾.

---

(١) تفسير الميزان.

٦ ـ وساوس الشيطان نافذة في أوليائه فقط، وليس في أولياء الله، ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾.

٧ ـ مجادلات الإنسان تستند إلى الوساوس والأهواء، ﴿لَيُوحُونَ... لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾.

٨ ـ المجادلة في الأحكام الإلٰهيّة هي من أسلحة الشيطان وإلقاءاته، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ... لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾.

٩ ـ المجادلة في الأحكام الدينيّة تسوق الإنسان إلى الشرك، ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ... لَمُشْرِكُونَ﴾.

١٠ ـ الموحّدون الذين يطيعون غير الله عملياً، هم مشركون، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

إشارات:

□ قيل في نزول هذه الآية: إنّ أبا جهل الذي كان من ألدّ أعداء الإسلام آذى يوماً رسول الله إيذاءً شديداً، وكان «حمزة» عمّ النبي ﷺ لم يسلم بعد، بل كان ما يزال يقلّب الأمر في ذهنه، وقد خرج في ذلك اليوم كعادته للصيد في الصحراء، وعند عودته سمع بما جرى بين أبي جهل وابن أخيه، فغضب غضباً شديداً وذهب إلى أبي جهل وصفعه صفعة أسالت الدم من أنفه، وعلى الرغم من مكانة أبي جهل ونفوذه في عشيرته فإنّه لم يردّ عليه لما يعرفه عن شجاعة حمزة. وعاد حمزة إلى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه. ومنذ ذلك اليوم أصبح جندياً من جنود الإسلام ودافع عنه حتى استشهد بين يدي رسول الله[1].

□ كلمة «الموت» في العبارات القرآنية تطلق على مرحلة ما قبل النطفة ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾[2]، وكذلك تطلق على الضلال ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾، وأيضاً

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤، ص ٥٥٥. (٢) سورة البقرة: الآية ٢٨.

تقال للمنطقة الجافة الخالية من العشب والكلأ ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾[١]، كما تطلق على الموت المؤقت: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾[٢]، وأخيراً تقال للموت الحقيقي: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٣].

□ ويقول الإمام الباقر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ فقال: **«ميتاً لا يعرف ﴿نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ إماماً يؤتمّ به ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ قال: الذي لا يعرف الإمام»**[٤].

□ الأعمال الخلاقة والجذابة مثل (الابتكارات والاختراعات والتكنولوجيا والحضارة) لها وقع عظيم في نفوس الكفّار لدرجة أنّها حجبت عن بصرهم الانحرافات التي انغمسوا في وحلها وإنسانيّتهم المحطّمة، ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ الحياة والموت الحقيقيان للإنسان هما الإيمان والكفر، ﴿مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾.

٢ ـ الهداية والإرشاد من عند الله تعالى، لكنّ الإنسان هو الذي يهيّئ العوامل المساعدة لذلك، ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾.

٣ ـ توظيف عناصر التمثيل، وطرح الأسئلة، وعمليّة المقارنة لها أثر كبير في عمليّة الدعوة والتربية، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا... كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾.

٤ ـ المؤمن لا يواجه طريقاً مسدوداً أبداً، فهو يمسك بزمام الوعي والمبادرة في المجتمع، ﴿نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾.

٥ ـ في غياب الضياء، يسدل ستار الظلام على الإنسان، ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

٦ ـ الحقّ واحد، والباطل متعدّد، لاحظ أنّ كلمة «نور» في الآية جاءت بصيغة

---

(١) سورة فاطر: الآية ٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٣.
(٣) سورة الزمر: الآية ٣٠.
(٤) تفسير الميزان.

المفرد، بينما «الظلمات» بصيغة الجمع.

٧ ـ لا خلاص للبشرية إلّا بنور الإيمان والهداية الإلٰهيّة، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

٨ ـ تزيين الأعمال للنفس يحول دون تطوّر الإنسان وخروجه من الظلمات، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ﴾.

٩ ـ أعمال الإنسان الكافر تترك أثراً على نظرته وفكره، ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

إشارات:

□ أشرنا في سبب نزول الآية السابقة إلى محاربة أبي جهل النبيَّ الكريم ﷺ، أمّا هذه الآية فتقول: إنّ وجود أمثال أبي جهل في التاريخ ليس بالأمر الجديد، إذ إنّنا نجد دائماً قادة الكفر والفساد ينبرون للتصدّي لدعوات الحقّ أينما ظهرت، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ السنّة الإلٰهيّة هي ردّ على مكر الأعداء وألاعيبهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾.

٢ ـ جهود الأخيار والأشرار كلّها في مدار القدرة الإلٰهيّة، ﴿جَعَلْنَا... مُجْرِمِيهَا﴾.

لقد تكرّرت كلمة ﴿جَعَلْنَا﴾ مرّتين، مرّة في هذه الآية وتتعلّق بالمجرمين، ومرّة ثانية في الآية السابقة التي تحدّثت عن المؤمنين.

٣ ـ القادة الفاسدون والمفسدون هم أساس الفساد والمكر في المجتمع، ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾.

٤ ـ المكر والزيف هما سلاح القادة المفسدين، ﴿لِيَمْكُرُوا﴾.

٥ ـ فقدان النقاء والصدق والابتلاء بالعذاب الإلٰهيّ هو الخسارة الكبرى التي يسبّبها المخادعون الماكرون لأنفسهم، ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

(١) تفسير نمونه، ج٥، ص ٤٢٤.

٦ ـ أخطر من المرض الجهل به، وأخطر من المكر جهل صاحبه أنّ عاقبة مكره سترتدّ عليه، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

إشارات:

- يقول صاحب مجمع البيان في سبب نزول هذه الآية: إنّ الوليد بن المغيرة (الذي كان من زعماء عبدة الأصنام وعقلهم المفكر) كان يقول لرسول الله ﷺ: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك؛ لأنّي أكبر منك سناً، وأكثر منك مالاً. وقد نقل الكلام نفسه عن أبي جهل.
- لقد تحقّق الوعد الإلٰهيّ وقُتل عدد من زعماء الكفر في معركة بدر لينالوا الذلّة والهوان في الدنيا والآخرة.

التعاليم:

١ ـ لقد استكبر الزعماء المتنفّذون بسبب نظرتهم الاستعلائية وتنكروا لدعوة الإسلام، ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ﴾.
٢ ـ معيار الاجتباء الإلٰهيّ هو علمه بمستوى الاستحقاق والفضل، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾.
٣ ـ عاقبة الاستكبار في مقابل الحقّ الخزي والذلّ، ﴿لَن نُّؤْمِنَ... سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

إشارات:

- سُئل رسول الله ﷺ: كيف يشرح صدره للإسلام؟ فقال: «**الإنابة إلى دار**

الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الفوت»[١].

- والإمام زين العابدين عليه السلام كان يكثر من قراءة دعاء بهذا المضمون نفسه في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان[٢].

- المقصود بالهداية أو الضلالة الإلٰهيّة هو تهيئة أسباب الهداية للجديرين بها وحرمان الضالّين منها.

- **«الصدر»** هنا تعني الروح أو الفؤاد، وانشراح الصدر هو توسيع آفاق العقل والفكر، وهمّة الروح وعلوّها لاحتضان الحقّ والدخول في الهداية، ويتطلّب ذلك تجاوز الأهواء والآمال العريضة للقلب.

- إنّ من افتقد انشراح الصدر يظلّ متقوقعاً على نفسه، ومنكفئاً على ذاته لا يتعدّاها. إنّ من أهمّ آثار انشراح الصدر امتلاك البصيرة والنورانية، مضافاً إلى قلب رؤوف يسعى وراء الحقّ.

- تعدّ هذه الآية من المعجزات العلمية للقرآن إذ توضّح آثار العروج إلى السماء وتقول: من لا يتّسع صدره لقبول الحقّ، ستضيق عليه روحه وتنحسر إرادته، كمن يحلّق في السماء يضيق صدره ويحتبس نفسه بسبب قلّة الأوكسجين.

- يقول الإمام الرضا عليه السلام: **«من يرد الله أن يهديه بإيمانه في الدنيا إلى جنّته ودار كرامته في الآخرة يشرح صدره للتسليم، لله والثقة به، والسكون إلى ما وعده من ثوابه حتى يطمئن إليه، ومن يرد أن يُضلّه عن جنّته ودار كرامته في الآخرة لكفره به وعصيانه إياه في الدنيا يجعل صدره ضيّقاً حرجاً حتى يشكّ في كفره ويضطرب من اعتقاده قلبه حتى يصير كأنّما يصّعّد في السماء»**[٣].

- من السنن الإلٰهيّة أنّ الله تعالى شرح للحقّ صدور أصحاب القلوب النقيّة، وفي المقابل، حرم المعاندين اللجوجين الفارّين من الإيمان، توفيقَ الانشراح وابتلاهم بالرجس.

---

(١) تفسير الميزان.

(٢) مفاتيح الجنان.

(٣) تفسير كنز الدقائق.

□ عندما أُمِر النبي موسى عليه السلام بحمل الرسالة دعا الله قائلاً: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[1]، لكنّ الله سبحانه وتعالى تفضّل على نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله بأكثر من هذا، حين أنعم عليه بالانشراح وسعة الصدر قبل أن يطلب ذلك، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ التسليم للحقّ يتطلّب سعة الصدر والاستعداد الباطني، ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

٢ ـ انشراح الصدر عطيّة إلٰهيّة، ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

٣ ـ تجاوز دائرة الفطرة والعقل مدعاة لضيق الروح، وحرجها، وانسدادها، ﴿يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

٤ ـ ربّما وجد المنحرفون أنفسهم، في الظاهر، في بحبوحة واستقرار، لكنّهم في الحقيقة، مبتلون بالضيق والحرج، ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

٥ ـ ضيق الصدر وحرجه هو نوع من رجس الروح، ﴿...يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا... ٱلرِّجْسَ﴾.

٦ ـ من لا يؤمن بالحقّ، سيبتلى بالرجس شيئاً فشيئاً، ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

إشارات:

□ قد يكون اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ عائداً إلى كلمة «الإسلام» الواردة في الآية السابقة.

---

(١) سورة طه: الآية ٢٥. (٢) سورة الانشراح: الآية ١.

التعاليم:

١ ـ كلّ السبل ضلال سوى سبيل الله تعالى، ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمٗا﴾.

٢ ـ من أجل التذكير يجب البسط، والتفصيل، والتنويع، والتكرار، ﴿فَصَّلۡنَا... يَذَّكَّرُونَ﴾.

٣ ـ لقد أتمّ الله تعالى الحجّة على الجميع، فإذا كانوا من الذين ينصتون لصوت الحقّ، فقد بيّنا آيات الحقّ بأساليب عدّة، ﴿لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾.

٤ ـ الإصغاء الدائم إلى التذكير الإلٰهيّ يفتح الطريق إلى الصراط المستقيم، ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ... لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧﴾

التعاليم:

١ ـ لا يوجد في الجنّة عنف، ولا تنافس، ولا حسرات، ولا افتراء، ولا حسد، ولا أحقاد، ولا كذب، ولا أحزان، ولا أيّ نوع من الموت، أو المرض، أو الفقر، ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

٢ ـ ما هو أغلى من نعمة الأمن والسلامة أن يستظلّ الإنسان بالألطاف الإلٰهيّة الخاصة، ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾.

٣ ـ الله تبارك وتعالى هو الذي يتولّى مباشرة أمور سالكي الطريق المستقيم، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾.

٤ ـ بلوغ درجة الولاية الإلٰهيّة رهنٌ بجهود الإنسان وسعيه الدؤوب، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

إشارات:

□ في الآيات السابقة كان الحديث عن حبائل الشياطين ووساوسهم، وهنا تبيّن الآية الكريمة مصير تلك الوساوس وهو دخول جهنّم. وبالمناسبة، وطبقاً لما ورد في القرآن الكريم، فإنّ الشياطين هنا هم الجنّ وإنّ الجنّ الذين يغوون الإنسان ويضلّونهم هم أنفسهم الشياطين.

التعاليم:

١ ـ علينا أن نفكر ملياً في عاقبة أمرنا ﴿وَيَوْمَ﴾، حينما ترد هذه الكلمة «يوم» في بداية الآيات، فإنّ المقصود بها هو التذكير بذلك اليوم.

٢ ـ الجنّ مكلّفون ومخيّرون، وهم عرضة للخطاب، والتوبيخ، والعذاب، والثواب، ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾.

٣ ـ لقد أضلّ الشيطان فئة عظيمة من الناس، فهو لم يقنع بإضلال فئة صغيرة منهم، ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾ ويقول ﷻ في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾[1].

٤ ـ الجنّ المضلّون لن يجدوا ما يقولون في يوم القيامة إزاء توبيخهم ولن يُسمح لأوليائهم من الإنس بالتكلّم، ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ... وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾.

٥ ـ انتفاع الإنس والجنّ كان متبادلاً، ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

٦ ـ في يوم القيامة يُحشر الإنس والجنّ جميعاً بلا استثناء، ﴿جَمِيعًا﴾.

(١) سورة يس: الآية ٦٢.

٧ ـ الانقياد لوساوس الشيطان وإغواءاته يجرّ الإنسان إلى تولّيه شيئاً فشيئاً، ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾.

٨ ـ لا يتساوى المنحرفون في العقاب، وخلودهم في النار رهنٌ بإرادة الله ومشيئته، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٩ ـ أحكام المحكمة الإلٰهيّة تقوم على العلم والحكمة، ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

إشارات:

- عرفنا من الآية ١٢٧ أنّ الله تبارك وتعالى هو من يتولّى الذين يختارون المسير في الصراط المستقيم. وهنا تخبرنا الآية الكريمة أنّ الطغاة يتولّون فئة من الناس بسبب أعمالهم.
- بحسب الروايات، فإنّ عذاب التاركين للأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعرضين عن أداء الخمس والزكاة، والذين يمدّون الطغاة في طغيانهم أن يُولّى عليهم الظالمون[1]. وجاء في الحديث الشريف أنّ الله إذا رضي على قومٍ ولّى عليهم خيار الناس، وإذا غضب على قومٍ ولّى عليهم الأشرار[2].

التعاليم:

١ ـ كما يولّى شياطين الجنّ على الإنسان، فإنّه كذلك يولّى بعض الظالمين على بعض، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾.

٢ ـ الانتفاع المحرّم تمهيد لتأسيس الحكومات الباطلة وسلطة الظالمين، ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ... نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾.

٣ ـ ليس الحكام وحدهم ظالمين، بل كذلك المحكومون الغارقون في الخوف، والصمت، والملذات، ﴿بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾.

٤ ـ تسلّط الطغاة سببه سلوك الناس أنفسهم، ﴿نُوَلِّي... بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

---

(١) تفسير أطيب البيان. (٢) تفسير كشف الأسرار.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾

إشارات:

- يستفاد من آيات القرآن الكريم أنّ النبي الأكرم محمداً ﷺ قد بُعث إلى الجنّ أيضاً، فهم يفقهون القرآن، وقد آمن قسم منهم به[١]. وعلى قول بعض المفسّرين (مثل الآلوسي، والقرطبي، والطبرسي، وسيد قطب)، فإنّ رسل الجنّ قد استلهموا الوحي عن طريق رسل الإنس، ثمّ نقلوه إلى إخوة الدين، ذلك أنّ كلمة «رسول» تطلق أيضاً على غير البشر كما في الآية الكريمة ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾[٢].
- في الآية الكريمة التي نحن بصددها يقرّ الكافرون بشيئين، الأول، إرسال الرسل، الثاني الاعتراف بكفرهم.
- المشاهد والمواقف في يوم القيامة ستكون مختلفة، ففي موقف تجد الكفّار ينكرون كفرهم، كما في الآية ٢٣ من هذه السورة ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، ثم في موقف آخر يعترفون بذنبهم بعدما عرفوا أن لا مكان للإنكار في يوم القيامة.

التعاليم:

١ ـ الجنّ والإنس مكلّفون بالإيمان بدعوة الأنبياء، وقد أُرسل الرسل إلى كلا النوعين، ﴿ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾.

٢ ـ إطلاق النُّذُر هو أحد الأساليب التربوية، ومن مسؤوليات الأنبياء، ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ﴾.

---

(١) الآيات الأولى من سورة الجن، والآية ٢٨ من سورة الأحقاف.

(٢) سورة الحج: الآيات ٧٥.

٣ ـ الإيمان بالمعاد هو الضمانة الأكيدة لتطبيق الأحكام الإلٰهيّة من أجل إصلاح الفرد والمجتمع، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ﴾.

٤ ـ لا مكان للكتمان والإنكار في يوم القيامة؛ لذا تجد الإنسان يشهد على نفسه، ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

٥ ـ النزوع إلى الدنيا هو سبب عدم الاكتراث بدعوة الأنبياء، ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ...﴾ التعلّق بزخارف الدنيا يدفع بالإنسان إلى نسيان الآخرة.

٦ ـ الحب الشديد للدنيا يجرّ الإنسان إلى الكفر، ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا... أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾

إشارات:

□ لقد جرت سنّة الله بأن يُظهر سبحانه وتعالى طريق الحقّ عبر إرسال الأنبياء والمرسلين بالنُذُر إلى الناس، ليتمّ عليهم الحجّة من خلال تبيين الحقائق، ويعذّبهم إذا أعرضوا عن الإيمان بها. لقد ذُكرت هذه السنّة أو القانون العام في آيات عدّة، نذكر منها مثلاً ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾[١]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٢].

التعاليم:

١ ـ معاقبة المذنبين من شؤون الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾.

٢ ـ إنزال العقاب قبل الإنذار وإلقاء الحجّة ظلمٌ قبيح، ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٠٨. (٢) سورة الإسراء: الآية ١٥.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٣٢﴾

إشارات:

□ لا يُقصد بـ «**الدرجات**» في هذه الآية درجات الاعتلاء وحدها، بل تشمل دركات السقوط أيضاً.

التعاليم:

١ ـ الله تبارك وتعالى عادل، ويقرّر درجة كلّ عامل بحسب عمله، ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

٢ ـ سعادة الإنسان وشقاؤه رهنٌ بأعماله، ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

٣ ـ فلينتبه الإنسان لأنّه بعين الله تعالى وتحت مرآه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ۝١٣٣ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝١٣٤﴾

التعاليم:

١ ـ الله تعالى وحده الغنيّ المطلق، ونحن الفقراء إليه، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾.

وفي موضع آخر يقول ﷻ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[١].

٢ ـ يجب أن يخاف العاصون في هذه الدنيا ذلك أنّ الله تعالى قادر على محوهم بكل سهولة ويسر، ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾.

٣ ـ إنّ مردّ الظلم الذي ورد ذكره في آية سابقة، إمّا الحاجة، وإمّا قسوة القلب،

(١) سورة فاطر: الآية ١٥.

ولا حاجة لله تعالى لأيّ منهما، ﴿ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾.

٤ ـ ديمومة المجتمعات الإنسانيّة مرتبطة بالمشيئة الإلٰهيّة، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.

٥ ـ وجود البشر أو هلاكهم ليس فيه نفع أو ضرر لله تعالى، ﴿ٱلْغَنِىُّ... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.

٦ ـ لا يحتاج الله تعالى إلى عباداتنا، فالأحكام العبادية هي من أجل رشدنا وتكاملنا نحن، ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾.

٧ ـ الرحمة الإلٰهيّة شاملة، لكنّ تمادي الإنسان في غيّه يجعل الله تعالى، أحياناً، يُهلك الجميع، ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.

٨ ـ الوعد الإلٰهيّ حتمي لا هزل فيه، ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍۖ﴾.

٩ ـ في يوم القيامة، لا قدرة للمجرم على مواجهة القدرة الإلٰهيّة، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

التعاليم:

١ ـ النبي الكريم ﷺ مأمور بالثبات والحزم في تصدّيه للآخرين؛ لأنّه موقن بدعوته، ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌۖ...﴾.

٢ ـ تمرّد الناس لا يغيّر شيئاً في مسؤولية الأنبياء، ﴿إِنِّى عَامِلٌۖ﴾.

٣ ـ أعمال الناس هي التي تحدّد مصائرهم، ﴿ٱعْمَلُوا۟... فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٤ ـ حسن العاقبة والختام هو رمز النجاح، لا المظاهر والمحاولات العابرة، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ﴾.

٥ ـ لا يفلح الظالم أبدا، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٦ ـ الخروج عن طريق الله والأنبياء ظلم، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

إشارات:

□ أولئك الذين خرجوا عن مدار تربية الأنبياء وجنحوا نحو وادي الوهم والخيال، لا شك أنّ أقوالهم وقراراتهم أيضاً تحمل صبغة الوهم واللامنطق، بحيث أصبحوا يرون أنفسهم مالكين كلَّ شيء فأخذوا يقسّمون ويوزّعون بحسب أهوائهم. فتارةً جعلوا البنين من نصيبهم، والبنات من نصيب الله، ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾[1]، وأخرى قسّموا الغلات والأنعام بين الله والأصنام.

كان المشركون يؤمنون بأنّ النصيب المخصّص للأصنام لا يتغيّر، وكانوا ينفقونه على المعابد وسدنتها والقائمين عليها، لكنّهم كانوا ينفقون النصيب المخصّص لله على المعابد لا على الفقراء والضيوف، مبرّرين ذلك بأنّ الله ربّ السموات لا حاجة به إليه.

التعاليم:

١ ـ نعم، للإنسان دور في الزراعة وتربية المواشي، لكنّ الزارع والخالق الأصلي هو الله تعالى، ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾، وفي آية أخرى ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[2].

٢ ـ صحيح أنّ المشركين كانوا يجعلون لله شركاء من الأصنام، إلّا أنّهم كانوا يرون لله مرتبة خاصة من العزّة والغنى، ما جعلهم ينقصون من النصيب المخصّص لله قائلين إنّه لا حاجة به إليه، ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾.

٣ ـ تتلخّص رسالة الأنبياء في محاربة الخرافات، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

---

(١) سورة النجم: الآية ٢١.
(٢) سورة الواقعة: الآية ٦٤.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

إشارات:

- كما ظهر للمشركين أنّ تقسيم الحصص من الزرع والأنعام بين الله والشركاء عمل حسن ومحمود، فقد زيّنت لهم الشياطين كذلك قتل أبنائهم وتقديمهم كقرابين حبّاً في الأصنام.
- **«يردوهم»**: من **«الإرداء»** وهو الإهلاك.
- كان المشركون يئدون البنات إمّا خيفة العار، ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾[1]، أو خيفة العيلة والفقر ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾[2]، أو كانوا يعتبرون أنّ ذلك يقرّبهم إلى الأصنام، وكلّ ذلك هو بسبب تزيين الشيطان أفعالَهم.

التعاليم:

١ ـ المعتقدات الخاطئة والخرافية تدفع بالإنسان إلى قتل ابنه قرباناً للأصنام الخشبية والحجرية، وأن يفخر بهذا العمل، ﴿زَيَّنَ... قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾.

٢ ـ المجرمون حتى في قتل أبنائهم يقدّمون تبريرات واهية من أجل إراحة نفوسهم وضمائرهم، ﴿زَيَّنَ﴾.

٣ ـ عند توجيه النقد يجب مراعاة الإنصاف والاعتدال، ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا أن يوجّه النقد للجميع دون استثناء.

٤ ـ تبرير المعاصي وتزيين القبائح هو عامل الهلاك والسقوط، ﴿زَيَّنَ﴾... ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾.

٥ ـ النزوع إلى الخرافات هو سبب الانتقاء واختلاط الدين بالشبهات، ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾.

---

(١) سورة النحل: الآية ٥٩. (٢) سورة الإسراء: الآية ٣١.

٦ ـ على النبي الإبلاغ لا الإكراه، فإذا لم يصغ الناس، فيجب تركهم لشأنهم والبحث عن القلوب المستعدّة للهداية، ﴿فَذَرْهُمْ﴾.

٧ ـ ينبغي لطلاب الحقّ ألّا ييأسوا من أفكار المنحرفين وسلوكهم، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

٨ ـ الافتراء على الله تعالى هو أن نجعل له شريكاً، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

إشارات:

- «الحجْر» هو المنع، و«**التحجير**» هو أن يبنى حول المكان بالحجارة ليمنع عمّا وراءه للاستيلاء عليه، «**حِجر إسماعيل**» هو مكان مفصول عن سائر أقسام المسجد الحرام بجدار حجري. وقيل للعقل: حجر، لكون الإنسان في منع منه مما تدعو إليه نفسه من القبائح، ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾[١].
- ذكرت الآية قبل السابقة، مسألة المعتقدات الخرافية للمشركين حول نصيب الله والأصنام من الزرع والأنعام، وهنا تتناول الآية كيفية التصرّف في النصيب المخصّص للأصنام، إذ ليس لأحد الحقّ في التصرّف إلّا خدم الأصنام والمعابد.
- تسجّل هذه الآية أربع خرافات ارتكبها المشركون وهي:
  ١ ـ تحريم عدّ بعض الأنعام.
  ٢ ـ تحريم بعض المحاصيل الزراعية.
  ٣ ـ تحريم ركوب بعض المطايا.
  ٤ ـ عدم ذكر اسم الله عند ذبح بعض الحيوانات.
- يذكر القرآن الكريم أنّ الهدف من خلق الأنعام والدواب هو ركوبها وأكل

---

(١) سورة الفجر: الآية ٥.

لحومها: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[1] لذا، فهو يعتبر تحريم الانتفاع بالأنعام من بدع الجاهلية، إذ تكرّر ذكر ذلك في الآية ١٠٣ من سورة المائدة.

□ الإسلام شريعة شاملة وجامعة، ولا يسمح بالانحراف حتى في مسألة الانتفاع بالأنعام والدواب.

عندما يحمل القرآن الكريم على تحريم أكل الحيوان وتحريم ركوبه، فمن باب أولى، أن يكون تحريمه أشدّ لمسألة عدم استغلال الإنسان والموارد والثروات والمواهب.

التعاليم:

١ ـ يجب أن تُنسب أحكام الدين إلى الله، لا إلى الظنّ، والوهم، والقياس، والاستحسان، ﴿وَقَالُوا... بِزَعْمِهِمْ... افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾.

٢ ـ محاربة الخرافات إحدى المسؤوليات الرئيسة الملقاة على عاتق الأنبياء، ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم﴾.

٣ ـ تحريم الحلال وتحليل الحرام هو افتراء على الله، ﴿هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ... افْتِرَاءً﴾.

٤ ـ فلينتظر أصحاب البدع العذاب بسبب القوانين الوهميّة التي ابتدعوها، ﴿سَيَجْزِيهِم﴾.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

إشارات:

□ التعرّف على خرافات العصر الجاهلي، تسلّط الضوء على الجهود الجبّارة

---

(١) سورة غافر: الآية ٧٩.

للرسول الكريم ﷺ في هداية هؤلاء القوم، وتبقي على روح العرفان بالجميل في الإنسان نابضة ومتّقدة.

التعاليم:

١ ـ التمييز التعسّفي بين المرأة والرجل عمل جاهلي منبوذ، ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾.

٢ ـ احتقار المرأة في العصر الجاهلي وصل أحياناً إلى درجة منعها من الانتفاع بالحيوان الحيّ، وكان لها نصيب في الحيوان الميّت فقط، ﴿شُرَكَآءُ﴾.

٣ ـ العذاب الإلٰهيّ يستند إلى علمه وحكمته ﷻ، ﴿سَيَجْزِيهِم... حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

إشارات:

- يُنْقَل عن ابن عباس وهو من كبار شخصيات عصر صدر الإسلام: إنّ من شاء أن يدرك مدى التخلّف والخرافات والمعتقدات الباطلة للمشركين التي كانت سائدة في العصر الجاهلي فعليه أن يقرأ سورة الأنعام[1].
- كان العرب في الجاهلية، يقتلون بناتهم قرباناً للأصنام أو يئدونهنّ وذلك ظنّاً منهم في التقرّب أكثر من الأصنام أو خشية العار.

التعاليم:

١ ـ الجهل والسفه هما خسارة للإنسان، خسارة في الأبناء والعاطفة والنعم التي أحلّها الله لنا، ليكتسب المرء في المقابل جهنم والعذاب الإلٰهيّ، ﴿قَدْ خَسِرَ﴾.

(١) الأمثل في تفسير الكتاب الله المنزل.

٢ ـ الخسران الحقيقي هو أن يضحّي الإنسان بنفسه في سبيل الباطل، سواء أكانت هذه التضحية قرباناً للأصنام أم فداءً لوهم أو عصبيّة فارغة، ﴿قَدْ خَسِرَ﴾.

٣ ـ تحريم ما أحلّ الله هو افتراء عليه سبحانه وتعالى، ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً﴾.

٤ ـ القيام بأيّ عمل أو تحريم أيّ شيء بحاجة إلى دليل شرعي أو عقلي، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ... افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾.

٥ ـ لا بدّ لنا من محاربة الخرافات بأشدّ السبل، ﴿قَدْ خَسِرَ... سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ... افْتِرَاءً... ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾

إشارات:

- «جنات»، بساتين ومزارع تحوي أنواع الأشجار ومغطاة بالنباتات. **«معروشات»**، أي أشجار ممسوكات ومرفوعات أي تحتاج إلى عريش، **«أُكُل»** بمعنى المأكول والطعام.

- مرّ علينا في الآية ٩٩ من هذه السورة: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾. أمّا الآية التي نحن بصددها فتقول: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾، والحصيلة هي: أنّ أكل الإنسان الثمرَ يجب أن يقترن بالتأمّل والتدبّر بعيداً عن الغفلة أو العفوية.

- سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فقال: «كان فلان بن فلان الأنصاري ـ سمّاه ـ

وكان له حرث وكان إذا أخذ يتصدّق به ويبقى هو وعياله بغير شيء فجعل الله ﷻ ذلك سرفاً»[١].

□ في الحقيقة، إنّ هذه الآية الكريمة تقدّم دروساً في التوحيد، ومعرفة الله، مع بيان حليّة تناول الأطعمة، وتقديم العون للطبقات الفقيرة والمحرومة، والإنفاق عليها، ومراعاة الاعتدال والاقتصاد، واجتناب الإسراف والتبذير في الإنفاق.

﴿أَنشَأَ... كُلُوا... وَءَاتُوا... وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾، كما ورد في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[٢].

□ سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله ﷻ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ فقال: **«أعط من حضرك من المسلمين، وإن لم يحضرك إلّا مشرك فأعطه»**[٣].

وفي رواية أخرى قال عليه السلام: **«حقّه يوم حصاده عليك واجب، وليس من الزكاة»**[٤].

□ وأيضاً عنه عليه السلام: **«لا تصرم بالليل ولا تحصد بالليل، ولا تضحّ بالليل، ولا تبذر بالليل، فإنّك إن تفعل لم يأتك القانع والمعترّ»**، فقلت: ما القانع والمعترّ؟ قال: **«القانع الذي يقنع بما أعطيته، والمعترّ الذي يمرّ بك فيسألك»**[٥].

وجاء أيضاً في سورة «ن والقلم» في الموضوع نفسه ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ تنوّع الفواكه والمحاصيل الزراعية ومن الأرض نفسها والمياه نفسها، تجسيد لقدرة الله ﷻ، ﴿أَنشَأَ... مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾.

٢ ـ لقد عيّن الله تعالى لنفسه حقّاً في المحاصيل، ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾، فكلّ شيء في

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٧.
(٣) بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٩٦.
(٤) تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٥٧.
(٥) الكافي، ج ٣، ص ٥٦٥.

الطبيعة: النور، والهواء، والمياه، والتربة، والموارد البشرية، والعقل، والموهبة. . . كلّها من عند الله تعالى، لذلك، فإنّ له ﷻ حقاً في كلّ شيء.

٣ ـ يجب مراعاة الاعتدال في الإنفاق، ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾.

٤ ـ الدين الإسلامي دين الاعتدال، ففي الآية السابقة لم يُجز التعسّف في التحريم، وهنا ينهى عن الإسراف في الإنفاق، ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾.

٥ ـ شرط الانتفاع هو إيتاء حقّ المحرومين، ﴿كُلُوا۟... وَءَاتُوا حَقَّهُۥ﴾.

٦ ـ مقدار الانتفاع مشروط بعدم الإسراف، ﴿كُلُوا۟... وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾.

٧ ـ لا ننسَ المحرومين حين الحصاد والقطاف، ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾.

٨ ـ عندما يثمر المحصول، تزداد قدرة الإنسان على الإنفاق، إذن، ينبغي اغتنام هذه الفرصة وعدم هدرها، ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾.

٩ ـ لا تأكلوا من الثمر إلّا ما كان يانعاً، ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾.

١٠ ـ يمقت الله تعالى المسرفين، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

إشارات:

- أشارت الآية السابقة إلى نعم الله تعالى من المحاصيل الزراعية، وهنا تستعرض نعمه ﷻ من الأنعام والوجوه المختلفة لانتفاع الإنسان منها.
- المراد بكلمة ﴿فَرْشًا﴾، الأنعام الصغيرة التي يؤكل لحمها مثل الغنم. ويبدو أنّ السبب في هذه التسمية هو لطافة أجسامها وقربها من الفرش، وهي الأرض المستوية التي يتوطؤها الناس، أو بسبب صوفها ووبرها اللذان يستعملان في صنع السجاد.
- اجتمع قول معظم المفسّرين على أنّ كلمة ﴿حَمُولَةً﴾ هي الحيوانات التي تصلح للركوب، أو ما أطاق الحمل والعمل من الحيوانات، و«**الفرش**» هي الحيوانات الحلوبة غير الركوبة.

التعاليم:

١ ـ الطبيعة وما فيها من مخلوقات مسخّرة لخدمة الإنسان، ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾.

٢ ـ القانون العام للحيوانات هو حليّة لحومها ما لم يأت دليل على حرمتها، ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

٣ ـ تحريم ما أحلّ الله هو من خطوات الشيطان، ﴿كُلُوا... وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

٤ ـ لا يجوز الانجرار وراء الدعوات المنتشرة اليوم والتي تنادي بالامتناع عن أكل اللحوم، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ... كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

٥ ـ يجب توخّي الحذر في ما يتعلّق بالأطعمة، ﴿كُلُوا... وَلَا تَتَّبِعُوا﴾، ولا ننس بأنّ أوّل سلاح استخدمه الشيطان لإضلال النبي آدم عليه السلام كان الطعام.

٦ ـ لا يليق بنا أن نأكل من مائدة الله تعالى وننصر عدوّه، ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

٧ ـ خطّة الشيطان هي إضلال الإنسان تدريجياً لا دفعة واحدة، ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)﴾

إشارات:

□ «**الزوج**» تقال للذكر والأنثى معاً، أو لكلّ واحد من الزوجين على حدة، والمعنى الأخير هو المقصود في هذه الآية، لذا يكون ثمانية أزواج بمعنى

الذكور الأربعة من الأصناف الأربعة المذكورة في الآية ١٤٣ والإناث الأربع من تلك الأصناف المذكورة في الآية ١٤٤. لقد وردت كلمة «زوج» في الآية ٤٥ من سورة النجم بمعنى الفرد (أي الذكر أو الأنثى) وليس كليهما، ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

- الآية ٦ من سورة الزمر، تذكر خلق ثمانية أزواج من الحيوانات من ذكر وأنثى إلى جانب خلق الإنسان، ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾.
- ربّما كان ترتيب ذكر أسماء الحيوانات الأربعة إشارة إلى أنّها المفضلة لجهة أكل لحومها، (الغنم، الماعز، الإبل، البقر).
- فسّرت بعض الروايات عبارة ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ بأنّها ١٦ حيوان، فيكون المراد من الأزواج الثمانية في الآية: الداجن من تلك الأصناف الأربعة وما يقابلها من البرّي، أي الذكر والأنثى من الغنم الداجن والذكر والأنثى من الغنم البرّي وهكذا...، فتكون الأزواج حينئذٍ ثمانية. وعن أيوب بن نوح بن دراج، قال: سألت أبا الحسن الإمام الهادي عليه السلام عن الجاموس، وأعلمته أن أهل العراق يقولون إنه مسخ، فقال: «**أو ما سمعت قول الله**: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾»[1]؟!

التعاليم:

١ ـ الإفتاء أو الإيمان بحليّة أو حرمة شيء يقتضي أن يتوافر الإنسان على العلم، ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾.

٢ ـ الحليّة لا تحتاج إلى برهان، لأنّ الأصل في حليّة الأطعمة، بينما الحرمة تحتاج إلى دليل وبرهان، ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ... نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾.

٣ ـ أعظم الظلم، الافتراء على الله، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾.

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٥٨.

٤ ـ الكذب على الله تعالى مدعاة لإضلال الناس، ﴿لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾.
٥ ـ الافتراء يُخرج الإنسان عن دائرة الاستعداد للهداية، ﴿لَا يَهْدِى﴾.
٦ ـ المعتقدات إمّا أن تكون مستندة إلى العلم والعقل كما مرّ في الآية السابقة ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾، وإمّا على أساس الشريعة ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

إشارات:

- لا يقتصر لفظ «الميتة»، على الحيوانات النافقة فحسب، بل إنّ جميع الحيوانات التي لم تذبح طبقاً لما نصّت عليه أحكام الإسلام تعتبر في حكم الميتة وبالتالي محرّم تناولها.
- ذكرت حرمة الميتة والدم أربع مرات في القرآن الكريم، مرّتين في السور المكيّة[1]، واثنتين أخريين في السور المدنية[2].
- ﴿أُهِلَّ﴾ من «الإهلال» ويعني رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثمّ استعمل لكلّ صوت رفيع، كما إنّه يطلق على بكاء الصبي عند الولادة الاستهلال، وإذ إنّهم كانوا يذكرون أسماء أصنامهم بصوتٍ عالٍ عند ذبح الأنعام، عُبّر عن فعلهم هذا بالإهلال.
- عبارة ﴿لَّآ أَجِدُ... إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ تتعلّق بشكل خاص بنفي الأحكام الخرافية التي كانت شائعة في أوساط المشركين، إذ إنّه من المعلوم أنّ الأطعمة المحرّمة لا تنحصر في هذه الأشياء، فتوجد أيضاً لحوم الحيوانات المفترسة

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٥؛ سورة النحل: الآية ١١٥.

(٢) سورة البقرة، ١٧٣؛ سورة المائدة، ٣.

ولحوم الجوارح والتي لم تذكر في هذه الآية، فالحصر هنا هو حصر إضافي لا حقيقي.

- إنّ أحكام المضطرّ من وجهة نظر الإسلام تشمل الذي تعرّض للاضطرار مكرهاً لا من أقحم نفسه في طريق البغي، أو الاعتداء، أو المعصية ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾، وبشرط أن لا يتجاوز ذلك حدّ الضرورة ﴿وَلَا عَادٍ﴾.

التعاليم:

١ ـ الوحي الإلٰهيّ هو المصدر الوحيد لرسول الله ﷺ في تفسير الأحكام، ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

٢ ـ الأساس هو حليّة لحوم الحيوانات، ﴿لَّآ أَجِدُ﴾.

٣ ـ المحرّمات المصرّح عنها في الآيات والروايات هي التكاليف فقط، وكلّ شيء حلال ما لم نجد بعد البحث والتمحيص دليلاً على حرمته، ﴿لَّآ أَجِدُ﴾.

٤ ـ إذا كان على النبي الكريم ﷺ أن يتلقّى أوامر الوحي حتى في مسائل حليّة الأطعمة وحرمتها، فكيف يسوّغ الآخرين من تلقاء ذاتهم تحريم الأشياء ﴿فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾؟

٥ ـ سبب تحريم لحم الخنزير هو النجاسة والرجس، ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾.

٦ ـ لا تمييز في أحكام الأطعمة بالنسبة للرجل والمرأة، ﴿طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾؛ بخلاف عقائد المشركين التي وردت في الآية ١٣٩ من هذه السورة والتي يحلّون فيها للرجال لحوم جميع الحيوانات، ويحرّمون بعضها على النساء، ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾.

٧ ـ يجب مراعاة الأولويات في القانون، فالمحافظة على النفس أهمّ من أكل لحم الميتة، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾.

٨ ـ لا يوجد طريق مسدود في الإسلام، فالضرورات تبيح المحظورات، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾.

٩ ـ لا يجوز استغلال القوانين في الحالات الاستثنائية، ويجب عدم تجاوز حدّ الضرورة، ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾.

١٠ ـ الدم المتبقي في شرايين الحيوان المذبوح على الطريقة الشرعيّة غير محرّم، بل الدم المراق المسفوح هو المحرّم، ﴿دَمًا مَّسْفُوحًا﴾.

١١ ـ عندما يتعرّض المرء إلى اضطرار قاهر، بمقدوره أكل اللحوم المحرّمة، ولكن أن يُقحم نفسه وبإرادته في حال الاضطرار فلا يجوز له في هذه الحالة أكل تلك اللحوم. كلمة ﴿اضْطُرَّ﴾ وردت في صيغة المبني للمجهول، فتأمّل ذلك.

١٢ ـ وجود تشريعات للتخفيف من حالات الاضطرار هو تجسيد للمغفرة والرحمة الإلٰهيّة، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ... فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

إشارات:

- تحدّثت الآية السابقة عن المحرّمات في الإسلام، وتشير هذه الآية إلى بعض ما حرّمه اليهود ليتبيّن أنّ أحكام الوثنيّين الخرافية والمجهولة لا تنطبق لا على أحكام الإسلام ولا على أيّ دين من الأديان السماوية[١].

- «الظفر» هو المخلب، ولكنّه يطلق أيضاً على ظلف الحيوانات من ذوات الأظلاف (من الحيوانات التي لها أظلاف غير منفرجة الأصابع كالحصان لا كالغنم والبقر التي لها أظلاف منفرجة) لأنّ أظلافها تشبه الظفر، كما إنّه يطلق على خفّ البعير الذي يكون منتهاه مثل الظفر، ولا يكون فيه انفراج مثل انفراج الأصابع، وعلى هذا الأساس، فإنّ المستفاد من الآية الكريمة هو أنّ جميع

(١) الأمثل في تفسير الكتاب الله المنزل.

الحيوانات التي لا تكون ذات أظفار ـ دواباً أو طيوراً ـ كانت محرّمة على اليهود[١].

□ ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ جمع «حاوية»، وهي مجموعة ما يوجد في بطن الحيوان والتي تكون على هيئة كرة تتضمن الأمعاء[٢].

□ لقد ورد في الآية ١٦٠ من سورة النساء: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾. وجاء في آية أخرى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[٣].

□ تحريم بعض الأطعمة على اليهود كان تحريماً مؤقتاً، وقد رفع من قبل النبي عيسى عليه السلام، ويؤيّد ذلك ما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[٤].

□ الأحكام الإلٰهيّة على ثلاثة أوجه:

أ ـ تنطوي على مصلحة أو مفسدة حقيقيّة، مثل معظم الأحكام.

ب ـ تحمل عنصر الامتحان والابتلاء مثل الأمر الإلٰهيّ بذبح إسماعيل.

ج ـ أو تتميّز ببعدٍ تأديبي عقابي مثل هذه الآية.

إذن، إحدى العقوبات الإلٰهيّة هي تضييق منافذ العيش.

التعاليم:

١ ـ أحياناً يُسمح بتحريم بعض الأطعمة على المذنبين والأشرار، ﴿حَرَّمْنَا... بِبَغْيِهِمْ﴾.

٢ ـ العذاب الإلٰهيّ لا يقتصر على الآخرة فحسب، بل ثمة عذاب دنيوي أيضاً، ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾.

---

(١) التوراة، سفر اللاويين، الفصل ١١.

(٢) الأمثل في تفسير الكتاب الله المنزل.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٩٣.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٥٠.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ على القائد أن يكون مستعدّاً دائماً لسماع التكذيب والافتراء من قبل بعض الناس، ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل...﴾.

٢ ـ في البداية يجب أن يكون التعامل مع المكذّبين رحيماً خيّراً، وإذا لم ينفع، يتمّ حينذاك اللّجوء إلى وسائل التهديد والوعيد، ﴿ذُو رَحْمَةٍ... وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾.

٣ ـ الرجاء والخوف مع بعضهما متنجان وفاعلان، ﴿ذُو رَحْمَةٍ... بَأْسُهُۥ﴾.

٤ ـ أبواب الرحمة الإلٰهيّة لا تُغلق حتى بوجه الأعداء، ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾.

٥ ـ رحمة الله سبقت غضبه، ﴿ذُو رَحْمَةٍ... بَأْسُهُۥ﴾.

٦ ـ سعة رحمة الله تعالى لا تحول دون إنزاله العقاب، ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ... وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ وحتى عقابه يصبّ في مسير تربية الإنسان ونابع من رحمته وربوبيّته.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

إشارات:

□ تحمل الآية الكريمة إخباراً بالغيب عمّا سيقوله المشركون: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، وقد وقع بالفعل ما تنبأت به الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾[1].

---

(١) سورة النحل: الآية ٣٥.

- لقد تكرّرت هذه الاستدلالات الواهية للمشركين وقالوا إنّ الله لو أراد أن لا نكون مشركين وأن لا يكون آباؤنا وثنيين لفعل: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، كما وردت في الآية ٣٥ من سورة النحل، والآية ٢٠ من سورة الزخرف.

- **سؤال:** تنقل الآية الكريمة كلام المشركين من أنّه إذا كان الله غير راضٍ عن شِركنا فلِمَ لم يمنعنا عنه؟ إذن، الله راضٍ عن شركنا!

الجواب: إنّ أيّ عمل يصدر عن أيّ شخص ليس بخارج عن دائرة القدرة الإلٰهيّة، بيد أنّ المشيئة الإلٰهيّة اقتضت أن يختار الإنسان طريقه بملء اختياره وبحرّية تامّة، ويمكن أن نضرب لذلك مثلاً وهو عندما تجهّزنا الحكومة بخدمات الماء، والكهرباء، والغاز، فهذا لا يعني أنّها راضية عن سوء استخدامنا هذه الخدمات. فالله تعالى منح الإنسان عقلاً ووحياً، وأراه طريق الحقّ وطريق الباطل، وأعطاه كامل الحرّية لاختيار الطريق الذي يرغب، لكنّ هذه الإرادة والحرّية لا تعني أنّه سبحانه وتعالى راضٍ عن اختيارنا لطريق المعاصي.

- يريد الله تعالى أن يؤمن الناس إرادياً ودون إكراه، لقد ورد مراراً في القرآن الكريم أن لو شاء الله لهدى الناس جميعاً وأنّ الأنبياء ليس لهم أن يُكرهوا الناس على الإيمان.

التعاليم:

١ ـ على القادة والمفكرين الدينيين أن يستعدّوا للردّ على الشبهات والأعذار في المستقبل، ﴿سَيَقُولُ﴾.

٢ ـ الهدف من إرسال الأنبياء والكتب السماوية أن يختار الناس طريق التوحيد بملء إرادتهم وحريّتهم. إذن، فتبريرات المشركين في أنّه لو أراد الله منعنا من الشرك لفعل، إنّما هي تبريرات خاطئة، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾.

٣ ـ تبرير الذنب أقبح من ارتكابه، كان المشركون يبرّرون شركهم، ويعتبرونه مشيئة الله، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ العقيدة الجبرية نافذة للهروب من المسؤولية.

٤ ـ يبرّر المشركون انحرافهم بالاستناد إلى تاريخ الأجداد، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾.

٥ ـ عقيدة الجبر هي من تبريرات المنحرفين الواهية، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾.

الشيطان أيضاً، وهو زعيم المنحرفين، عزا ضلاله إلى الله قائلاً: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾[1].

٦ ـ لطالما كذّب الأعداء الأنبياء بسلاح الجبرية، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٧ ـ القرآن الكريم يطالب الأعداء أيضاً بالدلائل والبراهين، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾.

٨ ـ الذين يهربون من المسؤولية بحجة المصير والعاقبة المحتومان عليهم ترقّب العذاب الإلٰهيّ، ﴿ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾.

٩ ـ أنصار الجبرية لا منطق لديهم سوى أنّهم يسعون وراء الأوهام، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

١٠ ـ إذا استعضنا عن العلم واليقين بالظن والشبهة فسنضلّ الطريق، ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

إشارات:

□ لقد أتمّ الله تعالى الحجة على الناس إذ أودع بين جوانح الإنسان الفطرة التوحيدية مضافاً إلى ما وهبه من هداية الأنبياء ونعمة العقل، وبيّن له طريق الخير والشر وسوء العاقبة أو حسنها.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٣٩.

□ باب التوبة والإصلاح مفتوح للمذنبين. إنّ المعاجز الواضحة للأنبياء، ونهجهم الصالح في الدعوة، واستدلالاتهم المحكمة، والانسجام الذي يجمع بين الفطرة والعقل، كل ذلك وغيره الحجّة على الناس.

□ وعلى الرغم من كلّ ذلك، فإنّ المشركين لا يملكون إلا الظنّ والوهم كدليل على شركهم، وهم باختيارهم طريقاً غير طريق الله تعالى، إنّما يتّبعون، في الحقيقة، طريق الأهواء والأخطاء والضعف والأفق العلمي والفكري الضيّق.

□ جاء في الروايات أنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «**عبدي أكنت عالماً؟**» فإن قال: نعم، قال له: «**أفلا عملت بما علمت**» وإن قال: كنت جاهلاً قال له: «**أفلا تعلّمت حتى تعمل فيخصمه**»، فتلك الحجة البالغة[1].

التعاليم:

١ ـ وحده الله تبارك وتعالى الذي بيده الحجّة البالغة، ونحن جميعاً نقف قاصرين بين يديه، خالي الوفاض ومذنبين، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ﴾.

٢ ـ لا يوجد غموض أو عذر للأعداء في السبيل إلى الله ليستخدموه كشماعة، سواء في الاستدلال، أم في السابقة، أم في صفات النبي الكريم ﷺ، أو في أسلوب تعامله معهم، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾.

٣ ـ المشيئة الإلٰهيّة تقتضي أن يختار الإنسان طريق الهداية بإرادته وحرّيّته، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ﴾.

٤ ـ إرادة الله حتميّة، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

إشارات:

- الدين الإسلامي دين المنطق، والعقل، والحرّية، في الآية قبل السابقة يوجّه الله تعالى سؤالاً إلى المشركين: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾، وهنا أيضاً يخاطبهم بالقول: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾.
- بدايةً تقول هذه الآية: ائتوا بشهدائكم ليشهدوا لكم، ثمّ تستطرد فتقول: حتى لو جاؤوا بشهدائهم فلن يُقبل منهم، (لأنّهم غير صادقين).
- ﴿يَعْدِلُونَ﴾ من «عِدل» بمعنى الشريك والشبيه، وعلى هذا الأساس فإنّ مفهوم عبارة ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ هو أنّهم كانوا يعتقدون بشريك وشبيه لله سبحانه.

التعاليم:

١ ـ إحدى مسؤوليات الدعاة الدينيين محاربة البدع، ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ... أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾.

٢ ـ ليست كلّ شهادة صادقة ومعتبرة، ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾.

٣ ـ حذار أن ترمي بنا ظروف البيئة والمجتمع وأجواؤهما في مستنقع الخطأ، ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾، تصديق شهداء الزور وتأيدهم حرام.

٤ ـ لا يصحّ اتّباع القوانين الوضعيّة إذا كانت مستلهمة من أهواء الكفّار، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا...﴾.

٥ ـ لا ينبغي للإنسان المؤمن أن يتّبع سنن المشركين وقوانينهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا...﴾.

٦ ـ يؤمن المشركون بأنّ الله هو الخالق، لكنّهم يجعلون له شركاء في تدبير أمور الكون وإدارته، ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾

إشارات:

- في هذه الآية والآيتين اللّاحقتين تتمّ الإشارة إلى عدد من المبادئ والتعاليم المهمّة، والتي تعدّ من المشتركات التي تجتمع عليها كلّ الأديان السماوية. وقد ورد ما يشبه هذه التعاليم في التوراة في سفر الخروج الباب ٢٠.
- روي أنّ اثنين من زعماء المدينة جاءا إلى رسول الله ﷺ، فلمّا تلا الرسول الكريم هذه الآيات أعلنا إسلامهما وطلبا منه أن يبعث معهما رجلاً داعياً يعلّم قومهما القرآن وشؤون الدين، فبعث النبي الكريم معهما مصعب بن عمير. ومنذ ذلك الحين أسّست قواعد الإسلام في المدينة وتغيّر وجه يثرب.
- يوصي القرآن الكريم في أربع آيات[1] بالإحسان إلى الوالدين، وفي جميع هذه الآيات تقترن الوصيّة بمسألة التوحيد والنهي عن الشرك. ولمّا كانت هذه الآية تستعرض المحرّمات في الإسلام، فيكون، على هذا الأساس، ترك الإحسان إلى الوالدين من المحرّمات.
- التعاليم الخمسة المذكورة في هذه الآية متواشجة مع بعضها لدرجة أنّها تبدو وكأنّها تعليم واحد، ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾؛ لاحظ أنّ الضمير «به» جاء في صيغة المفرد.

(١) سورة البقرة: الآية ٨٣؛ سورة النساء: الآية ٣٦؛ سورة الأنعام: الآية ١٥١؛ سورة الإسراء: الآية ٢٣.

□ سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن معنى الإحسان في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فقال: **«الإحسان أن تُحسن صُحبتهما وأن لا تُكلّفهما أن يسألاك شيئاً ممّا يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين»**[1].

التعاليم:

١ ـ إحدى مسؤوليات الأنبياء تبيين الأحكام الإلٰهيّة للناس، ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾.

٢ ـ لمّا كان الأصل هو حليّة الأشياء، من هنا، فإنّ الأشياء المحرّمة فقط هي المذكورة، ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾.

٣ ـ لم يحرّم الأنبياء شيئاً من عند أنفسهم، فالله تعالى هو الذي شرّع محرّمات الدين، ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾.

٤ ـ تحريم المنكرات هو من أجل تكامل الإنسان وتربيته، ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾.

٥ ـ الشرك أساس كلّ المفاسد، لذا ذكر على رأس المحرّمات، ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾.

٦ ـ التوحيد أوّلاً ثمّ الإحسان بالوالدين، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

٧ ـ تعاليم هذه الآية جاءت كلّها في صيغة النهي عدا الإحسان بالوالدين الذي جاء في صيغة الأمر، وهو لا يطلب عدم إيذائهما فحسب، بل الإحسان إليهما أيضاً، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

٨ ـ قتل الأبناء والإجهاض خيفة العيلة والفقر هو من عمل الجاهلية، الله تكفّل برزقهم، فلِمَ الخشية من الفقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾؟

٩ ـ المطلوب إصلاحان، إصلاح المجتمع من المفاسد، وإصلاح الروح من الرذائل، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

١٠ ـ بعض المعاصي خطيرة لدرجة أنّه ينبغي عدم الاقتراب منها، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾.

١١ ـ التعاليم الإلٰهيّة تنسجم مع العقل أو أنّها مقدّمة لتفتّقه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) الكافي، ج ٢، ص ١٥٧؛ بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٩.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

إشارات:

□ الله تعالى ينجز أعماله على أفضل وجه: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1]، ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]، ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ...﴾[3]، وغيرها من الآيات، وهو عزّ جلّ يطلب منّا أن نكون كذلك وننجز أعمالنا على أحسن صورة، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[4] سواء في السلوكيات والنشاطات الاقتصاديّة، ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[5]، أم في التخاطب مع المناوئين ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[6]، أم في القبول بكلام الآخرين ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[7]، أم في دفع شرور الناس من خلال تقديم الجواب الأفضل والأنسب ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾[8]، ونلاحظ استخدام لفظة «أحسن» في جميع هذه الآيات الكريمة.

□ لقد ذاق قوم النبي شعيب عليه السلام عذاباً شديداً بسبب تطفيفهم، وقد ورد النهي عن التطفيف في القرآن الكريم ثلاث مرات.

□ كلمة «كيل» تأتي في صيغتي الاسم (أداة الكيل) والفعل، و(كلتُ له الطعام). يمكن أن يكون متعلّق «قسط» هو «اوفوا» أي بمعنى أعطوا الكيل حقّه، أو يتعلّق بالكيل والميزان، أي أن يكون الميزان سليماً لا يبخس الوزن. طبعاً، النتيجة واحدة في كلتا الحالتين.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٤.
(٢) سورة التين: الآية ٤.
(٣) سورة الزمر: الآية ٢٣.
(٤) سورة هود: الآية ٧.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١٥٢.
(٦) سورة النحل: الآية ١٢٥.
(٧) سورة الزمر: الآية ١٨.
(٨) سورة المؤمنون: الآية ٩٦.

التعاليم:

١ ـ حذار أن نقرب مال اليتيم فلا يوجد من يدافع عنه، كما إنّ التصرف في ماله منزلق خطر، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾.

٢ ـ من أجل المحافظة على حقوق اليتيم يجب اختيار أفضل السبل لتنمية أمواله، ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ لا ينبغي لأحد أن يقرب مال اليتيم إلّا من امتلك الجدارة الاقتصاديّة والتقوى اللازمة، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا... إِلَّا﴾.

٣ ـ يجب رفع الوصاية عن اليتيم عندما يبلغ مرحلة الرشد ويكتسب الخبرة اللازمة، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

٤ ـ يجب أن يبتني النظام الاقتصادي للمجتمع المسلم على القسط والعدل، ﴿بِالْقِسْطِ﴾.

٥ ـ إذا لم يتيسّر تطبيق العدالة في حدّها الأعلى، فلا نترك الحدّ الأدنى والعمل بالممكن، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٦ ـ لا يوجد في التعاليم، والأوامر، والنواهي الإلٰهيّة ما يفوق وسع الإنسان وطاقته، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٧ ـ لا تكليف دون تمكين، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٨ ـ العدالة هي الأساس، إن في السلوك أو في القول، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ. . . قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾، لا بدّ من مراعاة العدالة في الشهادة، أو الوصية، أو القضاء، أو صدور الأحكام، أو النقد، أو المدح.

٩ ـ يجب الوفاء بالعهود الإلٰهيّة بما في ذلك أوامر العقل، والوحي، والضمير، والفطرة، تشمل عبارة ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ﴾ عهود الله تعالى مع الإنسان، أو العهود التي يقطعها الإنسان مع ربّه، ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾.

١٠ ـ حذار من تغليب علاقة القربى على ضوابط الحقّ والعدل، ﴿فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

إشارات:

- يقوم النبي الكريم ﷺ بتوضيح هذه الآية للصحابة بأسلوب تطبيقي وذلك بأنّ يخطّ بيده الشريفة خطّاً مستقيماً على الأرض ثمّ يقول هذا خطّ مستقيم واحد لا أكثر، ثمّ يخطّ خطوط عدّة يمين الخط المستقيم وشماله ويقول هذه الطرق الذي يدعو إليها الشيطان[1].
- في ختام الآيات الثلاث الأخيرة توجد ثلاث عبارات مختلفة هي:

في ختام الآية ١٥١ التي تنهى عن الشرك والقتل والفحشاء، جاءت عبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ بمعنى أنّ قليلاً من التفكر والتدبّر سيبيّن للجميع قبح هذه المسائل التي تطرحها الآية.

وبالنسبة إلى مضمون الآية ١٥٢ الذي يتناول مسألة حفظ مال اليتيم، ومراعاة مبادئ العدالة، والوفاء بالعهد فقد ختمت بالعبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وتعني أنّ الجميع يدرك بالفطرة والبديهة جمال العدل وحسنه، ولكن ذلك يحتاج فقط إلى التذكير.

أمّا هذه الآية التي تتحدّث عن أحكام الله، فقد ختمت بالعبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وفي ذلك إشارة إلى أنّ التقوى هي السير في طريق الطاعة الإلٰهيّة.

- علمنا في آية سابقة أنّ «النور» واحد، و«الظلمات» متعدّدة، وكذا الصراط المستقيم فهو واحد لا أكثر فيما الطرق المنحرفة متعدّدة وكثيرة. (لاحظ أنّ **«الصراط»** جاء في صيغة المفرد فيما ذكرت **«سُبل»** جمعاً).
- نقرأ في الروايات أنّ التجسيد الحيّ للصراط المستقيم هو رسول الله ﷺ والأئمة المعصومون من أهل بيته[2].

---

(١) تفسير المراغي.

(٢) تفسير نور الثقلين.

التعاليم:

١ ـ اتّباع النهج الإلٰهيّ والابتعاد عن نهج الآخرين هو الأساس الذي تقوم عليه جميع الأديان الإلٰهيّة، ﴿صِرَٰطِى... فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾.

٢ ـ في العمل بالأحكام الإلٰهيّة وحدة للناس، واتّباع الأحكام غير الإلٰهيّة فُرقة وتشتيت لهم، ﴿صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

٣ ـ لعلّنا نستنتج من الآيات الثلاث الأخيرة أنّ مراحل تحوّل الإنسان وكماله يبدأ بالعقلانية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ويمرّ بالتذكّر، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لينتهي عند التقوى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

إشارات:

- ثمّة وجوه شَبَهٍ بين القرآن الكريم والتوراة. فالإنجيل على سبيل المثال، يتضمّن بعض الوصايا والمواعظ، وكتاب الزبور يزخر بالأدعية، فيما تبقى التشريعات هي نقطة الشبه التي تجمع التوراة بالقرآن. ولهذا نجد القرآن الكريم يصف التوراة بأنّه إمام، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا﴾[1]؛ وهنا نجد أنّ الآية الكريمة تصف التوراة بأنّه رحمة، وهدى، وبيان كلّ شيء.

التعاليم:

١ ـ كلّ كتاب سماوي هو تامّ وكامل في عصره، ﴿تَمَامًا﴾.

٢ ـ المحسنون عملاً وفكراً هم الذين يتمثّلون رسائل الكتب السماوية بشكل أفضل، ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾.

---

(١) سورة هود: الآية ١٧.

٣ ـ تحتوي التوراة على كل المتطلّبات التي يحتاجها بنو إسرائيل لبلوغ مرحلة التكامل، ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

٤ ـ الكتاب السماوي طريق إلى هداية الإنسان والرحمة الإلٰهيّة، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾.

٥ ـ أحد مقاصد الكتب السماوية والأنبياء هو إيمان الإنسان بيوم القيامة، ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾

إشارات:

□ كلمة ﴿مُبَارَكٌ﴾ مشتقة من المصدر «بركة»، وتؤكد على أمرين:

١ ـ الأساس القوي والثابت.

٢ ـ التحوّل الدائم. يحتوي القرآن الكريم على موضوعات أصلية وثابتة لا تتغيّر، وفي الوقت نفسه، نجد أنّه كلّما مرّت السنين والحقب، تنزاح الحجب والأستار عن أسراره، ليتجلّى بصورة أبهى وأوضح يوماً بعد يوم.

□ ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾ بمعنى «لئلّا تقولوا» أي حتى لا تقولوا وتختلقوا الأعذار والحجج.

□ «الدراسة» هي التلاوة والعلم.

التعاليم:

١ ـ القرآن الكريم ليس كتاباً نظرياً فحسب، بل هو كتاب سعادة وبرنامج عملٍ للإنسان، ﴿كِتَٰبٌ... فَٱتَّبِعُوهُ﴾.

٢ ـ تتلخّص السعادة البشرية في شيئين هما، طاعة الحقّ، واجتناب الباطل، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟﴾.

٣ ـ لقد أتمّ الله الحجّة على الناس، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ... أَن تَقُولُوٓا۟﴾.

٤ ـ ينبغي للمؤسّسة الإعلامية الإسلاميّة أن تُعِدَّ البرامج السليمة على الصعيد العالمي بما يتناسب وخصوصيات كلّ بلد وشعب ولغة، وذلك لإتمام الحجّة

ولئلا يقال: إنّ الحقّ كان محجوباً عنهم، ﴿أَن تَقُولُوا... كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

إشارات:

- **«يَصدفون»** من «صدف»، وهو الإعراض الشديد عن شيء دونما رويّة أو تفكير.

التعاليم:

١ ـ يعترف مشركو مكة باهتداء أتباع التوراة والإنجيل، لكنّهم يعتبرون أنفسهم أجدر بنزول الكتاب عليهم، ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾.

٢ ـ نزول القرآن هو إتمام للحجّة على الجميع، ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٣ ـ القرآن قبس من ربوبيّة الله تعالى، ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٤ ـ القرآن الكريم كتاب هداية ورحمة، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

٥ ـ قبل الامتحان الزاعمون المدّعون كثر، ولكن بعد الامتحان يُكرم المرء أو يُهان، ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ... فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ﴾.

٦ ـ الإعراض عن الكتب السماوية من أعظم الظلم، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ عقوبة الإعراض عن دين الحقّ وقلب ظهر المجن لآيات الله، هو العذاب الشديد، ﴿ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

٨ ـ عمل الإنسان هو السبب الرئيس في شقائه، ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

إشارات:

□ طرحت الآية ٩٢ من سورة الإسراء المطالبات غير المنطقية للكفّار إذ كانوا يقولون: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾. والردّ على هذه المطالبات جاء هنا في هذه الآية الكريمة.

التعاليم:

١ ـ لا يسلّم الكافرون المعاندون للحقّ حتى لو شاهدوا المعجزات الإلٰهيّة، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾.

٢ ـ عاقبة الإعراض عن الإيمان هي الفشل والسقوط، ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾.

٣ ـ الإيمان والعمل في الظروف الطبيعية الحرّة هو النافع وليس في حال الاضطرار والخوف، ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ﴾.

٤ ـ العمل الصالح بدون إيمان غير نافع ولا خير فيه، ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

إشارات:

□ إنّ بثّ التفرقة في الدين يعني خلق البدع والتفسير بالرأي للدين، وقد وبّخ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة أولئك الذين يسعون وراء هذه الأعمال بأشدّ العبارات، فلنتأمّل بعض الأمثلة لهذه التوبيخات:

- يقول القرآن الكريم: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[١].
- يقول الإمام علي عليه السلام: **«ما أُحدثت بدعة إلّا تُرك بها سُنّة، فاتّقوا البدع والزموا المهيع إنّ عوازم الأمور أفضلها وإنّ محدثاتها شرارها»**[٢]. وإحدى مسؤوليات الأنبياء والعلماء نبذ البدعة ومحاربة التحريف[٣].
- وجاء في الروايات: **«توبة صاحب البدعة لا تُقبل»**[٤].
- من احترم مبتدعاً أو تبسّم له، فكأنّما شارك في تفرقة الدين.
- يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «من تمسّك بسنّتي في اختلاف أمّتي كان له أجر مائة شهيد»[٥].
- لقد حمل القرآن الكريم مرّات عدّة على اليهود بسبب التحريفات التي أدخلها أحبارهم في الدين. وقد جاء في قصة النبي موسى عليه السلام: أنه لمّا رجع من جبل الطور وجد قومه يعبدون العجل فغضب بشدّة، ومن فرط غضبه رمى ألواح التوراة على الأرض وأخذ بلحية أخيه هارون الذي خَلِفَهُ في قومه يسأله عن سبب انحراف القوم، فقال هارون: خشيت أن أغلظ عليهم فيتفرّقوا فتقول: فرّقت بين بني إسرائيل ولم تحفظ غيبتي فيهم (أن يتفرّقوا فلا يجتمعوا حتى بعد عودتك).

توضّح هذه الآيات والروايات بجلاء عظم المسؤولية الملقاة على عاتق الأنبياء وحماة الدين من أجل صيانة أصالة الدين والتصدّي للانحرافات الفكرية، وفي الوقت ذاته، المحافظة على الوحدة الاجتماعيّة للأمة.

التعاليم:

١ ـ لا فرق بين المعارف الدينية، لذا يجب الإيمان بها وتطبيقها جميعها لا بعضها، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٧٩.
(٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٦٤.
(٣) الحياة، ج ٢، ص ٣٤٤.
(٤) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢١٦.
(٥) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٦٢.

٢ ـ التغيير والتحريف في الدين من أسباب التفرقة والتشتّت، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾.

٣ ـ ينبغي عدم التعاون مع أولئك الذين لا يؤمنون بالمنظومة العامة للدين الإسلامي فهم ليسوا من أمة محمد ﷺ، ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾، وهم موضع تهديد الله تعالى، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

إشارات:

- يستفاد من كلمة ﴿جَآءَ﴾ أنّ الثواب والعقاب المطروحين في الآية الكريمة يتعلّقان بموضوع مَحكَمة يوم القيامة. وإلّا فما أكثر السيئات التي تمحى بالتوبة، أو تتحوّل إلى حسنات، ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[١]، أو يُصفح عنها، ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[٢]، وما أكثر الحسنات التي تمحى أو تحبط بسبب الرياء، والعجب، أو السيئات الأخرى. إذن، المعيار هو ذلك العمل الذي يؤتى به إلى ساحة يوم القيامة، ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ... وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾.
- على الرغم من أنّ الآية تتعلّق بالعمل الصالح والعمل السيّئ، إلّا أنّه، وطبقاً للروايات، من يعزم على العمل الخيّر في ضميره، له أجره، ومن يقصد الشرّ ولكن لم يصل إلى مرحلة الفعل، فلا شيء عليه، وهو من فضل الله على عباده.
- ورد في الروايات: من صام ثلاثة أيّام في الشهر، فقد صام الشهر كلّه، لأنّ ثواب كلّ يوم بعشر أمثاله، ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.
- إنّ ثواب عشر أمثال العمل المذكور في الآية الكريمة عبارة عن الحدّ الأدنى

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.
(٢) سورة المائدة: الآية ١٥.

للثواب، فثواب بعض الأعمال، وفي ظروف معيّنة، قد يصل إلى ٧٠٠ ضعف، بل ثمة أعمال صالحة لها ثواب بغير حساب.

□ إنّ ثواب العشر أمثال الإلٰهيّ، واحد منه أجر، والباقي عبارة عن فضل من الله ومنّة، ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[1].

□ **سؤال**: إذا كانت عقوبة المذنب على قدر الذنب الذي ارتكبه، فكيف نفسّر، إذن، كفّارة إفطار اليوم الواحد من شهر رمضان بستين يوماً؟

الجواب: المراد بكلمة «مثل» في الآية ليس هو المساواة العددية بين المعصية والعقوبة، بل هو النوع والطريقة، فأهميّة صيام اليوم الواحد من شهر رمضان تعادل ستين يوماً في غير هذا الشهر. فأهميّة وفضل ليلة القدر، على سبيل المثال، يعادل ألف شهر. فالمسألة تتعلّق بتوضيح الأهميّة لا التفوّق العددي.

التعاليم:

١ ـ الثواب عشر أمثال العقاب في النهج التربوي الإسلامي، ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

٢ ـ مضاعفة الثواب ليست ظلماً، بل الظلم هو تجاوز العقوبة للحدود، ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٣ ـ في الثواب يتعامل الله تعالى بالفضل، وفي العقوبة بالعدل، ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا... إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

٤ ـ عمل الإنسان يتبعه دائماً وحيثما ذهب، ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ... وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾

إشارات:

□ «قيم»، بمعنى الاستقامة وقد تأتي بمعنى الثبات والدوام وكذلك تأتي بمعنى

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧٣.

القائم بأمور الدين والدنيا، نعم، إنّ الدين الثابت والخالد هو الذي يهتمّ بالقضايا المادّية والمعنوية لهذا العالم والعالم الآخر.

□ يقول الإمام الحسين عليه السلام: **«ما من أحد من هذه الأمّة يدين بدين إبراهيم غيرنا وشيعتنا»**[1].

التعاليم:

١ ـ إنّ أحاديث النبي الكريم ﷺ وتعاليمه ليست رأياً شخصياً يخصّه، بل إنّه وحي إلهي منزل يجب عليه إبلاغه إلى الناس، ﴿قُلْ﴾.

٢ ـ طريق النبي هو الطريق المستقيم، ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٣ ـ الهداية هبة من عند الله تعالى، حتى الأنبياء يسيرون على الطريق المستقيم بفضل الهداية الإلٰهيّة، ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾.

٤ ـ الهداية هي من شؤون الربوبيّة، ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾.

٥ ـ طريق النبي إبراهيم عليه السلام هو طريق التوحيد، لا عقائد الشرك، ﴿حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فالمشركون ينسبون عقائدهم الضالّة إلى النبي إبراهيم عليه السلام.

٦ ـ تحطيم الأصنام والبراءة من الشرك، ليست نهجاً خاصاً بالنبي الكريم ﷺ، فهو يسير على خطى النبي إبراهيم عليه السلام ويتبع ملّته، ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ﴾.

٧ ـ الأديان التوحيدية على مرّ التاريخ قامت على أساس مشترك واحد، فالإسلام هو شرعة النبي إبراهيم عليه السلام، والبراءة من الشرك هو طريق جميع الأنبياء، ﴿قُلْ إِنَّنِي... مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

إشارات:

- روي أنّ الرسول الكريم ﷺ كان يقرأ هذه الآيات عند الصلاة[1].
- الموت يحيط بالحياة، والحياة تحيط بالنُّسُك، والنُّسُك تحيط بالصلاة. لذلك، فإنّ الصلاة هي النواة المركزية في منظومة العبادة.
- الإسلام يعني التسليم لأمر الله تعالى وقضائه، وقد حمل جميع الأنبياء هذه الصفة. فالنبي نوح عليه السلام نسب نفسه إلى الإسلام قائلاً: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2]، والنبي إبراهيم عليه السلام دعا الله تعالى أن يجعله وذرّيّته من بعده مسلمين له ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[3]، كما طلب النبي يوسف عليه السلام من الله سبحانه وتعالى أن يتوفّاه مسلماً ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾[4]؛ أمّا النبي الكريم ﷺ فهو أوّل المسلمين ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أوّل مسلم في عصره، أو أنّه يأتي في مقدّمة المسلمين وطليعتهم من حيث مرتبة التسليم ودرجته.

التعاليم:

١ ـ فلنعلن بكلّ وضوح وفخر عن نهجنا وهدفنا إزاء التيارات المنحرفة، ﴿قُلْ﴾.

٢ ـ على الرغم من كون الصلاة تندرج ضمن العبادات إلّا أنّها ذُكرت بشكل مستقلّ وذلك لإبراز أهميّتها الخاصّة، ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

٣ ـ الإنسان المخلص هو الذي يؤمن بأنّ المسار التكويني للموت والحياة والمسار التشريعي للصلاة والنُّسُك هو لله ربّ العالمين فقط، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) سورة يونس: الآية ٧٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

(٤) سورة يوسف: الآية ١٠١.

٤ ـ كما إنّنا نقصد القربة في صلاتنا فلنفعل ذلك في كلّ نَفَس من أنفاسنا وفي حياتنا ومماتنا، ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ﴾.

٥ ـ الأهميّة ليست في الحياة والموت، بل في أن يكونا في سبيل الله، ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾.

٦ ـ ما كان لله فهو ينمو ويتكامل، ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٧ ـ الموت والحياة ليسا بأيدينا، وإنّما بأيدينا توجيههما، ﴿لِلَّهِ﴾.

٨ ـ الإخلاص في العمل هو حكم إلهي، ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾.

٩ ـ يجب على قائد المجتمع أن يكون في الطليعة لتطبيق حكم الله تعالى، ﴿أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

إشارات:

□ لا تقتصر مسألة العدل الإلٰهيّ على إنزال العقوبة ومقولة لا تزر وازرة وزر أخرى، على الدين الإسلامي فحسب، بل إنّ هذا المبدأ قد ورد في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾[1].

□ **سؤال**: إذا كان ليس لأحد أن يحمل وزر غيره، فما تفسير ما جاء في القرآن الكريم من أنّ زعماء الضلال والانحراف يحملون أوزار من تبعهم، ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[2]؟

الجواب: ثمّة أسباب تبرّر هذه المسألة، وهي أنّ رؤوس الضلال هم الذين

---

(١) سورة النجم: الآيات ٣٦ ـ ٣٨. (٢) سورة النحل: الآية ٢٥.

تسبّبوا في انحراف الآخرين، وأنّهم يحملون على عاتقهم معصية إضلال الآخرين.

□ روي أن امرأة أقرت بالزنا، وكانت حاملاً فأمر عمر برجمها، فقال علي عليه السلام: «**إن كان لك سلطان عليها فلا سلطان لك على ما في بطنها**»، فترك عمر رجمها، ثمّ تلا هذه الآية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ عند التصدّي للمنكرين والمشركين يجب رفع أصواتنا عالياً للإعلان عن موقفنا بحزم وثبات، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ الضمير الحيّ هو الذي يحمل الجواب الأمثل لما يدور من أسئلة في سريرة الإنسان، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى﴾.

٣ ـ الله تعالى هو وحده ربّ الكون كلّه، إذن فهو ربّي أيضاً، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٤ ـ كفر الناس، أو شركهم، أو صلاحهم، أو فسادهم لن يضرّ الله شيئاً، بل سيرتدّ عليهم، ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾.

٥ ـ في المحكمة الإلٰهيّة مسؤولية أيّ عمل تقع على عاتق صاحبه فقط، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٦ ـ قيام الساعة ومساءلة الإنسان هي قبسات من ربوبيّة الله تعالى، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾.

٧ ـ للدنيا نهاية، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ وحينذاك سنعلم حقيقة وحقّية ما دأبنا على مخالفته بلجاج وعناد، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٤٩.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

إشارات:

- استهلت سورة الأنعام بحمد الله والثناء عليه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ واختتمت بالرحمة الإلٰهيّة، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.
- إمّا أن يكون المراد بـ «**خلائف الأرض**» هو خلافة الله تعالى على الأرض، أو خلافة الإنسان المعاصر للأمم السابقة.

التعاليم:

١ ـ الإنسان خليفة الله وأمير الأرض، وليس أسير الوجود والطبيعة، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾.

٢ ـ التمايز بين الناس والامتحانات الإلٰهيّة كلّها تنمّ عن حكمة، وتصبّ في طريق تكامل الإنسان وتربيته وهي بعد، تنهل من نمير الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ... وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

٣ ـ تمايز بعض وتفاضلهم فيما يتعلّق بالمواهب الإلٰهيّة ليس معياراً، بل وسيلة للامتحان، ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

٤ ـ يجب أن نوقن بأنّ كلّ ما نملك هو من عند الله تعالى، ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

٥ ـ مقدار امتحان أيّ شخص يكون بمقدار المواهب والإمكانات الممنوحة له، ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

٦ ـ بعد الامتحان، سيجزي الله تعالى بحسب عمله، فمع الفاشلين سيكون الله ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، ومع الناجحين سيكون ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٧ ـ يجب أن يكون الخوف والرجاء متلازمين ومترابطين، ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ... لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

«الحمد لله ربّ العالمين»

الفهرس